

آيات الهدى
لعمارة حيدر



www.lilias.com/vb3/

ذهنية الترحم أم ثقافة الفطنة

حوارات في التعدد والتغاير والاختلاف



عبد الرازق عويد

WWW.LIILAS.COM/vb3/

د. عبد الرزاق عيد

ذهنية التحريم

أم ثقافة الفتنة؟

حوارات في التعدد والتغاير والاختلاف



للنشر والتوزيع

2009

■ هذا الكتاب / هذا الحوار ■

HAMDAN.B
22/01/10

تكمُن الأهمية الراهنية لهذا الكتاب، في بنيتِه الحوارية، بعد
 ردح من الزمن افتقدت فيه الثقافة العربية روح الحوار المتبادل،
 ليحل محله روح الإقصاء المتبادل، وذلك منذ القرار الجماعي
 للنخبة الثقافية العربية، بالتنازل الطوعي عن قيم التعدد المؤسسة
 على الشرعية الدستورية للمجتمع المدني، باتجاه واحدة الرأي
 المؤسسة على الشرعية الثورية القائلة بوحدة الهدف على طريق بناء
 الوحدة القومية والعدالة الاشتراكية!

لقد كان ذلك بدءاً من الثورات الوطنية والقومية التحررية التي
 ضحت بالديموقراطية السياسية لأنها وجدتها عقبة أمام الديموقراطية
 الاجتماعية، وذلك بدءاً من الستينيات، حيث بداية تقويض
 المجتمع المدني وواد الديموقراطية بين مطرقة التيار القومي (عربي أو
 سوري) من جهة، وسندان الماركسية الشيوعية الرسمية من جهة
 أخرى، الأول من خلال المراهنة على أولوية مبدأ الاندماج

(القومي) على حساب مبدأ السيادة على النفس والديموقراطية، والثاني من خلال المراهنة على مبدأ أولوية (دكتاتورية البروليتاريا) الاشتراكية، على حساب مبدأ استحالة بناء الاشتراكية على قاعدة قروسطية، أي بغياب أسس "المجتمع المدني" الديمقراطي، التعددي، القانوني، الدستوري، الحديث.

وكانت البداية العيانية لهذا الوأد بعد ١٤ (يوليو) تموز ١٩٥٨ في العراق، من خلال تعمق الصراع بين فرعي حركة "التقدم" العربي، متمثلين بالقومي العربي التقليدي والماركسي العربي (المسفيت)، وبخاصة الصراع بين الناصرية والشيوعية العراقية، حيث الإقصاء المتبادل يبلغ حد السحل والسحل المضاد المتبادل، الأمر الذي من شأنه أن يقود إلى أن يحل السجن بوصفه المكان الوحيد المتبقي للمختلف والمغاير والمحاور في المشرق العربي!

حوارات هذا الكتاب، تحتضن الصوت المغاير والمختلف، الصوت النقدي الذي يتمرد على حتمية مصادرات التيارين (القومي، الماركسي)، حيث بموازاة هاتين المصفوفتين وبالتجاور النقدي معهما، كان يزدهر خطاب يساري عصياني، يرفض تلك الثنائيات التي خلفها التياران التقليديان (القومي والماركسي)، ليطرزا الخطاب العربي بثنائياتهما العقيمة حتى اليوم، حيث ثنائية التعارض بين القومية والديموقراطية، في حين أن الثورة القومية هي ثورة ديموقراطية حكماً، بالتعريف، ومن ثم التعارض بين الاشتراكية والديموقراطية باسم ثنائية دولتانية (ستالينية) تضع الديمقراطية الاجتماعية بالتعارض مع الديمقراطية السياسية، مما يتعارض جوهرياً مع النظرية الاشتراكية المؤسسة على الجدل بوصفه قانون الطبيعة والتاريخ، ليتولد عن ذلك تخطر بين ثنائيات لا تنفذ: قومية / أمية، دين / علمانية، أصالة / معاصرة، ماركسية / ليبرالية، أنا / الآخر، الشمال / الجنوب، تراث / حداثة. إلخ.

ومظهر هذه العصيانية المتمردة على جبرية تلك الثنائيات، والمغامرة باتجاه أفق المغاير والمختلف، تتمثل في :

- أن متن الكتاب يشتمل في المستوى النصي، على حضور فعلي أو طيفي دلالي لأربعة هم رواد الهرطقة اليسارية (قومياً، ماركسياً) في الستينيات ليس على المستوى السوري فحسب، بل وعلى المستوى العربي، وهم ياسين الحافظ، إلياس مرقص، صادق جلال العظم، جورج طرابيشي.

حيث ساهم الأربعة في التأسيس لفكر يساري نقدي جديد، من خلال استدعاء التنوير الليبرالي كضرورة تاريخية لا غنى عنها لأية ممارسة فكرية يسارية، ومن خلال هذه الأطروحة التي كانت تتناوس في درجة حضورها الظاهري والباطني، في نصوص كل واحد على حدة، كان يولد وعي يساري طامح لإنتاج ترسيمة نظرية يتحقق فيها الكوني في الوطني، والوطني في الكوني من خلال عقل جدلي طليق ومبتكر، لإنتاج وعي مطابق بالواقع فيما هو عليه وما يمكن أن يكون عليه بالنسبة للحافظ أو التقاط القوانين المتحركة في منطق الواقع العياني، بالنسبة لإلياس مرقص، أو خوض معركة العقلانية ضد البنية الذهنية السحرية الميثية للعالم أي (اللوغوس في مواجهة الميتوث) بالنسبة لصادق جلال العظم، أي تبني الرؤية الماركسية النقدية في جوانية الذات الثقافية العربية، من خلال الانقلاب على الخاص العياني، والتي ستتمثل عند جورج طرايشي بهذا النشاط المحموم لترجمة الفكر الماركسي النقدي المشبع بميراث التنوير الأوروبي، في مواجهة ماركسية ذات ميراث أوتوقراطي روسي، أو استبدادي شرقي عربي، هذا من جهة ومن جهة أخرى الشغل على الإنتاج الثقافي العربي (الأدب ثم التراث) لكن عبر تحولات دراماتيكية - بعض الشيء - في خطه المنهجي، من الماركسية إلى الفرويدية، ومن ثم إلى ليبرالية خالصة، لكن من موقع المثقف الوطني النهضوي.

- موضوع العلاقة بين (الميث واللوغوس) العقل السحري والعقل المنطقي، ستكون موضوع القسم الأول والثاني، الأول مع

■ هذا الكتاب / هذا الحوار ■

حيدر حيدر لكن من خلال تجليات هذه الموضوعة في الممارسة الإبداعية للأدب، وبالتحديد من خلال مناقشة البنية التكوينية الدلالية لرواية "وليمة لأعشاب البحر" والتداعيات التي تابعت غباً نشرها من جديد في القاهرة، حيث خلصنا إلى أن الفكر اليساري، من خلال لبوسه العلماني، حوّل العلمانية إلى معتقدية وثوقية فقهية تنتج وعياً مقلوباً للعقل الفقهي المشيخي، ومع الأسف فإن حيدر حيدر دفع بالحوار من مستواه النظري، إلى المستوى السجالي الاتهامي العامي، ولعل سبب ذلك أن حيدر يلج ساحة الحوار وهو مدجج بانفعالاته ومشاعره كالكثيرين من متتجي الأدب - مع الأسف - الذين يستبدلون المعرفة بالشعارات المؤسسة على فكر يومي يغص بالأهواء والرغبات.

هذا الأمر سيئين للقارئ من خلال الحوار النظري الرفيع، الذي دار حول الموضوع ذاته، لكن من خلال رواية "آيات شيطانية" مع المفكر صادق جلال العظم، حيث كان هذا الحوار إغناءً للناقد والمنقود، كما كان قميناً أن يفرد بكتاب مستقل، وهو سيكون موضوع القسم الثاني من هذا الكتاب.

- في القسم الثالث: حاولنا أن يضم هذا القسم لفيف (هراطقة اليسار الأربعة المشار إليهم)، وإذا كانت مقتضيات الحوار لم تستدع سوى حضور (ياسين الحافظ - جورج طرايشي - صادق جلال العظم)، فإننا آثرنا أن نضيف ملحقاً يخص إلياس مرقص، لتكتمل لوحة مربع اليسار النقدي (الهروطوقي) سورياً وعربياً.

- القسم الرابع: تكمن أهمية هذا القسم ليس في موضوعه ذاته فحسب، وهو موضوع هام ومستمر، بل بتنوع المشاركين الذين قاربوا هذا الموضوع، حيث يشكلون بمجموعهم أعلاماً في حقول إنتاجهم الثقافي والفكري والأدبي والاجتماعي، سيما وأنه يشتمل على مقاربات رهيقة للراحل سعد الله ونوس، وهي لم تنشر في أعماله الكاملة.

- القسم الخامس: يسجل هذا القسم اهتزازات صورة الانهيار للنموذج الاشتراكي على شاشة عقل وروح مجموعة من المفكرين اليساريين، وهم يراقبون للتو آثاره المدمرة على المستوى الكوني والقومي والوطني، وهو لا يزال حتى اليوم يمارس تداعياته على مجموع هذه المستويات، ويبدو أن هذا الحدث وما ترتب عليه ويترتب اليوم وغداً، سيجعل من الحوار حوله مفتوحاً ومستمراً، ما دام العالم على هذه الدرجة من الوحشة الإنسانية، وهذه الدرجة من انتشار ثقافة الكراهية بين الحضارات .

هل سيساهم هذا الكتاب الحواري، بهذا الحشد الكرنفالي من كبار المتحاورين، أن يسد بعض "جوعنا للحوار"؟ وأن يفتح كوة في جدار مجتمع الصوت الواحد، كوة تتيح استشراف إمكانات مجتمع مدني متعدد الأصوات؟ .

في هذه الطبعة الثانية لا بد للمؤلف من الاعتراف بأنه إذا كان قد سجل في هذا الكتاب انعتاقه من الأصولية اليسارية "المعتدوية" التي تتقاطع مع الأصوليات القومية والإسلامية

بـ (تدين الدنيوي) في مسألة الموقف من الآخر : فيما دعي باسم أولوية التحرر الوطني (الخارج) ، على حساب الحريات السياسية الدستورية والديموقراطية (الداخل) ، فإنه يعترف بأن ثمة بقايا آثار سرطان الهوية الماهوية كانت تتحكم بالمنظور السياسي للكاتب الذي كان لا يزال يحمل أوهام الهوية من موقع التغير والاختلاف مع الآخر الخارجي (الإمبريالي) ، ما بعد الحدود ، حدود الجغرافيا ، وليس حدود العقل والروح ، حتى أتت هزيمة آخر المراهنات على الهويات العتيقة ، الهوية القومية البلاغية اللفظية الشعبوية الزائفة والمزيفة في ٩ نيسان (أبريل) ٢٠٠٣ ، مع سقوط نظام الطغيان في بغداد ، لتتم عملية الحسم مع الذات : إما الانقراض بقيادة ابن لادن ، أو الاتجاه إلى تلمس الوطن والوطنية بدلالة القيم الكونية : حقوق الإنسان ، الديمقراطية ، الشرعية الدستورية ، حيث كل مفهوم للوطن خارج هذه المعايير- أو بدونها- لن يشير إلا إلى بقعة جغرافية سديمية برزخية يستوطنها الاستبداد والفساد والصمت والخوف والمرض الروحي والتلف الأخلاقي والدمار المدني .

وذلك بهدف حسم الاجابة على السؤال الشكسيري : هل المشكلة فينا أم في العصر ؟ لنقول : إن المشكلة فينا ، لأننا منذ القرن الرابع الهجري قررنا أن نهجر العصر ، أن نهجر التاريخ باتجاه عالم البرزخ ، وما زلنا إلى اليوم نعوم في عدميته المكانية والزمانية ، بينما الآخر يصنع التاريخ بغنى عن دورنا ومساهمتنا بل ووجودنا .

القسم

الأول

1

عبد الرزاق عبيد

وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلامي والفقه العلماني

رد حيدر حيدر

فقهاء النقد المتعالي

رد عبد الرزاق عبيد

ثقافة الفتنة واستمراء النجومية

1

عبد الرزاق عيد
 وليمة لأعشاب البحر
 بين الفقه الإسلامي والفقه العلماني

تقديم

لقد آن الأوان، بعد كل هذه الجلبة والضوضاء، أن يتدخَّل العقلُ والنَّظَرُ لفضِّ الاشتباك حواريًّا، بعد دعوات الجهاد وإباحة الدماء، وبعد وقوع مظاهرات واعتقالات وإغلاق صحف ومنع أحزاب.

لقد انتصر الفقهُ وانهزمت المعرفة، عندما تمكن الأصوليون من جرِّ العلمانيين إلى مناقشة نصِّ أدبيِّ مناقشةً فقهيةً، أي عندما جرّوهم إلى التعامل معه بوصفه "وثيقةً عقائديةً".

وإذا كان من المفهوم أن العقل الفقهي المشيخيّ غير قادر على التعامل مع أيِّ نصِّ إلا وفق منظومة "الأمر والنهي"، فإنه ليس من المفهوم أن يتعامل العقلُ العلمانيُّ مع النصِّ عبر تطويع المنهجيات النظرية النقدية الحديثة من أجل خدمة أطروحةٍ عقائديةٍ

مضادة. وإذا كان من المفهوم أن يتضامن العلمانيون مع حيدر حيدر وحقه في حرية التعبير والإبداع - وهذا ما فعلناه جميعاً - فليس مفهوماً أن يصطقوا وراء الرواية يزعمون أن ليس فيها أيّ مساسٍ بالمقدس، فكأنهم ينازعون الإسلامويين على برامجهم بل ويزاودون عليهم في التنافس على الانتساب لشرعية الذود عن حياض المقدس. تماماً كما تفعل السلطة العربية في مواجهة دعاوى هؤلاء. . . وإذا كان من المفهوم أن تصارع السلطة العربية الإسلامويين على شرعية تمثيل حيزات هذا المقدس (وذلك لأن السلطة العربية لا تمتلك أية مشروعية قانونية أو دستورية تبرر بها ركوبها العضوض لمجتمعاتها)، فإنه ليس من المفهوم أن تبقى العلمانية وكأنها نبتة شيطانية في هذه الأرض العربية والإسلامية العجائبية: فلا تجد ملاذاً إلا بالدفاع عن النفس، والبحث عن المشروعية تحت ظلال السيوف الرقطاء، من خلال خطاب تصالحيّ تكفي يريد البرهان على توافقه بل وخضوعه لحقائق الآخر، فينكر على الرواية أن يكون لها مساسٌ بالمقدسات والمعتقدات، في حين أن الوليمة في الواقع تؤسس خطابها الفني والدلالي والثقافي على مناهضة كل المقدسات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والأخلاقية بل والروائية أيضاً!

لكن قبل أن نلج ساحة المحاجة الثقافية والعقائدية، سنقدم تحليلاً للبنية التكوينية للرواية، تقنياً ودلالياً ومعرفياً، ليكون هو الأساس الذي تنهض عليه مُحاجَّتنا. وهذا التحليل أُنتج غبّ

صدور الرواية، أي منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، في سياق كتاب كنا نعدّه عن الرواية السورية من منظور سوسيو - دلاليّ يطمح إلى دراسة سوسولوجيا الشكل، وكانت تحركنا فرضية فحواها أن الرواية السورية ما تزال أسيرةً للميراث الشعري البلاغي الغنائي، الذي لا يتيح أن يُنتج نظاماً مجازياً سردياً دلاليّاً كالذي تنتجه السرديات الروائية من مراوغاتٍ كنائية واستعارية تنهض معادلاً موضوعياً (عبر الأفعال والأحداث) للفكرة أو الرؤية التي ينتجها نظامُ تفاعلاتِ البناء الروائي، الذي كان المعادل الجمالي للانتقال من وعي المطلق إلى وعي النسبي، وهو الانتقال الذي يشكّل الأسس المعرفية للانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

هذه الإشكالية التي أطّرت هيكليّة مشروع بحثنا في الرواية السورية - أو الشاميّة بالتمايز مع المصرية - هي التي أطّرت أسئلة بحثنا في رواية وليمة لأعشاب البحر. وبذلك سنقدّم أولاً نصّاً تحليلياً غير متأثر بالضجة المثارة المصاحبة لصدوره الجديد، وعلى ضوء الاستدلالات التي خلصنا إليها في هذا البحث التحليلي التقني، سنُدخل معمعة الحوار الراهن ونحن مستندون إلى التحليل، لا إلى الأحكام الأيديولوجية المسبّقة، أصوليّة كانت أم علمانيّة.

ما قبل الفتنة: الخطاب الشعري والخطاب الروائي في "وليمة"

أ- الكاتب / البطل: هذه العلاقة تشكل أساس المفهوم الباختيني لعلم الجمال، وهي متضمنة في السؤال الأساسي له باعتبارها اشتقاقاً فنياً للمقولة المعرفية القائلة باتحاد الذاتي بالموضوعي، والفردية بالكوني، والإرادة بالحرية، والصورة بالمحتوى.

تتحقق هذه العلاقة في "وليمة لأعشاب البحر" من خلال استبدادية أنا الروائي التي تعيد صياغة الآخر والزمان والمكان والمضمون المعرفي والأيدولوجي على مقياسه. فثمة صوت واحد هو صوت الجسد، أو صوت الغريزة الجنسية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية التي تأبى التكيف مع الوسط، بل تدخل معه في علاقة تضاد تصفوية غير قابلة لأي شكل من أشكال التعايش، فلا يبقى سوى الصوت الداخلي للغرائز المحتجة على قمعها، ولا يبقى سوى الصراع السيزيفي العبي من أجل الإمسك بالملق.

مهدي جواد ومهيار الباهلي لاجئان سياسيان عراقيان إلى الجزائر، فلة بوغناوب وآسيا الخضر امرأتان جزائريتان: الأولى مناضلة قديمة في الثورة الجزائرية سقطت أوهاهما عن الثورة والنضال، فراحت تعيش لحظتها بعيشة ماجنة، لا حقيقة ثابتة لديها سوى جسدها، والثانية شابة تتلقى العربية على يد مهدي جواد الذي يدخل معها في علاقة حب مأزومة تعكس أزمته الروحية وأزمة الواقع الاجتماعي الجزائري الذي يحاصره بقيمه الزائفة.

■ وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلامي والفقه العلماني ■

فَلَّةُ بوعناب هي الوحيدة التي تمارس حضورها الروائي وتبتأى لها أن تصمد في ذاكرة المتلقي، مشيرةً فضوله للتعرف إليها وفتح الحوار معها ككيان روائي/اجتماعي يتمثل فيه التطابق الجدلي بين الذاتي والموضوعي. وأما مهدي ومهيار فيتداخلان في وعي القارئ، ولا تُستنتج استقلالية الواحد عن الآخر من خلال مشاركته الملموسة بالفعل الروائي، بل من خلال مجموعة علاقته بالعوامل الروائية الأخرى، التي تُبْهت ملامحه، باعتباره موضوع الحكي الروائي لا المنتج له والفاعل فيه.

والقارئ منذ الصفحة الأولى يكتشف التطابق بين أنا الروائي وأنا الراوي، بين الكاتب والبطل. ولعلّ غلبة الوصف (الذي يخصّ الشخصية) على القصّ (الذي يخصّ الحدث) قد أفقَدَ الشخصية فاعليتها ومفعوليتها، واندماجها بالبنية التأليفية للعمل الروائي، فضاعت في عالم برزخي من الكلمات.

ب- الكلمة / الفعل: تحقّق الكلمة حريتها عندما تخترق ضرورات اللغة، بوجودها القبليّ وعلاقتها الجمالية المتواضع عليها في نظام اللغة القاموسي، لتدخل في النسيج الكلي الحياتي الحي. الكلمة الروائية هي كلمة سوسولوجية، فهي إذن، تستمد خصوصيتها الأسلوبية هذه بمقدار ما تتحول إلى وسط محايد، وبمقدار ما تمنح الفعل القصصي كامل حضوره، وذلك لأنّ الكلمة في الرواية تتخلّى عن وظيفتها الذاتية الشعورية، لصالح جانبها الموضوعي الإدراكيّ، الذي يوميّ، ويشير (إلى)، ويستشعر (ب).

فالجانب الشعوري الذاتي للكلمة يستمد مرجعيته من الأنا الخالقة للنص. ولكن هيمنة هذا الجانب سيؤدي إلى هيمنة كاملة للصوت المفرد للكاتب. وأياً كان هذا الصوت عذبا، فإنه قد يقول شعراً أو ما يشبه الشعر لكنه لن يقدم قولاً روائياً. وحين يعتمد القول الروائي الوظيفة الانفعالية فإنه يعتمد باعتمادها ثمره الاتساق بين الأنا العاطفية والعالم الفعلي.

غير أن كتابة حيدر - منذ الستينيات حتى السبعينيات التي برز فيها واحداً من أهم أعلامها - لم تتمكن من التقاط سوسولوجيا الكلمة المتحققة في الفعل الروائي ومشهدياته المرتكزة إلى زمان ومكان صليين. ووليمة لأعشاب البحر هي امتداد لهذا التنقيب عن المؤثرات الانفعالية والعاطفية للغة (للكلمة) واستنفاد طاقاتها الشعورية والوجدانية، ومن ثم استنفاد طاقتها الشعورية المتولدة عن نظام علاقاتها في ذاتها لا في العالم الفعلي الذي تتأسس عليه وتعيد إنتاجه وتنظيمه وبناءه.

ونتاج ذلك عدة إشكالات طبعتُ كتابة حيدر بطابعها :

(١) إشكالية الشخصية المخلوقة والشخصية المستقلة. وذلك أن لجوء النص إلى استنفاد الطاقة التعبيرية والانفعالية للكلمة، وزهده بمجالها الحيادي الإدراكي، أديا إلى ما كان يسميه القدماء في محاوراتهم الكلامية والفلسفية بـ "ممكن الوجود بغيره"، وهو الشخصية المخلوقة التي تستمد وجودها الممكن من وجود سابق.

غير أن الشخصية الروائية لا بدّ لها من أن تستمد مبررَ فعاليتها الروائية من "واجب الوجود في ذاته".

ومن هنا فإن الشخصية الروائية في "وليمة لأعشاب البحر" هي من نوع الممكن الوجود بغيره، والغير هنا هو خالق النص. والخلقُ هذا، بمقدار ما يقرّر شكل علاقة ميتافيزيكية بين الأنا والنص، فإنما يقرر أيضاً غيابَ العلاقة الديموقراطية في العلاقة الحوارية بين العوامل الروائية، ويقرر - من ثم - هيمنة الصوت المفرد باستبداديته البلاغية المتعطّشة أبدأً إلى استبدال الملموس بالغايب.

يقول لوكاتش بالممكن الفعلي المحدد، بالضد من الممكن المجرد، مستنداً إلى أطروحة هيغل حول "الإمكانية المجردة والإمكانية المحددة". والممكن الفعلي، بالنسبة إلى لوكاتش، هو الممكن الذي يوقظ الإمكانية الغافية في الفعل الإنساني، ويُطلق احتياطي الفعل الإنساني، في ظروف موضوعية تسمح بانطلاق هذا الاحتياطي وتستجيب للإمكانات التي يحملها الواقع ذاته. أي أن الممكن الفعلي هو القدرة على تكثيف الخصائص النموذجية للعصر، والتقاط السمات المميزة لمرحلة ما، ومن ثم التعميم الفني والجمالي لهذه الظواهر باعتبارها إمكانات الزمن المصور.

"وليمة لأعشاب البحر" تؤسّس لبنائها على حدث استثنائيّ عابرٍ يحاكمُ الواقع العربي على ضوءه. وهذا الحدث هو التمرد الذي قام به فصيلٌ مغامرٌ منشقٌّ عن الحزب الشيوعي العراقي، والواقع الذي يحاكمُ على ضوءه هو واقع الحزب الشيوعي العراقي

والحركة الشيوعية العالمية. والمحور الآخر الذي يشكل عنصر تزامنٍ روائي هو الثورة الجزائرية ونتائجها المخيبة لأمل الكاتب. وهذا التزامن بين محوري الزمن في الرواية يفتقر إلى الأساس الموضوعي الذي يوحد بين حدث ثورة وطنية شعبية قدمت أكثر من مليون شهيد وتوجت بالتححرر من الاستعمار، وبين حركة تمردٍ مرت مروراً عابراً في ذاكرة التاريخ العراقي والعربي. وهناك جانب آخر يُخل بالمعادلة، أو بشبكة التناظر التزامني هذه، وهو الاختلاف القائم بين الطبيعة الاجتماعية والإيديولوجية والسياسية للثورة الجزائرية وبين هذا التمرد الاستثنائي العابر في سماء العراق.

(٢) إشكالية الفضاء الروائي كتجلٍ للذات الخالقة التي تترك آثارها على كل شيء. فتصبح الأشياء دالة على إبداع الخالق، وتدخل في معادلة الممكن الوجود بغيره، وتُحل ذات الخالق في كل مظاهر خلقه، حتى تصبح برهاناً على وجوده، فإذا هو هي وإذا هي إياه. وتلك هي الحالة النموذجية للرومانتيكية، وذلك هو سرّ تلاشي المكان في كتابة حيدر منذ "الزمن الموحش" ووصولاً إلى "وليمة لأعشاب البحر". فـ "بونة" الجزائرية لا تملك أي حضور مادي ملموس لتتعرف عليها في شبكة علاقاتها الخاصة: فهي لم ترتق في أية لحظة روائية إلى مستوى الدال، بل هي دائماً مدلولٌ مضمّرٌ في خطاب السارد. وبذلك تتحول من مدينة إلى كلمة، ومن اسم ذات جامد إلى معنى وإلى طيف مشاعر وانفعال وإلى منظومة مفاهيم وقيم علاقات أخلاقية.

والمدخل إلى ذلك التشخيص الشعري للأشياء، حيث الحلولُ السحريّ في الموضوعات، من شأنه أن يُفقدَها تماسكها وصلابتها، لتَدْخُل في النسيج اللفظيّ المجازيّ، وإذا بالمجاز هنا يتخطّر باعتباره تدميراً لواقعية العالم، فتصبح الرؤية الميتافيزيكية هي المعادل الجماليّ للواقع، بغضّ النظر عن الشئام التي يكيلها النصّ للدين والمقدسات والأخلاق والأعراف.

نستثني من كلامنا هذا فصل "نشيد الموت" الذي يكتسب فيه المكان مكانيته، والزمان زمانيته، والكائن كائنيته، والبناءُ بنائيته، والرواية روائيتها. وتستمدّ الوظيفة التعبيرية المتوترة للجملة الروائية (التي هي سمةٌ مميزةٌ لجملة حيدر حيدر) مغزى تعبيريتها وتوترها من اللحظة الزمانية المكانية المصوّرة مشهدياً، فتضفي على المشهد ألواناً حادةً لا تضحّي به لصالح بريقها النيزكيّ الخاطف. لكنّ انحسار النزعة التعبيرية الشعرية ستكون لصالح مباشرةٍ تقريريةٍ تشكل نوءاً في إيقاعات السرد الروائية.

٣) إشكالية هيمنة الخطاب الروائي الذي يريد قول كل الأشياء دفعةً واحدةً. وهكذا تتكيف العواملُ الروائيةُ مجتمعةً لصالح الرسالة الإيديولوجية التي يبشّر بها النصّ، وليشكّل النصّ هنا استمراراً للنصّ الروائي السوري، نصّ الإيديولوجيا، نصّ الوعي المعرفيّ والجماليّ المقلوب للعالم، نصّ تفصيل العالم على قدّ الرسالة الإيديولوجية.

الخطاب الإيديولوجي البلاغيّ يقدّم العالمَ بوصفه مجازاً للفكرة، فتتحلّل كتلةُ العالم والواقع إلى مادة هيوليّة مائعة عاجزة عن أن تقيم بناءً متماسكاً. وهو يقدّم الشخصية بوصفها ظلّالاً شاحبةً تنغمدها رحمةُ الخالق في منحها فرصة الحياة والوجود: فالشخصية هي كلمة الروائي، كما كان عيسى كلمة الله في رحم مريم ليتمثّل بشراً سوياً.

٤) إشكالية العلاقة بين الشعر والنثر/ الغريزة والمجتمع:
 القص هو نتاج التنظيم الزمنيّ الذي أنتجته العلوم التطوريّة والتاريخية، في حين أن الشعر هو نتاج التنظيم المكانيّ والعلوم التصنيفيّة، حسب "كولدويل". والشعرُ لذلك أوثقُ صلةً بعلاقة الإنسان بالطبيعة، وأكثرُ استجابةً لصوت الغرائز التي ترفض التكيّف. إن الشعرَ، بهذا المعنى، هو ثورة الغرائز على قمعها وتدجينها. ومن ثم هنا تتحد الشعرية وصوت الغريزة باعتبارهما رافعاً أساسياً لعالم حيدر الأصاحب. وبدون هذا المدخل لن تكون هناك أية قيمة لشخصية فلة بوعناب أو مهدي جواد، بل ولا للنص الروائيّ ذاته.

هذه الشعرية ترتكز على عناصر المكان لتعيد تنظيمه، لا وفق قوانين الرواية، بل وفق اختراقه شعرياً. فالمكان، الذي هو عاملٌ روائيٌّ يتمحور عليه عنصرُ الوصف والتسجيل للموضوعات والأشياء، هو ما يباغته إنتاجه بالتشخيص المجازي، فيتهاوى حضوراً ويشفّ رؤىً، عبر الرواية بمجموعها، لتصبح الطبيعة

مرجعاً استعارياً يفقدها كيانيتها، عبر إحلال البديل محلّ الأصيل وأطياف الظلّ محلّ الموضوع.

إطلاق الغريزة (أو الهُو) يوازيه إطلاقُ الفعل الثوري، وتنفيثُ المكبوت الجنسيّ يتداخل مع تنفيث المكبوت الاجتماعي. وتتوحد الماركسية بالفرويدية، لا كروية تحليلية للواقع فحسب، بل أيضاً كروية ثورية بديلة، وبرنامج فعل سياسي يشن هجومه الغريزي الشرس ضدّ كل البرامج المغايرة.

غير أن النثر الروائي هو التعبير عن الوعي الاجتماعي للغة، وهو وعيٌ يتعارض كلياً مع الوعي اللاهوتي الهادف إلى توحيد العالم حول مركزٍ إيديولوجي موحدٍ لغوياً ودلالياً وفتياً وجمالياً. وهو يتعارض أيضاً مع ميتافيزياء الصهر المطلق للغة بالمعنى الإيديولوجي، حيث تغدو اللغة تجسيدا للجدل، وحيث يغدو المعنى فرعاً اشتقاقياً للعقل، الذي أصبح من اختصاص السلطة أو النخبة والفتات العليا، ولا يتبقى للفتات الدنيا والعالم السفليّ سوى قوة العمل أو قوة الجسد.

الجاهليّون كانوا يكتبون شعْرهم ما قبل الإسلام كما يتكلمون، يبحثون عن الجمال في علاقات اللغة الممتلئة بعلاقات الواقع والمشبعة بحضوره، بحيث يعيد التّطابقُ بين اللغة والمادة إنتاجَ هذه اللغة ككلامٍ متنوّعٍ بتنوّع التجربة وأشكال ملامسة الحياة. وعليه، كان الجاهليون بذلك يعبرون عن صلتهم المتحدّة

بالطبيعة، ولم يكن لمثل هذه العلاقة معادلٌ فنيٌّ سوى الشعر وقوة اتصاله بالمكان وعنقوانِ الغريزة وطزاجتها.

أولُ طلقةٍ اخترقتُ هذه العلاقة الحيةً للغة بمادتها وبموضوعها، واخرقتُ علاقةً جسم الكلمة الكامل بجسم التجربة، ووجَّهتُ من قبل الأرسطراطية القرشيّة، فقد بدأت هذه الطبقة بمركزة العالم الإيديولوجي العربيّ حول سلطتها، وكان مدخلها إلى ذلك هو اللغة، ولتذكّر هنا مسألة الخلاف حول اللغة التي سيكتب بها القرآن، وكيف استتبَّ الأمر حول وصية أبي بكر: "إذا اختلفتم فاكتبوه بلغة قريش". وكانت قريش، بمشروع توحيدها للغة، توحد القبائل حول سيادتها وسلطتها، ومن ثمَّ توحد الأمم حول اللغة الواحدة، في الكتاب الواحد، وفي الإله الواحد، وفي السلطة المركزية الواحدة.

ومع تعمق الصراع الاجتماعي، وازدياد مركزية السلطة، كانت لنا لغة المتنبّي الذي يتتقده العكبري، محققٌ ديوانه، لاستخدامه لفظاً تداولته العامة فابتدلته. وكانت لنا، في المقابل، لغة الشعب المتبدلة والمنبوذة في ألف ليلة وليلة، وهي لغة القص أو السرد، لغة الفعل بالعمل في القاع السفلي للحياة، واستيها ماتها الواعية أو الأسطورية.

ومع ازدياد نخبوية السلطة ومركزيتها المطلقة، راحت اللغة تزداد مركزية ونخبوية، وغدت الثقافة من اختصاص السلطة وبطانتها الإيديولوجية، والعمل للشعب. صار العقل للسلطة أو

■ ————— وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلامي والفقه العلماني ■ —————

للخليفة، وصارت قوةً الجسد المتصلة بالعالم المحسوس للرعية والرعا. وأضحى الخليفة هو العقل المتوسّط بين الله وعباده، بين العقل الأعلى والجسد الخاطيء الذي يجب أن يرتقي إلى ذلك العقل.

قال الناس لأبي تمام "لماذا تقول ما لا يفهم؟" فقال: "لماذا لا تفهمون ما يُقال؟". وأعلن البحتري: "عليّ نحت القوافي من محاجرها/ وما عليّ إن لم تفهم البقر". ومنذ تلك اللحظة بدأ الشقاق بين لغة عقل السلطة المتعالي، الجاذب، الموحد... وبين لغة عقل الرعية المعارض، الهازي، البسيط، العفوي، البذيء، الذي توحدّه قوة العمل في وجه عقل السلطة. وبمقدار ما تعبر لغة الرعية عن البؤس الفعلي، فإنها أيضاً تحتجّ عليه، وتعبّر الحرية عن نفسها بوصفها شيئاً مضاداً للنشاط الاجتماعي أو "للعمل".

كتابة حيدر تشكّل استمراراً لهذا التراث. والانزياح الذي تحقّقه ليس انزياحاً باتجاه سوسولوجية اللغة التي يفترضها النثر الروائي، بل هو انزياح لم يتجاوز تفكيك علاقات اللغة القديمة المنطوية على ذاتها، والمتوحّدة في كليتها المتعالية حول مركزها الإيديولوجي المطلق القائم على القطيعة بين اللغة والمادة، حيث الاستلاب المتبادل بينهما. فينشأ ما يُطلق عليه باختين "نثر العرض" أو "خطاب العرض" وهو الخطاب المنزوع من مادته ومن إيديولوجيته الوحيدة، حيث "التشخيص الصوتي يُنزع نحو رخامة فارغة، والبنية التركيبية والقصدية نحو الخفة والسهولة المجوفتين،

أو نحو تعقيدات بلاغية منتفخة وجوفاء أيضاً تفضي إلى تزيينية خارجية، وينزع تعدد المعنى نحو دلالة أحادية فارغة، ومن الطبيعي أن بإمكان نثر العرض أن يتزين، وبغزارة، بإستعارات شعرية، غير أنها ستفقد في هذا الاستعمال معناها الشعري الحقيقي(*)". وبذلك تتحوّل الرواية من مقولة بنائية تأليفية تركيبية مشهدة إلى مقولة أدبية أسلوبية لفظية تبحث عن أدبيتها في العلاقات الجمالية للغة المنفصلة عن مادتها (أي عن الحياة والواقع والمجتمع).

الرواية الأوروبية حسمت هذه الإشكالية منذ سيرفانتس. ولكن ليس في الرواية العربية حتى الآن "سانشو" واحداً يواجه البلاغة الدونكيشوتية، ومتعاليتها اللفظية التزيينية النبيل، بلغة مضادة، وحوارٍ مضادٍ ينزع عن اللغة الرسمية أقمطتها البهائية ويزجهاً في تحديات اللغة اليومية ببساطتها وخشونتها وحيويتها ودينامية واقعها المعاش.

وإذا كانت شخصيات "وليمة لأعشاب البحر" تتخذ لنفسها مسافةً ما من الكاتب باستخداماتها البذيئة للكلام، فإنها - وفي أغلب الأحيان - تنطوي على حس ثقافي في الشتمية ذاتها!. وقلماً تكون لغتها ممتلئة بمواصفات المتحدث بها، بل هي أقرب إلى مواصفات السارد، أو هي تتلاشى في جوف الكتلة اللفظية الهائلة

(*) راجع ميخائيل باختين: "خطان أسلوبيان للرواية الأوروبية"، الكرمل، العدد ١٩ - ٢٠، ١٩٨٦، ترجمة محمد براءة، ص ٥٣.

للكاتب، متخذةً شكلَ مواجهةٍ خارجيةٍ في أغلب الأحيان، لتتحرك على محور صلة الشخصية الروائية بالمجتمع الخارجي، لا بالعالم الروائي الداخلي الذي تتصارع فيه الأصوات وتتقاطع فيه الآراء عبر الحوار. فالتعدّد اللغويّ هنا تعددٌ لا يخرج عن الصوت الواحد الكاتم للأنفاس، وهو صوتُ الكاتب الذي يشتم السلطة بلغتها ذاتها المحقّقة لإيديولوجيتها المركزية العتيدة، حيث الخطابُ يستغرق داخل ذاته ويعجز عن الامتلاء بالأشياء الحقيقية، فيُحلّ مكانها المعادلات اللفظية للأشياء، وذلك عبر الصورة الأدبية والمجازية والبلاغية.

خذُ مثلاً على ذلك فصل "ظهور اللويثان" في وليمة حيدر. ففيه تبدّى رغبة النص في الإفضاء دفعةً واحدةً بكل شيء عن واقع استبداد السلطة العربية. ولعلّ هذا الفصل، في مناخاته السريالية الشعرية لا البنائية، من أجمل المقطوعات الأدبية التي تترنم بهجاء السلطة العربية من خلال النموذج العراقي. فالمكان في هذا الفصل هو الفضاء العربي في امتداده الشامل. ورمزه هو عبید الله بن أبي ضبيعة الكلبي، المسخُ الغريبُ الذي سقط من غبار الريح في سياق هذر الصحراء النبوية، المتعارف عليه داخل العقل الإهليلجيّ الذي استوطنته الأساطيرُ والخرافاتُ البدائية، وبعد أن تقذفه الريح الصفراء الجائحة على سطح الأرض الصالحة لإنبات كل أنواع الشوكيات والخبازيات والقتاد والصبّار الوحشيّ والقراص والزقوم. سيولدُ حاملاً في دمه نسغ هذه النباتات على

شكل قنطور أو لويثان، نصفه الأعلى بهيئة ضبع والنصف الأسفل شبيه سرطانٍ رمليّ زاحف. لكنه بعد أن يخرج من غبار الصحراء زاحفاً نحو المدن، سيَعْبُرُ في أطوار من التحولات العضوية، وسيمتلك قدرة خاصة على الإحياء بأنه من أرقى البشر، ومع مرور الوقت، وبعد أن يعتلي عرشه ويوطد ملكه بالقتل والنفي والتجويع، سينسى أصله الأول وشكله اللابشريّ، فيغيّر اسمه وسلالته، وينشر بين الرعية تاريخاً جديداً لبلاده يتحدث عن فتوته وتمرداته وكفاحه الصلب ضد أعداء الوطن!

بهذا الإيقاع يستمرّ النصُّ في وصف تحولات الرمز العربي للاستبداد، باحثاً عن جذره التاريخي مجازياً، وسموّه إلى صفوة الأنبياء، موظفاً الإرث الأسطوري في تصوير ولادته ومعجزاته وخوارقه.

والزمن الذي يشهد ولادة هذا اللويثان هو زمن الهوان والجوع والجرب والجراد والجنون. إنه زمن ازدهار السجون والقتل الفردي والنفي، زمن على حافة الأساطير، أو هو لبوسها اللامعقول في لحظة انفجارات الفضاء بالأقمار والمحطات الكونية. ففي ذلك الزمن سيبدأ سليل الضباع والسرطانات وإفرازات الحيض الدمويّ في صياغة التقويم الجديد، الذي سيدوم أكثر من ربع قرن، بدءاً من طوطم الأسرة فالعشيرة فالطائفة فالحزب فالجيش فالاستخبارات، بما يشكل هيكل الدولة القنطورية الحديثة. إنه زمن سرياليّ يتخطى مدارك الدماغ، ويذكر بعصور ما قبل التاريخ.

وإنه لزمناً أسود، زمنُ الخنوع والغروب، فيه يتبختر أيُّ خنزيرٍ أو لواطِيٍّ أو لصٍّ أو قاتلٍ ليتوجَّ نفسه ملكاً في تلك الأرض الخراب.

على هذا المنوال تمضي الكتابةُ مستنفرةً كلَّ طاقاتها التعبيرية في هجاء الزمن العربي. والجمل والمفردات والعبارات الواردة أعلاه مقتطعةٌ من الفصل المذكور، الذي لا يقول إلا قولها، ولا يحُمل من دلالةٍ إلا دلالتها، ولا من مادةٍ سوى مادتها، ولا من مفرداتٍ إلا مفرداتها. وإذا كان المتلقِّي سيطرَبُ لهذا الهجاء الأسود، وسيُشفي غليله عبر هذا القدح الأدبي المتوتر شعرياً لواقع الاستبداد الذي يثد الحرية في مهد فجر الزمن العربي، فإن السؤال الذي ينبثق تلو كل جملة هو التالي: ما هي الوظيفة الروائية لهذه الجملة، أو ذاك المقطع، أو ذلك الفصل؟

فالحق أن البؤرة السردية هنا هي بؤرة السارد. وبؤرة السارد ليست إلا بؤرة الكاتب الممتلئ غيظاً وتمرداً على كل النظم بدءاً من النظم السياسية، ومروراً بالأنظمة العقائدية والاجتماعية والأخلاقية، ووصولاً إلى النظام الروائي نفسه. إنها الرؤية المتمردة على العالم، وليست رؤيةً إلى العالم فيما هو عليه لإطلاق إمكاناته. إنها، بكلام آخر، رؤية لا تعترف بنواميس هذا العالم أو بقوانينه أو نُظْمه، ولا تُقرُّ إلا بنزعتها الغريزية التدميرية الهدامة، وبحقِّ الغرائز في أن تحكِّم العالم. إنه الوعي النموذجي للعقل العربي حين يُحلُّ الرغبة مكان الواقع، والإيديولوجيا مكان المعرفة. وإنه الوعي البورجوازي الصغير الذي يرى في الحرية

تجاهلاً للضرورة أو عدم اعترافٍ بها: ويتطلّع إلى الثورة متجاهلاً (أو جاهلاً) قوانينها: ويرى إلى إرواءِ تعطشِ الجسدِ بعيداً عن الشرط الاجتماعي وضروراته: ويتوق إلى كتابة الرواية دون الاعتراف بقوانينها وخصائصها كجنس أدبي!

فصل " ظهور اللويثان " لا يضيف إلى الوحدة التأليفية للرواية أي عنصرٍ بنائيٍ جديد. والأشياء والأحداث والأفعال والموضوعات لا تملك حضورها الحقيقي المرئي في فضاء الرواية، بل تستبدل حقيقة حضورها بتداعياتها عبر الذاكرة. والذاكرة مفتاحٌ لسبيل لا ينتهي من الموضوعات التي تتحوّل إلى معانٍ، وهي عندما تتوه في فضاءات الغياب فإنها تغيب العلاقة المباشرة مع الحواس، فتتحوّل إلى مركّبات أفعال وأحاسيس ومشاعر. وأما الزمن الروائي فيفقد مادّيته، ليندمج في سيرورة اللغة، فإذا به حديثٌ عن الزمن، لا الزمنُ مرئياً باعتباره الإطار التاريخي للحدث، الذي يتحوّل - بدوره - إلى دلالةٍ تعبيريةٍ تُفقد قوامه. *

لكن الرواية فنٌ نقيضٌ لأغراض المديح والهجاء. فالمديح والهجاء يفقدان معناهما عندما تكون الكتابة فنّ خلقٍ وإعادة بناء. ففي هذه الحال تصبح تناقضاً ضرورياً مع العالم، وصناعةً جديدةً للزمن، ومعاناةً حقيقيةً للأشياء عبر التجربة الحياتية والمعرفية والجمالية التي تُنتج بذاتها تناقضها الضروري مع الواقع بهدف تعريته وإدانتته ورفضه، من خلال رسمها الموضوعي لعالمه المتعدّد الأصوات والآراء واللغات والمذاهب والأفكار.

لا بدّ للروائي العربيّ أن يتذكّر دائماً قولاً للمعلّم الأول أرسطو، ومفاده: أن أهم أجزاء المأساة هو تركيب الأفعال؛ وذلك لأن المأساة لا تحاكي الناس، بل تحاكي الفعل والحياة - والسعادة والشقاوة هما من نتائج الفعل. ويضيف أرسطو أن لا قيمة لبراعة المرء في تأليف الأقوال والكشف عن الأخلاق، وفخامة العبارة وجلالة الفكرة لبلوغ المراد من المأساة، بل يمكن بلوغها بالعبارة والفكرة الضعيفة عندما يكون هناك خرافة (حكاية) وتركيب أفعال (*).

بعد قول أرسطو هذا، هل من الضروري العودة إلى قول كولدويل الحاسم في أن الرواية ليست فنّ كلمة بل فنّ مشهدٍ وبناءٍ؟.

قراءة "الوليمة" بعد الفتنة

أ- حيدر حيدر ومكر الدراما: بعد هذا التحليل للبنية الروائية لـ "الوليمة"، في فترة سابقة على الفتنة، هل نستغرب إذا كان منطوق الرواية، الذي هو منطوق المؤلف الذي يحلُّ بالشخصيات والأحداث والأشياء وكأنها تجلّ لذاته، سيُنتج هو بذاته قزاةً الفتنة؟ فالحق أن الشخصيات الرئيسيّة في الرواية - ما عدا لالا فضيلة وزوجها يزيد - تتحدث بمنسوب لغويّ واحدٍ من حيث

(*) راجع فن الشعر لأرسطو طاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣، ص ٢٠-٢١.

الصياغة التعبيرية، وبصوت واحد من حيث الدلالة الفكرية، هما منسوب الكاتب وصوته. فالكل يستشعر الاختناق والحصار والتمرد على القيم والتقاليد، ورفض الواقع والدين والإله. وليس هناك من يدافع عن منظومة القيم الاجتماعية والثقافية الطيبة سوى لالا فضيلة، المرأة الطيبة الأمية الساذجة، التي لا يمكن أن يكون لرأيها أي شأن في وليمة التمرد على المقدس الاجتماعي والثقافي والديني!

لم تستطع "وليمة لأعشاب البحر" أن تستفيد من تقانات البناء الروائي في إنتاج المراوغة الكنائية البنائية، والمكر الدرامي في قول الحقيقة (حسب بريخت)، والمعادل الموضوعي للفكرة "برحل يمشي على قدمين" (على حد تعبير لوكاتش). وهذه المسألة على درجة كبيرة من الأهمية في سياق تطور الأدب العالمي على طريق استكناه روح العالم وسر الكون ومصائر الوجود، حتى اضطرت الشعر (الذي هو فن كلمة في الأصل) إلى أن يبحث عن المعادل الموضوعي لجسم الكلمة في جسم الموضوع (على نحو ما دعا إلى ذلك ت. س. إليوت المعروف بميتافيزيقاه). لكن الميتافيزيقا في عصر العلم والتكنولوجيا والتجريب، راحت تتطلع إلى التعيين في المحسوس وفي الوجود، ليكون معادل المعنى الذي راح يفر من الوجود بعد أن أعلن عالم الآلة "موت الله".

هذه المراوغة الكنائية البنائية للسرد، ومكر الدراما الذي تتيحه الحوادث في الرواية، هما ما أتاح لنجيب محفوظ أن يحفر عن

جَذَرُ المقدَّسِ اللاهوتيِّ المؤسَّساتيِّ فيدكَّه 'دكَّا' في "أولاد حارتنا".
وأما النزعة التعبيرية الغنائية البلاغية، ذات الصوت الواحد الذي لا
يتيح التعدُّد والاختلاف والتغاير، فقد قادت "آيات شيطانية" إلى
النيل من المقدَّس بوصفه رأسملاً رمزياً يشكِّل نواة الوعي الوطنيِّ
والشعبيِّ، أو ما اسميناه بـ "الإسلام الوطنيِّ". في صدد حوارنا
حول آيات شيطانية التي تبناها الصديق الدكتور صادق جلال
العظم وسيأتي الحديث عن ذلك في القسم الثاني، لقد ميَّزنا حينها
بين :

- إسلام شعبيِّ وطنيِّ مُهانٍ بكرامته الوطنيَّة والقوميَّة من قبل
الغرب، ومهانٍ بكرامته الاجتماعية والسياسية والحقوقية من قبل
أنظمتها الطاغية.

- إسلام رسميِّ تصوغ لوحته الأنظمة التابعة للغرب، وهو
إسلامٌ تستخدمه السلطة من خلال المساجد والفقهاء لتكريس
مشروعيتها المفقودة مدنياً.

- وإسلام سياسيِّ نكوصيِّ ظلاميِّ قُروسطيِّ، يحمل سيفه
التيوقراطيِّ في مواجهة "البوط، (الجزمة) الأوتوقراطيِّ للسلطة
المتأسلمة كأسلمته. والضحية هي الإسلامُ الشعبيُّ الوطنيُّ الذي
يتبدَّى الدينُ له نمطَ حياةٍ وممارسةٍ يوميَّةٍ تشكِّل رافعةً وعيه بهويِّته
وذايته الحضارية والقومية.

لقد نالت رواية "آيات شيطانية" من المقدَّس الشعبيِّ، حين
تلاعب به الإسلامُ الكهنوتيِّ السياسيِّ، الذي التقى مع الدوائر

الغريبة لإخراس صوت سلمان رشدي، في عملية تزويرٍ فاضحةٍ حولت هذا الكاتبَ الهنديَّ من رجلٍ وطنيٍ ناقدٍ للغرب إلى رجلٍ مستلبٍ معادٍ لثقافة شعبه. وذلك هو الشرك الذي سقط فيه حيدر حيدر، الوطنيُّ الممرورُ بوطنيته المأزومة.

ومع ذلك فإذا كان هتكُ المقدّس في "آيات شيطانية" تستدعيه بعض الضرورات الروائية الداخلية، فإنه في "وليمة لأعشاب البحر" لا يستدعيه سوى غضبِ الخطاب وتوترِ الشخصيات؛ بل لو حُذِفَ بمجموعه لما تَرَكَ أيُّ أثرٍ على المعمار الروائيِّ. بعكس العديد من اللحظات الروائية في آيات شيطانية، ولا سيّما رواية رشدي هذه، والمقصودُ بها "الوحي الشيطانيّ بالغرانيق العُلا"؛ وهي في كل الأحوال أضعفُ رواياته، كما كانت وليمة لأعشاب البحر أضعفَ نتاجات حيدر، وبخاصةً بالمقارنة مع ما قدّمه في مجال القصة القصيرة.

ففي القصة القصيرة يؤسّس حيدر، مع زكريا تامر، لنمطٍ جديدٍ من القصة القصيرة، هو القصة الدرامية، المتأجّجةُ بالمشاعر والأفعال الدالة، والتي تتيح لموهبة حيدر أن تعبّر عن ذاتها بما يتطابق مع ملكاتها وجنونها وأحلامها وفلسفتها ومُروّقتها. لقد كانت القصةُ القصيرة هي الجنسُ الأقدر على احتضان فورات الروح والجسد، حيث تتكثّف في لحظة زمنية يمكن تثبيتها في اللوحة القصصية، لكنه يستحيل روائياً أن تُثبت وتثبت في انسياحات الزمان والمكان وأمواج اللغة وهيجانها الدائم الكاسح.

زكريا تامر لم يغامرُ بكتابة الرواية، فظلَّ محافظاً على ذلك التشابه والتناظر غير المرئيِّ بين القصيدة والقصة. وهو ما أتاح له تحقيقَ نوعٍ من التجوهر في المكان عبر القصة، من خلال الصورة واللوحة والتشكيل. وأما مغامرةُ حيدر مع الرواية فقد أظهرت مدى المجازفة التي تحملها نزعتُه التعبيرية على الرواية، ومدى العبء الذي تفرضه الجمالياتُ البلاغيةُ - غير البنائية السردية والوصفية. فهذه الجماليات تُجهد القارئ حين يبحث عن عناصر السرد والبناء والمكونات الدرامية للنص، لأنها تُجبره على أن يتوغل عميقاً في جسد اللغة، المغلفة بهالة من الفخامة والرخامة والبذخ من أجل بلوغ العظم أو النخاع أو القاع، قاع العلاقات الحضورية الركنية للشخصيات والأحداث والأشياء. وعلى هذا فإنَّ شعريَّة حيدر كانت تجد وظيفتها الجمالية في القصة القصيرة، نظراً لما تتيحه من تركيزٍ حسيٍّ للون والصوت والفضاء، كما أشرنا.

في عام ١٩٤٥، وغبَّ الحرب العالمية الثانية، كتب نجيب محفوظ أن الرواية هي شعر الدنيا الحديثة. فالقصة، كبنية سردية وصفية، تُنتج في مجموع علاقاتها شعرَ الحياة الحديثة، لكونها تمثل المعادلَ الجماليَّ لعصر العلم والصناعة. وعصرُ هذه حقائِقُه سيستدعي بالضرورة العقلَ والعقلانية والديموقراطية والتنوير، إذ من مجموع هذه العناصر سيتشكل المهادُ التاريخيُّ للرواية بوصفها المعادلَ الجماليَّ لكلِّ منظومة عصرِ الأنوار. ولقد أسس نجيب محفوظ لأسلوبيةٍ روائيةٍ تكتشف شاعريَّتها في منظومة العلاقات

المركبة والمعقدة التي تنتجها إيقاعات الحياة المعادُ إنتاجها تخيلياً، لا في نظام العلاقات البلاغية للغة، أو في استنزاف وظائفها الانفعالية والشعورية الوجدانية. وهذا النظام البلاغي قد أدى في "وليمة لأعشاب البحر" إلى سيادة الصوت الواحد، وهو صوت الغرائز كما قلنا، أو صوت الكاتب الذي لا يقبل أيّ مُشركٍ بوحدايته، فلم يتمكّن من أن يكون مراقباً لعالمه وهو يقلم أظافره (كما وصف جويس دور الروائي). وتبدّى الفضاء الروائي في الوليمة وكأنه تجلٌّ للذات الخالقة التي تترك آثارها على كل جناته، فساد البوح لا الحوار، وتحوّلت الرواية - كما قلنا - من مقولةٍ مشهدةٍ إلى مقولةٍ لفظيةٍ تبحث عن أدبيّتها في العلاقات الجمالية للغة ككيانٍ منفصلٍ عن مادته، وتبحث عن مدلولها في النفس لا في الحياة والواقع والمجتمع.

إنّ مجموع هذه العناصر التي تقرّيناها تحليلياً في نصّ حيدر هي مصدرٌ هذه الضوضاء. فالنصّ يُنتج إيديولوجياً على لسان الشخصيات المتوحّدة مع السارد، المتوحّد - بدوره - مع الكاتب. ومن ثمّ فإنّ المباشرة التي يحققها الملفوظ السردية، ومن دون أية علاقة حوارية تخلق التعدّد والاختلاف، لم تتح للعناصر التأليفية المكوّنة للرواية أن تُنتج التباين الضروريّ بين الراوي والروائي. فقُدت البنية الأسلوبية للرواية بوصفها فنّ مشهّد لا كلمة، الأمر الذي أتاح المجال للعقل الفقهي أن يصطاد الفتنة. فحين لم يتمكّن النصّ الروائيّ من إنتاج خصوصيةٍ مراوغاته الجمالية المتمثلة بالمجاز

الكنائسيّ البنائيّ، تبدّى الملفوظ السرديّ (الذي يوحد خطاب الرواية وخطاب شخصياتها حول رأي الكاتب) عن رؤية معارضةٍ للوعي الدينيّ الشعبيّ، لا للفكر الدينيّ بوصفه جهاز إنتاج للمعرفة المفوّته والمعوّقة. فالحق أن شتائم مهدي جواد ومهيار الباهلي لقناعات الناس ولأفكارهم لن تزيدهم إلا عتناً وإصراراً. في حين أتاح المجازُ البنائيّ في "أولاد حارتنا" للسرد أن يراوغ كنائياً، ليقوم نجيب محفوظ بأعظم عملية حفر معرفيّة وجمالية للوصول إلى جذور المقدّس اللاهوتيّ الرسميّ، مفككاً صلابته ومفوّتاً الفرصة على مديري المقدّس وسدنة هياكل الوهم في أن يتلاعبوا بوعي الجمهور، فلم يجدوا ملاذاً سوى الاستخدام المباشر للسكين. ولم يتمكنوا من اصطياد الفتنة عبر الملفوظ السرديّ التمثيليّ مجازاً بنائياً.

إن الميراث الثقافيّ البلاغيّ الشعريّ العربيّ لم يصطدم ببني اجتماعية ثقافيّة وسياسيّة جديدة تُرغمه - سورياً وشامياً - على التشقّق السوسولوجي عن لغة نثرية قادرةً على "السّسلجة الأسلوبية" كما يدعو باختين، وكما تحقّق في النثر القصصيّ والدراميّ المصريّ الذي ليس مصادفةً أن يكون رواده أبناء مدينة ك (نجيب محفوظ ويحيى حقي وتوفيق الحكيم) في حين أن من يناظرهم زمنياً في سوريا يتحدّرون من وسط ريفيّ ك (حنا مينه وعبد السلام العجيلي، وأما الثالث شكيب الجابري المديني، فإنه كتب عن ألمانيا، ولم يكتب عن مدينته حلب أبداً). ولن نوغل في الزمن أبعد لنجد جذر هذه الحيادية السردية في "زينب" لمحمد

حسين هيكلي، بينما يوازيها زمنياً لهيبُ الروح الشعرية، والتأملُ الفلسفيُّ المتمردُ، في "الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران؛ والروايتان صدرتا في زمنٍ متقاربٍ ما قبل الحرب العالمية الأولى.

ب- استطرادٌ لا بدّ منه: إننا إذ نجد أنفسنا في موقع واحدٍ مع الإخوة العلمانيين المصريين في الدفاع عن حرية التعبير والتفكير، نقول إن على هذا الدفاع ألا يتحوّل إلى دفاعٍ عقائديّ يطمس إمكانية التمايز والاختلاف داخل الجبهة العلمانية ذاتها، فلا تُنتج هذه المنظومةُ إلاً وعياً مضاداً يحمل الخصائص البنيوية للعقل الفقهيّ عينه. وهو العقل الذي فقدَ كلَّ الأطياف والألوان بين إسلامٍ معتدل، وإسلامٍ متطرّف، وبين المثقف المستنير وأمير الجهاد. بل بلغ الأمر أن ذهب مثقفٌ كمحمد عمارة حدّ العبث بالوحدة الوطنية، من خلال اللعبِ على أوتار الطائفية، فغمزَ بالإشارة إلى الأصول العلوّية لحيدر حيدر.

وفي هذا السياق - ورغم اختلافنا مع حيدر في منظور الرؤية الذي أشرنا إليه سابقاً - لا بدّ لأيّ مثقفٍ يحترم نفسه قبل احترامه للحقيقة من القول: إن حيدر هو من الكتاب النادرين في زهدهم وتقشّفهم واستقلالهم عن أية سلطةٍ (سياسة كانت أم اجتماعية أم دينية)، لقناعته بأن الاستبداد السياسي والاستبداد الدينيّ صنوان، على نحوٍ ما عبّر الكواكبي منذ طلائع هذا القرن. وهو، في قناعته هذه، يذهب إلى النهايات القصوى، إلى حدّ الحلم الصوفيّ في معانقة المطلق كتابةً وسلوكاً وممارسةً. فقد كان الرجل دائماً

طريدَ أسئلته الشائكة، وطريدَ النظام العربيّ. وكانت قسوته النقدية الكبرى موجّهة ضد الأنظمة التي آمن منذ يفاعه بإيديولوجيّتها، فدمرتُ أحلامه. وقد كان في مواقع تتيح له من المنافع أكثر بكثير مما يتكسبه اليوم الشيخ الماركسيّ العلمانيّ اللاهوتيّ الإسلاميّ محمد عمارة!

عاش الرجل دائماً منفيّاً عن ذاته وعن الوطن، فالتجأ إلى بيروت ملتحقاً بأنبُل قضايا العرب، وهي قضية فلسطين، قبل أن تتأسس وترسّم وتتسلّف. وعاد بعد الاجتياح الإسرائيليّ لبيروت، حاملاً جراحه ونكباته وأجنحته المتكسّرة، إلى قريته باحثاً في أحضان الطبيعة عن الطهرانيّة الصوفيّة بعد أن يئس من القبض عليها عبر الكتابة والسياسة. لقد أثر أن يعود إلى قريته الصغيرة على البحر متوحّداً صامتاً، رغم أنّ لديه ما يساوم عليه أكثر ممّا لدى عمارة وأضرابه من المتعيّشين على فتات تحولات المراحل!

ج- "الوليمة" والفقّه المتعلمين: بعد هذا الاستطراد، ستتطرق الآن إلى العقائدية العلمانية وانضباطها التجيشي العسكري. فنحن لم نسمع صوتاً علمانياً يغرّد خارج السرب. وإذا كان من المفهوم أن نشهد تحشّداً سياسياً تضامنياً وشجاعاً دعماً لإبراهيم أصلان الذي وافق على نشر الرواية في سلسلة يشرف عليها وتصدرها هيئة قصور الثقافة، فإنّ ما ليس مفهوماً هو تحشّد ثانٍ فكريّ ينزلق إلى ساحة الآخر، ويخوضُ المعركة بأدواته العتيقة ذاتها. وسأقدم مثالا على هذا المنزِع الأخير من خلال النقاط العشر التي كثّف

خلالها الناقد اللامع الدكتور جابر عصفور عناصر الإشكال المثار، وذلك في مقاله "أزهرُ هذا الزمان" المنشور في أخبار الأدب (العدد ٣٥٩) وفي جريدة الحياة.

ففي هذا المقال يفنّد الدكتور عصفور بيانَ الأزهر، فيقول إنَّ هذا البيان أولاً لم يقرأ الرواية بوصفها عملاً أدبياً تخيلاً وإنما بوصفها عملاً فكرياً، وإنَّ البيان ثانياً قام بانتزاع بعض الجمل وعمّم معناها على الرواية بكاملها، وإنَّ البيان ثالثاً لم يضع في اعتباره أنَّ هناك شخصيات مؤمنةً في مواجهة الشخصيات الملحدة وأنَّ الكاتب يقيم توازناً اعتقادياً في علاقات الرواية، وإنَّ البيان رابعاً طابَقَ بين أقوال الشخصيات الملحدة وموقف الكاتب، ومن ثمَّ فإنَّ البيان خامساً أقام تطابقاً بين الشخصيات المتخيلة والمؤلّف. ولكنني قبل أن أنتقل إلى النقطة السادسة، وهي الأخطر، لا بدّ أن القارئ قد لاحظ درجة التعارض بين أطروحات الدكتور عصفور وبين تحليلنا النصّي للرواية.

فالبنية الأدبيّة التخيليّة لرواية حيدر هي التي سمحت لهذه القراءة الفكرية الاعتقادية الفقهيّة. فقد ساد فيها الصوت الواحد، وهو صوتُ المؤلّف، الذي كانت تلهج به ألسنة الشخصيات. وليس في الرواية على الإطلاق شخصيات مؤمنة تحقّق توازناً اعتقادياً. ولهذا كان متاحاً للفقهاء أن ينتزعوا بعض الأقوال. بل إنَّ الكاتب نفسه يمارس هذه الآلية المنهجية، عندما ينتزع فقرةً من الرواية ليردّ عن نفسه تهمةً التجديف، وهي فقرة ص ٥٠٣ من

الرواية، وقد جاءت على لسان الراوي السارد، لا على لسان إحدى الشخصيات المحاوره التي تحقق "التوازن الاعتقادي"! وبذلك يكون الكاتب نفسه قد استدرج في بيانه المنشور في مجلة أخبار الأدب (عدد ٣٥٦) إلى التعامل مع روايته بوصفها نصاً فكرياً، لا بوصفها نصاً تخييلياً؛ ويترتب على ذلك الإقرار بالتطابق بين الشخصية المتخيَّلة والمؤلَّف، والإقرار بأن الرواية نصٌّ فكريٌّ!

والنقطة السادسة التي يسوقها الدكتور عصفور مدعاةً للدهشة حقاً، فهو يذهب بعيداً في تسجيل المواقف المتراجعة مداجاةً للأزهر والفقهاء، ليقدم قراءةً تأويليةً عجيبةً لا تنهض على أيِّ ممكنٍ تأويليٍّ دلاليٍّ للنصِّ، فهو يرى أن المغزى الأدبي للرواية يكمن في أنها "تنتهي ببطلها الشيوعي الملحد إلى الدمار الذاتي، ومن ثم الانتحار، نتيجة عوامل الفساد التي ينطوي عليها، ونتيجة عصايبته التي اغتربت عن الجميع، وأخيراً نتيجة تعصُّبه الذي عماء عن مساءلة معتقداته الحزبية المتقلِّبة" (أخبار الأدب، عدد ٣٥٩، ص ١٤). غير أن الحقيقة هي أن بطل الرواية، على طول مسار المتن الحكائي، لم يقدمه النصُّ بوصفه شخصيةً فاسدة، بل هو مثالٌ للبراءة والنظافة والتحرُّر من كل قيم المجتمع القديم المتهالك، والحديث الزائف. وهو، من خلال لجوئه إلى الجزائر وعلاقته بآسيا، كان يبحث عن الحرية والحب بعد إخفاق طوباه الثورية في العراق. ولكن النظام الاشتراكي الثوري في الجزائر يطرده لأنه شيوعي؛ وهنا تكمن

المفارقة. وبترتب على ذلك أن يخسر حبيته "آسيا" التي طالما كانت القيمُ التقليديةُ بدعواها الدينية تحيل بينه وبين وصال مَنْ يحب، فكانت الخاتمة هي الانتحار كتعبيرٍ دلاليٍّ رمزيٍّ عن استحالة الحب والحرية في عالم "العروبة" و "الإسلام". ولم يكن الانتحارُ نتيجةً لفساده وتعصُّبه وعصايته، أو لعدم مساءلته لمعتقداته الحزبية المتصلِّبة، كما يذهب عصفور.

على الأغلب أن الدكتور عصفور قد تداخلت بالنسبة إليه شخصيتا مهدي جواد ومهيار الباهلي، وهذا التداخل مصدره الروايةُ نفسُها، التي تُرغم القارئ على البحث عن ملامح الشخصية وسطَ ركام من القش اللغوي، أضف إلى ذلك تجربة مهدي ومهيار الواحدة المشتركة، التي لم تتح الأحداث والوقائع والأفعالُ تحديدَ السمات المميزة لكليهما، ولهذا فالحديث عن العُصبيَّة والاعتراب عن الجميع إنما يلامس شخصية "مهيار" لا شخصية "جواد": فالحق أن مهدي لم يكن متعصباً، ولا عقائدياً، بل كان دائماً ينعى على صديقه مهيار طوباويته وطهرانيته وتعقله الشديد، بل هو يخاطبه دائماً، مداعباً: "مسيو عقل" و "مسيو طهارة".

لكن حتى لو خيَّل إلى القارئ أن المتحمر هو مهيار، فإن هذا الوهم لا يتيح للمتلقي أن يخرج بتأويلات الدكتور عصفور، التي تُظهر وكأن مغزى الرواية هو إدانة الشيوعية الملحدة لفسادها وعصبيَّتها واعترابها وتعصُّبها. وفي رأيي أن هذه القراءة لا تقلّ

خطورةً عن إتلاف الرواية وإحراقها، لأنها تقوم بعملية إتلاف داخليٍّ لمغزاها ودلالاتها وروحها، من أجل تحقيق تسوية عمادها المصالحة بين الفقه المتأسلم والفقه المتعلمن: الأول يُتلف جسم الرواية، والثاني يُتلف روحها خدمةً للأهداف السياسية والأيديولوجية. ولسان حال تلك التسوية أننا بذلك نتصر على الشيوعية الملحدة، وننقذ حيدر حيدر من تهمة الشيوعية والإلحاد، ونعيده إلى حظيرة المجتمع حنيفاً مسلماً. أي نغتاله روحياً، لننقذه من الاغتيال الجسدي!

٤- خاتمة

أ- التراجع: لا شك أن الأصولية المعاصرة نجحت في إعادتنا قرناً من الزمن إلى الوراء، عندما تمكنت من إشغال الفكر العربي بمسائل يُفترض أنها قد حُلَّتْ، على حدِّ تأسِّي فؤاد زكريا، ولا شك أن الأصولية، باسم الدفاع عن الأصالة والهوية، قد قامت بأكبر عملية تدمير للتراث العربي، عندما أعطت الفقيه حقَّ الفتوى لا في الشؤون اليومية للممارسة البشرية فحسب، بل في العلم والثقافة والأدب أيضاً. وانطلاقاً من بيان الأزهر "النقدي" فإن علينا أن نرمي بكل التراث النقدي العربي إلى المزبلة، ولا سيما حين كان هذا النقد يتحدث عن المعاني بوصفها "مطروحة على قارعة الطريق"، أو عن أن المعول عليه في عملية الإبداع هو كيفية صوغنا للمعاني، أي كيفية نظمها في شكل، أو نسق، أو بنية

تستقلّ بقيمتها الجماليّة بذاتها. ناهيك أن التراث الفلسفيّ الهرطوقي كان يُداول من دون التهديد بسيف الحسبة، ومن دون إقامة الحدّ على المرتدّ، وتحدّث كتبُ تاريخ الفكر والأدب عن "زنادقة الإسلام الثلاثة" أبو العلاء المعري، وابن الراوندي، وأبو حيان التوحيديّ؛ وتقول إنّ الأخطر هو التوحيديّ، لأنّ الاثنين صرّحا، والتوحيديّ "مجمّع".

ب- الممجّعة التوحيدية : كيف مجمّع التوحيديّ؟ لقد كانت مجمّعته مؤسّسة على وعي نظريّ، حاذقٍ وخلاقٍ، بضرورة التناظر بين فصل الدين عن الدولة وفصل الدين عن الفلسفة، فعلمانيّة التوحيديّ السياسيّة دعت إلى المرجعية البشريّة التعاقدية المدنيّة في نظام الحكم، واستندت إلى مرجعيّته "السقيفة" في مواجهة الدعاوى التيوقراطية ودعاوى الانتماء إلى بيت النبيّ. وكان التوحيديّ، ومجموعُ مدرسة أستاذه أبي سليمان المنطقيّ، يريد أن يؤصّل لهذه العلمانية السياسيّة من خلال الفصل بين الدين والفلسفة، على اعتبار أنّهما نسقان متناظران لا يلتقيان، ولكلّ منهما أداته: فأداة الدين القلبُ فالإيمان، وأداة الفلسفة العقلُ فالبرهان. وعلى هذا رَفَضَ أيّ تماسٍ بينهما، حفاظاً على الدين من أسئلة العقل: فالدين ليس فيه "ماذا" و "لماذا" و "كيف" حسب تعبيره، ولذا ينبغي أن يبقى في حيّز الإيمان وسلامة القلب، دون إقلاقه بأسئلة العقل، ومن هنا كان هجومه العنيف على علماء الكلام وعدماء الدين - حسب تعبير الكندي - الذين

كانوا يستخدمون أدوات الفلسفة والعقل في مناقشة ما هو في حيز المقدس، الذي لا ينبغي مساسه حفاظاً على مشاعر العامة.

هذا التأصيل النظريّ أتاح للتوحيدي أن يتفلسف دون حدود، ويتقاسم في المقابسات مع كل تيارات عصره. ملاحظة، صائبة، ومعتزلة وجبرية، وشيعية، وسنية. وقد أتاح لأنصار هذه التيارات في كتابه "المقابسات" حقوقاً متساوية في حرية التعبير والتفكير والقول، وحفظ مقاماتهم بشكل متساو، حتى بات من الممكن أن تحسدهم على هذه الحرية معظم شخصيات الرواية العربية. رغم أن الشخصية المتخيّلة يجب أن تكون أكثر حرية من الشخصية الفعلية

وهذا ما أتاح للتوحيدي - وقبله أستاذه الجاحظ - أن تتساوى عنده الموضوعات في قيمتها، فيتجاوز الجليل والهزيل، والنبيل والدنيء، والمقدس والمدنس. وهذا أحد مظاهر مجمعة أبي حيان التي يقيّم من خلالها عصره تقيماً سوسولوجياً، ثقافياً، وسياسياً، وفنياً، وأدبياً، وذلك في "البصائر والذخائر والإمتاع والمؤانسة". كما أن معركته ضد علم الكلام، ودفاعه عن دين لا يخضع للتجريح لآته وعي العامة وضميرها، أتاح له حرية هائلة في الانتهاك العقلي المقدس الفقهي اللاهوتي الرسمي. وهالك بعض حكاياته دون تعليق:

- يروي لنا، في الجزء الثالث من "الإمتاع والمؤانسة"، أن رجلاً قال لتكلم: "ما الدليل على صانع العالم؟". قال: شعرة

أُمَّكَ، فَإِنهَا تَحْلُقُهَا، فَتَنْبِتُ وَيُعَلِّمُ أَنَّ لَهَا مِنْبِتاً". فقال الرجل:
"إذا كان هذا دليلاً على إثبات الصانع، فإن بَظَرَ أُمَّكَ يدل على
نفي الصانع، لأنها إذا قطعت لم ينبت!".

- وفي المقابلة الخامسة والثلاثين، يحدثنا على لسان أبي
اسحق النصيبى، قائلاً: "ما أعجب أمر أهل الجنة". قيل:
و"كيف؟". قال: "لأنهم يبقون أبداً هناك لا عمل لهم إلا الأكلُ
والشربُ والنكاحُ، أما يكلون؟ أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال
الخشيسة، والتي هي مشاكلةٌ لأحوال البهيمة؟ أما يأنفون؟ أما
يَضُجرون؟".

- ويحدثنا في "الإمتاع والمؤانسة"، الجزء الثاني، قائلاً إنه
اجتمع رجلان أحدهما يقول بقول هشام، والآخر يقول بقول
الجوالقي. فقال صاحبُ الجوالقي لصاحب هشام: "صف لي
ربك الذي تعبده". فوصفه بأنه لا يد له ولا جارحةٌ ولا آلةٌ ولا
لسانٌ. فقال له الجوالقي: "أيسرك أن يكون لك ولدٌ بهذا
الوصف؟". قال: "لا". قال: "أما تستحي أن تصف ربك بصفةٍ
لا ترضاها لولدك؟". فقال صاحب هشام: "إنك قد سمعت ما
نقول: فَصِفْ لي أنتَ ربك". فقال: "إنه جَعْدٌ قَطَطٌ في أُنْمِ
القامات وأحسنِ الصور والقوام". فقال صاحبُ هشام: "أيسرك
أن تكون لك جاريةٌ بهذه الصفة تطؤها؟! قال: "نعم". قال:
"أفما تستحي من عبادةٍ مَنْ تُحِبُّ مَبَاضِعَةً مثله؟!".

ج- الخيارات: هذا غييضٌ من فييضٍ ما خلّفه لنا التراث الإسلاميُّ في التجرؤ على الذات العليا والنبىِّ الكريم. فما العمل؟ هناك خيارات ثلاثة :

- إما أن يتفضّل السادة العلماء، في الأزهر، وليكونوا منسجمين مع أنفسهم، بتأثيم هذا التراث، وتكفيره، ومن ثم مصادرتة وإحراقه، لأنه يقدم مثلاً للأحفاد على التجرؤ كما فعل حيدر حيدر (!) ؛

- وإما أن تتفضّل المؤسسات الثقافية الرسمية "العلمانية" بتأويل أسئلة العقل وشكوكه بوصفها أسئلة إيمانٍ وطاعةٍ هدفها محاربة الإلحاد (!) ؛

- وإما أن نتعلّم من التوحيدى كيف نحترم مشاعر الناس، وحرّياتهم في التفكير، وصيانة مقدّساتهم، فلا نطرح على الدين "كيف" و"لماذا". فهذه الأسئلة تُطرح على آلة الفكر كجهازٍ لإنتاج المعرفة، في حين يبقى الدين جزءاً من بدهة الذات البشرية إلى أمد غير منظور، حتى لو تمّ تقويض كل القواعد والنظم المعرفية التي تؤسّس له؛ فهدف العلمانية ليس تفكيك ذوات البشر، بل تفكيك نواظم تفكيرهم.

رد حيدر حيدر

فتهاء النقد المتعالي

في عدد مجلة "الأداب" الأخير يكتب الناقد السوري عبد الرزاق عيد مقالاً تحت عنوان "وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلامي والفقه العلماني".

يستهل المقال في المقطع الثاني بالعبارة المثيرة التالية: "لقد انتصر الفقه وانهزمت المعرفة، عندما تمكن الأصوليون من جرّ العلمانيين إلى مناقشة نص أدبي مناقشة فقهية، أي عندما جرّوهم إلى التعامل معه بوصفه "وثيقة عقائدية".

إن استخدام كلمة "نصر" و"هزيمة" ليست دقيقة ولا موضوعية في سياق الحدث الذي فجرته الرواية في مصر والبلاد العربية والعالم.

فكرة "جرّ" العلمانيين إلى مناقشة نص أدبي مناقشة فقهية، يمكن قلبها إلى معاكسها، والفكرة المعاكسة يمكن صياغتها بوجه آخر: لقد فرض نص أدبي بما هو وثيقة أدبية - علمانية نفسه على الأصوليين كي يقرأوه. هؤلاء الذين لا يقرؤون الأدب أساساً، ويرون فيه هامشاً مهملاً بعيداً عن الفكر والتأثير في الحياة العامة للناس.

لقد فرض النص الأدبي وجوده على الأصوليين المكتفين بقناعة فقههم الديني، مزلزلاً اطمئنانهم وراجاً قناعاتهم شبه الثابتة، فأخرجهم عن أطوارهم حتى حدود المطالبة بالقتل وإهراق الدم، كما لم يحدث منذ المعتزلة وصلب غيلان الدمشقي إلى محاكمة وقتل الحلاج والسهروردي.

إن طرح المشكلة القديمة - الجديدة حول الإيمان والإلحاد، والمقدس والمنزل والتاريخي، مسألة أساسية تدخل في صلب التكوين المعرفي، وهي واحدة من المسائل الكبرى التي يبني عليها أساس المجتمع المدني - الديمقراطي - العلماني الحديث، أو يشاد المجتمع الديني في حال سيطرة الأصوليين المتعصبين على المجتمع من خلال أطروحة الإسلام السياسي.

إذن فالمسألة التي طرح السجال حولها إبان عاصفة الغضب والتكفير والإرهاب على الوليمة ليست انجراراً من فضاء أدب إلى فضاء فقه، كما يرى الناقد من خلال بعده الأحادي الجانب.

لقد حدثت خلال الأزمة وعلى مدى ثلاثة أشهر، سجلات متنوعة وغنية بين المثقفين العرب لا حول التكفير والحرية، والمساس بالدين أو عدم المساس به، بل حول مسائل جوهرية تتعلق بالصراع والمواجهة بين تيارين متناقضين أساساً في رؤيتهما الفكرية والحضارية لمستقبل بناء المجتمع العربي: الحرية والاستبداد، الثابت والمتحول، القدم والحداثة، العقل والنقل، ثقافة القمع والمنع وثقافة الانفتاح على العصور الحديثة، الرأي والرأي الآخر، وأهمية

الاختلاف في النظر المعرفي للتاريخ والتراث، الاستنارة والظلامية، النص المغلق المكتفي بذاته وفقهائه، والنص المفتوح على الاجتهاد والمعرفة الحديثة وتطور الوجود البشري.

وفي سياق الدفاع أو الهجوم على النص الأدبي "الوليمة" جرت حوارات وسجلات واحتدامات فكرية حول حرية الأدب وحدود هذه الحرية، ومن هو الحكم والقاضي في تقويم العمل الأدبي. ثم كيف نقرأ الأدب. وهل يجوز الاقتراب من بعض المقدسات والمسلمات كما يرى الأصوليون المتزمتون أم لا. وإلى أي مدى تُعبر شخصيات الأديب عن مؤلفها، هل حوار وأفكار هذه الشخصيات هي انعكاس لأفكار الأديب؟ أم أن هناك مسافة وافتراقاً بين الأديب وشخصياته، وهل يقرأ العمل الأدبي كنص متكامل ومتربط في سياقه النبوي والعضوي أم - يجتزأ وتفكك مفاصله إلى مقاطع وفقرات خارج السياق الكلي؟

هذه المشهية السجالية المتنوعة والغنية لا أظن أن الناقد عبد الرزاق عيّد قد تابعها واطلع على حيثياتها كاملة في وسائل الإعلام العربية المكتوبة والمرئية والمسموعة (أرشيفها محفوظ لدي بالكامل وبإمكانه الاطلاع عليه إذا شاء)، في الوقت الذي يجري فيه الإعداد لملف كامل عن الأزمة سيطلع في كتاب.

الاستهلال الذي بدأه الناقد سيكون مقدمة لنقد متعال، غريب، وأحادي، للرواية.

بعد ثلاثة عشر عاماً من نقده للرواية في مجلة "الحرية" في العام ١٩٨٧، سيكرر الناقد أطروحته إياها حول: البلاغي الإيديولوجي / الكلامي السوسولوجي.

تتلخص أطروحة الناقد، الفقيه أدبياً، في الأفكار التالية :

- ١- المطلق والنسبي. أو الواقع والمثال.
- ٢- هيمنة الصوت المفرد للكاتب.
- ٣- التركيز على الكلمة - المفردة عن سياقها الدلالي.
- ٤- ثنائية اللغة والكلام.
- ٥- البلاغة والمجاز البنائي.
- ٦- حضور الأنا كمعادل موضوعي للواقع.
- ٧- محور الأنا / الغرائزية الفرويدية وإطلاق "الهو" وصراخات الدوافع، حيث تبدو الحرية كتجاهل للضرورة وهناك صورت واحد: صوت الغريزة الجنسية. (ولا يتورع الناقد عن نعته بالجهل في التمييز بين الحرية والضرورة - لا فـض فـوه).
- ٨- اتهام الكاتب حيدر حيدر بالبورجوازي الصغير الذي يرى في الحرية تجاهلاً للضرورة أو عدم اعتراف بها متجاهلاً أو (جاهلاً) قوانينها.
- ٩- الخطاب اللغوي الذي يسميه / خطاب العرض / خطاب منزوع من مادته وإيديولوجيته فهو ينزع نحو "رخامة فارغة" ونحو "الخفة والسهولة المجوفتين". ونحو تعقيدات "بلاغية

متنفخة وجوفاء" ونحو دلالة "أحادية فارغة" واستخدام الكلام البذيء والشتائم، والتعدد اللغوي لا يخرج عن الصوت الواحد الكاتم للأنفاس.

هذا ما يراه الناقد العظيم والفقير السوسولوجي، المتبحر في المعرفة والعلوم وبنوية النقد الأدبي، لا في رواية "وليمة لأعشاب البحر"، إنما في أعمال حيدر حيدر جميعها، ومن خلال نقده ذي الطبيعة الاتهامية والانحيازية، يفتي لي فتوى متعالية بضرورة العودة إلى كتابة القصة القصيرة كوني أحد فرسانها في الستينيات مع زكريا تامر. والمضمر في تلافيف هذه الفتوى أن الرواية ليست مضماري ولا ميداني فهي لفرسانها الكبار من أمثال نجيب محفوظ أو حنا مينه أو العجيلي أو عبد الرحمن منيف من روائبي الواقعية الاجتماعية أو الواقعية الاشتراكية، دون التصريح بالأسماء المذكورة جميعها.

يستند نقد الناقد إلى استيهام أو استيلاء فرضيات ذات صفة احتمالية - ذاتية - متعالية لاهوتية في دلالتها المعرفية، وهذه الفرضيات ستتج متواليات مصاغة في الذهن مسبقاً، سوف لا تخلو، بل تنكشف دلالتها بصيغة اتهامية هي أبعد ما تكون عن النقد الموضوعي حين أوصف بالبرجوازي الصغير، أو الجاهل لمفهومي الحرية والضرورة وحين تتكرر عبارات حكم قيمة من نوع "رخامة فارغة" و"خفة وسهولة مجوفتين وتعقيدات بلاغية متنفخة وجوفاء" و"أحادية فارغة" واستخدام الكلام البذيء

والشتائم. أين هو النقد الأدبي الموضوعي أو التحليل المحايد البعيد عن حكم القيمة في استخدام مثل هذه العبارات المدنية اللامعرفية، والشخصانية والتهديمية في دلالة استبطانها؟

إن إطلاق الأشواق والأحلام والأحاسيس الداخلية والأمني، توقاً وحلماً بعالم أجمل وطيّق يوسم تحت مجهر الناقد بميسم المطلق والمثالي، وتكبّ هيمنة الواقع بما هو ضرورة، لذا فالحلم والحرية ورفض الواقع الفاسد والمزيف والمسيطر عليه بإيديولوجيا سياسية واجتماعية زائفة واستبدادية، هذا الرفض، وهذه المواجهة الصدامية بين الشخصيات الروائية، وعالم اللاحرية والقمع والكبت، تماهى، في رؤية الناقد مع المطلق اللامتحقق، ومع المثالي الرومانسي الجاثم في عقل الروائي "البورجوازي الصغير" الحال، و"الجاهل" بمفهوم الضرورة الاجتماعية السائدة. نحن هنا إزاء رؤية إيديولوجية - سياسية في جوهرها - رؤية لا ثورية، تنفي المواجهة الحادة والتغيير، وتتناقض مع مقولة ماركس الذي يرى في الفلسفة لا تفسير العالم بل تغييره.

إن الواقع المتغير والمستبدل ثورياً ليكون نقيض العالم القديم المفروض، هذا الواقع الجديد كان حلماً ومثالاً في البدء قبل التحقق.

وعبر مسار التفكير بتغيير الواقع الفاسد والاستبدادي واللاهوتي، منذ الثورة الفرنسية البرجوازية إلى الثورة الاشتراكية، وما تلا ذلك من ثورات في العالم، كان هناك انقسامات وآراء

مختلفة متباينة في كيفية وسائل العمل من أجل حلم ومثال التغيير .

هل يتم الفعل التغييرى بوسائل ديموقراطية برلمانية سلمية هادئة؟ أم بوسائل عنيفة صدامية مسلحة ؟

من الثورة الفرنسية إلى الثورات الاشتراكية في العالم، إلى الثورة الجزائرية، تمّ فعل التغيير بالوسائل المسلحة والعنيفة، بعيداً عن النتائج الإيجابية والسلبية التي جرت فيما بعد لهذه الثورات .

هذه البديهيات السياسية في أبجديات الثورات ليست غائبة عن ذهن وفكر الناقد الفقيه، لكنه غيبها وأزاحها في تحليله الذاتوي، ليؤكد فرضيته الخاطئة والدوجمائية حول فكرة المطلق والمثال " كمعادلين يتناقضان مع الضرورة الاجتماعية، وفعل الحرية النسبية في فضاء هذه الضرورة .

لا تكمن خطورة هذا النمط الانتقادي في مقولة الاتهام "بالبرجوازي الصغير" ، وهي مقولة بائدة جدانوفية المنشأ، تخطاها الزمن كونها تهمة سياسية تنطق على الناقد أو على المفكرين والمثقفين والقادة الثوريين من ذوي المنبت البورجوازي الصغير، إنما الخطورة في نقد عبد الرزاق عيد المتعالي والتهديمي تنطلق من فكرة "احتكار المعرفة" وإدراك عوامل سيرورة التاريخ، والديناميات المؤثرة في هذه السيرورة، وتجهيل الآخر "المطلقى والمثالي والفردى" انطلاقاً من فرضية متهاففة في الأساس، تنصب في جوهرها لا على نقد النص، إنما على نقد الكاتب بما هو صوت

■ ————— وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلاموي والفقه العلمانى ————— ■

شخصي وذاتي ينطق باسم شخصياته حين يحلل عواملها الاجتماعية والسياسية والنفسية، وأسماها الكاتب بالنزعة الغريزية - الفرويدية، بدائية المنشأ، وغير الاجتماعية. هذا النقد الذي يتقاطع في النهاية مع رؤية الإسلاميين المتعصبين الذين اتهموا أصوات شخصيات "وليمة لأعشاب البحر" بأنها صوت المؤلف والكاتب، وليست شخصيات تتحرك في الواقع ولها أفعالها وأقوالها ومواقفها الخاصة بها، واستناداً إلى هذه الرؤية المبترسة واللامنطقية، دخل المؤلف والروائي قفص الاتهام التجديفي وأطلقوا رياح عاصفة الغضب والكراهية ضد "الوليمة".

لم يحدث في تاريخ النقد الأدبي أو علم الكلام، سوى في القواميس، أن أخذت الكلمة - المفردة بأكثر من دلالة على الفعل والاسم والحرف، فالكلمة - المفردة لا معنى لها أكثر من إشارة إلى شيء، أو فعل حين تقتطع من سياقها، سياق الجملة والعبارة والأسلوب لتدل على معنى مفيد (هذا ما نعلمه لطلابنا في المرحلة الابتدائية).

إن هجر كلمات أو مفردات قديمة، استهلكها التاريخ الأدبي وتواتر كثرة الاستعمال، وتوليد أو اشتقاق مفردات جديدة، يدخل في سياق بنية أسلوبية حديثة يجليها الناقد عن ذهنه قصداً أو تجاهلاً، حتى لا يقترب من فضاء الرواية الحديثة، هذه الرواية التي لا يعترف بها الناقد أصلاً.

هذه البنية الأسلوبية الحديثة مفارقة لأسلوب الرواية الاجتماعية القديمة، المشادة على أساس أسلوب رواية القرن التاسع عشر الأوروبية: أسلوب الأحداث والوقائع والسرود الطويل الفضفاض والممل، حيث الزمن الروائي معادل للزمن الموضوعي في استمراريته ووصفه الإنشائي وتصويره الدقيق الفوتوغرافي.

من خصائص الأسلوب الحديث في الرواية التكتيف في القول والجملة والعبارة، والاقتصاد اللغوي بعيداً عن الهذر والاستطالة والنافل من الشرح والتوصيف والحوار الممل، نزوعاً نحو الدلالة الإيحائية بحيث لا تقال الأشياء بكليتها وتفصيلاتها ومعرفتها الشمولية، وذلك انطلاقاً من تطور معرفة الإنسان المتلقي وثقافته في العصر الحديث.

يدور الناقد عبد الرزاق عبيد في دائرة واحدة مغلقة على الإنسان هي الدائرة الاجتماعية، انطلاقاً من منظور إيديولوجي ذي جذور اقتصادية - ماركسية.

وهذا المنظور الأحادي قاصر عن تفسير الإنسان - الفرد في مجال وجوده في العالم، وبنيته الداخلية المعقدة، وصراعه مع تناقضات الواقع، وجداله مع موروثه الفردي والتاريخي. تنتج هذه الرؤية الأحادية، بطابعها الاستبدادي الانتقائي مساراً من أحكام القيمة الاعتباطية. وهكذا فالناقد يرى في التحليل النفسي لبعض الشخصيات المتأزمة والمساوية، والدخول إلى المناطق اللاشعورية

— ■ وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلامي والفقه العلماني ■ —

لهذه الشخصيات، بعداً غريزياً، وتأسيساً على هذا البعد تتحول كتابة السارد - الروائي إلى كتابة غريزية - بدائية، لا اجتماعية، تتأسس على استنفاد الطاقة التعبيرية والانفعالية لـ (الكلمة). بما هي قول أو ملفوظ الروائي - السارد، لا الشخصية الروائية.

إن "وليمة لأعشاب البحر" وقبلها "الزمن الموحش" وغيرها من روايات حيدر حيدر، تشاد على ركام من "الكلمات"، وهذه "الكلمات" المفصولة عن سياقها الاجتماعي والدلالي، هي خطاب السارد، عبر أطياف مشاعر وانفعالات، تصب في استنتاج الناقد في مدار "الحالة النموذجية" للرومانتيكية. إنه اكتشاف قارى مذهل حقاً! فالتناقضات والصراعات الملحمية والمآسي، وفضح الاستبداد والسياسي، والانغلاق الديني والكبت الاجتماعي، والانهيارات الثورية، والأنظمة العربية المتوحشة والوصولية، والفساد الاقتصادي والنفسي والاجتماعي، وحروب ملوك وأمراء الطوائف، واغتيال العقل والحرية، وهيمنة الدكتاتوريات العسكرية، وتآليه الفرد الزعيم ظل الله على الأرض، والمتحكم برقاب العباد وأرزاقهم، ونهب الأوطان، وإيقاف حركة تطور التاريخ نزوعاً إلى بناء مجتمع مدني ديمقراطي علماني في العصور الحديثة. هذه الظواهرات المشلة للإنسان والوطن، والحائلة دون تقدمه وبنائه على أسس علمية وديموقراطية، تختزل في منظور الناقد الفقيه إلى رؤية "رومانسية" وتشخيص شعري وسحري، محض لفظي، في كتابة السارد - الروائي.

يقع الناقد، بعد إطلاقاته الوثوقية، وفرضياته الفقهية العاملة، في التناقض، حين يستثنى فصل "نشيد الموت" من كلامه، مشيحاً عن فصل "الأهوار" أو مشهد قطار الموت أو يوميات بشير حاج علي في السجن، وفصول وحوارات أخرى بين الشخصيات الروائية المستقلة عن الراوي وكلماته الذاتية والرومانسية.

هذه الاستثناءات تهدم فرضية الناقد واستنتاجاته الإطلاقيه، والمادة "الهيولية المائعة" فيما أسماه "الخطاب الإيديولوجي البلاغي".

إن أي خرق في الجدار الذي يبدو متماسكاً، يؤول في النهاية إلى انهيار الجدار الهش. هذا الاستدراك التناقضي، أوقع الناقد في حالة من الارتباك كان بغنى عنها لو واصل نقده التهديمي ورؤيته المتماسكة عبر فرضياته وتحليلاته الفراغية، لأن الاستثناء هنا لا يثبت القاعدة التي انطلق منها، بل ينسفها من أساسها.

فالقاعدة التي أسس عليها الناقد بنيانه تشير إلى وحدانية "الكلمة - المفردة" التي تشاد عليها الرواية وهذا حكم مطلق، كما يرى. وما تقوله الشخصيات هو كلام المؤلف ومنطوقه اللفظي - البلاغي، ليس إلا. وكتابة السارد "غريزية - جنسية". وحضور الأنا "معادل موضوعي للواقع". والراوي يستبدل "خطاب المشهد" بـ "خطاب العرض" النازع نحو الرخامة الفارغة، والخفة والسهولة المجوفتين، كما يرى ويشرع الناقد اللامع.

هذه هي القاعدة الأساسية التي بُنيت عليها فرضية الناقد، فكيف حدث باستدراك منه، أن اخترقت هذه القاعدة بفصل "نشيد الموت" وعبره قيل قول آخر مناقض تماماً للقاعدة؟ لا بد أن أحداً منا ملثا، وبحاجة ربما إلى مصحح أدبي أو عقلي لا فرق!

إذ من غير المعقول أن يبنى عمل روائي على مستويين أو أكثر من المنظور الهندسي الروائي المتناسك. فإما أن يكون الروائي في "وليمة لأعشاب البحر"، مؤلف كلمات ومفردات لا غير، وبنيان روايته يقوم على هذا الركام اللفظي - البلاغي والقش اللغوي، كما يرى الناقد، وإما أن يكون الروائي قد أشاد روايته على أساس أسلوب معاصر، الكلمة فيه لا معنى لها سوى في سياقها الجملي والعبارتي واللغوي الدال على معنى، والحامل لقيمة حديثة تشكل رؤية ذات دلالة للإنسان والعالم.

منذ ما يقارب من نصف قرن بدأت حركة التجديد والحداثة في الشعر العربي، حداثة في الوزن والتفعيلة، وحداثة في المفردات والعبارة، كذلك في الأسلوب والصيغة والبناء المعماري وانفتاح آفاق المعرفة، والدخول إلى العصور الجديدة اقتضت بل حتمت هذا التحديث الشعري من خلال حيوية وطاقة اللغة العربية في ديناميتها الخلافة عبر المجاز والاشتقاق والتوليد والاستعارة والكناية.

إن كسر القوالب القديمة في الشعر وفيما بعد في المسرح والسينما والموسيقى والفن التشكيلي، يشير إلى حيوية الثقافة العربية، وقدرتها الطلائعية، وشهادتها المتقدمة قياساً بالظواهر الأخرى في الحياة العربية السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية.

خلق الشعر والفنون الأخرى لغة جديدة وأسلوباً مفارقاً للقديم، هجرت واستبدلت مفردات وكلمات وجمل وعبارات تهرأت من كثرة الاستعمال، صيغ تعبيرية قديمة صارت قاصرة، في مدلولها الاجتماعي والنفسي والتاريخي، في التعبير عن اضطراب الإنسان الجديد وصراعاته مع الذات والموضوع، واضطراب المجتمع وتحولاته السريعة والحياشة. هذه الصيغ القديمة في سياقاتها استبدلت بصياغات جديدة كنتيجة طبيعية لحراك المجتمع والإنسان، والانتقال من طور حضاري معين إلى طور حضاري جديد، أكثر تعقيداً وأرقى معرفياً.

التطور والتحديث للذات واكبهما الشعر والفنون الثقافية الأخرى، استجابة لتطور العصر وإنسانه جرى في مضمار الرواية العربية. فكما من غير المعقول الثبات في الصيغ الشعرية على أعتاب البحري والمتنبى وأبي تمام، والتلفع بمعاطفهم القديمة، على أهميتهم في عصورهم، كذلك من اللامعقول الثبات على الصيغة الأدبية للجاحظ وأبي حيان التوحيدي ومقامات الحريري، والسرد الشعبي في ألف ليلة وليلة، وحديث عيسى بن هشام وكليلة ودمنة، وتغريبة بني هلال، على أهمية هذا الموروث التاريخي وقيمه في زمانه.

لقد تخطت الرواية العربية الجديدة رواية عصر النهضة واستمراريتها التي تواصلت خلال خمسين عاماً أو أكثر إذا ما بدأنا بفرانسيس المراه - السوري، في العام ١٨٧٠، مروراً بـ "زينب" لمحمد حسين هيكل - المصري، في العام ١٩١٤، وصولاً إلى الثلاثيتين: ثلاثية نجيب محفوظ وثلاثية محمد ديب.

إن التخطي الحدائي لهذين المثالين لا يعني على الإطلاق موقفاً سلبياً، بل هو إشارة مهمة إلى مدى قدرة رواية الواقعية الاجتماعية، بما هي تأسيس وخروج في آن. فالفن الروائي أفق مفتوح بدءاً من الرواية الواقعية والطبيعية والرومانسية والرمزية والوجودية والنفسية، ورواية المكان، والواقعية الاشتراكية والنقدية، والرواية الجديدة. هذا الميدان الفسيح ما يزال مفتوحاً أمام الرواية العربية. ووحده العسف الإيديولوجي الضيق يحدد الدوغما الأسلوبية عبر تنظير وهمي، افتراضي، لم ينجز ولن ينجز تاريخياً، حاله كحال الدوغما - الأحادية في مضممار الاقتصاد والاجتماع.

يشير نيكوس كازانتزاكي الروائي اليوناني إلى أهمية الرواية الجديدة فيقول: "ربما كانت الكتابة نوعاً من اللعب في عصور أخرى: أيام التوازن والانسجام. لكنها اليوم مهمة جسيمة، ما عاد الغرض من الكتابة تسلية العقول بالقصص الخرافية، أو مساعدة هذه العقول على النسيان، بل الغرض منها تحقيق حالة من التوحد بين كل القوى الوضاء القادرة على الحياة، وتحريض الإنسان على بذل قصارى جهده لتجاوز الوحش الكامن في أعماقه".

تطرح الرواية العربية " مهمة جسيمة " وخطرة في آن . الجسامة تتجلى في تعرية ما هو مستمر ومحرم على البوح داخل " التابو " أو التابوت المغطى : الكشف عن التلفيق والرياء والنفاق والزيف الراهن ، حتى حدود الفضيحة . أما الخطورة فتبدى في مغامرة كسر القوالب ، والصيغ التقليدية ، وتخطى المؤلف عبر اللغة والمجاز والنسيج الأسلوبي . ولعل أبرز التمايزات للرواية الجيدة ترسم في ميدان هذه المغامرة التي تبدو للوهلة الأولى كأنها تجريبية وصادمة وقابلة للتأويل .

وهذه الرواية ، إلى جانب اهتمامها بمجالات المعرفة الإنسانية كالشعر والرسم والموسيقى والسينما ، والعلوم البشرية كالسياسة والتاريخ والاجتماع والفلسفة وعلم النفس والاقتصاد ، أدخلت في جوهر بنيتها أنثروبولوجيا الشعوب والجماعات ، والأساطير القديمة ، والصراعات الملحمية والنفسية للإنسان ، وهو يحاول التوازن مع العالم الموضوعي إزاء ضعفه النفسي والبيولوجي :

إن منظور الصراع في العمل الروائي ذو حدين : موضوعي وذاتي : كفاح الإنسان لمواجهة القوى الطاغية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، وكفاحه الداخلي نزوعاً نحو التوازن النفسي في مواجهة الاغتراب الروحي والإحباط ومظاهر العصاب والكآبة والألم والشقاء وشبح الموت والدمار الذاتي ، والعلاقات المرضية واللاعقلانية الموروثة . لا يبالغ الروائي د . هـ . لورانس حين يقول : " الرواية هي الكتاب الوحيد المضيء عن الحياة ، إنها

تساعدك على ألا تكون ميتاً في الحياة، وهي توازنك ضد رياح الدمار التي تهب عليك من جميع الاتجاهات".

حتى نكون عادلين وموضوعيين، علينا أن نعترف بأن أدباء الرواية الجديدة قد تخرجوا من الأكاديمية العريقة للرواية الواقعية الاجتماعية، وهم ما زالوا أوفياء للعلاقة التاريخية معها، رغم الخروج عليها نحو آفاق جديدة في النسيج الروائي وتعميق المعرفة في دينامية وتطور الحياة الإنسانية والمجتمع والفرد. فالواقع هو المرجع أولاً في أي عمل أدبي، والرواية لا تهبط من سماوات الغيب أو المخيلة، وأي رواية بلا مرجعية واقعية تبدو ضرباً من الهراء والجنون المرضي واللامعنى. لكن الجديد في رواية الحدائث هو الأسلوب في الخلق والإبداع الفني الموازي للواقع، إنما ليس هو في كينونته الموضوعية، خلق وتشكيل الظلال الجمالية كما في تشكيل صلصالي مأخوذ من المادة الخام (الطين - الماء) ليولد من تلك المادة شكلاً آخر ليس الطين وليس الماء. إذا كنا نكتب رواية واقعية حقاً، ونحن نكتبها بأشكال مغايرة ومتطورة، وبلغة جديدة وأسلوب جديد، لا بد لنا أن نكون أوفياء لعصورنا، وشهوداً في آن، نرصد ونحلل ونشهد، ونفضح الجور والقهر والاختراب والقسوة والقمع والانحطاط ونعري ما هو سلبي ومسكوت عنه معاد للحرية وجمالية العالم والإنسان.

يبدو المشهد الروائي العربي الآن مرتبكاً وملتبساً في ذهن المتلقي والقارئ. ثمة اختلاط وتشابك يعكسه الحضور المتوازي

للرواية الواقعية والجديدة معاً. ولعل أحد مظاهر هذا الالتباس هو الروائي الذي يكتب أحياناً بأسلوبين متباينين، فثلاثية الجزائري محمد ديب (المدار الكبيرة - الحريق - النول) المكتوبة بأسلوب الواقعية الاجتماعية تختلف جذرياً في أسلوبيتها عن روايته (من الذي يذكر البحر؟) التي تنتمي إلى أسلوب تيار الوعي والذاكرة.

الحالة إياها في روايات نجيب محفوظ ما بعد الثلاثية، إذ تبدو تلك الروايات مغايرة أسلوبياً عن الثلاثية في ميرامار وثرثرة فوق النيل والروايات التي تلت.

الروائي الفلسطيني غسان كنفاني في روايته (ما تبقى لكم) ينعطف هو الآخر عن الأسلوب الواقعي الاجتماعي إلى أسلوب تيار الوعي. لعل الشرح الذي حدث في أعماقنا كحالة انتباه وصدمة جديدة، راعشة وجميلة، ربما بدأ مع أسلوب هذه الروايات الحديث، مضافاً إليها "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، و "تلك الرائحة" و "نجمة أغسطس" لصنع الله إبراهيم، و "الزيني بركات" للغيطاني و "نجمة" لكاتب ياسين و "رامة والتنين" لإدوارا لخراط وبعض الروايات المغربية الجزائرية للطاهر بن جلون ورشيد بوجدره ومحمد شكري. ثمة حوادث إذن، وليس حوادث واحدة، تختلف وتتباين بين روائي وآخر، والمضائق الوعرة عبر هذه الحوادث المتنوعة يظل عنصر الجذب المغناطيسي فيها هو الإيقاع الواقعي للأحداث، الحالة الدرامية للشخصية الروائية وهي تواجه مصيرها الكوني.

الفن الروائي راهناً ومستقبلاً، أفق مفتوح، ومصطلح "التجريب" لا يسوغ الانفلات من القوانين الأساسية والنزوع نحو الفوضى، والنزوات الذاتية، والشكلانية الصرف، أو لعبة الإبهام والغموض واللامعنى.

عبد الرزاق عيد

ثقافة الفتنة واستمراء النجومية

في جريدة المستقبل اللبنانية، ينشر حيدر حيدر في عدد السبت ٢٣ سبتمبر سنة ٢٠٠٠ ، مقالاً يرد فيه على دراستنا في مجلة الآداب السيروتية السابقة الذكر ثم ينشر المقال ذاته وتحت العنوان ذاته في (أخبار الأدب) بشكل موسع، وقد قمنا بالرد عليه في الجريدة اللبنانية نفسها (المستقبل) وها نحن نخص (أخبار الأدب) برد موسع مماثل لما قام به حيدر في مناقشة المسائل المثارة.

يشن حيدر علينا في المقالتين (المستقبل - أخبار الأدب) حملة شعواء بدءاً من العنوان "فقهاء النقد المتعالي" متهكماً من "الناقد العظيم والفقهاء السوسيولوجي، المتبحر في المعرفة والعلوم وبنوية النقد الأدبي" مندداً بهذا النقد "ذي الطبيعة الاتهامية الانحيازية الذي يفتى فتاوى متعالية، لاهوتية. رؤية لا ثورية، تتناقض مع فلسفة ماركس الداعية إلى تجاوز التفسير إلى التغيير، ومن ثم الخلوص إلى أن خطورة نقدنا تكمن في أنه "نقد متعالٍ تهديمي ينطلق من فكرة "احتكار المعرفة" وأخيراً: فإن نقدنا يتقاطع في النهاية مع رؤية الإسلاميين المتعصبين" هكذا ينتهي حيدر إلى تسويق البضاعة ذاتها التي سوقت ضده، وهي بضاعة الإرهاب،

■ ————— وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلامي والفقه العلمانونى ————— ■

فما دام عبد الرزاق عيد علمانياً، فأقصر طريق لإسكاته، إرهابه باتهامه بالتعصب الديني.

ويبدو أن حيدر حيدر استمرراً لعبة ثقافة الفتنة، ما دامت تحقق له كل هذا الكم من النجومية، فراحت توسوس في صدره من جديد، فلم يجد سوى أن يرمي عبد الرزاق عيد بتهمة التعصب الديني، وهدفه من ذلك:

أولاً: أن يحرف النقاش النظري التقني والجمالي للرواية، ليقوده إلى الأرشيف الذي يدعو للاطلاع عليه، ما كتب ونشر في وسائل الإعلام العربية، المكتوبة والمرئية والمسموعة، وذلك لإرهابه فكرياً، ودعوته إلى وليمة الهذر السياسي والفقهي التبسيطي والساذج (الأصولي والعلماني) الذي تناقلته (فضائيات) التسلية وإملاء الفراغ.

لقد برهننا تحليلياً بأن الرواية بمجموعها ليست إلا تكديساً للمفوضات سردية تتغير في الإيقاع التعبيري، لكنها تتوحد إيقاعاتها في صوت واحد هو صوت المؤلف، وأياً كانت عذوبة هذا الصوت، فإنه قد يقول شعراً أو ما يشبه الشعر، لكنه لم ولن يقدم قولاً روائياً. فمنذ القدم أعلن أرسطو أن الحكاية هي تركيب أفعال، وليس فخامة عبارة، وصولاً إلى يومنا هذا الذي تتعزز فيه مقولة أرسطو بأن الدراما (المسرحية والقصة) ليست فن كلمة بل فن مشهد وبناء. والوليمة تكتب نفسها، كلمة فكلمة وهي تدير ظهرها لهذه الحكمة النظرية، ولهذا فإن القول باستقلال الشخصية

عن المؤلف، هو قول صحيح ويصب في صلب نظرية الرواية، لكن أحداً لم يمتحن مصداقية هذا القول النظري إجرائياً من خلال تحليل الرواية (الوليمة) كما قمنا به، فكانت النتائج ما يريده الاستقراء النظري، لا ما تشتهيهِ الرغبات والأهواء، الأمر الذي قادنا إلى أن صوت المؤلف هو المهيمن والكابح لكل الأصوات، حيث يبدو الخطاب الروائي الذي يفترض تعدد مستوياته، هو خطاب الروائي، الكلي الحضور في (الوليمة)، نعم لم تستفد (الوليمة) من كل الإنجازات التقنية التي حققتها الرواية بوصفها معدلاً جمالياً ونظرياً لمجتمع الصناعة، العقلانية، العلم، فكان لنا فيها أمشاج حوادث، وحوارات تغرق في محيط من الكلمات، وعليك أن تبحث عن وجوه الشخصيات، وملامح الأحداث في هذا المحيط اللغوي الهادر بأصوات الغريزة، والأنا الذاتية المشاعرية، التي تصبغ كل ما حولها بألوانها الفاقعة، حتى التبس الأمر على ناقد متمرس كجابر عصفور، فراح يتحدث عن وقائع ومصائر وخصائص شخصية تتصل بمهيار الباهلي على أنها لمهدي جواد!

وهذا الاستقصاء التحليلي الذي يختص بالبنية التكوينية للرواية، قمنا به منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، أي لا علاقة له بمسجلات الفتنة الراهنة التي يدعونا حيدر أن ننحدر إلى مستوى الدخول في أرشيفها الذي يعده "كتاباً"، أي أنها لا صلة لها بكل هذا الهذر الدائر راهناً.

بل إن حيدر لا يتردد أن يعود إلى بحثنا في الآداب - دون أن يشير إلى ذلك مع الأسف - ويقرأ نصوصاً لأبي حيان التوحيدي، مختزلاً وموظفاً مغزاها ودلالاتها فيما يخدم دعواه، محرفاً هذه النصوص عن سياقاتها التأويلية التي أردنا استنباطها، وهي نصوص - على درجة من خدش الحياء - لا يمكن لعاقل أن يتصور إمكانية قراءتها على فضائية (الجزيرة) بتلك الطمأنينة التي قام بها حيدر لولا وسواس فتنة النجومية الذي يسكن فؤاده، والذي حجب عن ناظره إمكانية نقل ما كتبناه نصاً في مجلة نخبوية نسبياً إلى مشاهدي الفضائيات!؟

ثانياً: ما كتب حيدر هذا المقال إلا ليخلص إلى اتهامنا بـ (التعصب الديني) وحيدر يعرف - إلا أنه يتجاهل قصداً - أننا لم نتقاطع مع الأصوليين بالقول في التطابق بين المؤلف والشخصية، لأن هذه المسألة مما لا يعنى بها الأصوليون لأنهم لا يعرفونها ببساطة، ولأنهم بالأصل لا يعترفون بالرواية أدباً يستحق الاهتمام، ولهذا من الوهم الاعتقاد - كما يذهب حيدر - أن الرواية فرضت نفسها عليهم، لأن ما يفرض نفسه عليهم هو الملفوظ الأدبي، فالأدب بمنظورهم (جمال اللفظ)، وهو - في الآن نفسه - يتطابق مع ذات المؤلف لأن الأدب صورة عن النفس. العلمانيون إذن هم من حاول إقناعهم - ومن خلالهم الجمهور - أن الرواية فن تركيبى موضوعي، وأن استقلالية النص عن مبدعه ضرورة جمالية يترتب عليها استقلال الشخصية عن المؤلف، فراح

العلمانيون يوظفون هذا الشرط النظري توظيفاً إجرائياً انطلاقاً من تضامن إيديولوجي مع الكاتب، وفي خدمة (الوليمة) التي عجزت عن الارتقاء إلى مستوى هذا الشرط النظري الجمالي، وهو شرط المسافة الضرورية بين المؤلف وشخصياته، من خلال ما يتيح التخيل الروائي من مراوغة كنائية ومكر درامي يثري أسلوبية الرواية.

وحيدر يذهب إلى اتهامنا بالتعصب على غير قناعة، لكنه - ولغرض في نفسه - يريد زحزحة الحوار عن مواضعه، باتجاه ثقافة الفتنة التي استمرأ ضوضاءها، وأبهرت أضواءها لكي يدفع بي إلى القيام باتهام مضاد بأنه هو المتعصب، والأرض المحلية خصبة لاستنبات البراهين المسكوت عنها والمغلقة رياء بالإدعاء بالتسامح، وعماد البرهان على اتهامه بالتعصب الديني - لو ذهبنا مذهب حيدر - القول: إن انتهاكة للمقدس الديني والاجتماعي ليس ثمرة رؤية ثورية، بل هو امتداد للوعي الديني والاجتماعي المتداول في بيئته المذهبية الخاصة، وما رفضه لمنظورات الوعي الديني والاجتماعي السائد إلا ثمرة وعي ديني آخر مغاير ومختلف!

أعرف أن حيدر ليس كذلك، لكنني أردت أن أحذر من فتنة ثقافة الفتنة، وكم هو خطير اللعب بحيّزات المقدس والاستخفاف برأس المال الرمزي للبشر، ولأذكر حيدر بنصيحة شيخنا أبي

— ■ وليمة لأعشاب البحر بين الفقه الإسلامي والفقه العلماني ■ —

حيان، بأن ليس في الدين (كيف ولماذا) لأن الدين مجاله القلب والإيمان، أما هذه الأسئلة فهي تطرح على الفلسفة لأن أدواتها العقل والبرهان، ورواية حيدر - بكل الأحوال - ليس فيها أية نفحة تأملية فلسفية أو انشغال بفلسفة الوجود، فهي لا تتمركز في كل حواراتها على "النقيضة" وفق أوبرزفيلد، حيث النقيضة تشير أطروحة، فأطروحة مضادة، فتركيب نوعي جديد لتشرع أسئلة فلسفية عن الكون والإنسان والوجود والمصير. . إلخ كما هي عليه روايات نجيب محفوظ مثلاً.

ولذا لا علاقة لحديث حيدر عن المعتزلة وغيلان الدمشقي ومحاكمة وقتل الحلاج والسهر وردي بروايته، التي لا تتجاوز فيها دلالة المجاز حدود علاقة المشبه بالمشبه به، دون أن يرتقي هذا المجاز إلى مستوى إنتاج الدلالة البنائية التي يمكن أن تفضي إلى مجرات دلالية كبرى، فكيف يمكن أن يتاح لها إثارة الأسئلة الفلسفية؟

إن الوليمة ليس لها أي مساس - بما يسميه حيدر - (المشكلة القديمة - الجديدة - حول الإيمان والإلحاد - والمقدس والمنزل والتاريخ).

فهذه المسائل لا يمسه النص إلا مساساً عاماً، أي أنه ينتج وعياً مقلوباً بالفكر الديني العامي السائد، وبعبارة أوضح إنه - وكما يقول العامة - "يسب الدين" فالكفر في الرواية ليس كفراً

فلسفياً، "معرفياً"، بل هو كفر (حاناتي - حانوتي)، لا يرتقي إلى مستوى التسامح القرآني في إطلاق حرية العقل "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".

فالمستوى العامي، اليومي المتبدل في التعامل مع المقدس هو الذي أثار العامة وشيوخهم، عندما مس مشاعرهم، وليس لأنه "رج قناعتهم".

لأن النصوص التي ترج قناعات البشر، هي تلك النصوص التي تحفز حاسة التأمل والسؤال عندهم، وليست تلك التي تحرض غرائزهم الدموية وتدفعهم إلى حمل السكاكين.

الرواية التي استطاعت أن ترتقي إلى مستوى طرح هذا السؤال جمالياً - معرفياً هي "أولاد حارتنا" التي تمكنت من القيام بأعظم عملية حفر معرفية - جمالية للوصول إلى الجذور، جذور الوعي الثيولوجي للمقدس، لتضع أغامها الفلسفية في أسس منظومة الوعي اللاهوتي للمقدس، لتفكيك منظومات فكرية، معرفية، ثقافية، لا لتفكيك الذوات البشرية، عبر إهانة معتقدات البشر، فلماذا يقاتل المثقف في سبيل حرية تفكيره وتعبيره بوصفها من مبادئ حقوق الإنسان بينما ينكر هذا الحق على المجتمع وعلى عامة الناس الطيبين؟ نعم إن هذا الحق يمكن محاورته، مساءلته، تفكيكه، نقده، لكن معرفياً، فلسفياً، وليس مشاعرياً ووجدانياً عبر الشتيمة والسباب.

حيدر حيدر يكتب بفطرته، بعفويته، ونزقه، وتوتره، باندفاعه الغريزي المتوتر شريانياً، ولذلك استطاع في الستينيات مع زكريا تامر أن يعطي القصة القصيرة في سوريا لونيّات وخصائص أسلوبية وتعبيرية، تمنحها فرداة ومذاقاً ونكهة خاصة في القصة العربية.

لكن الرجل أراد أن يغامر بتوسيع مساحة متنه الحكائي والسردية، فأنتج قصة طويلة (شبه رواية)، وهي "الفهد" التي أمكن أن تتحول إلى عمل درامي سينمائي، لكونها تنطوي على بنية حكاية درامية ذات خصائص بيئية وثقافية ومحلية، اجتماعياً ووطنياً.

وسيقوم بعدها بكتابة "الزمن الموحش"، حيث لا مكان، ولا بيئة، سوى أفراد يتصارعون سياسياً وإيديولوجياً، حاملين غرائزهم الطبيعية، وعنفوانهم السياسي، وتمردهم الاجتماعي، ليدمروا العالم، فيتدمروا، وسط عالم صاحب بالكلمات، والعبارات النارية للغة، التي لم تنزل إلى مستوى الكلام السوسولوجي في روايات حيدر أبداً، وعندما كانت تنزل عبر الحوار، فإنها كانت تسقط في السوقية والشعارية والابتدال.

هذا الرجل البري الموهوب، الذي دافعنا عن نقائه وطهرانيته الشخصية في دراستنا في مجلة الآداب، يفاجئنا بعد إيقاظه للفتنة النائمة التي أتاحت له كل هذه الضوضاء الفضائية، أي (المحطات الفضائية)، والأرضية، حيث تتبدى هذه المفاجأة باكتشافنا أن داخل جلده البري يسكن رجل دبلوماسي يجيد النفاق، فيشيد بأحد الرؤساء العرب، بأنه أعظم رئيس أنجبته الأمة العربية في

العصر الحديث، في حين أن ما نعرفه عن أدبه أنه صرخة في وجه كل السلطات ووجه كل الحكام! وكما ستبدي لنا المفاجأة بأنه ليس دبلوماسياً فحسب بل فيلسوف يشكل استمرارية للمعتزلة (الحلاج والسهر وردي)! وهو ليس فيلسوفاً وحسب، بل عالم وفقه في نظرية الأدب يريد أن يساهم في "وليمة العولمة" بعد أن بهرته أضواؤها الإعلامية، فراح يغمز من قناعاتنا بأن نقدنا ينطلق من منظور إيديولوجي ذي جذور ماركسية، ليتبرأ من تاريخه الماركسي الذي كان - يوماً - ينظر إلى ماركسيتنا بازدراء بوصفها (ماركسية عينية مهادنة للسلطة العربية) التي يكتشف اليوم عظمة قادتها ورؤسائها!!

ويبلغ به غروره الفضائي العامي بالنفسي درجة التواوس حتى على نجيب محفوظ، حيث يرى في رواياته حداثة تجاوزت نجيب محفوظ وثلاثيته، وعندما يبلغ الأمر هذا الحد من الالتياث، لا بد لنا أن نجد كل المشروعية في تساؤل حيدر "لا بد أن أحداً منا ملثث، وبحاجة، ربما إلى مصحح أدبي أو عقلي لا فرق!" حسب نقده (الموضوعي) لنا!

ولا بد أن كاتباً لا يزال يعيش مرحلة تقصي أدبية الأدب في الفخفخة البلاغية، والإنشاد التعبيري، ورخامة الحذلقات الإنشائية الفارغة ذات المادة الهيولية المائعة والرخوة، دون أن يتمكن بعد من بناء نظام الفواعل البنائية، وتأسيس متماسك ومتناغم ومنسجم للمتن الحكائي، ورسم السيماء الذهنية، والسوسيولوجية للشخصية

لكي يكون لها فرادتها وخصوصية حضورها الذي يبرر مشروعية هذا الحضور ومعناه على مستوى محور التوزيع التركيبي، وعلى محور الاستبدال الدلالي، نقول: إن من لا يملك هذه العناصر الأولية المشكّلة للبنية التكوينية للرواية، ويزعم أنه تجاوز نجيب محفوظ، لا بد للقارئ - والأمر كذلك - أن يعرف من هو الملتاث ومن هو المحتاج لمصح أدبي أو عقلي!؟

من البدهاة القول: إن من يتجاوز لا بد أن يمتلك ما تجاوزه، ونحن في كل دراساتنا في الرواية السورية كان ما يؤطر إشكالية بحثنا، هو طرح سؤال لماذا لم تتجاوز الرواية الشامية حدود التعبيرية الإنشادية التي تجسد ولا تمثل، بدءاً من إنشائية المراث، مروراً بذروتها العبقريّة الجبرانية (جبران خليل جبران) ذات النفحات الفلسفية الكونية اللدنيّة، هبوطاً لجيل ما بعد جبران الذي حافظ على خط المدرسة التعبيرية، لكنه أضعف ما يسميه ايتالو كالفينو عنصر "الذهب" الذي يتلظى فيه الروح ألقاً وتمعاناً، ويشتعل الرأس شيباً وسؤالاً قلقاً عن الوجود والكون والإنسان.

أي أن السؤال الذي يوجه إشكالية شغلنا في الرواية السورية، أنها حتى اليوم لم تبلغ سِدرة اللحظة المحفوظية، وإذا كان هناك من قاربها فهو ليس حيدر على الإطلاق، بل إن القارئ المتمعن في تاريخ الرواية السورية لا يتردد إذا أراد وضع ترسيمة تحدد موقع نجيب محفوظ في الدائرة الأولى للرواية العربية، فإنه مرغّم أن يترك

دوائر عديدة فارغة، ربما تتجاوز عشر دوائر، لكي يشرح بعد هذه الدوائر كاتباً سورياً، ولكنه لن يكون حيدر على كل حال!

وقد فسرنا هذا التمايز بالإحالة إلى درجة تمايز العمق التاريخي لإنجازات المجتمع المدني بين كلا المجتمعين الشامي والمصري، وأظن أن الإحالة لهذا التمايز ينطبق على المقارنة بين مصر والعالم العربي عموماً.

التدثر بأوهام الحداثة للقفز فوق وهدة الجهل بالأصول النظرية، ونظرية الأصول، لا تخص حيدراً فحسب، بل أصبحت ظاهرة في حياتنا الأدبية والثقافية، حيث العجز عن التوفر على الشروط الأولى للإبداع الثقافي (شعراً، رواية، فكراً، فناً) يغلف بشرعية ادعاء الحداثة، بوصفها (قياس ستاندر) يرتديه كل الناس.

لكن كيف لنا أن نناقش وعياً نظرياً غير قادر على إدراك التمايز بين (الموضوع والمنظور) حيث يأخذ علينا توصيف نزعته التعبيرية، وحضور أنا المؤلف الانفعالية والمشاعرية في كل فضاءات النص، بوصفها حالة نموذجية للرومانتيكية، فيغيب عن حيدر أن توصيفنا لهذه الظاهرة بأنها حالة رومانتيكية، لا لاعتبارات تتعلق بالموضوع، بل إنما يستند تعليقلنا إلى الحديث عن المنظور، فيظن حيدر أن الرومانتيكية تعرف بالموضوعات التي تتناولها، وليس بالمنظور الذي يتعاورها، فيرد علينا كيف يمكن لكاتب (يفضح الاستبداد السياسي، والانغلاق الديني، والكبت الاجتماعي، والانهيئات الثورية والأنظمة العربية المتوحشة والوصولية والفساد

الاقتصادي والنفسي والاجتماعي. إلخ) وتطول قائمة الموضوعات التي تتناولها رواياته، سائلاً: كيف يمكن لمن هذه موضوعاته أن تكون رؤيته "رومانتيكية"؟!

إن من يطرح هكذا سؤالاً، لا بد أنه لا يعرف عن الرومانتيكية سوى ما يتذكره من كتاب الشهادة الثانوية، عندما تحدثه عن مدرسة أبولو الشعرية، حيث الرومانتيكية تعرف من خلال تناول الموضوع (الطبيعة، الغابة، البحيرة، الليل، البحر، العواطف، الوحدة، والعزلة. إلخ).

أليس من الأفضل لحيدر أن يبقى محافظاً على الجلد البري لموهبته الأصلية "التي وهبه الله إياها" دون تنظير وثاقف، وادعاء امتلاك الوعي النظري بالتجربة الإبداعية، وأن لا يأخذنه بالإعلام والفضائيات الغرور؟ لأن ثقافة الفضائيات والإعلام، ليست إلا تكريساً (معمولاً) للحط من قيمة الثقافة الرفيعة، عبر الحط من قيمة العقل وأسئلته إلى مستوى الإدراك وعلاقته الحسية بالعالم، عبر الصور.

والضوضاء حول روايته ليست إلا ضوضاء غوغائية الوعي الإدراكي الحسي اليومي والعامي، عندما استشير حسياً حول بعض الصور، وليس عقلياً ومعرفياً وفلسفياً التي هي ثمرة المستويات المتعددة للبنية التكوينية والتركيبية للرواية.

وهذه الحسية الإدراكية التي تجسد ولا تمثل، وتحرض الغرائز، ولا تستفز العقل، سنصوغها بهذين السؤالين، نختم بهما مداخلتنا:

السؤال الأول: هل نستطيع أن نعثر في كل تاريخ نقد الفكر الديني وتفكيك المقدس، بل وفي تاريخ الإلحاد الأوروبي، جملة تضع اسم الكتاب المقدس بجانب الخراء!؟

أما السؤال الثاني: هل نستطيع جميعاً - بما فينا حيدر - أن نتقبل أخلاقياً وتربوياً إرسال بناتنا في سن المرحلة الثانوية لأساتذتهن طلباً للعلم والدراسة فينكحوهن حباً بالحرية وفرحاً بالجسد!؟ هل دفاع حيدر الشعري عن شرعية هذه العلاقة بين تلميذة ثانوي ومدرستها تنم عن رؤية أخلاقية مسؤولة؟ هل اكتسبت هذه العلاقات بين التلميذات الصغار وأساتذتهن حتى في أوروبا تلك الشرعية التي يتأسى حيدر على فقدانها في بلاد العرب والمسلمين؟ أم لا تزال مثل هذه العلاقات مثار جدل ونقاشات وحوارات وكتابات وروايات وأفلام في الغرب الأوربي نفسه! .

إن فقر مخيلة حيدر، أجبرته على الالتزام بالمشاق المرجعي التوثيقي، حيث لم يتح له أن يتخيل هذه العلاقة بين أستاذ جامعي وطالبة جامعية راشدة مثلاً! فالتزم ما عرفه وثائقياً عن علاقة مدرس عراقي بتلميذته في الثانوي، عندما كان يعلم في الجزائر، ولم يخطر على بال وعيه أو لا وعيه الشعوري واللاشعوري أن هذه العلاقة مع تلميذة صغيرة، مرفوضة ليس في المجتمع الجزائري الإسلامي فحسب، بل في كل المجتمعات وبكل المقاييس، عربية إسلامية، أم مسيحية أو يهودية!

القسم

الثاني

2

عبد الرزاق عبيد

سلامان رشدي في المنظور العربي

مناقشة لصادق جلال العظم حول ذهنية التحريم

رد صادق جلال العظم

نقد نقد

1

عبد الرزاق عيد

سلمان رشدي في المنظور العربي

مناقشة لكتاب "ذهنية التحريم" (*)

بعد غيابه سنوات في رحلة علمية بين أوروبا والولايات المتحدة، يعود إلينا المفكر الراديكالي المعروف الصديق الدكتور صادق جلال العظم بكتابه "ذهنية التحريم" الصادر عام ١٩٩٢ في سلسلة كتاب "الناقد".

إن نصف أو أكثر من نصف الكتاب ينطوي على مجموعة من الأبحاث والدراسات والمقالات والمدخلات التي قام بها الباحث خلال السنوات الأخيرة.

أما النصف الثاني فهو مخصص لبحث جديد وغير منشور سابقاً، يتناول بالدراسة النقدية والأدبية والتاريخية المقارنة أدب سلمان رشدي وروايته الفائقة الشهرة "الآيات الشيطانية" تخصيصاً.

(*) كما نشرت في مجلة "الحريّة"، ١٩٩٣/٨/٢٢، ص ٢٤-٣٨ و ١٩٩٣/٨/٢٩، ص ٣٧-٤٠.

ويعلن المؤلف عن منهجه في الدراسة، بأنه منهج مضاد للمنهج الذي ألفناه في التعامل مع قضية رشدي وأدبه عربياً وإسلامياً، ويقصد بالمنهج المضاد "منهج ذهنية التحريم وعقلية التجريم ومنطق التكفير وشريعة القمع".

يقول الكاتب إن التمعن الهادئ والرزين بين له أن رواية "الآيات الشيطانية" وما نجم عنها من تفاعلات وردود فعل ومناقشات "تشكل حقاً تطوراً فريداً وحدثاً فذاً لا سابقة له في التاريخ الحديث شرقاً أو غرباً".

هكذا يضعنا الدكتور العظم، منذ المقطع الأول في الصفحة الأولى من المقدمة، أمام حكم قاطع يصادر علينا حقنا في أن لا نرى في هذه الرواية "تطوراً فريداً وحدثاً فذاً لا سابقة له في التاريخ" لأننا، وفق هذا الحكم، سنكون قد خرجنا عن التمعن الهادئ والرزين!

ولعل الدكتور العظم هو أول من يدرك أن إطلاق الأحكام ليس إلا خصيصة منهجية تميز نهج ذهنية التحريم، وإن إطلاق الأحكام القيمة (أيديولوجية كانت أم سياسية أم أدبية فنية) إنما تم تجاوزها كأداة في الممارسة النقدية والفكرية المعاصرة، وأن إطلاق الحكم، إذا كان ضرورة يقتضيها منظور البحث، فلا بد من أن تكون نتيجة للبحث وليس مصادرة أولية سابقة على البحث الذي يتطلب مراحل ضرورية تبدأ بالفهم، فالشرح، فالتفسير، ثم الانتقال إلى فضاء التأويل الذي يتيح مستويات متعددة للقراءة تحول

دون الفهم الواحد، والاستنباط الواحد فالحكم الواحد، لأننا بذلك ندخل نفق الإسقاط وليس فضاءات التأويل والدلالة التي تتيح لنا تفحص المستويات المتعددة والمتنوعة المتصارعة والمتناغمة بين البنية الخارجية والداخلية للنص، أو ما يسميه الجرجاني بـ "المعنى الظاهر والمعنى الباطن". لكي نبليغ المعنى الكامن وراء الكلمات، من أجل الوصول إلى البنية التكوينية للنص بمستوياته الدلالية المتنوعة.

هذه الإشارة المنهجية استدعاها المنهج المضاد للدكتور العظم، الذي تعامل مع "الآيات الشيطانية" كوثيقة فكرية، تماماً كما تعامل معها خصومه، وهكذا كثرت "الفتاوى"، وقلت (القراءات)، وتحولت مقاربات النص إلى شكل من أشكال السجال الفقهي الذي يحرم ويجرم، ويحلل ويبرئ، وتحولت "الآيات الشيطانية" من نص أدبي تخيلي إلى وثيقة للاتهام أو البراءة، مولدة ثنائية الكفر والإيمان، ليصطبغ المنهج المدان من قبل الباحث، ومنهجه المضاد بهذه الثنائية.

إن مداخلتنا هذه ستقتصر على محورين، المحور الأول مناقشة آراء الكاتب بالرواية، أي الحوار حول مقارنة النص نفسه، والمحور الثاني سينطلق في مناقشة آراء الكاتب، من وجهة نظر مدرسة القارئ بوصفه مواطناً مديناً يعيش زمناً تاريخياً، والقراءة بالنسبة له هي فعل اجتماعي بمقدار ما هي فعل فردي.

يقوم الدكتور العظم بتقسيم بحثه عن سلمان رشدي وحقيقة الأدب إلى فصلين، الفصل الأول "عربياً وتاريخياً" والثاني "أوروبياً وأديباً".

وفي الفصل الأول، ينعى على الكتاب العرب تورطهم في الهجوم على كتاب لم يقرؤوه، وإنهم تناولوا كتاباً هاماً بخفة واستهتار، كما أنهم عاجلوا موضوعهم وكأن رشدي فقيه وعالم ومؤرخ ومحقق لاهوتي وواعظ وعالم منطوق، بدلاً عن أن يكون فنانياً، وأديباً وروائياً. ويقدم الكاتب مداخلة نظرية قيمة حول طبيعة الأدب والفن وعلاقتها بالواقع والخيال، والصدق والكذب، متناولاً خصائص الإبداع الشعري من خلال عرض آراء النقاد العرب القدماء، والفكر الأدبي العالمي.

والمشكلة الثالثة التي يعرض لها، تفنيده لوهم الكتاب العرب، بأن الغرب قد حمى رشدي، فيورد أمثلة كثيرة على المواقف العدائية التي اتخذت تجاه رشدي ككاتب مؤيد لحركات التحرر الوطني. والمشكلة الرابعة هي الأهم، نعيه على النقاد العرب عدم احترامهم لعقل القارئ بإعطائهم فكرة أولية عما يفعله رشدي في "الآيات الشيطانية". ليتوقف عند مناقشة "حديث أو رواية الغرائق" التي أثار التشنيع على رشدي ونعته بأبشع النعوت، فيورد نصاً للطبري يبرهن من خلاله أن رشدي لم يخلق، بل رفع رشدي رواية الطبري على علاتها وبتفاصيلها، وحولها إلى أدب روائي رفيع.

ويعضي الباحث كاشفاً عن المرجعية التاريخية الوثائقية من كتب التراث لكل الإشارات التي اعتبرت تشكيكاً بالوحي والقرآن من قبل رشدي، مثل إشارة رشدي إلى تشكيك عائشة بالوحي، بقولها للرسول بعد زواجه من زينب بنت جحش " ما أرى ربك إلا يسارع في هواك " تعليقاً منها على الآية القرآنية التي أجازت للنبي الزواج من زينب.

ويعرض لمشكلة سلمان الفارسي وعبد الله بن أبي سرح وتحريفه لكتابة الوحي، وعملية الدمج الفني التي قام بها رشدي بين الفارسي وابن أبي سرح، ومن ثم الاختلافات حول جمع القرآن، وموقف الفرق الإسلامية من ذلك، والعلاقة بين الكهانة والنبوة، والآيات التي تزخر بها السور المكية وسجع الكهان. . إلخ من المشكلات التي استند إليها رشدي في روايته المعروفة. والمشكلة الخامسة يعرض فيها لآراء محمد أركون والموقف من المقدس، ليقدم نصوصاً قيمة من التراث الإسلامي كانت قد تجرأت على المقدس دون أن يترتب على ذلك ما نشهده تجاه رواية رشدي.

أما المشكلة السادسة، فإن الكاتب من خلالها يدرج رواية رشدي في تراث نقدي عربي إسلامي وتنويري عرفناه مع طه حسين وعلي عبد الرازق وكتابه ذاته عن " نقد الفكر الديني "، وإن العالم العربي الإسلامي خلال هذا القرن لم يكن على هذه الدرجة من الانغلاق الظلامي. ويخلص إلى أن رواية رشدي تطرح علينا الأسئلة ذاتها التي طرحناها على أنفسنا، مثل: كيف التعامل، عند

نهاية القرن العشرين مع الكمية الهائلة من الروايات الإسلامية والقصص القرآنية والمنقولات التراثية، المليئة بالخوارق والعجائب والمفارقات واللامعقوليات، إن الجهد النظري الفكري القيم الذي يسوقه الدكتور العظم، لا شك أنه يشكل استمراراً متواصلًا لعقله النقدي التنويري الذي اختطه لنفسه عبر مشروعه القديم - الجديد "نقد الفكر الديني".

غير أن الملاحظة الرئيسية التي ستشكل مدخلنا لمناقشة هذه الآراء، هي أن رواية "آيات شيطانية" لم تكن إلا متكاً لطرح الدكتور العظم لمشروعه الفكري الخاص، وقد لمس تقاطعات أنتجها ظاهر خطاب النص، فمضى متحمساً حماساً شديداً لرشدي ينافح عنه ويدفع الشبهات والتهم بإخلاصه الشديد لمشروعه الفكري ذاته. أما الفصل الثاني "أوروبياً وأديباً"، فإن الكاتب يمضي بحماس أكثر إفراطاً في الحديث عن الرواية، معتبراً أن الغرب تعامل معها بلا مبالاة أدبية ظاهرة. ويفسر عدم الاهتمام هذا بحكم تقريظي حاسم، لأن "الآيات الشيطانية" جاءت "عملاً أديباً عابراً للقارات والثقافات والديانات والحضارات والطبقات واللغات في زمن فلسفي فكري أوروبي تسيطر عليه الشوفينية الثقافية الضيقة والنزعات الأصولية المحافظة".

وليبرهن على ذلك، فهو يقوم بعقد مقارنة بين رواية "الآيات الشيطانية" وأدب فرانسوا رابليه، حيث يرى أن الخصائص التي تجمع بينهما هي تماماً "خصائص الأدب النهضوي التنويري النقدي

الهادف". كما يقوم بعقد مقارنة بين رشدي وجويس، حيث يعتبر رشدي هو جيمس جويس الإسلامي إذا كان نجيب محفوظ "بلزاك" العربي.

ويلاحظ أن الاثنين اتخذوا من الماضي إطاراً أو هيكلأ عاماً، جويس عبر معارضته للملحمة "الهوميرية" ورشد الملحمة "المحمدية" الإسلامية. كما يقارن بين رشدي وبريشت وجان جينيه (ص ٣٨٧).

ليس في وسع هذه المداخلة أن تحيط القارئ علماً بما ساقه الباحث من دلائل وقرائن ومقارنات، فالبحث على درجة من الغنى والتنوع في مادته لا غنى للقارئ من العودة إليه.

وليس في وسع القارئ الذي يشارك الكاتب منظور رؤيته المعرفي إلا وأن يعبر عن إعجابه وتقديره للجهود القيمة التي بذلها.

لكن ليس في وسع الباحث المتمعن بهدوء ورزانة إلا أن يشير مجموعة من الإشكاليات المتصلة بالقراءة التي قام بها الباحث للنص.

فالباحث المعجب إلى حد الافتتان بسلمان رشدي يوظف كل طاقاته الذهنية والوجدانية والعاطفية لإضفاء المشروعية على الأداء الوظيفي للرواية حيثما تبدلت زوايا الرؤية.

فالدكتور صادق، رغبة في الدفاع عن الموقف الوطني لرشدي يطابق بينه وبين شخصية "صلاح الدين شامشا" الذي يعود إلى الوطن للتجذر، بل ويستخدم معرفته بحياة الكاتب الشخصية الذي يعود للمشاركة بدفن أبيه، ليطابق بين الحداثين، في الوقت الذي لسنا بحاجة إلى معلومات خاصة لنعرف بأن رشدي لا يزال في لندن وفي حماية البوليس الإنكليزي، أو على الأقل فإن رشدي غير قادر للعودة إلى الوطن ليس بسبب السلطات الديكتاتورية، بل بسبب الشعب الذي يريد رشدي أن يكون كاتبه النهضوي والتحريري!

ليست هذه الملاحظة هي الأهم، بل المهم أن الرواية ذاتها تختتم متنها الحكائي بعودة "شامشا"، والعودة هنا تتويج لاستعادة طبيعته الإنسانية، بعد أن لحقها التشويه والتمسيخ على يد البوليس الإنكليزي، أو بالمحصلة العامة كان التمسوخ ثمناً لطموحه في أن يكون مواطناً إنكليزياً من الدرجة الأولى.

إن رحلة صلاح الدين من الوطن إلى المنفى، ومن المنفى إلى الوطن، هي التي تشكل المحور الرئيسي للرواية، أي أنها - بلغة التقنية القصصية - هي مركز التبثير السردى لتقاطع وتشابك الأحداث.

لو أن الرواية قد اقتصررت على هذا المحور، لقدمت نصاً روائياً مكتملاً بذاته، لا يقل في محاكاته الهجائية عن رواية كافكا "المسخ" التي هي ليست قصة قصيرة، كما يشير الدكتور العظم في كل الأحوال!

إن الإيحاء بالصلة بين صلاح الدين "شامشا" و "غريغوري سامسا" ليست إهمالاً للبعد السياسي والاجتماعي لأدب رشدي، بل إن الصلة قائمة في وحدة الكينونة بين الشخصيتين اللتين يسحقهما ويفصلهما عن طبيعتهما الإنسانية، مجتمع وثنية السلعة.

لعل المعادل المجازي المشخص بصورة "المسخ" هو أرقى معادل لفكرة ماركس عن الاغتراب الذي يمزق الشخصية الإنسانية ويفصل بين الكينونة الطبيعية والأنا الاجتماعية للإنسان، وكثمرة لفصل المنتج عن إنتاجه، وتحول البضاعة إلى صنم.

وإذا كان لوسيان غولدمان، قد شخص صورة البطل الروائي في أدب كافكا تحت صيغة "ذوبان الشخصية" كمعادل للمرحلة الإمبريالية في تاريخ تطور الرأسمالية، متابعاً تشخيص لوكاش لصورة "البطل الإشكالي" في المرحلة الرأسمالية الأولى، فإن "صلاح الدين شامشا" يمثل استمراراً لـ "سامسا" كافكا، لكن في زمن تدويل العالم عبر الرأسمال متعدد الجنسية العابر للقارات. وهي المرحلة الثالثة في تطور الشخصية الروائية التي تنضوي تحت صيغة "ضياع الشخصية" كمعادل لمرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية وفق غولدمان.

إن العلاقة بين "سامسا" و "شامشا" رشدي هي علاقة التطور النكوصي للشخصية من مرحلة "الاضمحلال والذوبان" إلى مرحلة الضياع التام، لكن موضوع الضياع عند رشدي تقارب من منظور (عالم ثالثي) وتتلون بخصوصياته وأشكال اتصاله

بالعالم الغربي وما تنتجه من معاناة خاصة تتميز عن معاناة ابن المجتمع الغربي الذي رصده كافكا.

إن عيش اللامعقول بمعقولة جامدة وباردة، تثير الدهشة ليس من غرائبية اللامعقول بلا واقعيته، بل تثير الدهول من درجة واقعيته التفصيلية عند كافكا، وتثير قهقهة الرعب تجاه الكوميديا السوداء التي تتغلغل في الأسلوبية الساخرة لرشدي. إن الهجاء المرير الذي يسكن "النص الكافكاوي" بصمت قبوري هادئ ورزين، يتحول إلى هجاء صاحب كرنفالي مهتاج كأنه رقص فوق الجثث عند رشدي.

وإذا كانت حالة انفصال الأنا الاجتماعية عن الأنا الطبيعية (ماركس) تتمثل فنياً بصورة الاضمحلال والذوبان وتحول "غريغوري سامسا" إلى حشرة تنزوي تحت السرير وتلقى لها الأطعمة من قبل أفراد الأسرة السادرين، فإنها عند رشدي تتمثل بصورة "التيس" الذي له قرون وأظلاف، وهو بالمحصلة قادر على مقارعة الخطوب! ومن ثم إذا كان الخروج من حالة الضياع "التيسي" ممكناً، فثمة ملاذ إذن لاستعادة الطبيعة الإنسانية، باستعادة الوطن والأب والحبيبة.

والبعد الهجائي الساخر والتهكمي المدوي يتبدى في علاقة التناظر القائمة حول فكرة التحول، فالتحول من هندي إلى بريطاني من الدرجة الأولى، يعادله التحول إلى "تيس" من الدرجة الأولى، حيث تبلغ الفكاهة السوداء ذروتها، أن يقبل هذا

التيس أن يعيش في بيت "زوجته" بغرفة مجاورة، لغرفة نومها التي يشاطرها إياها عشيقها، بل إن العشيق يعترف بوجود "شامشا" في الوقت الذي تصر على أنه قد مات في حادث الطائرة، وعندما يحاول لأسباب إنسانية أن يزور العشيق الزوج، فإن الزوجة تعبر عن استنكارها، قائلة للعشيق: "لم يبق إلا وأن تدعوه لمشاطرتنا فراشنا".

إن حالة الاغتراب والاستلاب الإنساني الذي يعيشه "شامشا" ليس استلاباً انطولوجياً، ليس وضعاً إنسانياً كما لدى كافكا، بل هو استلاب واغتراب تاريخي ووطني، يجد حلاً لمشكلته الإنسانية، باستعادة الهوية الوطنية. وهكذا فإن "سامسا" كافكا و"شامشا" رشدي، يتطابقان في صياغة المشهد الإنساني، من المنظور الغربي (كافكا) والمنظور العالم ثالثي (رشدي)، والفارق بسيط، إنه الفارق بين "السين" و"الشين"، لكن سامسا يوحى بشامشا، وشامشا يوحى بسامسا، ليتوحد المنظوران في تقديم شهادة هجائية مريرة لصورة العالم في المركز الكوني. إنه مركز التدمير التدريجي للإنسان "ذوبان فاضمحلال فضياع"، تلك هي صورة الإنسان التي أنتجها الأدب الغربي، من البطل العملاق (الحضارة اليونانية) إلى البطل الأخلاقي (العصور الوسطى) إلى البطل الإشكالي الباحث عن القيم في وسط منحط (الرأسمالية) إلى مرحلة فقدان البطولة في قرننا العشرين، مرحلة بحث الإنسان عن ذاته في وسط مشياً، إلى ضياعه التام في عالم فقد المعنى،

وإذا كان ثمة معنى، فإنه يكمن في امتلاك الذات، عبر امتلاك الهوية الوطنية وانتزاعها من أشدق صنم كوزموبوليتاني لا يرى في "شامشا" إلا ملعقة، وهذا هو معنى "شامشا" في اللغة الهندوستانية، كما يشير الدكتور العظم.

و"شامشا" إذا يشارك "سامسا" مأساة الوجود والمصير المشوه والمسخ، لكن لديه فرصته التاريخية في استعادة الذات الوطنية، التي كانت قد فقدت معناها تماماً عند "سامسا" حيث لا ملاذ، فالبشر - وفق منظور كافكا - ليسوا سوى فقاعات تنفجر الواحدة تلو الأخرى فوق مستنقع يسمونه الوجود. هذا هو المحور الرئيسي في رواية "آيات شيطانية" المتمثل بمحور شامشا القادر على التمرد على (مسوخيته) عبر استعادته لهويته الوطنية. ولا نظن أن الدكتور صادق يختلف معنا في هذه القراءة الدلالية، بغض النظر عن درجة اتفاهه أو اختلافه - حول الصلة بين "شامشا" و"سامسا" سيما وأنه يتلمس العلاقة والصلة بين المؤلف (رشدي)، وشخصية "صلاح الدين". ولا بد أن القارئ لم يتلمس بعد التمايزات الجدية بين ما سميناه القراءة التي تحول النص إلى وثيقة فكرية من خلال اعتماده على ظاهر الخطاب، وقراءتنا التي نطمح أن تكون اكتشافاً للوظيفة الدلالية التي يستبطنها نظام الخطاب ذاته.

إن هذه الموضوعة ستبرز جلياً عندما نتطرق إلى المحور الثاني في الرواية، وهو محور شخصية "جبريل فاريشتا".

شخصية "جبريل" تمثل خطأ سردياً موازياً ومعادلاً دلاليّاً مناظراً لخط "صلاح الدين شامشا"، وهذا هو مصدر الجدل حول الرواية، وما نجم عنها من تفاعلات وردود فعل ومناقشات، هي التي تشكل بحق التطور الفريد والحدث الفذ الذي لا سابقة له في التاريخ، وليس الرواية ذاتها كما يذهب الصديق العظم. لأن الرواية فيما نرى ليست أكثر أهمية وقيمة فنية وإبداعية من "أطفال منتصف الليل" و"العار"، ونتمنى ألا نكون قد ارتكبنا خطأ مماثلاً عندما غامرنا في الحكم قبل إظهار البيئة على ما ندعي!

لكن ما يستدعي هذا القول، هو السياق الذي نحن في صدد تناوله، وهو شخصية "جبريل"، الذي نرى أنه بذاته كشخصية روائية كان مصدر الاتهامات والتشنيعات والفتاوى التي صدرت بحقه، فقد كان لهذه التشنيعات ما يبررها في نموذج الشخصية ذاتها وحركة رويها وسردها في بنية العمل الروائي ذاته، والتي هي مصدر الفتاوى المضادة التي حكمت كتاب الدكتور العظم على الأغلب.

فهذه الشخصية على مدار النص الروائي تشكل نموذجاً للبطل "المضاد"، المناظر في فعله وحركته ومجموع صلاته بالزمان والمكان روائياً لشخصية "صلاح الدين"، باعتبار الأخير يتقدم كنموذج للمثقف الوطني المأزوم في وعيه الشقي بين الابنهار بالغرب، ومن ثم الخروج من هذه الأزمة باكتشاف الوعي بالهوية والالتقاء وذلك بالضد من شخصية "جبريل".

فـ "جبريل"، ومنذ البداية، نكتشف أنه مضاد لاسمه كملاك، بل هو شيطان رجيم، قفز من الوحل ولا يعلم إلا الله ماذا يحمل معه من أوبئة جلبها معه وهو يتسلق إلى الأعلى، على حد تعبير صديقتة "ريخاميرثانت".

"و ميرثانت" تخاطبه عندما تجسدت له من قلب الغيوم "مشكلتك أنك بحاجة دائماً إلى من يغفر لك. والله وحده يعرف سر تلك العقيدة. وهو وحده يعرف لماذا تهجر وتبتعد دائماً بهذا الأسلوب الإجرامي دون أن يحملك أحد وزر ما تفعله".

والمؤلف نفسه يحدثنا منذ الصفحات الأولى، عن جبريل الذي التهم الأسرار اليونانية والرومانية التي تستند إلى مبدأ كلية الخلق وتجسدت الآلهة. وإنه انتقل إلى دراسة الثيوصوفية عند "آني بيسانت" ومذهب وحدة الكون وحكايات الآيات الشيطانية في المرحلة الأولى من السيرة النبوية والتشريع السياسي والاجتماعي الذي استوحاه محمد من حريمه بعد عودته إلى مكة منتصراً.

فالسقوط المقدر لـ "فاريشتا شمشا وصلاح جبريل" كان السقوط الملائكي الشيطاني الذي لا ينتهي. ولم يعد أي منهما يتذكر تلك اللحظة التي ابتداء يتعرض فيها لعملية التحول تلك.

فتجربة المنفى تنطوي على مستويين، ملائكي وشيطاني، وكل منهما (جبريل وصلاح) كان مقدرًا لهما أن يحملًا في مسار التجربة البعدين معاً حتى حدث التحول والانفصال.

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

فتجارب صلاح الدين في لندن مسخته إلى شيطان حقيقي في صورة " تيس " لكنه استعاد طبيعته الإنسانية الحيرة الملائكية بمغادرة المنفى الشيطاني ليعود إلى الوطن . بينما جبريل القافز من الوحل إلى الأعلى ظل يحمل وباء الشيطاني على مسار الرواية لينتهي بالقتل انتحاراً .

شبكة التناظر الدلالية التي تختزل الترسيمات السردية لحركة الأفعال والأحداث للشخصيتين تتكشفان ، على مستوى الحقل الدلالي ، بمجموعة من الأطروحات والأطروحات المضادة .
تبدأ فانتازياً ، والرواية منذ الصفحات الأولى تفتح على فضاء فانتازي - بالتعارض الدلالي بين الشيطان والملاك .

وعلى مستوى العلاقة بالفضاء ، وهو هنا الحيز " اللندني " تبدى العلاقة - المضادة بين الانتماء (صلاح الدين) واللائتماء (جبريل) ، وعلى مستوى الزمن بمستواه التزامني ، أي راهنية الحدث ، تبدى الأطروحة والأطروحة المضادة في إزالة الفاصل بين الحلم واليقظة (جبريل) وبين الماضي القريب والحاضر (صلاح الدين) .

أما على مستوى علاقة التزامني بالتعاقبي ، أي تاريخية الحدث الراهن ، فإننا سنلاحظ بأن حركة الزمن الذي تتحرك فيه شخصية " صلاح الدين " هو زمن محدود يتصل بماضي الشخصية القريب علاقته بأبيه وبمدينته (بومباي) وصديقتيه (زينات وكيل) من جهة ولحظة الزمن المعاش في لندن ، حيث المسار الزمني لا يتجاوز العقود .

أما علاقة التعاقي بالتزامني بالنسبة لـ "جبريل" فإنها تتحرك في مجال فانتازي غائب، بين زمن الوحي وزمن العيش في لندن، وعلاقة التناظر هنا تتحقق عبر ذاكرة هذيانة مريضة لـ "جبريل فاريشتا".

فجبريل، هذا الشيطان المنبثق من الوحل، الحامل لأوبئة شتى، الذي يعيش زمناً وهمياً يمتد من الماضي إلى الحاضر، والذي يهجر ويتعد بأسلوب إجرامي يشير إلى نوع من اللانتماء إلى الفضاء - الزمن - الفعل " المتطلع إلى إلغاء الفاصل بين اليقظة والحلم، والذي يعيش بحمى غريزية منحلة تخوله لأن "يضاجع أخته دون أي شعور بالذنب" ويأكل لحم الخنزير لأنه فقد الإيمان بالله الذي لم يستجب لتضرعته بالشفاء، عندما كان مريضاً، جبريل هذا المضمخ بالتانة والانحلال والفم الكريه، لم يجد خالقه سلمان رشدي نفسه مصيراً له أفضل من قتله.

إن سمات شخصية جبريل، ليست استنتاجات أخلاقية نخلص إليها كقراء، بل هي سماته في حركة رويه السرد في متن النص الروائي ذاته أي كفاعل روائي تؤسس له عامليته في بنية السرد ذاته.

إنها منظومة القيم والسيماء الذهنية والأخلاقية التي تحقق على مستوى التوضع الركني لشخصيته في بنية العمل الروائي "الآيات الشيطانية" التي أرادها له خالقه الروائي أو منتجه النص.

وعلى هذا، فالخطاب الروائي الذي يشير إلى مجمل الإشكالات المتصلة بالتراث والمقدس والقرآن والوحي والنبى والصحابة، إنما هو نتاج لسيلانات ذاكرته المريضة المفعمة بالتأتنة والقبح والتشوه السلوكي والخلقي والروحي.

ولعل من بديهيات صياغة الشخصية الروائية أن يكون هناك تطابق وتناغم بين السيماء الذهنية والبيكولوجية والسلوكية للشخصية.

ولا نزن أن هذه البديهية غائبة عن وعي روائي كبير كرشدي. وعلى هذا، فإن مجمل اثتالات الذاكرة التي تنداح على شكل فصول في الرواية (ماهاوند - العودة إلى الجاهلية) لا يمكن إلا أن تكون امتداداً للبعد البيكولوجي المهزوز، والسلوكي الوضع "لجبريل فاريشتا"، ومن ثم لا بد من النظر إليها على أنها أحد الأبعاد المدانة في الشخصية، سيما وأنها تشكل على مسار الرواية البطل المضاد، لشخصية صلاح الدين التي اتفقنا على البعد الدلالي للشخصية المنطوي على الوطني التحرري، وعلى معنى الانتماء بوصفه الملاذ الملائكي للتمسيخ الشيطاني الذي عاشه في لندن.

وعلى هذا، فإن انتهاك المقدس في الرواية، إنما تم من قبل شخصية مشوهة وضيعة ومدانة بالنص، وليس بالاحتكام إلى منظومات قيم أخلاقية أو فكرية خارج النص، فما كان أمام الكاتب أن يختار لها مصيراً سوى القيام بالقتل، قتل "سيسوديا

واليلويياكون" ومن ثم قتل نفسه، "بعد هجمة من هجمات مرضه العقلي"، كما يقول السارد الذي هو الروائي نفسه في "الآيات الشيطانية".

وعلى هذا، فإن أول من أفتى بالقتل للقائل بـ "الآيات الشيطانية" هو الكاتب نفسه، عندما دفع به إلى الجريمة والمرض العقلي ومن ثم الانتحار.

والخميني بفتواه بقتل الكاتب لم يفعل سوى أنه أقام توازياً بين النص والواقع، ومن ثم طابق بين الكاتب وأحد أبطاله، وهذه ليست بدعة في النقد الأدبي، فالدكتور العظم نفسه أقام هذا التطابق، لكن مع شخصية أخرى، وهي شخصية "صلاح الدين".

وعلى هذا، فهل يسعنا القول بأن فتوى الخميني تندرج في إطار مشكلات النقد الأدبي عندما طابق بين المؤلف و"جبريل"، في حين كان عليه أن يطابق بين المؤلف و"صلاح الدين"؟!

تلك هي النتيجة التي ترتبت على التعامل مع النص الأدبي كوثيقة فكرية، حيث يغدو مشروعاً التنديد والتشنيع الذي قام به النقاد العرب، ما دام الكاتب نفسه قد بلغ تنديده بـ "جبريل" حد دمغه بالجريمة والفساد والتشوه والمرض العقلي الذي يتوج بالحكم عليه بالموت. ذلك هو مآل قراءة النص الأدبي كوثيقة فكرية، حيث تبدو فتوى الخميني وكأنها إحدى القراءات الممكنة!!

لكن وفق قراءتنا الطامحة إلى الانطلاق من نظام علاقات النص ذاته، ونظام خطابه، تغدو كل المحاولات التي قام بها الدكتور العظم لإثبات صحة الوقائع التاريخية التي يحيل إليها خطاب "جبريل" الهذيانى عديمة المعنى، أو بصيغة أخرى وكأنها إضفاء للعقلانية والمنطق على خطاب يقدم نفسه روائياً بوصفه خطاباً هذيانياً مشوشاً يعكس اضطراباً عقلياً لشخصية مزرية ومقيتة، ومن ثم، فإن أية محاولة للحديث عن فكر نهضوي تنطوي عليه "الآيات الشيطانية"، استناداً لموقفها من هتك المقدس، إنما هو إحالة على خطاب مدان من قبل الكاتب ذاته، عندما يسوقه على لسان شخصية ملثثة، وبالتالي تغدو المقارنة مع رابليه وجويس وبريشت عديمة المعنى أيضاً. أين هي المشكلة إذن؟

المشكلة تكمن في النص ذاته، الذي حمل القلق والاضطراب والتشوش، ومظهر ذلك يتبدى في :

١- إن المحورين اللذين بنى عليهما الكاتب أحداث روايته كانا محورين متوازيين ليس بينهما تداخل أو تفاعل أو تناظر دلالي كما لدى بريشت، وبالتالي فإن المقارنة التي قام بها الدكتور العظم مع بريشت لا تجد مصداقيتها في الرواية، حيث التخلي عن الوحدة الأرسطية عند بريشت يستعاض عنها بإيقاظ ذكاء القارئ أو المشاهد الذي يريده بريشت أن يكون ملاحظاً واعياً وناقداً لا متفرجاً سلبياً، وذلك عبر التقاط التناظر الدلالي بين المشاهد، في حين أننا لا نلاحظ

هذا التناظر بين محوري "جبريل / صلاح الدين". إلا عبر تمايز الموقف من المنفى، وليس عبر تناظر الأفعال والأحداث، كما هي عند بريشت.

٢- هذا التوازي أدى إلى ضياع "الديالوج" وهيمنة "المونولوج" فليس هناك تقاطع حوارى بين المحورين، حتى إنه كان من الممكن أن تكون الرواية روايتين دون أن تعاني الرواية من التمزق أو الخلل أو العنت، كان من الممكن أن تكون هناك رواية رحلة "صلاح الدين". وقد لاحظنا درجة تماسكها التكويني البنيوي، ورواية لرحلة "جبريل" يمكن لها أن تستعير الإطار (الجويسي أو الفوكنري) ما دامت هي رحلة الحلم عبر الذاكرة.

٣- هذا التوازي قاد إلى توازٍ آخر في عقل "جبريل" بين الحلم واليقظة، حيث لحظة اليقظة المعاشة بوقائعها وأحداثها لا تقنع القارئ بقدرتها على بعث هذه الأحلام المتصلة بالنبوة والوحي والقرآن.

أي أن العلاقة بين التعاقي والتزامني علاقة مفككة ليس هناك أي رابط بنيوي بينهما، بل العلاقة بين الطرفين تقوم على الإلغاء المتبادل، فلحظة الحلم التي تستحضر لحظة الوحي، تلغي لحظة الواقعية التي يستدعيها اليومي المعاش، فتتحول إلى أضغاث أحلام لا يربطها بالحالم نفسه، سوى ما يستدعيه اسم "جبريل" من إحياءات.

ومن الواضح أن تأسيس علاقات سردية بنائية، على الاشتقاقات اللفظية وإيحاءاتها المجازية لن تتيح إلا قيام بناء هش وواه وآيل للسقوط .

٤- هذا التوازي القائم على الإلغاء المتبادل دفع باتجاه نوع من الثنائية لا تتيح أي شكل من أشكال الترابط الجدلي الحواري، حيث افتقاد العلاقة بين المحور الأول والمحور الثاني، سيؤدي إلى نوع من تنمية الديالكتيك الذاتي لكل نسق على حدة، مما يؤدي إلى إغلاقه، من ثم ضياع الحوار الذي عبره تفتتح إمكانية تعدد الأصوات، مما يدفع بالأطروحة المضادة خارج النص، ومما يجعل من النص أطروحة واحدة، تجد مضادها في ما تثيره في وعي المتلقي .

وهذا يفسر إلى حد كبير ذلك الجدل القائم على الاتهام والتشنيع وعنف الأحكام، لا على الحوار، فالحوار هو الذي يمنح النص تجده اللامتناهي عبر انفتاحه على الاحتمالات والقراءات، وقدرته على تجديد نفسه باندراجه في تناص مستمر . فالقراءة في الحالة الحوارية تغدو إعادة إنتاج للنص، ومداخلة عليه تغنيه وتنوعه، بينما الإسقاط والأحكام تلغيه إذ تحجمه .

الفصل الوحيد في الرواية الذي يتمتع بدينامية التطور الدرامي الحواري التعددي هو فصل "عائشة" حيث صراع الآراء، بين "عائشة / الزوج، الزوج / الزوجة" . . إلخ .

لكن حتى فصل "عائشة" لا تربطه بنية النص الشاملة، سوى المناخات العامة للرواية، أي أنه لا يتوالد في نسيج العناصر التكوينية التي تتيح له أن يكون مداخلة حوارية إضافية على النص، إلا على مستوى القول الإيديولوجي للرواية.

٥- هذه المتوازيات أدت إلى جعل الكثير من المقاطع السردية في صيغة فصول الرواية، تتراصف متجاوزة متضايقة، دون أية ضرورة داخلية تمنحها تشارطها النسبي، وعلتها البنائية التكوينية.

مما يدفعنا إلى القول دون القلق من مغامرة إطلاق الأحكام، في أن الروائي "رشدي"، قد عانى ارتباكاً جلياً في مقاربتة لأحداث روايته.

فمن جهة، يريد أن يشرع أسئلة في وجه المقدس، ومن جهة أخرى يسعى ليتواري وراء شخصية منحلة تهذي بهتك المقدس ليتجنب مساءلة الرأي العام الذي سيصدمه هذا الهذيان، وليختبئ وراء القول الفني بأن آراء الشخصية وأفكارها ليست بالضرورة هي آراء المؤلف وأفكاره. هذه المراوغة الفنية الفذة التي أجادها نجيب محفوظ، أخفق فيها رشدي حيث بلغ نوعاً من الابتذال في فصل "العودة إلى الجاهلية" وحديثه عن بيت حجاب للدعارة، مما لا يرقى إلى مستوى الفن الرفيع، القادر على تفكيك المقدس من داخله عبر زرعه بالغام الأسئلة الكبرى التي ترعزعه من جذوره، كما يفعل نجيب محفوظ.

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن الكاتب نفسه قد ساهم في إثارة هذا اللغظ الخارج على النص، عندما أثار القضية التراثية، إثارة خارجة على نظام النص ومنطوقه الروائي، بل بدا أنه جعل من روايته متكاً لشن حرب ضد المقدس عبر وسيط منحل (جبريل) حتى أننا إذا حذفنا كل ما يتصل بالإشارات إلى التراث لما وجدنا أي خلل سيخلفه هذا الحذف.

إن الروح النهضوي كان يتطلب نموذجاً نهضوياً قادراً على صياغة منظور نهضوي لطرح رؤية نهضوية، عبر إنشاء شبكة من العلاقات التي تسمح بتعدد الأصوات، والتي تتيح للمنظور التراثي حقه الكامل والمشروع بأن يصطدم كأطروحة بالأطروحات الأخرى، وعندما تتمكن العلاقات الروائية بحضورها الركني من تفكيك البنية الكهنوتية للمقدس، عندها يتمكن النص من حمل خطابه النهضوي بجدارة، لا إنتاج ثقافة الفتنة التي وجد بها الإعلام الغربي فرصته السانحة ليلعب بـ "الآيات الشيطانية" وفق مصالحه وأغراضه وأهوائه.

كان يمكن لنا أن نقوم بدراسة تطبيقية تحليلية لمجمل العوامل المشكلة لبنية الرواية، لكننا آثرنا أن يقتصر تناولنا للعناصر الداخلية للرواية من خلال التماس مع أطروحات الدكتور العظم في قراءته واستنتاجاته.

وفي هذا المحور من الحوار، سنركز على الآثار الخارجية للرواية وتفاعلاتها المتصلة بالوظيفة التي أدتها ودرجة راهنتها

وأولويتها من منظور سوسيو - معرفي - دلالي ينطلق من أن فعل القراءة وإعادة إنتاج النص في علاقته بأفق انتظار القارئ لا يقل أهمية بالنسبة للنص، عن إنتاج علاقات النص ذاته الذي ناقشناه آنفاً.

إن أول قراءة على هذه الدرجة من الاهتمام والشمول والتركيز لرواية "الآيات الشيطانية" من منظور عربي كانت قراءة الدكتور العظم في "ذهنية التحريم".

بل ربما هي القراءة الوحيدة التي تندفع حتى النهاية في تبني الرواية بحماس شديد فنياً وجمالياً وفكرياً، من قبل باحث له وزنه ومكانته المرموقة في لوحة الثقافة العربية.

ومن المعروف أن الباحث - بمعظم نتاجاته السابقة - لم يكن يولي النقد الأدبي الأولوية في شغله ومشاغله الثقافية والفكرية، بل يمكن القول إن معظم ما كتبه الباحث ينهض بوصفه أطروحة مضادة، أو ما أسماه بـ "المنهج المضاد"، هذا الأمر أضفى على كتابته حرارة السجال وحيوية راهنة تمتح دققها من الإشكالات المعاشة كههم وطني وقومي وحضاري، حيث هذه الهموم الكبرى ككليات تتشقق عن عيانياتها الملموسة والمباشرة المتصلة بالخاص واليومي. ولعل كتابه "نقد الفكر الديني"، يقدم مثلاً فريداً على أول محاولة يسارية - وإن كانت لا تزال في بداياتها المتمركسة - لنقل الخطاب اليساري من طرح المشكلة الفلسفية حول أولوية الوجود على الوعي بعموميتها من خلال الكتابات الماركسية

السوفيتية المترجمة، إلى الحفر عن معنى هذا السؤال الفلسفي بالتراث القومي للأمة من خلال التراث الإسلامي. أي في الوقت الذي كانت فيه الأحزاب الماركسية العربية تلقن أعضائها المقولات الفلسفية حول النظرة المادية للعالم، بينما نظرتهم الحقيقية لتراثهم الديني والثقافي والقيمي لا تختلف عن أية نظرة تقليدية، أتى صادق العظم لينقل هذه الكلية الفلسفية المجردة إلى المشخص العياني في التراث الديني، ليحدث صدمة ضد المقدس الإيماني، بما فيه القائل بأولوية المادي، مما ترك أثراً كبيراً على جيل يساري بكامله، عاين مباشرة ماذا يعني القول بهذه الكلية العامة عندما تصطدم بموروثه الثقافي الخاص والمحدد.

وهذه مزية تمنح خطاب العظم تفرداً نوعياً في الخطاب الفكري اليساري العربي. وها هو، بعد أكثر من ربع قرن، يواصل ما بدأ بالروح الراديكالي نفسه وبالشجاعة العقلية ذاتها، حيث يبرهن على عمق وجذرية نزعته التنويرية التي لا تتلجلج أمام اندياح الظلام، فهو من أولئك القلة الذين لا يمارسون أرجحة الجذع على إيقاع دربكة المنعطفات والمنحنيات وتلويات العارض والطارئ، وتأرجحات التيارات والملل والنحل، أي أنه لا يحمر وجهه خجلاً من ماضيه، لأنه ليس له في هذا الماضي ما يخجل، يكفي أنه كان صادقاً وأصيلاً، لكن تقديرنا وإعجابنا بأصالة وصدق تجربة الكاتب لن تمنعنا من إشارة عدد من الأسئلة والتساؤلات.

وأولى هذه التساؤلات التي تثار في هذا السياق، تتعلق بالأداء الوظيفي لرسالة الفكر وقدرته على إنتاج الوعي المطابق بواقعه .

وإنتاج الوعي المطابق يستدعي في أول ما يستدعيه تحديداً استراتيجية الأولويات التي يطرحها الواقع على الفكر، أو ما يسمى باللغة السياسية تحديد الرئيسي والثانوي في لحظة تاريخية محددة .

وهذه الاستراتيجية تنطلق في أول ما تنطلق من استراتيجية مدرسة القارئ، بوصفه مستهلكاً ومنتجاً للنص في آن واحد، وأن أي عدم اكتمال في النص لا يزيد أهمية عن عدم اكتماله بقرائه . فالنص لا يكتمل إلا بقرائه، فكما أنه ليس هناك رسالة بلا مرسل، فليست هناك رسالة بلا متلقٍ .

من هذا المنظور، هل تستحق "الآيات الشيطانية" هذا الاهتمام من قبل مفكر عرف عنه نزعته الحوارية والسجالية مع المشكلات الأكثر راهنية وسخونة وأهمية ؟

من خلال ترتيب فصول الكتاب "ذهنية التحريم" يظهر لنا أن الباحث لم يكتب منذ أربع سنوات سوى ما كتبه عن سلمان رشدي . وفي هذه السنوات، مرت أحداث كبرى غيرت وجه عالمنا، دولياً وعربياً، فعلى المستوى الدولي كان انهيار ما سمي بـ "النظام الاشتراكي" ومن ثم شحذ السيوف والرماح للإجهاد على الفكر الماركسي والتقدمي وعلى كل ما يمت إلى عقل التنوير والتقدم بصلة، وعلى المستوى العربي كانت "حرب — ■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■ —

الخليج" التي كرست الهيمنة الأميركية على المنطقة العربية ولأمد غير منظور.

هذه الانهيارات الكبرى جعلت العقل العربي يقف مشدوهاً ومذهولاً إذ يراقب حطام وأنقاض كل ما حققه على مستوى الوعي القومي والوطني والاجتماعي، ليجد نفسه عند درجة الصفر، عقلاً مثقوباً عبر كل طبقاته الأركيولوجية، حتى بدا أن أي حديث حول الجمال والفن والأدب والشعر والرواية والثقافة ليس إلا لحناً جنازياً لأمة تلبس كفنها وتنتظر حسن الختام.

لقد انهزمت الأمة عسكرياً وسياسياً، ولم يتبق سوى اختراقها روحياً عبر تقويض هويتها الثقافية والحضارية، وهنا ظهر تراث الأمة وكأنه خيمة نفيها الأخيرة.

لقد تمكن الأميركيون، في زمن نظامهم العالمي الجديد - وبسرعة مذهلة - أن يقوضوا كل منجزات الفكر التحرري الوطني العربي بكل تياراته - الدينية الإصلاحية والليبرالية والقومية والماركسية، أي تقويض كل المنجزات التي حققها العرب منذ بداية يقظتهم ونهضتهم في القرن التاسع عشر وحتى الآن، أي العودة إلى درجة الصفر، حيث تبدو الأمة اليوم وكأنها لا تملك من أمر تاريخها سوى ماضيها، لحظة القاع التي تعود بها إلى زمن تشكلها الأول. لقد قام الغرب بعملية تجريدها من كل المكتسبات العقلية التي أعطاها إياها في سياق تدويل رأسماليته الأولى للعالم.

فالعرب الذي أخذ كل شيء من الجغرافيا عبر (نهب الثروات)، يقوم اليوم بـ "نهب التاريخ" وذلك باستعادة ما أدخله الغرب نفسه في تاريخ الحداثة العقلية (فكرية وثقافية)، حيث لن يخلف من حدائته سوى بضاعته وسلعته، وبدون مقابل، أي السلعة وليس العقل الذي أنتجها. فإذا كان انفتاحنا السابق على الغرب قد كسبنا مقابل بضاعته بعضاً من ثمرات عقله، فاليوم يريد تجريدنا حتى من هذه المكتسبات، فدمرها تدميراً ليعيد عالمنا العربي إلى صورته الأولى، الصورة التي يريدنا عن الشرق الإسلامي المفعم بالتصورات الغيبية، والمحكوم بميثولوجياته وتعصبه وأهوائه القروسطية.

هذه الصورة التي يريدنا الغرب أن نكون عليها، ألا تفسر الضوضاء الإعلامية الصاخبة التي أطلقتها وسائل إعلامه وهي تتحدث عن "الآيات الشيطانية"؟.

الفتاوى، المظاهرات، الضحايا، أليست ثمرة الإعلام الغربي عن "الرواية"، وليست الرواية ذاتها التي لم تكن قد قرئت بعد؟ أليست الأحكام التي أطلقت على الرواية من قبل المثقفين والكتاب العرب، هي ثمرة ما سمعوه وطالعوه في وسائل الإعلام الغربي، وليست ثمرة قراءتهم للرواية كما لاحظ الدكتور العظم؟ هل يراد من هذه الفتنة الثقافية، سوى إشاعة وتعميم ثقافة الفتنة؟

إن عصر الإعلام، هو الذي أعاد إنتاج "الآيات الشيطانية" وفق منظور إنتاج ثقافة الفتنة، لقد كان الإعلام هو المداخله الأكبر على النص، ليصوغ قارئاً للنص وفق سطوته.

بعد انهيار ما سمي بـالعالم الاشتراكي، أراد الغرب أن يبرهن على أن العالم الرأسمالي هو أفق التاريخ وذروة تطوره وصيرورته، فكان لابد من الانقضاض على بلدان التحرر الوطني لتقويض كل امتدادات وتأثيرات صورة العالم الذي يحكمه الصراع الطبقي وما يترتب على هذه الحقيقة من مفاهيم وأفكار وتصورات، لتحل محل هذه الحقيقة، إثارة لصراعات عرقية ومذهبية وطائفية، هذا ما حدث في ما كان يسمى الاتحاد السوفييتي، وما يحدث في يوغسلافيا وما أحدثوه في العراق، بدلاً من صراع التيارات الفكرية الاجتماعية، يحل صراع القوميات (الأقوام) والطوائف والأعراق والمذاهب، لغسل دماغ العالم الثالث من إمكانية وعي أن الأفكار والمبادئ هي ثمرة علاقات البشر بواقعهم المادي، ثمرة صراع المصالح والطبقات.

فالغرب أراد أن يثبت أنه مركز التاريخ، وما خارجه هو خارج التاريخ، ولا بد من صياغته وفق الصورة الغربية عنه (أخلاق وأجناس وأعراق) محكومة بأنساقها الجوهرية الثابتة وأفكارها الأزلية القابعة في مخيلات اجتماعية على شكل مثالات وأوهام محكومة بالقطيعة القائمة بين عالم الأذهان وعالم الأعيان.

ولقد تمكن الغرب فعلياً من إعادة العالم الإسلامي إلى صورته الأولى، وتجليه في مخيلتهم الاستشراقية وفق توضع في زمن الحروب الصليبية.

لقد قام الغرب بأكبر مؤامرة لا أخلاقية في التاريخ، عندما اغتال كل القيم المدنية والتنويرية التي أشاعها في العالم الإسلامي والعالم الثالثي بشكل عام، بفرضه الهوية التراثية الخالصة على هذه الشعوب.

فالعالم الإسلامي يبدو اليوم بلا تيارات مدنية مؤثرة وفاعلة، إنه عالم يرتد إلى صورته الأولى التي يريده الغرب أن يكون عليها، حيث ترسم الصورة:

١- التيارات المدنية التنويرية - العلمانية - الديمقراطية - العقلانية "قومية ويسارية" غدت بلا جذور اجتماعية، فعليها أن تلتحق بصورة الحداثة السلعية لا بالعقل الذي أنتجها.

٢- إسلام شعبي وطني، مذل ومهان بكرامته الوطنية والقومية من قبل الغرب، ومذل ومهان بكرامته الاجتماعية والسياسية والحقوقية، من قبل أنظمتها الطاغية.

٣- إسلام رسمي، تصوغ لوحته الأنظمة التابعة للغرب.

٤- إسلام سياسي نكوصي ظلامي يرتد على كل قيم الإصلاح والتنوير التي أرساها أعلام النهضة الإسلامية.

الإسلام الشعبي الوطني هو المستهدف اليوم من قبل الغرب (الأميركان بالدرجة الأولى)، لأن الإسلام الشعبي يشكل اليوم العنصر الأساسي للهوية التي يراد تدميرها، بعد إخفاق النضال التحرري الوطني الذي قاده القوميون واليساريون.

الإسلام الرسمي لا يختلف عن الإسلام السياسي (الأصولي الظلامي)، لأنه، بمدارسه وجامعاته ومؤسساته الثقافية والإعلامية يكرس الخطاب نفسه: (الإسلام صالح لكل زمان ومكان) (الإسلام دين ودولة). هذه الطروحات لا يختلف عليها الإسلام الرسمي والإسلام الأصولي، إلا في أن الثاني يرفض الازدواجية بين القول والفعل، فيريد الانتقال من إعلان الخطاب إلى ممارسة الخطاب، وإلا ما الفرق بين النظام المصري الذي يقرر إلغاء طه حسين ونجيب محفوظ من المقررات الدراسية، والحركة الأصولية التي تندد بالاثنين، سوى فرق أن الإسلام المصري الرسمي إسلام أميركي بينما الإسلام الأصولي يريد أن يتطابق - وهمياً - مع الإسلام الوطني الشعبي.

الغرب يستخدم الإسلاميين (الأصولي والرسمي) عبر المزيد من إخضاع الأنظمة العربية التابعة له من خلال تهديدها بالإسلام الأصولي، وهدفها الرئيسي تقويض الإسلام الشعبي، لكي لا يتبقى أي مقوم من مقومات الهوية الثقافية والحضارية للأمة. وهكذا تتم عملية توحيد وثنية الحدائث الغربية التي بلا ضمير مع وثنية السلطة السياسية (الدين الرسمي) الذي بلا ضمير، بهدف

دك الضمير الاجتماعي الشعبي والوطني دكاً. من خلال هذا المدخل، نطرح السؤال على الوظيفة التي أداها خطاب نقد المقدس في رواية "آيات شيطانية"، وفق القراءة التي حاول أن ينتجها كتاب "ذهنية التحريم" في الثقافة العربية.

إن نقد المقدس في الرواية، ووفق القراءة التي قدمها الدكتور العظم، لم يكن إلا هتكاً للمقدس الديني الشعبي، إذ لم يكن هتكاً للمقدس الرسمي (السلطوي والأمريكي) ولا للمقدس الأصولي. إن التفاعلات التي نتجت ميدانياً كافية للتأكيد على ذلك. فالتظاهرات، والاصطدامات التي حدثت، والضحايا الذين سقطوا، كل ذلك لم يكن ضد نظام سياسي فاسد، ولا ضد عدوان غربي قائم.

لقد تمكن فقهاء الظلام من خلال الإثارة التي أشاعتها وسائل الإعلام الغربية من الظهور بمظهر المدافعين عن الهوية، ورمي كاتب وطني تقدمي كرشدي بالخروج على إرادة الأمة والخيانة للوطن والتاريخ والهوية.

لكن المسؤولية مع ذلك تقع على رشدي الذي أنتج نصاً ملتبساً، وعلى القراءات التي اختزلت "الآيات الشيطانية" في حدود ثنائية "الكفر والإيمان".

إن هذه القراءات غيبت محور "صلاح الدين شامشا" أمام إثارة المقدس، وغيبت الحقيقة التي ينطوي عليها المستوى الدلالي لهذا المحور والذي يتكشف في قول زينات وكيل لصلاح الدين:

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

"إذا كنت جاداً أيها العزيز صلاح، في أن تنفض عن نفسك ذلك الانتماء الأجنبي.. فأرجو أن تكون حذراً في ألا تتوصل إلى حالة أقرب إلى عدم التجذر وعدم الانتماء. والحل هو أن تحتضن هذه المدينة - مدينتك - وتقبلها بكل ما فيها من أخطاء ونواقص.. يجب أن تسعى لأن تصبح واحداً من أهلها.. وأن تنتمي إليها كما هي.. لا كما ينبغي أن تكون!"..

وتختتم الرواية فعلاً وفق هذه النصيحة، حيث يذهب مع زينات إلى بيتها، محتضناً المدينة وليصبح واحداً من أهلها، بعد أن تنتهي مسيرة جبريل إلى القتل الإجرامي، فالانتحار، كما نوهنا. تلك هي المحصلة التي ينبغي التنبه لها عندما نقرأ نصاً درامياً، حيث الدلالة محصلة علاقات، وليس خطاب هذه الشخصية أو تلك.

لكن الكاتب، كمشقف وطني، مشروخ بين تجربة الغربية، والرغبة في الانتماء إلى الوطن كما هو، اختلت المعادلة بين يديه في تعامله مع المقدس الديني، فتناوله بإحساس استشراقي غير قادر على معرفة العمق الوجداني والمشاعري للجماهير المؤمنة، فأتى الحوار الضروري مع المقدس هتكاً له، بل وهتكاً بذيقاً في تناوله لـ "بيت حجاب"، لا تبرره المقارنة مع فانتازيا فيليني وجان جينيه وجويس أو بريشت، حيث السياق التاريخي والاجتماعي في العلاقة بأفق القارئ مختلف. فهناك قارئ غربي اعتاد على الحوار الصراعي ضد المقدس منذ أكثر من قرنين وهو يعيش على أرض

تزخر بالمعادن، لا أرض إسلامية تزخر بالجنان والعفراريت والأرواح.

صحيح أن الفكر الحديث في العالم الإسلامي والعربي لم يتوقف عن حواراته النقدية مع المقدس. لكن المثقفين النهضويين بحق هم الذين أثاروا الشكوك والتساؤلات في قلب المقدس الرسمي السلطوي، والمقدس الأصولي الظلامي.

لقد تمكن طه حسين من نزع الرداء الكهنوتي المقدس عن التاريخ الإسلامي، فصدم عقل المؤسسات الرسمية (الأزهر) ومجلس النواب. . . عندما كان الدين الرسمي والأصولي قادراً على إثارة المشاعر الشعبية ضده، كان قادراً على إعادة ترتيب العلاقة مع الشارع الشعبي. ولا بد من أن نتذكر، في هذا السياق، كيف حملته جماهير حزب الوفد على الأكتاف لتعيده إلى الجامعة، وهو الذي كان ينتمي من قبل إلى حزب الباشوات (الأحرار الدستوريين).

ففي "الفتنة الكبرى"، قام بعملية هتك ممنهج للمقدس السلطوي، وكيف توظف السلطة الدين، والقرآن، والشريعة، لإضفاء المشروعية على طغيانها واستبدادها، فكانت الوظيفة النهضوية التنويرية تتمثل في تحرير العقل الشعبي من أوهام الدين السلطوي الرسمي، القائم على توظيف القرآن في خدمة السلطان، فكان لا بد من أن يخلص على ضوء الفضيحة التاريخية التي أثارها، إلى القول بضرورة الحكم التعاقدية المدني الذي يستند إلى الشرعية الدستورية والحقوقية والقانونية.

لهذا تمكن طه حسين، رغم نزعته الجذرية الراديكالية في تفكيك منظومة المقدس، أن يقيم علاقة متوازنة. رغم مرورها بتوترات كثيرة مع المجتمع، ليغدو من أهم قادة الفكر في تاريخ الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة.

والأمر نفسه ينطبق على نجيب محفوظ الذي أوغل بعيداً في تساؤلاته حول اليقينيات الكبرى، لكنه، مع ذلك لم تترصده سوى المؤسسات الكهنوتية، وأخيراً السلطة التي قررت إلغاء مع طه حسين.

فمع نجيب محفوظ لم تختل المعادلة المطلوبة من المثقف الوطني، التي طرحها رشدي على لسان "زينات وكيل" يجب احتضان الوطن والانتماء إليه كما هو لا كما ينبغي أن يكون. فمنذ صدور الثلاثية، يعلن كمال عبد الجواد أن للمجتمع "مثلاً"، وله "مثلاً"، فالانقلاب على مثل المجتمع خيانة، كما أن النكوص والارتداد عن مثله الفردية الطامحة لتغيير مثل المجتمع خيانة.

إن الدكتور العظم يشير إلى أن رشدي هو "صلاح الدين"، لكنه يوغل بعيداً في تكريس اللبس الذي أثارته "آيات شيطانية" عندما يبحث عن المشروع التاريخي التوثيقية لهذيانات "جبريل" وعندما يبحث عن التبريرات الغيبية لـ "بيت حجاب" الذي يساء فيه إلى زوجات النبي بأسلوب (سوقي - حاناتي) ليس فيه قيمة فنية أو جمالية، وأظن أن هذا الفصل هو الذي أثار كل هذه البلبلة، وهو على درجة من المجاز الهجائي القدحي الذي يصعب

على المشاعر الشعبية أن لا ترى فيها الإهانة لقيمتها، بغض النظر عن السياق السردي الذي كنا قد أشرنا له، في أن المقدس هنا يهان من خلال ذاكرة مريضة ووضيعة، لكن مع ذلك فإن اللبس على مستوى بنية النص والسياق الوظيفي لأداء الشخصية يطل من جديد ليظهر اضطراب الكاتب، فهو قبل أن يلجأ إلى استبطان شخصية جبريل، يتحدث عنه بصيغة السارد الحيادي، والسارد في الرواية ليس شخصية روائية بل هو المؤلف ذاته، حيث يشير إلى أن جبريل كان قد اطلع على حكاية الآية الشيطانية وعلى التشريع السياسي والاجتماعي الذي استوحاه محمد من حريمه بعد عودته إلى مكة منتصراً. هذه الوحدة السردية لا تتأتى في سياق سيلانات ذاكرة "جبريل" بل في سياق المتن الحكائي الذي يقدمه السارد لـ "الكاتب" ذاته بحيادية لا تنطوي على أية أبعاد مجازية ساخرة أو متهكمة.

ومن الواضح أن إشارة من هذا النوع لا تحمل أية قيمة تاريخية توثيقية، ولا أية قيمة فنية سوى القدح والإساءة إلى محمد كنبى، كباني دولة، وكمؤسس لهوية ثقافية وحضارية يجب احترامها بغض النظر عن مصائرنا التاريخية.

إن الدفاع عن حقوق الإنسان ينبغي أن لا يتوقف عند حدود الدفاع عن حرية الكاتب في التعبير والحياة فحسب، وهذا ما قمنا به كمتقنين دفاعاً عن حياة رشدي، بل إن حقوق الإنسان تتطلب ما يتجاوز الحقوق الفردية إلى الحقوق القومية، وحق الشعوب في

صيانة كرامتها التاريخية، وتراثها القومي والثقافي، إن كان دينياً أم دنيوياً، أي أن المثقف الديمقراطي مدعو ليس للدفاع عن حقوقه في حرية الاعتقاد فحسب، بل وحق الشعوب أيضاً.

والعلمانية ليست دعوة لفصل الدين عن المجتمع، بل لفصل الدين عن الدولة، لإنقاذ المجتمع من توظيف الدولة للدين، ومأسسة الدين وتحويله إلى قوة إرهاب ضد العقل والعلم والتقدم. فالعلمانية تحايث مع العقلانية كروية للحياة، ومع الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وبداية دخول الجماهير مسرح التاريخ بوصفها هي المعنية أولاً وآخرأ. فهذه القضايا ولدت في معمعان حراك اجتماعي غدت الكتلة الشعبية قوته والموجهة له، ولم تلد كأفكار للمناقشات العقلية والذهنية والأكاديمية.

وعلى هذا فالمثقف الوطني الديمقراطي الراديكالي المندمج عضوياً بمشكلات المجتمع، لا تعنيه مشكلة المقدس والدين من خلال صلته بالعقل، بمقدار ما تعنيه من خلال علاقتها بالمجتمع ومصائر حركة التقدم فيه.

فهذا هو المثال الياباني يعطينا نسقاً مغايراً لتاريخية حركة التنوير في أوروبا، وها هم يدخلون معركة العصر دون رابليه أو فولتير أو فيورباخ ياباني.

وها هم اليهود يجعلون من عقيدتهم السفاحة أيديولوجيا قومية، بل وطبقية، حسب ماركس، ويبدون أكثر ملل الأرض تعصباً لملتهم، ومع ذلك ها هم يحضرون أنفسهم للاستعباد المباشر

للمنطقة وتهويدها بعد أمركتها رغم أن الإحصاءات تقول بأن ٨٥٪ من اليهود ملحدون بالله الذي يستخدمونه قومياً وطبقياً.

إن معركة المثقف الوطني الديمقراطي الراديكالي بحق، هي المعركة التي تبدأ مع مقدسات السلطة ومقدسات الأصولية الظلامية التي هي الوجه الآخر للعنف السلطوي، وليست المعركة مع مقدسات الشعب. يكفي امتهان كرامته القومية والوطنية على يد "الأميركان واليهود"، ويكفيه امتهان حقوقه الاجتماعية والسياسية والثقافية والقانونية على يد حكامه.

الشعب ليس بحاجة إلى اضطهاد جديد على يد مثقفيه، ليجردوه حتى من أبسط حقوقه في البحث عن الأمان الروحي، وهو ليس بحاجة إلى جلادين جدد، يجلدون أحاسيسه ومشاعره وقيمه الأخلاقية والوجدانية، وهذا حق مشروع من حقوق الإنسان.

إن المقدس السلطوي القائم على معادله "السلعة / وثن - السلطة / وثن" هو الذي أنتج معادله في "الوثنية التراثية" وظلاميتها الإرهابية، حيث يوضع أي خيار ديمقراطي وطني شعبي بين حاضر يحكمه "البوط" العسكري، أو إمكانات مستقبل ظلامي يبشر به سيف الإرهاب الأصولي (الثيوقراطي).

ثنائية "السف / البوط" هي ثمرة إلغاء المجتمع وتدمير الوعي المدني، وتعميم وعي ثقافي رسمي يقوم على ثنائية "الجامع / الكباريه".

فالسطة التابعة لا تملك سوى منظومة "الكباريه" ثقافة وقيماً أخلاقية، ولا يجد الشعب ملاذاً روحياً وأماناً وجدانياً يرد به على حاضر "الكباريه" إلا بماضي "الجامع"، و"الجامع" نفسه مع كل ما يحمله من رموز تاريخية وسوسولوجية وسياسية، غدا مسرحاً للصراع بين رجال "دين السطة" ورجال دين "الماضي" للتحكم برقاب العباد المقهورين بدينهم والمطعونين بكرامتهم الاجتماعية والقومية.

وعلماء دين السطة - بل والأدق حسب الكندي (عدماء الدين) - جاهزون دائماً لتفصيل الشريعة والفقهاء على مقاسات الدولة التابعة منذ كامب ديفيد (صلح الحديدية) إلى الوجود الأميركي في الخليج دفاعاً عن مكة والمقدسات الإسلامية، إلى الترحيب باليهود الذين يتردد اسمهم في القرآن دون أن يتردد اسم الفلسطينيين على حد تعبير أحد فقائهم!

أما رجال "دين سلطة الماضي"، فهم جاهزون دائماً للتلويح بسيوفهم التي يمكن أن يفتتن بها البؤساء المذلون المهانون لمواجهة التاريخ والتقدم، اللذين يبدوان كنبسة شيطانية في صحراء عقولهم الجذباء.

بين دين السطة ودين الماضي، يدمر الوعي الوطني للدين الشعبي، الذي عجز المثقف النخبوي الطليعي أن يجد قناة اتصال مع خصائصه التاريخية والحضارية.

لقد تحول الدين الشعبي الذي هو "دين الفطرة" إلى مجال تجريب واختبار المناهج الحديثة من تفكيكية إلى ابستمولوجية إلى وضعية إلى ماركسية، لكن الدين بقي حيث يجب أن يبقى في صدور الناس كنفثة مقهورة ترسل إلى السماء احتجاجاً على ظلمات الأرض، الأرض الإسلامية التي زرعها "حكامها خيانة ودناءة وظلماً وجوراً". فكلما ازدادت الأرض بؤساً ازدادت سعادة السماء "ماركس".

لقد كانت صدور الناس، بحسها الشعبي ووعيها الديني الوطني، تتنفس البارود وهي تراقب وتتفرج وتسمع وسائل إعلامها العربية والإسلامية تحدثها وتريها الآلة العسكرية الأميركية وهي تتخندق في أرض آبائها وأجدادها المقدسة، وتريها البطولات الأميركية في السماء العربية، فلا تملك هذه الجماهير من أمرها إلا أن تجأ في وجه السماء شاكية "اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله".

إذا كنا معنيين بالوظيفة الاجتماعية والفكرية لـ "آيات شيطانية" وفق الإشكالية المركزية للوضع العربي الراهن، فإننا قطعاً لن نجد وظيفتها التنويرية والنهضوية من خلال الحوار مع مشكلة المقدس في علاقته بالعقل، بل بمشكلة المقدس في علاقته بالوجدان والحس الوطني والتاريخي، وعلى هذا، فإننا لن نبحت عن البعد النهضوي في الخطاب الاستشراقي الذي يهزأ بالمقدس - بغض النظر عن صدق المرجعية التاريخية - من خلال شخصية "جبريل"، بل من خلال سيرة صلاح الدين الذي تنتهي غربته،

أو عدمها بالعودة إلى الوطن، ومحبه لمدينته، وشعبه، وقبوله له فيما هو عليه، لا كما ينبغي أن يكون.

إن نصيحة "زينات وكييل" لـ "صلاح الدين"، لو أجاد سلمان سماعها، لكان أكثر دهاء ورهافة في قول الحقيقة حول المقدس. هكذا كان ينصح بريشت أيضاً "الدهاء في قول الحقيقة" وليس الكذب في قول الحقيقة كما ينصح جينيه وما كان يقوله كانت: "إنني لا أستطيع أن أقول كل ماؤمن به، لكنني لن أقول إلا ماؤمن به فعلاً".

نصيحة "زينات" ضرورية لسلمان رشدي، وصادق العظم، ولنا جميعاً، أولئك الذي آمنوا بمثل العقل الغربي عن "العقلانية - التنوير - النهضة - العلمنة - التقدم - الاشتراكية" لكن الغرب يستعيدوها اليوم بصيغة حشدنا حول مشروعه الحداثوي من خلال أنظمتها التابعة باسم مناهضة التطرف الديني. وفي حقيقة الأمر، فإن مناهضة الغرب ليست موجهة ضد الأصولية والتطرف، لأنها وسيلة في يده من أجل المزيد من إخضاع الأنظمة التابعة، بل مناهضة موجهة للإسلام كإطار ثقافي حضاري تاريخي يمكن أن يشكل هوية انبعاث وطني شعبي موجه ضد مصالحه، أي أنه يهدف إلى تدمير الضمير القومي والوجدان الاجتماعي والمخزون النفسي الثقافي والحضاري لإنساننا.

لا بد للفكر التقدمي بتعدد تياراته - وإن كان يبدو اليوم بلا عمق استراتيجي - من أن يستعيد مثل العقل الغربي التقدمية،

ليناهض بها عقل الغرب الهمجي الراهن، دون عقدة الكراهية تجاه وحشية الغرب ضدنا، لأن هناك قيماً عقلية وفكرية كونية أنتجها الغرب وينقلب عليها اليوم، ومثال يلتسين واليمين الروسي "المرحاضي" ليس إلا مثالاً على ما يقبع في عقل الغرب من "روث"، تغدو الولايات المتحدة اليوم حاملة مثله الأعلى!

إن استعادة قيم التنوير والعقلانية والعلمنة والديموقراطية والاشتراكية، هي استعادة لقيم كونية، لكن الاستعادة اليوم، ينبغي أن تتجاوز الاستيعاب العقلي، لتنتقل إلى مجال الامتصاص الوجداني، فالمعاناة الانفعالية والعاطفية للأفكار ضرورة على طريق تمثلها روحياً حسب كولريديج. وتحويلها إلى كياننا حسب جبران خليل جبران.

وعندما تتم معاناتها روحياً يمكن لها أن تتلون بالخصائص التاريخية والثقافية والحضارية للأمة، لكي لا تبقى علاقتنا بها علاقة استشراق أو استشراق معكوس.

إن المعاناة الروحية للأفكار هي المدخل لتبسيئها، وتبسيؤها هو المدخل لإدراجها في الوعي الاجتماعي والضمير الوطني، فلا قيمة لأية فكرة في ذاتها، إلا عندما يتبناها الشعب ويحولها إلى قوة مادية.

المنطقة العربية، اليوم، تشهد حالة تطبيع الأمركة والتهويد، وذلك عبرهزيمة أنظمتها العسكرية والسياسية، فلم يبق سوى الجبهة الثقافية لإلحاق الهزيمة النهائية بالأمة، وعلى ضوء هذا التوصيف،

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

فإن الأولوية أمام المثقف الوطني الديمقراطي، تكمن بالمقاومة على جبهة الثقافة الوطنية، بغض النظر عن مواقف الحكام والأنظمة والمؤسسات لأن مساءلة الشعوب والتاريخ آتية لا ريب فيها!

والمقاومة على جبهة الثقافة الوطنية، تستدعي في أولويتها الثقة بالشعب، معانقته، ومعانقة قضايا الوطن والاجتماعية والثقافية بوصفه الاحتياطي الوحيد والقوة الوحيدة القادرة على المقاومة.

والإيمان بالوطن والثقة بالشعب فيما هو عليه يستدعي الدفاع عن الخصائص الوطنية والتاريخية والحضارية لهويته ومقومات وجوده، عبر التحفيز الدائم لضميره القومي والوطني، وإيقاظ حسه المدني في حقه في الدفاع عن حقوقه الاجتماعية والسياسية والديموقراطية، والتأسيس لعلاقة حوارية نقدية بين المثقف والمجتمع، لا تؤدي إلى اصطدام المثل العليا للطرفين.

إذا كان قد أتى علينا حين من الدهر حتمَّ ضرورة الصدام بين المثقف / المجتمع من أجل دفع الحراك الاجتماعي وتسريع ديناميات التقدم والتطور، فإن الثقافة الوطنية المقاومة اليوم تستدعي لقاء المثل العليا للمجتمع والمثقف، لأن الأمة مهددة بكيئوتها الشاملة، أميركياً وصهيونياً.

قدم الزميل الدكتور عبد الرزاق عيد في مقاله الموسع "مناقشة لكتاب "ذهنية التحريم" (1) ما بدا لي أنه الدراسة العربية الجادة الوحيدة تقريبا لـ "الآيات الشيطانية": دراسة مبنية على غوص حقيقي في الرواية وعلى قراءة ناضجة لإشارتها ودلالاتها ومعانيها وعلى تصور واضح ومتقدم لمعنى النقد الأدبي ودوره ومهمته في التعامل ليس مع النص الأصلي وحده، بل ومع النصوص المعلقة عليه أو الشارحة له أو الداخلة عليه أو المنطلقة منه أو الموازية له كذلك. بعبارة أخرى، وحدها دراسة الدكتور عبد الرزاق تعاملت مع أدب رشدي كأدب وليس كتاريخ أو فقه أو منطق أو سياسة أو فكر أو مجرد غرب/ شرق وما إليه، ولكن دون أن تهمل، في الوقت ذاته، أهمية التاريخ والمنطق والفقه والسياسة والفكر

(1) مجلة "الحرية"، عدد ٥١٤، ٢٢-٢٨ آب (أغسطس) ١٩٩٣، ص ٣٤-٣٨،
 وعدد ٥١٥، ٢٩ آب (أغسطس) - ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣، ص ٣٧-٣٩،
 انظر كذلك "ذهنية التحريم" ط ٢، ص ٣٦٧-٣٩٠.

والشرق والغرب في الأدب المعاصر عموماً وفي "الآيات الشيطانية" تحديداً. لهذه الأسباب كلها فرحت بالدراسة واغتنت بها ويسعدني الآن أن أدخل في نقاش بناء معها - على ما أرجو - وفي حوار تكاملي مع صاحبها أتناول فيهما جملة القضايا الهامة والمسائل الحيوية المثارة فيها إن كان بالنسبة لكتابي "ذهنية التحريم" أو بالنسبة لرواية رشدي نفسها، وسأبدأ باقتباس الفقرة التالية من دراسة الدكتور عبد الرزاق:

"ويقول الكاتب إن التمعن الهادئ والرزين بين له أن رواية "الآيات الشيطانية" وما نجم عنها من تفاعلات وردود فعل ومناقشات "تشكل حقاً تطوراً فريداً وحدثاً فذاً لا سابقة له في التاريخ الحديث شرقاً أو غرباً". هكذا يضعنا الدكتور العظم، منذ المقطع الأول في الصفحة الأولى من المقدمة، أمام حكم قاطع يصادر علينا حقناً في أن لا نرى في هذه الرواية "تطوراً فريداً وحدثاً فذاً لا سابقة له في التاريخ" لأننا، وفق هذا الحكم، سنكون قد خرجنا عن التمعن الهادئ والرزين!".

يبدو من هذا الكلام - ومن غيره في مقال الزميل - وكأنني أصدرت قراراً مسبقاً وتعسفياً في مقدمة "ذهنية التحريم" يعلن "الآيات الشيطانية" أعظم رواية في التاريخ! وتصويماً لهذا القرار يذكّرنا الدكتور، أولاً، بأن "الآيات الشيطانية" ليست "أكثر أهمية وقيمة فنية وإبداعية" من روايتي رشدي السابقتين: "أطفال منتصف الليل" و"العار". وثانياً، بأن العنصر الفذ والفريد الذي لا سابقة له في الرواية ينحصر تماماً في شخصية جبريل فاريشتا وفي خطها السردي العام.

لا أعرف لماذا حمل الدكتور عبد الرزاق كلامي على هذا المحمل الطائش وغير المسؤول لا سيما وأن صفحات كتابي تبين بما لا يترك مجالاً لأي التباس أو شك أن المعني بـ "التطور الفريد" وبـ "الحدث الفذ الذي لا سابقة له في التاريخ الحديث شرقاً وغرباً" ليس "الآيات الشيطانية" بحد ذاتها وكأدب خالص، بل قضية سلمان رشدي والمشكلة العابرة للقارات التي أثارها روايته بمجملها، أي مجموع التفجيرات والتفاعلات السياسية والدولية والدينية والعالمية والإعلامية والثقافة . . إلخ، التي ترتبت عليها. أضف إلى ذلك أنه لا شيء في "ذهنية التحريم" يشي بأنني اعتبرت "الآيات الشيطانية" - كرواية - أعظم "أهمية وقيمة فنية وإبداعية" من "أطفال منتصف الليل" و"العار"، كما أنني ما زلت على قناعة بأن الوقت لم يحن بعد لإصدار أية أحكام جديدة بعيدة المدى على "الأهمية والقيمة الفنية والإبداعية" لـ "الآيات الشيطانية" إن كان بالمقارنة مع أعمال رشدي الأخرى أو مع كلاسيكات الأدب عموماً. وأفضل ترك مثل هذه المسائل لامتحان الزمن والمستقبل والأجيال اللاحقة التي ستعيد، على الأرجح، قراءة رواياته وتعيد تقييم مزاياها الفنية وخصائصها الجمالية وإضافاتها الإبداعية إلى أن يتحدد لها موقع ما ومكانة ما وأهمية في حركة الأدب الروائي في القرن العشرين. ما زلت على قناعة كذلك بأنه ليس في شخصية جبريل فاريلشتا بحد ذاتها أو في خطها السردية على امتداد الرواية كلها ما يستحق وصفه بالفذ أو الفريد أو الحدث الذي لا سابقة له في التاريخ (لا سيما تاريخ

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

الأدب) مهما كان نوع استقبالنا لهذه الشخصية الروائية، ومهما كان نوع تفاعلنا معها، ومهما كان رأينا فيها وفي مهارة خالقها وفي موقفه منها. أنا مقتنع كذلك بأن الحدث العالمي - الدولي الذي تفجر باسم الرواية وبسببها والذي لازمها تماماً منذ تلك اللحظة - بما في ذلك حكم الإعدام الذي أصدره الإمام الخميني - هو بالفعل حدث فذ وفريد ولا سابق له في التاريخ الحديث شرقاً وغرباً وذلك لأسباب شرحتها بشيء من التفصيل في "ذهنية التحريم". واقعة الحادثة الأدبية - السياسية الوحيدة في القرن العشرين التي تحمل شيئاً من الشبه بحادثة "الآيات الشيطانية" في نهاية خمسينيات القرن وأقصد بها رواية بوريس باسترناك "الدكتور جيفاغو" كما سبق أن ذكرت.

تقودني هذه الملاحظات إلى السؤال المباشر الذي طرحه عليّ الدكتور عبد الرزاق مشكوراً بالعبارات التالية: "هل تستحق "الآيات الشيطانية" هذا الاهتمام من قبل مفكر عرف عنه نزعه الحوارية السجالية مع المشكلات الأكثر راهنية وسخونة وأهمية؟". ويتبين من السياق الذي ورد فيه السؤال أن الدكتور عبد الرزاق يعتقد أن مشكلات أعظم بكثير من قضية رشدي ومسائل أكثر راهنية بما لا يقاس من مسألة روايته قد مرت على العالم عموماً وعلى العالم العربي تحديداً في السنوات الأخيرة ولم أعرها الاهتمام الذي تستحق، كمفكر وكاتب، مفضلاً عليها فقاعة "الآيات الشيطانية" ومصير صاحبها. لذا يأخذ عليّ الصديق

الدكتور برقة، أولاً، كوني لم أكتب " منذ أربع سنوات سوى ما كتبه عن سلمان رشدي " وثانياً، حماستي الزائدة في الدفاع عن رشدي واندفاعي المفرط في تبني الرواية والمنافحة عنها في وجه أعدائها وخصومها ونقادها .

في معرض الإجابة، لا بد من الإشارة هنا: (أ) إلى أن الدكتور عبد الرزاق نسي أنني أصدرت خلال الأربع سنوات المشار إليها في عتابه كتاباً يحمل عنوان: " ثلاث محاورات فلسفية دفاعاً عن المادية والتاريخ " (٥٣١ صفحة) وأعرف منه شخصياً (ومن أصدقاء مشتركين أيضاً) مدى اهتمامه بالكتاب ومدى تميمه له؛ (ب) إلى أن حماستي الزائدة في الدفاع عن رشدي واندفاعي المفرط في تبني روايته كانا رد فعل مشروع ومدروس ومطلوب في مواجهة المغالاة العنصرية في إدانته وتجريمه والدعوة إلى قتله من جهة، وفي مواجهة الهيجان شبه الغريزي في اللعن المسبق للرواية من جانب أناس يفترض أنهم أبعد البعداء عن ردود الفعل الغريزية في كل ما يتعلق بشؤون الفكر والعلم والفن والأدب والثقافة عموماً، من ناحية ثانية. وفي معرض الإجابة أيضاً أقول: نعم، تستحق " الآيات الشيطانية " الاهتمام الذي أوليتها إياه وذلك لأسباب وجيهة عديدة منها ما هو شخصي وذاتي وفردى، ومنها ما هو موضوعي ومشترك ومرتبط بالشأن العام. وتجنباً للتكرار لا يسعني هنا إلا أن أحيل القارئ إلى مقدمة " ذهنية التحريم " ليعيد النظر مجدداً في التلخيص الدقيق والواضح الذي قدمته هناك لأبرز

الأسباب الموضوعية والعمامة التي جعلت "الآيات الشيطانية" وحادثتها تفرضان نفسيهما عليّ وعلى وعيي واهتماماتي إلى هذا الحد وبهذه القوة والحدة. وكان بودي أن أسمع رأي الدكتور عبد الرزاق، بشيء من التفصيل، في تلك الأسباب وفي تقييمي لوجهتها وخطورتها، وراهنيتها ودرجة سخونتها. أضف إلى ذلك ضرورات احترام مبدأ الحد الأدنى القائل بحق أي متهم في الدفاع عن نفسه وعن أعماله وأفعاله قبل إصدار حكم إعدام (أو غيره) عليه وإن تعذر ذلك على المتهم، لسبب من الأسباب، يفترض بالآخرين القيام بهذا الواجب خاصة إذا أهملت "المحكمة" واجبها في تعيين محام له وعنه. فكما أن هناك شيئاً اسمه الحق العام في مواجهة المتهم، هناك أيضاً شيء اسمه حق المتهم العام في أن يحظى بدفاع مقبول عن شخصه وحياته ومصالحه قبل إصدار الأحكام عليه. ولا أعتقد أنني بحاجة إلى تقديم المزيد من التبريرات والتسويغات لإقداامي على محاولة دفاع فكرية وثقافية وأدبية عن "الآيات الشيطانية" وصاحبها في العالمين العربي والإسلامي.

في ملاحظة أخرى سجّل عليّ الدكتور عبد الرزاق المأخذ التالي:

"هذه الإشارة المنهجية استدعاها المنهج المضاد للدكتور العظم، الذي تعامل مع "الآيات الشيطانية" كوثيقة فكرية، تماماً كما تعامل معها خصومه، وهكذا كثرت "الفتاوى" وقلّت (القراءات)، وتحولت مقاربات النص إلى شكل من أشكال السجال الفقهي

الذي يحرم ويجرم، ويحلل ويسرى، وتحولت "الآيات الشيطانية" من نص أدبي تخيلي إلى وثيقة للاتهام أو البراءة، مولدة ثنائية الكفر والإيمان، ليصطبغ المنهج المدان من قبل الباحث، ومنهجه المضاد بهذه الثنائية".

لا أنكر أن أكون قد تعاملت، في بعض اللحظات، مع نص رشدي الأدبي التخيلي "كوثيقة فكرية" أو أن أكون قد انزلت، عن غير وعي، إلى شيء من منهاج خصومي في مناقشته، إلا أن عذري في ذلك هو أنني تناولت الرواية في "ذهنية التحريم" من خلال نقد وتحليل وتفنيذ التهجمات والإدانات والاستنكارات والانتقادات والتعليقات التي جاد بها هؤلاء الخصوم في معالجتهم العصبية والتعصبية لـ "الآيات الشيطانية" وفي ردود فعلهم شبه الهستيرية عليها. بعبارة ثانية، أطلب من الزميل الدكتور عبد الرزاق أن يضع في اعتباره هنا أنني كنت أرد في كتابي على طروحات وأساجل مناهج تعمدت رفض كل أسلوب في التعامل مع "النص الأدبي التخيلي" غير أسلوب التحريم والتحليل، التجريم والتبرئ، كل أسلوب غير أسلوب السجال الفقهي وتصحيح الأدب بالتاريخ وقياس النص الروائي بتزمت الموقف العقائدي المسبق - الصنع. على سبيل المثال، كان لا بد لي من أجل الرد على الجوقة التي لم تر في نص رشدي إلا تشويهاً للحقائق الثابتة وتزويراً للوقائع التاريخية وتحويراً لروايات تراثية شبه مقدسة من اطلاع القارئ على النص الأصلي لحديث الغرائق كما ورد في مراجع التراث الأصلية وفي وثائقه الفكرية الأولية

على الرغم من قناعتي بأن مثل هذا العمل ليس شرطاً ضرورياً على الإطلاق للتعامل الراقي والمتقدم مع هذه الرواية تحديداً أو مع أي عمل أدبي مؤثر آخر عموماً. بعبارة أخرى، اضطرتني الجوقة المذكورة - بعد أن ملأت الدنيا اتهامات وإدانات ولعنات - إلى التبني المؤقت والجزئي لأسلوب التعامل مع الرواية "كوثيقة فكرية" لتحقيق أغراض سجالية وتوضيحية لا أكثر، علماً بأن عمليات النقد والرد والتفنيد كثيراً ما تفرض على صاحبها - حفاظاً على فعاليتها ونجاحتها - ملاقاتة الخصم في منتصف الطريق أحياناً والمشي معه بعضاً منه، على أقل تعديل، في أحيان أخرى. والدكتور عبد الرزاق نفسه ليس غريباً عن هذا الأسلوب لأنه تعامل هو أيضاً مع نص رشدي الروائي - ولأغراض تكتيكية إيضاحية مؤقتة - وكأنه وثيقة فكرية حين تكلم بإسهاب في مقاله عن العولمة والرأسمالية والاعتراب ووثنية السلعة المطلقة في العالم المعاصر بالإضافة إلى عمليات تحويل كل شيء في هذه الحياة، مهما كانت طبيعته، إلى بضاعة مطروحة في سوق من الأسواق. كما انزلق هو أيضاً، في بعض المواقع واللحظات، إلى محاكمة الرواية وكأنها رواية أفكار وأفكار معاكسة، رواية أطروحات وأطروحات مضادة.

حدث هذا: (أ) حين جعل، عند نقطة معينة في مقاله، من وجود صراع الأفكار في الرواية أو عدم وجوده أحد المعايير الأساسية لمدى تمتعها "بدينامية التطور الدرامي الحوارى التعددي"

أو عدم تمتعها به، (ب) وحين جعل الفرصة التي تتيحها الرواية أو لا تتيحها لكل من الأطروحات التي يفترض أنها مطروحة فيها بأن تصطدم بالأطروحات الأخرى مقياساً على جودتها الأدبية، (ج) وحين جعل من إعطائها أو عدم إعطائها "للمنظور التراثي حقه الكامل والمشروع" في التعبير عن نفسه في سياقها ميزاناً لما إذا كانت الرواية قد حملت خطابها النهضوي بجدارة أم لم تحمله. ما الداعي لهذا الاستنفار للأفكار والأطروحات والحقوق الكاملة والمشروعة (بدلاً من الصور والتداعيات والانفعالات والإحالات الضمنية والتراكيب اللغوية والموسيقى الداخلية والشعرية والروائية وزوايا الرؤية السينمائية والعمليات المنتاجية والكولاجية. . إلخ) عند قراءة "الآيات الشيطانية" ومحاكمتها سوى الانزلاق مرة أخرى إلى التعامل معها كوثيقة فكرية في لحظات معينة؟ أم هل يفترض بالأدب الجيد، مثلاً، أن يوزع بالعدل والقسطاس الحقوق المشروعة على أصحابها وأن يترك بحياد موضوعية الأفكار تتبارى والأطروحات تتصارع في نسيجه إلى أن تُميز الفكرة الطيبة نفسها عن الفكرة الشريرة وإلى أن تُثبت الأطروحات السليمة جدارتها في مواجهة الأطروحات الفاسدة؟ وأستدرك هنا لأقول إن "الآيات الشيطانية" تفيض بالأفكار المتعاكسة والمتوازية والمتقاطعة وتطفح بالأطروحات المتناقضة والمتضاربة والمتكاملة وتموج بالحقوق الكاملة والناقصة والمشروعة وغير المشروعة وشبه المشروعة دون أن تكون في أية لحظة من لحظاتها رواية أفكار أو رواية أطروحات أو رواية حقوق مهما كان نوعها. كما أحب أن أؤكد قناعتني، بهذه

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

المناسبة، أنه لكي يحصل تقدم حقيقي على هذا الصعيد لا بد لنا جميعاً من تجاوز هذه الأساليب والطرائق والمناهج كلها في التعامل مع النصوص الأدبية التخيلية باتجاه اعتماد منهج آخر - أرقى بكثير وأكثر رهافة بما لا يقاس - شرح الدكتور عبد الرزاق معاملة خير شرح بقوله إن مراحل الضرورية تبدأ:

"... بالفهم، فالشرح، فالتفسير، ثم الانتقال إلى فضاء التأويل الذي يتيح مستويات متعددة للقراءة تحول دون الفهم الواحد، والاستنباط الواحد فالحكم الواحد، لأننا بذلك ندخل نفق الإسقاط وليس فضاءات التأويل والدلالة التي تتيح لنا تفحص المستويات المتعددة والمتنوعة، المتصارعة والمتناغمة بين البنية الخارجية والداخلية للنص، أو ما يسميه الجرجاني بـ "المعنى الظاهر والمعنى الباطن"، لكي نبغ المعنى الكامن وراء الكلمات، من أجل الوصول إلى البنية التكوينية للنص بمستوياته الدلالية المتنوعة".

يوم يصبح هذا المنهج، أو ما يقترب منه، هو منهج العفوية والسليقة عند النقاد العرب في تناولهم الأدب يكون قد أشرق يوم جميل حقاً على الثقافة العربية الحاضرة والمقبلة. لهذا وجدت استنتاج الدكتور عبد الرزاق بأن محاولاتي "إثبات صحة الوقائع التاريخية التي يحيل إليها خطاب جبريل الهذيانى عديمة المعنى" لأنها تعمل على إضفاء "العقلانية والمنطق على خطاب يقدم نفسه روائياً بوصفه خطاباً هذيانياً مشوشاً" هو في غير محله تماماً. في غير محله لأن من يتعامل مع الصيغ التي سيطرت على تناول

جوقة النقاد المذكورة لنص رشدي الروائي فهو مضطر بالتأكيد للتذكير بأوليات وبديهيات مثل الوقائع التاريخية التي يحيل إليها النص الروائي الذي نحن بصده. ولا يعني هذا التذكير أي إضفاء خارجي للعقلانية والمنطق على هذيانات جبريل فاريشتا بقدر ما يعني أن المادة الخام لهذا الهذيان كله لم تهبط من كوكب آخر على صاحبها ولم تنبثق إلى الوجود نتيجة اختراع عقله المريض لها. إذ للهذيان في الأدب دلالة ومعانيه ومغازيه وعقلانيته ومنطقه ورسالته أيضاً، وكثيراً ما وجد النقد الأدبي نفسه مضطراً لتفسير هذه الدلالات والمعاني وشرحها وتأويلها عند تناوله للنص الأدبي نفسه، بعقلانية ومنطق وحجة ومنهج لا هذيان فيها كلها البتة. إن النقد الأدبي الجيد لا يهذي لكنه يتناول حالات الهذيان ويفهمها ويؤولها دون أن ينزع عنها صفتها الهذيانية بفرضه عليها عقلانية مستوردة من خارجها. أما من يتعامل مع النص الروائي استناداً إلى منهج "الفهم فالشرح فالتفسير، ثم الانتقال إلى فضاء التأويل". واستناداً إلى قراءة "تطمح لأن تكون اكتشافاً للوظيفة الدلالية في نظام الخطاب الروائي ذاته" وإلى "الحوار الذي يمنح النص تجده اللامتناهي عبر انفتاحه على الاحتمالات والقراءات، وقدرته على تجديد نفسه باندراجه في تناص مستمر" لا يحتاج بالتأكيد إلى إثبات أية وقائع تاريخية وقد لا يحيل إليها النص إلا بالمعنى الثانوي للعبارة. ولا شك عندي في الوقت الحاضر أن من فضائل قضية رشدي وروايته، إرغامنا جميعاً على فتح ملف هذه

القضايا جميعها علناً وعلى أوسع مساحة ثقافية ممكنة ومناقشتها بقوة وجراءة وحيوية (لا تسمح بها الظروف الطبيعية عادة) وأمام جمهور عريض مشدود إلى ما يجري يتجاوز مدمني القراءة والمتابعة وأصحاب الاختصاص والاهتمام التقليديين. أما إحساسي الراهن فهو أن المشاركين في هذه المعمة خرجوا منها جميعاً وعلى العموم أكثر وعياً وحكمة ورزانة وتجربة بالنسبة للمسائل المطروحة وتعقيداتها مما كانوا عليه حين دخلوها. كل واحد منا تغير إلى هذا الحد أو ذاك عبر المشاركة، بصورة أو بأخرى، في هذا الصخب الثقافي الثمر والمجدي في نظري والذي لم يمر علينا مرور الكرام، كما أرجو ألا أكون على كبير خطأ في ظني هذا.

إن من يحمل على محمل الجد ما قاله الدكتور عبد الرزاق عن منهج "الفهم فالشرح والتفسير والتأويل" وعن "الدلالات والخطاب والحوار" وعن انفتاح النص على "القراءات والاحتمالات والتناص" في تناول الأدب مدعو بالتأكيد للتعامل مع علاقة نص رشدي الروائي بنص الطبري الذي يروي حادثة الغرائق تعامللاً يركز، على سبيل المثال وليس الحصر، على كيفية استقبال روائي معين عند نهاية القرن العشرين لنص عتيق وكيفية استيعابه له وإعادة إنتاجه لمعناه وشخصه ودلالاته وسرديته وتوتراته الداخلية وصراعاته الضمنية بلغة حديثه هي غير لغته الأصلية وفي عصر مغاير تماماً للعصر الذي أنتجه ولجمهور قارئ مختلط الاختلاط كله: فيه الأوروبي، وفيه الهندي والعربي

والأفريقي، وفيه المسلم والمسيحي واليهودي والوثني واللاذيني... إلخ. هذا كله في لحظة عولمة نمط الإنتاج الرأسمالي بالمثل وإختراقه في العمق مجتمعات الكرة الأرضية قاطبة وبلا استثناء بما في ذلك ثقافات الكلاسيكية ودياناتها العتيقة وعاداتها المكرسة وتقاليد الموروثة وأنماط معاشها المستقرة وتفصيل حياتها اليومية والعادية بالإضافة إلى تشكيلاتها المعرفية السائدة منذ القدم. لا شيء يبقى على حاله في هذا الوضع، ونشر رشدي القلق والمتوتر وسريع الإيقاع يعكس هذه الحالة العامة الطامة.

وأريد أن أذكر هنا بأني كنت قد أكدت في "ذهنية التحريم" أن رشدي استعار رواية الطبري وحولها إلى أدب رفيع - متكناً في ذلك على سورة النجم - بإعادة صياغتها صياغة درامية تشخيصية قوية ومؤثرة⁽¹⁾. هذه هي حقيقة ما فعله رشدي بـ "حديث الغرائق". وأريد أن أذكر كذلك بأن مناهج "الفهم فالشرح والتفسير والتأويل" وأساليب ترك النص منفتحاً على "القراءات والاحتمالات والتناص" تفقد جلّ أهميتها وفعاليتها ومعناها إن هي أهملت هذه الحقيقة، لا سيما وإن رواية الطبري مفعمة ضمناً بالعناصر الدرامية الخام كلها، مثل:

"صراع النبي مع نفسه بالنسبة لولائه الأولي لأهله وعشيرته ومدينته من ناحية ولتطلبات دعوته الكبرى التي كانت تصطدم اصطداماً مباشراً وعنيفاً بالولاء الأول، من ناحية ثانية. تدخل

(1) "ذهنية التحريم"، ط ٢، ص ٢٠٦.

الشیطان في هذا الصراع الداخلي لترجيح الولاء الأول على الدعوة ومتطلباتها. تدخّل جبريل لإعادة التوازن بإلغاء ما حققه الشيطان ثم ترجيحه الدعوة على الولاء العشائري الأصلي. أهمية المكسب الكبير الذي ربحته الدعوة الجديدة، دون صراع أو إراقة دماء، بانضمام قريش كلها إلى الإسلام نتيجة النطق بالآيتين المذكورتين، أي تحقق الهدف المباشر الذي كان يجاهد النبي من أجله ويعمل. خطورة النتائج المترتبة على سحب الآيتين من التداول وإلغائهما بالنسبة للمسلمين وبالنسبة لصراعهم مع خصومهم. شك جبريل بأن خطأ ما قد وقع في آيات التنزيل وطلبه إلى النبي إعادة تسميع السورة بأكملها عليه ليتأكد من سلامة ما نطق به من وحي. توبيخ جبريل للنبي على ما صدر عنه مضافاً إليه تعديل التنزيل وتصحيحه. طرح السؤال عما إذا كان ذلك كله قد تم بإرادة الله وعلمه أم لا؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب ما الحكمة من ذلك؟ وإذا كان بالنفي فهل هذا ممكن وجائز؟ إلى آخره إلى آخره⁽¹⁾.

إذن ما معنى امتناع الخبراء في تقنيات عمليات الفهم والشرح والتأويل والتناص وفنونها عن تطبيق ذلك كله على النصين المعنيين بغرض إضاءتهما معاً ومساعدتنا على استيعاب دلالاتهما المتجاورة والمتخاطبة والمتداخلة حكماً⁽²⁾؟ لذا أريد أن أبدأ هنا بالإشارة إلى دلالة مركبة واحدة من هذه الدلالات، أي نقل أدب رشدي نص الطبري من زمن الأزك إلى زمن الزمن؛ من مستوى تكشف

(1) المرجع السابق.

(2) يجد القارئ نص رواية الطبري عن "حديث الغرائق" منشوراً ف "ذهنية التحريم"، ط ٢، ص ٢٠٤-٢٠٦.

أحداث مقررة مسبقاً وفقاً لخطة مقدرة منذ الأزل إلى مستوى الأفعال والاختيارات والانفعالات والقرارات والسياسات والحسابات؛ من منطق لا جديد تحت الشمس حقاً وما كان يمكن لشيء أن يكون على غير ما هو عليه إلى منطق الإمكان والاحتمال والتجديد والإضافة والخلق؛ من سردية طَبْرِيَّة خطية جبرية تتابع فيها رواية الوقائع - من أكثرها عظماً إلى أعظمها تفاهة - برتابة لا تُغيّر في نبرتها ولا تبدل في وتيرتها إلى سردية رشديّة حرّة غزيرة الأبعاد والاتجاهات تتفاعل فيها الوقائع حسب أحجامها وأهميتها بحيوية ديناميكية تتغير نبرتها من حالة إلى حالة وتبدل وتيرتها من ظرف إلى ظرف ويتحول مزاجها من لحظة إلى لحظة؛ ومن السكينة والصفاء والهدوء والطمأنينة والسلام التي تطبع كلها سرد الطبري إلى الصخب والتقلب والشك والاصطدام والشجار والصراع التي يتميز بها كلها تناص نص رشدي مع نص الطبري الأول. بعبارة ثانية ينقل سرد "الآيات الشيطانية" لحديث الغرائق مفهوم الطبري لـ "التاريخ" وتتابع أحداثه من دائرة القدر والمصير والجبر إلى دائرة التاريخ والضرورة والحرية والفعل. تأريخ الطبري للحديث لا تاريخ فيه أوله، أما رواية رشدي للحديث نفسه فهي التاريخ بذاته: بقلقه وتقلباته وانفعالاته وتعرجاته ومفاجآته وتناقضاته وتشوّهاته وحركيته وعدم اكتماله. وفي الوقت الذي يريد فيه الطبري تأييد أحداث التاريخ الإسلامي التي يسردها بإحالة معناها إلى خارج التاريخ يعمل أدب رشدي على إرجاعها إلى تاريخيتها وزمانيتها وجوازها وإنسانيتها وتناقضاتها بغرسها

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

مجدداً في حركة التاريخ التي كان الطبري (وأحفاده) قد انتزعها منها. إن تاريخية إعادة السرد هذه وتناصها عند رشدي هي التي تجعل أحداث وقائع حديث الغرائق وشخصه تبدو متحولة متناقضة ومتزامنة ومتوترة ومتصارعة ومتكاملة في وقت واحد.

ينجز رشدي هذه المهمة - كأبي فنان جيد - بفرضه شكلاً فنياً جديداً على مادة خام موجودة قبلاً ومألوفة مسبقاً بحيث "يُمشكّلها" ويكسر رتابتها بوضع مسافة ما بيننا وبينها فتراها من زاوية أخرى غير مألوفة أو ننظر إليها بعين جديدة أو نكتشف جوانب مغايرة خفية لها أو نلمح شيئاً ما عن حقيقتها العميقة عارية عن المظاهر والأغلفة والأقنعة وبكل تناقضاتها وصراعاتها وتوتراتها الداخلية. من أبرز الآليات التي يلجأ إليها رشدي لهذا الغرض توحيد الشكل الجديد بالمضمون القديم بحيث يستبدل نص الطبري الوصفي - الإخباري بنص روائي - أدائي يعبر بأسلوبه وتراكيبه وحركته ونبرته ذاتها عن الرسالة نفسها التي لم يكن النص الأول يطمح إلى أكثر من وصفها وصفاً والإخبار عنها إخباراً. على سبيل المثال إذا أعلمنا الطبري أنه "لما رأى رسول الله . تولّى قومه عنه، وشق عليها ما يرى من مباعدهم . . تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه . " أعاد رشدي تقديم الحال ذاتها بنص تعبيرى يجعل القارئ المتنبه يحس كأنه يعيش ألم تولى قومه عنه فيشق عليه هو أيضاً مباعدهم له ويتحسس بجوارحه هذا التمني في أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبينهم إلى أن يرى بأم

عينه وبذاته وعلى صفحات الكتاب نزول هذا الذي تمناه من فوق أو فورانه من الأعماق، لا فارق في ذلك. وإذا أخبرنا الطبري بأنه حين أنزل الله سورة "النجم" على الرسول: ولما بلغ جبريل "أرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه: "تلك الغرائق العلاء، إن شفاعتهن لترجي". . .، أعاد رشدي تقديم الحال ذاتها بنص روائي يجعل القارئ يشعر وكأنه يحدث نفسه هو أيضاً ويتمتم الآيتين الشيطانيتين دون أن يدري ماذا يفعل ويحس بأنفاس إبليس وهي تقترب منه ويستشعر وسوساته وهمساته تتفاعل في سريره وأحشائه وكأنها استجابة شيطانية لشيء ما كان يريده ويتمناه في أعماقه أصلاً. وعلى هذا النحو تنقلب سردية الطبري الشكلية الرتيبة والسكونية الباردة إلى سردية عضوية حية وديناميكية متوترة وحميمة.

أما التكنيك الآخر الذي يلجأ إليه رشدي لمعالجة المادة القديمة فيتلخص في إعادة أزمنة السرد وأمكته وأحداثه وشخصه وتضاييفته وإنسانيته وسببته ونبرته ومناخاته وإعادة ترتيبها وصياغتها وتقديمها كلها وفقاً لمتطلبات الشكل الفني الأدائي الجديد وقواعده وأغراضه وجمالياته. لذا نجد أن الأحداث البعيدة عن بعضها مكانياً وزمانياً وسببياً في النص الأول وقد تحولت إلى وقائع متقاربة أو متقابلة أو متطابقة في النص الثاني؛ والوقائع القريبة مكانياً والمتعاقبة زمانياً والمترابطة سببياً فيه قد تفككت

وانفصلت عن بعضها البعض ليعاد ترتيبها وفقاً لمقتضيات الشكل الفني الآخر. كما يمكن أن نجد الأحداث المتتابعة عطفاً (و، و، و...) في المادة الأولية القديمة وقد جرى تركيزها فجأة في لحظة امتلاء نفسي من لحظات الزمن الحاضر تضم دفعة واحدة ما كان وما هو كائن وما سيكون. وقد نجد كذلك أن ما يقدمه السرد الأصلي على أنه واقعة عادية بريئة (واقعة الغرائق مثلاً) لا تثير عند صاحب السرد أية اهتمامات فوق عادية أو أية تساؤلات استثنائية وقد ظهرت في السرد الجديد وكأنها مزيج من الخيال والذاكرة والواقع والتوقع والرواية والإسقاط والتوتر والتناقض والصراع. وكثيراً ما يحدث في هذا النوع من المعالجة الأدبية للنص الأول أن تقطع السرد فجأة لقطعة ارتدادية (فلاش باك) تضيء شيئاً ما في الماضي له أثر على ما يحدث الآن أو أن تخترقه لقطعة أمامية تختلس النظر باتجاه المستقبل ملمحة بسرعة إلى شيء ما سيرتب لاحقاً على أفعال وخيارات تتم الآن وأن تقتحمه شطحة من شطحات الخيال والفانتازيا المدهشة (على طريقة روائيين من عيار ماركيز وغونتر غراس وميلان كونديرا) لتتوج العملية كلها بانبثاق معنيّ تركيبى جديد تماماً في الذهن أو بانبلاج أساليب أخرى غير مألوفة في رؤية العالم وتحديد المواقف من الحياة. تُذكرني هذه الطريقة في إعادة تشكيل النص القديم وسرده بتجارب حميمة أعيشها يومياً ولكن لا أتبه لها إلا في لحظات الوعي الحاد ويقظة مساءلة النفس أو تأمل الأدب المعاصر (والسينما الجديدة، طبعاً) الذي يقتضيها بألف طريقة وطريقة:

- لقطه من هنا لا أفهم معناها إلا بعد أيام أو أشهر وعلى ضوء أحداث كثيرة لاحقة (قد يضغطها الروائي كلها في ومضة نفسية واحدة).

- موقف من هناك لا أدرك مغزاه إلا بعد تفحص ذاكرتي بحثاً عن زمن ضائع ما.

- حوار أجرته مع زميل أو زميلة عن المستقبل وذهني شارد في الماضي لأن المستقبل الذي يجري الحديث عنه يبدو وكأنه استعادة بشعة أو جميلة أو . أو . لشيء ما كان أو وقع .

- أتحدث عن شخص لا أعرفه لأفاجأ بأني لا أعرفه ولأتبين فيما بعد بأني تعرفت عليه بشكل سيئ وسأتعرف عليه بصورة أفضل بعد سنوات .

- أصطدم بشخص وموقف لا يعيناني بشيء لأجد بأن المعنى أخذ يتكشف ببطء ويتبلور عبر مزيد من التجارب والمعلومات والصدف وطوارئ الحياة . . إلخ .

- أتوقف من فترة لفترة لأعيد تجميع الأجزاء المتفرقة والشذرات المتناثرة من تجاربي الحياتية الحميمة هذه لأشكّلها في صورة ما واضحة المعالم نسبياً أو في سياق ما يوضح لي معناها ولو بصورة مؤقتة وجزئية، لكنني أعرف في الوقت نفسه أن الحياة سترغمني على إعادة النظر مجدداً

بالصورة وبالسياق وبالمعنى على ضوء استمراريتها وتدفعها
الذين لا ينتهيان.

سأضرب مثلاً سريعاً مستمداً هو الآخر من إعادة تقديم
رشدي لحديث الغرائيق. ففي حين يبدأ سرد الطبري بوصف لمني
الرسول في أعماقه بأن ينزل الله عليه ما يقارب بينه وبين قومه
الذين شق عليه مباعدهم لهم. يبدأ سرد رشدي بشخص ماحوند
متجهاً للاجتماع بأبي سمبل (بناء على دعوة من الأخير) لإجراء
مفاوضات سياسية خطيرة وحاسمة تتناول علاقة دعوته وحركته في
تلك اللحظة بالذات أعدائه وبالتالي بالقوم الذين صعب عليه ابتعاده
عنهم وشق عليه ابتعادهم عنه. في الوقت ذاته بقي ثلاثة من
أتباعه المقربين ينتظرون عودته للاطلاع على نتيجة المفاوضات.
وفي حين يخبر الطبري قارئه ويعلمه مباشرة بما يجري من أحداث
واضحاً إياه في موقع ممتاز، يترك رشدي قارئه ينتظر مع المنتظرين
لما سيسفر عنه الاجتماع. بعبارة ثانية لا يعرف قارئ نص رشدي
أكثر مما يعرفه شخوص الرواية أنفسهم إن كان بالنسبة للمتفاوضين
منهم أو بالنسبة للمنتظرين خارجاً نتيجة المحادثات. يتعرف القارئ
على ما يجري تدريجياً وبصورة غير مباشرة عبر معاشته توتر
المنتظرين وقلقهم وتخميناتهم ومشاجراتهم وتعليقاتهم وحركاتهم
وسكناتهم وأحاديثهم وشكوكهم وتوقعاتهم بشأن حقيقة الذي
يجري وراء الأبواب المغلقة وبين الأقرباء الألداء والأقوياء. فإذا
كان المنتظرون يعيشون على أعصابهم ويضربون أحساساً بأسداس

سعيًا وراء معرفة نتفة عن ما يحدث، فإن القارئ يعيش على أعصابه معهم ويضرب أحماسه بأسداسه للغرض ذاته. وإذا كان المنتظرون في ريبة وشك وحيرة حول ما إذا كانت النتيجة ستفرحهم جميعاً أم ستغضبهم جميعاً أم ستقسمهم بين مؤيد ومعارض ومحيد ووسيط، فإن القارئ يعيش هو أيضاً ريبتهم وشكوكهم وحيرتهم وقلقهم من أثر المفاوضات عليهم كلهم.

يخلص رشدي في معالجته لنص الطبري العتيق على النحو المذكور، إلى إعادة تقديمه أداثياً وعلى صورتين: الصورة الأولى هي التي احتفل بها أعداء ماحوند وسجدوا كلهم تصديقاً لها لأنها ذكرت بالخير آلهتهم المعروفة⁽¹⁾ والصورة الثانية هي التي أغضبت هؤلاء الأعداء أنفسهم بسبب سحبها لتلك الآلهة من التداول مجدداً ومهاجمتها ورفضها قطعياً وإلى الأبد⁽²⁾.

تترتب نتيجتان رئيسيتان على إعادة تقديم النص العتيق بالأسلوب المشار إليه أعلاه وذلك بالنسبة للفن الروائي عموماً ولأدب رشدي تحديداً :

(١) إزاحة صورة قارئ الرواية باعتباره مشاهداً منفصلاً يتلقى بصورة جاهزة من المعلومات والأحداث والأوصاف ما يخبره به المؤلف لصالح قارئ فاعل يحاول أن يتعرف على ما يجري في الرواية عبر قراءة الرموز وتفسير الإحالات وتأويل الإشارات

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ١١٤ - ١١٥ .

(2) المرجع السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

والتلميحات والسكنات والحركات والكلمات والحوارات
والسكوتات والغيابات. قارئ مضطر لإعادة تشكيل أحداث الرواية
وشخصها زمنياً ومكانياً وسببياً وسردياً وتاريخياً كي يبنى معانيها
ومغازيها عموماً ويستخلص المعاني والمغازي الملائمة له ولتكوينه
ولتجربته في الحياة تحديداً. قارئ يحترق ويشك ويقدر ويخمن
ويظن وينرفز ويتعب ويعتب ويقهقه ويشتم ويتسم ويفهم أحياناً
ولا يفهم في أحيان كثيرة أخرى، قارئ تتحده الرواية فيستنفر
نفسه لها ويستنفر ثقافته (مهما كان مستواها متواضعاً أو متوسطاً أو
رفيعاً)، من أجلها، فيشكل صورة أولية ما عن مجراها ثم يُعيد
تشكيل تلك الصورة مؤقتاً على ضوء مسيرته معها وهكذا دواليك،
إلى أن يدرك أن فهم أي جزء من أجزائها يحتاج إليها كلها وأن
فهمها كلها يحتاج بدوره إلى أجزائها، وأن استيعاب الصفحة الأولى
منها يحتاج إلى صفحتها الأخيرة والعكس بالعكس.

ملاحظة: إن القارئ الذي أتكلم عنه هو بطبيعة الحال نوع من
النمذجة العالية - على طريقة ماركس فيبر الشهيرة - أي لا وجود
له إلا في عالم التجريد الذهني، ولكن الذي لا بد لنا منه لفهم
سلوك القراء الفعليين وتصنيفهم وتقييمهم . . إلخ.

(٢) استخراج العناصر الدرامية الكامنة في نص الطبري
وإبرازها أدائياً بتشكيل نص درامي جديد يتناص مع الأول بتقديم
الأحداث والشخص نفسها تقريباً ولكن بأسلوب أدبي فعال وتأثير
فني عميق ومحرك ومقلق وكاشف. إن نص الطبري مفعم بالدراما

المضمرة ولكن لا دراماتيكية في النص نفسه. يحكي النص حكاية الاختلاط الذي حدث بين وسوسة الشيطان والوحي والالتباس الذي وقع بينهما ولكن النص نفسه لا يشكو من أي اختلاط أو التباس. يصف النص أحوال الحيرة والتردد والتوتر والشك والريبة والمفاجأة والصدمة والانفعال ومراجعة النفس التي تنتاب شخصه لكن النص نفسه لا يحتار أو يتردد أو يتوتر أو يشك أو يرتاب أو يفاجأ أو ينصدم أو يفعل أو يراجع نفسه، بل يستمر على وتيرة واحدة في سرديته وعلى إيقاع ثابت لا يزيد أو ينقص. لذا يفاجئ تناص رشدي الأدائي البديل - كأني نص درامي - متلقيه ويصدمه ويبعده ليتركه على حال هي غير ما كان عليه قبلاً. يُبرز السرد الثاني، عبر حركته وإيقاعاته وسرعاته ونبراته وتراكيبه، عوامل التفجير والتوتر والتناص والصراع الكامنة كلها في السرد الأول. على سبيل المثال، يعطي السرد الثاني مكان الصدارة للصدام الخفي والمفتوح بين المقاصد الذاتية لأبطاله وبين الشروط الموضوعية القائمة والتي على هؤلاء الأبطال التحرك ضمن دائرتها والاصطدام بها فإما أن تسحقهم وإما أن يطيحوا بها. ولا بد من التأكيد هنا أن الذي يصلنا فعلاً عبر تناص فنان من طراز رشدي مع نص الطبري هو دراما حقيقية وليس مجرد الإحساس بالصدام أو التوتر أو التفجير أو ما شابه ذلك. من هنا خصائص النص الثاني الأسرة والمربكة والمتعبة والمحيرة والمخيفة والمضحكة والمحررة والكاشفة والمثيرة والناقدة والشرسة والمخرجة في الوقت ذاته. أضف إلى ذلك شتى أنواع المعلومات والملاحظات والتعليقات والحدوس التي

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

يُحملها رشدي لسرده بعفوية لا تجارى ويحشو بها حكاياته بتلقائية لا تصدق عن أشياء العالم وأحواله كلها: من الهند إلى باكستان إلى الإسلام إلى التاريخ إلى الحرب إلى المهاجرين إلى السينما والمسرح إلى لندن ونيويورك إلى الثورة إلى النظام العالمي الجديد إلى الاقتصاد الدولي . . . إلخ . . إلخ .

في معرض التعليق على بعض المقارنات التي كنت قد أجريتها بين رواية رشدي وأعمال أدبية عالمية مشهورة أخرى، أوضح الدكتور عبد الرزاق أن قصة "المسخ" لـ فرانز كافكا ليست قصة قصيرة كما ذكرت في "ذهنية التحريم" بل هي رواية من رواياته المعروفة ثم لاحظ ما يلي:

"إن الإيحاء بالصلة بين صلاح الدين شامشا وغريغوري سامسا ليست إهمالاً للبعد السياسي والاجتماعي لأدب رشدي، بل إن الصلة قائمة في وحدة الكينونة التي يسحقها ويفصلها عن طبيعتها مجتمع وثنية السلعة. لعل المعادل المجازي المشخص لصورة "المسخ" هو أرقى معادل لفكرة ماركس عن الاغتراب الذي يمزق الشخصية الإنسانية ويفصل بين الكينونة الطبيعية والأنا الاجتماعية للإنسان، كثمرة لفصل المنتج عن إنتاجه، وتحول البضاعة إلى صنم".

يبلغ عدد صفحات الترجمة الإنكليزية لقصة "المسخ" الموجودة في حوزتي - سبعين صفحة من القطع المتوسط - وهي جزء من كتاب يحمل عنوان: "قصص قصيرة مختارة لـ فرانز

كافكا⁽¹⁾، ويضم بعض أشهر أعماله في هذا المجال. لربما أراد الدكتور عبد الرزاق أن يعد "المسخ" رواية قصيرة (Novella) بدلاً من قصة قصيرة لأنها تبدو أطول نسبياً مما هو معهود في هذا النوع الأدبي مع الأخذ بعين الاعتبار أن الحجم لا يشكل المعيار الأوحد أو الأفضل بالضرورة في إجراء هذا النوع من التصنيفات. وبما أن الجدل في ما إذا كانت قصة كافكا "المسخ" قصة قصيرة طويلة نسبياً أم رواية قصيرة جداً لا جدوى منها، سأكتفي بالإشارة إلى أن قصة توماس مان "موت في البندقية" - والتي تشكل نوعاً من النموذج الأعلى لمعنى القصة القصيرة في الأدب العالمي الحديث - يبلغ طولها في الترجمة الإنكليزية التي في حوزتي، ٧٨ صفحة من القطع المتوسط أيضاً وفي طبعة مشابهة تماماً لطبعة قصص كافكا المذكورة.

وبما أن كلام الدكتور عبد الرزاق الذي استشهدت به أعلاه يمكن أن يوحي بأني من مؤيدي النزعة الداعية إلى إهمال البعد السياسي والاجتماعي لأدب رشدي عند مقارنته بإنتاج كافكا القصصي، أحب أن أبين:

أولاً، بأني لم أدخل في "ذهنية التحريم" في أية مقارنة بين رشدي وكافكا على الإطلاق.

(1) Selected short stories of Franz Kafka, The Modern library, New York, 1952, PP. 19-89.

ثانياً، بأن إشارتي إلى مثل هذه المقارنة جاءت في معرض التعبير عن تحفظي الشديد على أحد النقاد البريطانيين الذي لم يلحظ من رابطة بين "شامشا" و"سامسا" سوى الشبه اللفظي المحض بين الاسمين، علماً بأن اعتماد مثل هذا الشبه يشي بعدم تنبه الناقد المذكور إلى أن الاسم الكامل لـ "شامشا" في لغته الأصلية هو "تسامتشا والاً" وأن صاحب الاسم قام باختصاره وتبسيطه إلى "شامشا" (والأدق "تسامتشا") مراعاة للذوق الإنكليزي وتقرباً من الإنكليز. أضف إلى ذلك عدم تنبه الناقد نفسه، على ما يبدو، إلى أن كلمة "تسامتشا" في اللغة الأردنية تعني حرفياً "ملعقة" ومجازياً "مداهن" و"مرائي" أما "تسامتشا والاً" فتعني بائع الملاعق أو المتاجر بها. ويجب ألا ننسى أبداً، عند إجراء هذا النوع من المقارنات، أن أسماء الأعلام والأشياء في الأدب نادراً ما تكون بريئة وخاصة عند رشدي. على سبيل المثال تحمل زوجة شامشا الإنكليزية الأرسقراطية اسم (Pamela Lovelace) في "الآيات الشيطانية" وهو اسم مركب من اسمين أديبين شهيرين آخرين هما: (Robert Lovelace) مغتصب "كلاريسا هارلو" بطلة رواية صموئيل ريتشاردسون (Clarissa) و"بامبلا" الشخصية الرئيسية في رواية ريتشاردسون الأخرى (Pamela) (1)، أي أننا ما زلنا مع لعبة التناسل الأدبي ورموزها وإحالاتها وإشاراتنا.

(1) Samuel Richardson, Clarissa: Or the History of a Young Lady, the Modern library, New York, 1950.

Samuel Richardson, Pamela, 2 volumes, Everyman s Library, London, 1955.

ثالثاً، بأنني أتفق مع الدكتور عبد الرزاق في التحليل العميق الذي قدمه في مقاله لطبيعة العلاقة بين شخصيتي شامسا وسامسا والذي خلص فيه إلى الاستنتاج الجميل والدقيق التالي:

"وإذا كان لوسيان غولدمان، قد شخص البطل الروائي في أدب كافكا تحت صيغة "ذوبان الشخصية" كمعادل للمرحلة الإمبريالية في تاريخ تطور الرأسمالية، متابعاً تشخيص لوكاتش لصورة "البطل الإشكالي" في المرحلة الرأسمالية الأولى، فإن "صلاح الدين شامسا" يمثل استمراراً لـ "سامسا" كافكا، لكن في زمن تدول العالم عبر الرأسمال متعدد الجنسية العابر للقارات. وهي المرحلة الثالثة في تطور الشخصية الروائية التي تنضوي تحت صيغة "ضياع الشخصية" كمعادل لمرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية وفق غولدمان".

ولعل الدكتور عبد الرزاق يعرف أنني كنت قد شددت في المحاضرات التي ألقيتها عن أدب رشدي وفي عدد من المناقشات التي أجريتها عن أعماله أن "الآيات الشيطانية" هي رواية مرحلة العولمة الرأسمالية المعاصرة بامتياز. هناك أيضاً استدعاء رشدي (على لسان شامسا وعبر تيار أفكاره وتداعياته) لصورة الدود للتعبير عن علاقة الإنسان كإنسان بعاصمة القرن العشرين الرأسمالي بامتياز، أي نيويورك. إن نيويورك في "الآيات الشيطانية" هي "روما الجديدة عبر الأطلسي بعملاقتها المعمارية المشبهة بالنازية والمستخدمه اضطهاد الحجم لجعل سكانها الأدميين يستشعرون أنفسهم كالدود"⁽¹⁾. أضف إلى ذلك اكتشاف رشدي

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ٣٩٩ .

بحرف (Q) كاسم لمدينة روايته "العار" مما يذكر فوراً بـ جوزيف .
K في رواية كافكا "المحاكمة" والذي عاد لينكمش إلى مجرد K
في "القلعة" .

وإذا تابعنا لعبة التناسل هذه، وجدنا أن اسم رواية رشدي
الأولى (GRIMUS) ⁽¹⁾ مشتق تحويراً من "سيمورغ" الفارسية؛
أي الطير المقيم في جبل "ق" في رائعة فريد الدين العطار:
"منطق الطير" . أما البلدة الرئيسية في الرواية فتحمل اسم "K"
وتقع على منحدر سفح جبل "ق" الواقع بدوره في وسط جزيرة
اسمها "ق" أيضاً⁽²⁾ . وجدير بالإشارة أن بعض تفاسير سورة
"ق" وتأويلاتها تذكر أن "ق" هو الجبل الذي يحيط بالعالم وربما
لهذا السبب جعل فريد الدين العطار منه المكان الذي يقيم فيه
"السيمورغ" كما أشرت أعلاه . أما طوبوغرافيا الجزيرة في
"جريموس" فتحيل بوضوح إلى "الكوميديا الإلهية" في
المقام الثاني، ولكن مع فارق هام: الرحلة في رواية رشدي
هي نزول إلى الجحيم على طريقة أورفيوس بدلاً من أن
تكون خروجاً منه على طريقة دانتي . وكما أخلى الشاعر
فيرجيليوس جونز كذلك دوره كمرشد في "جريموس" إلى
"ميديا" الأرضية إحدى مومسات ماخور مدام يوكاستا في مدينة
"K" لحظة الاقتراب من الجحيم . أما ماخور المدام فيحمل اسم

(1) Salman Rushdie, Grimus, Paladin grafton Books, London,
1977 (8 th printing), 1989.

(2) المرجع السابق، ص ١٤ .

(The House of the Rising Son) (*): بيت الشمس الصاعدة / "بيت الابن الصاعد"، صعود المسيح - الابن إلى السماء! علماً بأن "ق" و"K" يندمجان معاً ليصبحا شيئاً واحداً في الرواية.

يذكر ميلان كونديرا في أحد مؤلفاته أن غابرييل غارسيا ماركيث أخبره، في محادثة جرت بينهما قبل حوالي ربع قرن، أن كافكا هو الذي بيّن له (أي ماركيث) أن الكتابة بطريقة أخرى ما زالت ممكنة. ولا شك عندي أن رشدي تعلم هو أيضاً الشيء الكثير عن إمكانات الطريقة الأخرى في الكتابة من كافكا وماركيث معاً. لذا يشترك رشدي مع كافكا في تقديم صورة أدبية جميلة جداً ومفعمة بالشعرية الروائية لواقع لا جمال فيه ولا شعرية ولا روائية.

يؤكد الدكتور عبد الرزاق عبد كتاباته أهمية قيم وممارسات معينة في الحياة العربية الراهنة وضرورتها مثل المواطنة والعقل والعلم والعلمانية والتقدم والتنوير والديموقراطية والحريات العامة وتعددية الآراء والأصوات وحقوق الإنسان والشعوب⁽²⁾. إن الذي

(1) يلعب رشدي هنا على اللفظ الواحد لكلمتي "Son" (ابن) و"Sun" (شمس).

(2) انظر مثلاً، عبد الرزاق عيد، "الثقافة الوطنية / الحدائث: إشكالية الهوية، دار الصداقة، حلب، سوريا، ١٩٩٦، كذلك "طه حسين: العقل والدين" مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ١٩٩٥، ومقاله "نصر حامد أبو زيد: الخيار الصعب خارج" الشيوقراطي" و"الأوتوقراطي"، مجلة "الهدف"، كانون الثاني (يناير)، ١٩٩٦، ص ٧٨-٨١.

افتقدته في مقالته "مناقشة لكتاب "ذهنية التحريم" هو خلوه من أي استنكار، مهما كان خجولاً، لحكم الإعدام الذي أصدره الإمام الخميني على سلمان رشدي والمشهور عموماً وخطأً بـ "فتوى" الخميني. سأذهب إلى أبعد من ذلك قليلاً لأقول إنني شعرت وكأن الصديق عبد الرزاق حاول، في بعض مقاطع مقاله، التماس الأعذار - وإن كان باستحياء وبشيء من الغموض - للخميني على فعلته. إن أحداً منا ليس ابن اليوم أو البارحة ونعرف جيداً أن الثورات الكبيرة والحركات الشعبية الضخمة كثيراً ما تضطهد الأبرياء وتمارس العنف الأعمى وتستخدم الإرهاب وتحكم على أفضل الأدمغة بالإعدام. قطعت الثورة الفرنسية رأس لافوازييه - مؤسس علم الكيمياء الحديث ومكتشف الأوكسجين ومفسر طبيعة الاحتراق وماهيته - بحجة أن الثورة ليست بحاجة إلى علماء وإنما إلى مناضلين ثوريين. كما نعرف أن الثورة البلشفية دفعت بـ ماياكوفسكي وغيره من الكبار إلى الانتحار. أن نفهم هذا الجانب المعتم من الثورة، وأن نتفهم الدموية المجانية التي ينطوي عليها جدل التاريخ وحركته شيء، واختلاق الأعذار من جانبنا مثل هذه الجرائم شيء آخر تماماً. نحن نعرف كذلك أنه ليس أسهل على محاولات التماس هذا النوع من الأعذار من أن تتحول، وبعبقوية مرعبة، إلى فكر تبريري تسويغي متوحش وكافكاوي في التواءاته وعقده وسوريالي في تخريجاته وتعجيزاته. لمست هذا المنحى التبريري الاعتذاري أكثر ما لمست في مقال الدكتور عبد الرزاق في

قوله: بما أن رشدي هو الذي حكم على جبريل فاريشتا بالقتل في "الآيات الشيطانية" لا يكون الإمام الخميني عندئذٍ قد فعل شيئاً عند حكمه بإعدام صاحب الرواية سوى إقامة توازي "بين النص والواقع" عبر المطابقة بين الكاتب وأحد أبطال روايته. ولتعزيز موقفه الغريب هذا استنجد الناقد بمبرر إضافي يتمثل في كوني أنا نفسي قد طابقت في "ذهنية التحريم" - وفقاً لتقديراته - بين سلمان رشدي والشخصية الرئيسية الأخرى في الرواية أي صلاح الدين شامشا. ويدفع الدكتور عبد الرزاق هذا المنحى في التفكير إلى نتائجه المنطقية بإدراجه فتوى الخميني القاتلة في عداد "مشكلات النقد الأدبي" لا أكثر، وتبريره للنقاد العرب تعاملهم المزري مع "الآيات الشيطانية" بقوله:

"يغدو مشروعاً التنديد والتشنيع الذي قام به النقاد العرب ما دام الكاتب نفسه (أي رشدي) قد بلغ تنديده بـ "جبريل" حد دمه بالجريمة والفساد والنشوه والمرض العقلي الذي يتوج بالحكم عليه بالموت".

هل أحمل هذا الكلام على ظاهر معناه أن الزميل الدكتور عبد الرزاق قد قصد شيئاً آخر، فلا تتعدى المسألة عندئذٍ حدود سوء تفاهم واقع؟ هل أفهم من هذا الكلام أن الخلط جائز بين قتل شخصية روائية وهمية في كتاب (أو في فيلم سينمائي) وبين قتل كاتب روائي من لحم ودم في العالم المادي المحسوس باسم إقامة التوازي بين النص والواقع وباسم المطابقة بين الكاتب وأحد أبطال

روايته؟ هل أفهم من هذا الكلام أنه إذا قام أديب بالتنديد في إحدى شخصياته الروائية بالتشنيع عليها وبدفعها إلى الجريمة والفساد والموت . . إلخ، يحق عندئذٍ للنقاد والقراء السياسيين وكبار المسؤولين التعامل مع روايته بالطريقة المزرية ذاتها والتعامل معه على أساس دفعه إلى المصير نفسه استكمالاً للمطابقة بين النص والواقع، بين الروائي وأحد أبطال روايته؟ هل في اعتبار فتوى الخميني نوعاً جديداً متميزاً من أنواع النقد الأدبي تطبيقاً خلاقاً ما، في فضاءات الفكر والثقافة والفن، لمقولة ماركس المعروفة بضرورة الانتقال من سلاح النقد إلى النقد بالسلاح؟! أخيراً ألا يقترب بنا هذا المنطق من تبريرات راسكولينكوف لجريمته ومن محاولة سمير دياكوف إقامة التوازي المطلوب بين النص العدمي الذي كان يشرحه إيفان كارامازوف على امتداد الرواية الشهيرة من ناحية وبين الواقع المعيش لبشر من لحم ودم، من ناحية ثانية، عبر ارتكاب جريمة قتل مشهورة هي الأخرى في الأدب كله؟ ولا بد لي من التذكير كذلك بأنه خلافاً لم يدعيه الدكتور عبد الرزاق، لم أوافق على الإطلاق في "ذهنية التحريم" بين شخصية صلاح الدين شامشا في الرواية وبين رشدي نفسه في الحياة وإنما اعتبرت أن الشخصية الروائية المذكورة تحيل، في بعض جوانبها فقط، إلى شخص رشدي وإلى أجزاء من حياته وتجربته والفارق كبير وكبير جداً، كما نعرف جميعاً، بين الإحالة والمطابقة في تحديد علاقة النص الإبداعي بالواقع وتعيين صلة الأدب بالحياة. وينسحب هذا الاعتبار أيضاً

على زعم الزميل الدكتور بأن الإمام الخميني هو أيضاً طابق بين شخصية جبريل فاريشتا في الرواية وبين رشدي، حين أصدر حكم الإعدام على الأخير وحرص على قتله!

نعرف جميعاً أنه ما من مُجدِّد أو مخترع أو مصلح أو رائد أو متمرّد أو ثائر أو مبدع جريء أو طليعي منشق في التاريخ اصطدم بالمؤسسة الدينية - السياسية السائدة في زمانه وذهب ضحيتها إلا وظهر من يقول وقتها وبعدها أن الضحية هي التي جنت على نفسها أو إنها هي المسؤولة عن البلاء الذي حل بها أو إنها هي سبب الاضطهاد الذي لحق بها أو إنها لو كانت أكثر دهاء ومناورة ودبلوماسية وخبثاً في قول حقيقتها لتجنب الشر المحقق بها . إلخ . إلخ . مع ذلك وجدت أن الدكتور عبد الرزاق، في التماسه الضمني للأعذار والمبررات لفتوى الخميني في مقاله، يستحضر هو أيضاً لوم الضحية المعهود في تعامله مع قضية رشدي ومحتته! أي أنه يلوم رشدي ويحمّله مسؤولية ما حدث لأنه "ساهم في إثارة اللغظ الخارج على النص (أي نص "الآيات الشيطانية")" ولأنه "أثار القضية التراثية إثارة خارجة على نظام النص ومنطوقه الروائي" ولأنه "جعل من روايته متكأً لشن حرب ضد المقدس عبر وسيط منحل (جبريل فاريشتا)" ولأنه "أنتج نصاً ملتبساً" أعطى "الإعلام الغربي فرصته السانحة" ليلعب ببعض فصول الرواية "وفق مصالحه وأغراضه وأهوائه" . أما الرسالة التي يحملها هذا اللوم فواضحة: لو كان رشدي أكثر دهاء وخبثاً في أدائه لحقق

أغراضه في تناول المقدس وتجنب الأخطار والمهالك المعروفة في الوقت ذاته. أو بعبارة أخرى لو حذف رشدي من روايته، على حد قول الدكتور عبد الرزاق، "كل ما يتصل بالإشارات إلى التراث" لما تأثرت الرواية حقاً من ناحية ولما تعرض هو لخطر الموت من ناحية ثانية. لكن الرواية لن تكون عندئذ رواية رشدي التي نعرفها بل رواية أخرى مفصلة وفقاً لإشارات الناقد وتوصياته ونصائحه.

II

مرکز الدكتور عبد الرزاق تحليله لرواية رشدي حول فكرة الانفصال الكامل الذي يقول إن رشدي أقامه بين خطيها السريدين الرئيسيين وهما: (١) الخط الذي رسمته الشخصية المحورية الأولى - صلاح الدين شامشا - ابتداءً بخروجها من الوطن والابتعاد عنه وانتهاءً بالعودة إليه والاتصاق بحياته ومروراً بمرحلة المنفى اللندني الإنكليزي البائسة. (٢) الخط الذي رسمته الشخصية المحورية الثانية - جبريل فاريشتا - ابتداءً بخروجها من الوطن أيضاً والابتعاد عنه وانتهاءً بالعودة إليه دون العودة إليه حقاً ومروراً بمرحلة المنفى ذاته التي أدت في هذه الحالة إلى الجنون والقتل والانتحار بدلاً من التصالح مع النفس ومع الأهل ومع الوطن.

يغالي الدكتور الناقد في تأكيد القطيعة التي يفترض أن رشدي أقامها بين الخططين السريدين إلى حد الاستنتاج بأنه كان بإمكانه (أي

رشدي) الاكتفاء بمحور شامشا ومسيرته (الصحية في التحليل الأخير) لإعطائنا رواية ممتازة كاملة ومتكاملة لا سيما وأن الخط السردي الآخر هو مصدر المشاكل العويصة كلها التي أحاطت بالرواية ومنع الأخطار المميتة التي أهدقت بصاحبها نفسه. يستنتج الدكتور عبد الرزاق ما يلي من هذه الثنائية الصارخة التي أسقطها على الرواية:

(١) "إن المحورين اللذين بنى عليهما الكاتب أحداث الرواية كانا محورين متوازيين ليس بينهما تداخل أو تفاعل أو تناظر دلالي كما لدى بريشت، وبالتالي فإن المقارنة التي قام بها الدكتور العظم مع بريشت لا تجد مصداقيتها في الرواية." .

(٢) إن هذا التوازي بلا تفاعل وتقاطع بين الخطين، أدى إلى ضياع "الديالوج" وهيمنة "المونولوج" وإلى غياب كل "تقاطع حوارى بين المحورين" وكل "شكل من أشكال الترابط الجدلي الحوارى" بينهما وإلى "تنمية الديكالكتيك الذاتى لكل نسق على حدة" مما يعنى "إغلاقه ومن ثم ضياع الحوار الذى عبره تفتتح إمكانية تعدد الأصوات" .

(٣) إنه كان من الممكن أن تكون الرواية روايتين دون أن تعاني الرواية من التمزق أو الخلل أو العنت، كان من الممكن أن تكون هناك رواية رحلة "صلاح الدين" . ورواية لرحلة "جبريل" يمكن أن تستعير الإطار الجويسى والفوكنرى ما دامت هي رحلة في الحلم عبر الذاكرة" .

(٤) إن شامشا هو بطل الرواية الإيجابي بامتياز الذي يتعاطف الدكتور عبد الرزاق معه كثيراً ويشيد به بصفته نموذجاً "للمثقف الوطني المأزوم في وعيه الشقي بين الانبهار بالغرب" وبين "الخروج من الأزمة، باكتشاف الوعي بالهوية والانتماء" والتجذر مجدداً في الهند.

(٥) إن جبريل فاريشتا هو بطل الرواية السليبي بامتياز - البطل المضاد على حد تعبيره - الذي يكرهه الدكتور عبد الرزاق كرهاً شديداً ولا ينعته إلا بنعوت متقاة من أجواء الرواية على النحو التالي: "شيطان رجيم"، "الشيطان المنبثق من الوحل"، "الحامل لأوبئة شتى"، "المضغ بالتانة والانحلال والفم الكريه"، هذا الذي "يعيش بحمي غريزية منحلة"، "صاحب ذاكرة هذيانية مريضة"، "صاحب ذاكرة مفعمة بالتانة والقبح والتشوه السلوكي والخلقي والروحي"، "شخصية مشوهة وضيعة ومدانة بالنص"، "شخصية مزرية مقية ومضطربة عقلياً"، "شخصية ملثثة" .. إلخ.

(٦) إن انتباه شامشا للنصيحة التي وجهتها له صديقه الهندية زينات وكيل وحمله إياها على محمل الجد هو الذي أنقذه من مصير كان يمكن أن يكون مشابهاً لمصير جبريل فاريشتا علماً بأن نصيحتها تلخص بالكلمات التالية، وفقاً للدكتور عبد الرزاق: "يجب احتضان الوطن والانتماء إليه كما هو لا كما ينبغي أن يكون." كذلك ". والحل هو أن تحتضن هذه المدينة - مدينتك (أي بومباي) - وتقبلها بكل ما فيها من أخطاء ونواقص. يجب أن

تسعى لأن تصبح واحداً من أهلها. وأن تنتمي إليها كما هي. لا كما ينبغي أن يكون!." (1).

سأبدأ مناقشتي بالقول إن من شأن تصور الدكتور عبد الرزاق الثنائي - المانوي هذا، لبنية "الآيات الشيطانية" اختزالها إلى مجرد رواية "أبطال وحرامية" لا أكثر. وبناء عليه باستطاعة الذين يحبون الأبطال الإيجابيين الاكتفاء بالفصول الخمسة التي تحكي حكاية صلاح الدين شامشا وحكاية اغترابه ومغامراته في بلاد الفرنجة ومن ثم عودته سالماً إلى أرض الوطن. أما الذين يفضلون "الحرامية" فيإمكانهم التركيز على فصول الرواية الأربعة الأخرى التي تقص قصة جبريل الشرير بخيالاته المريضة وكوابيسه المجنونة ونهايته التعسة على أرض الوطن ذاته. ويريد الزميل الدكتور إقناعنا أيضاً بأن شق الرواية على هذا النحو البدائي إلى شطرين لا رابط بينهما لا يلحق بها أي أذى ولا ينطوي على أي عنت أو عسف بحقها! ويذكرني هذا الأسلوب في تقسيم الرواية بالنظرية الغرابية - التأميرية في إعادة ترتيبها لها أيضاً. يطلق صاحب النظرية المذكورة - زهير علي شاكِر - اسم "الرواية" على فصول "الآيات الشيطانية" التي تحكي رحلة صلاح الدين شامشا واسم "الرسالة" على الفصول الباقية والتي تحكي رحلة جبريل فاريشتا الموازية والمنفصلة، أو على حد تعبير صاحب النظرية:

"ولا أعني بذلك مجرد أن الكاتب يعبر عن رأيه في القضايا التي

(1) انظر أيضاً "الآيات الشيطانية"، ص ٥٤١ .

يطرحها من خلال تفاعل شخصيات القصة مع بعضها البعض ومع العالم الذي يحيط بها، في تزاوج بين السرد القصصي والرؤية العقلية - فهذا شيء عادي ومفترض في كل عمل أدبي. وإنما أعني حرفياً أن الكتاب قسمان منفصلان لا يكاد يربط بينهما إلا علاقة واهية. أحد القسمين قصة طويلة ذات فصول خمسة - وأسماها "الرواية"، والقسم الثاني كتاب رأي محض ذو أربعة أبواب، وأسماها "الرسالة". والغريب أن الكاتب لم يجمع كلا القسمين في جزء منفصل عن القسم الآخر، ولكنه أدخلهما بعضهما في بعض بترتيب أقرب إلى طريقة "تعشيق" التروس: فصل من الرواية، ثم باب عن الرسالة، ثم فصل آخر من الرواية، وهكذا حتى آخر الكتاب. كأنهما كانا في الأصل كتابين منفصلين فككهما صاحبهما إلى ملازم وأرسلهما إلى ورشة التجليد، وأمر أن يعاد تجليدهما في مجلد واحد بطريقة تبادلية، ملزمة من هذا ثم ملزمة من ذلك .. إلخ" (1).

أما غرض رشدي من هذه العملية التعشيقية التجليدية الماكرة كلها فيتلخص في نشر التعاليم الشيعية - الغرابية التي تحملها "الرسالة" على أوسع نطاق عبر تمويهها وتغطيتها بالقسم الآخر من "الآيات الشيطانية" وهو القسم الذي يطلق عليه صاحب كتاب "الغراب الأبيض" اسم "الرواية". وما لجوء رشدي إلى أسلوب تيار الوعي "الجويسي" و"الفوكنري" في كتابة "الرسالة" إلا إمعاناً في عمليات التمويه والتضليل المذكورة كي يضمن وصول سموم "الرسالة" سالمة إلى عقول القراء وقلوبهم وضمائرهم.

(1) "الغراب الأبيض"، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٠-١١.

إذا كان لابد من تجزئة الرواية بصورة أو بأخرى، فإني أقترح التقسيم التالي باعتباره أكثر دقة من ناحية وأكثر قرباً من روح الرواية وإيقاعها الداخلي من ناحية ثانية:

الجزء الأول: رحلة صلاح الدين شامشا وجبريل فاريشتا معاً (ش - ف).

الجزء الثاني: رحلة ماحوند حتى انتصار حركته.

الجزء الثالث: رحلة عائشة وأتباعها إلى مكة سيراً على الأقدام عبر بحر العرب وتفرعاتها.

بتناوب تكرار الأجزاء الثلاثة عبر فصول الرواية التسعة وفقاً للإيقاع التالي:

ش - ف	ماحوند	ش - ف	عائشة	ش - ف	ماحوند	ش - ف
٩٠	٤٠ ص	٨٠	٤٠ ص	١٢٠	٤٠ ص	٩٠
ش - ف	عائشة	ش - ف	ش - ف	ش - ف	عائشة	ش - ف
٨٠	٤٠ ص	٤٠	٤٠	٤٠	٤٠ ص	٨٠

واضح إذن :

(١) أن خط شامشا - فاريشتا يظل هو مركز ثقل الرواية وعمودها الفقري غير القابل للتمزق أو الإلغاء ولو جزئياً (خمسة أسباع مجموع صفحاتها).

(٢) أن خط شامشا - فاريشتا الأساسي، يتكرر بإيقاع منتظم على امتداد الرواية كلها، وبتناوب دقيق ومحسوب مع الخطين الفرعيين الآخرين وبتناسب ظاهر في عدد صفحات كل جزء من أجزائها الثلاثة.

(٣) أن عدد صفحات الجزأين الثاني والثالث متساوٍ تماماً في الحالات كلها، كما يشغل الجزآن المذكوران السبعين الباقيين من عدد صفحات الرواية.

أما بالنسبة لفكرة الدكتور عبد الرزاق بالتخلص من خط فاريشتا المتعب والمزعج والاكتفاء برحلة شامشا وحدها، فإني أتقدم باقتراح أفضل فنياً وأكثر جذرية نقدياً يقول بالاستغناء عن خط شامشا - فاريشتا بأكمله مما ستركنا مع عمل جديد و متميز بدوره، أي مع رواية تعج بالشخصيات الثانوية والفرعية العابرة (على طريقة روايات تشارلز ديكنز) ولكن بلا خط أساسي مهيمن أو عمود فقري يحمل، بصورة أو بأخرى، الرواية من أولها إلى آخرها. سنجد أنفسنا عندئذٍ مع بانوراما واسعة لشخصيات صغيرة كثيرة ومتنوعة ومتعددة، سريعة الحركة وسريعة الظهور والغياب والتنقل والترحال في عصر العولمة الرأسمالية. لتتصور "الآيات الشيطانية"، إذن، وليس فيها إلا شخصيات مثل: بيلي بطوطة وريكها ميرشانت وميرزا أخطا ومدام قريشي وميشال وأناهب سفيان وهال فالنس و اشاعر بهوبن غاندي وزينات وكيل وروزا دياموند وأهورو سيمبا وجون مسلمة وويسكي سيزوديا (ويسكي -

صودا) وراشيل واتكينز وأورفيا فيليبس وأوريا موزلي وعثمان (المنبوذ الذي اعتنق الإسلام ووقع في حب العرافة عائشة) إلخ. ستكون رواية ناجحة بالتأكيد.

لاستكمال مناقشة تصور الدكتور عبد الرزاق الثنائي - المانوي لطبيعة العلاقة (أو بالأحرى غياب العلاقة) بين محوري شامشا وفاريشتا في "الآيات الشيطانية" لا بد لي هنا من مراجعة لخطها السردية العام بغرض امتحان تحليلات الزميل وأحكامه على النص والتأكد من مدى انسجامها حقاً مع أحداث الرواية وحركة شخصها وتقاطعات خطوطها السردية المتوازية وغير المتوازية (في الحياة كما في الأدب كثيراً ما تلتقي الخطوط المتوازية وتتلامس وتتقاطع وتتعدد، . . إلخ، والعكس بالعكس).

وقع التماس الأول بين شامشا - الملعقة وبين جبريل - الملاك (تعني كلمة "فاريشتا" ملاك في الفارسية والأردية" في طائرة الخطوط الجوية الهندية المخطوفة على ارتفاع ٣٣ ألف قدم وفي المجال الجوي البريطاني. بعد تفجير الطائرة "بستان" سقطاً معاً من السماء العالية وهما يتبادلان المزاح والدعابة ليستقرا على يابسة الشاطئ الإنكليزي: نقطة التقاء مغامرتهما الكبرى في الأرض الجديدة كما يرويها رشدي في "الآيات الشيطانية". يحيل هذا المشهد بوضوح إلى أعتق قصة سقوط في ذاكرة البشرية (أو بتحديد أكبر في ذلك الجزء من البشرية الذي ننتمي إليه نحن في هذه المنطقة من العالم) لذا نجد والدة جبريل في الرواية وهي تناديه

تحبباً في صغره: "يا شيطان" (1) كما نلاحظه وهو ييوح لصلاح الدين شامشا، قبل سقوط البستان المعلق، أنه لا يرى نفسه في الحلم كما هو بالذات بل كما هو الملاك الذي "يحمل اسمه بالذات" (2). أضف إلى ذلك روايته للحلم الذي جاءه وهو في حضن أمه:

" . عملاق بلا أجنحة، يقف وقدماه فوق الأفق وتلف يده الشمس. يرى في أحلامه المبعثرة بدايات، الشيطان مطروداً من السماء، يحاول الإمساك بغصن أكثر الأشياء علواً، سدرة المنتهى (*) في الطرف الأقصى تحت العرش، الشيطان يُخفق، يهوي، دجج" (3).

وتقول الأسطورة اليونانية القديمة بالمناسبة إن أكل ثمار شجرة السدر (اللوطس) وشرب النبيذ المصنوع منها يسببان النسيان وكثرة الأحلام والرؤى، وهذا تماماً ما يعاني منه جبريل فاريشتا (4).

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ٩١ .

(2) المرجع السابق، ص ٨٣ .

(*) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ (سورة النجم، ١٣-١٦).

(3) المرجع السابق، ص ٩١ (التشديد في النص الأصلي).

(4) في الكتاب التاسع من "أوديسة" هوميروس ينزل البطل أرض "أكلة اللوطس"، أي أكلة شجرة ثمرة شجر السدر وتسمى "النَّبَق" بالعربية.

انظر: "الأوديسية"، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦، ص ١٠٠، يجد القارئ المقطع المكافئ لـ "أكلة اللوطس" عند جيمس جويس في مطلع القسم الثاني من رواية "عوليس" الذي يبدأ =

التجأ المطرودان من "بستان" السماء إلى منزل العجوز الكولونيلية الإنكليزية روزا دياموند التي كانت أحلامها تدور كلها حول أسطول النورمانديين وهو يغزو إنكلترا قبل تسعة قرون مروراً بالأرض التي يقع بيتها في وسطها ووصولاً إلى عاصمة إنكلترا بعد معركة (Hastings) التي مكنت الغزاة من لندن ومن البلد معها سنة ١٠٦٦، وكما هو متوقع، سيطرت روزا ألماس العتيقة في استعماريتها على إرادة الهندي الأسمر جبريل فاريشتا الذي حط على أرضها استعداداً لغزو جديد لها ولكن بطرق أكثر خبثاً وأساليب أكثر مكرماً مما كان متاحاً للغزاة الأوائل قبل ٩٠٠ عام. حين جاءت قوى الأمن والنظام العام تبحث عن الغرباء والمتسللين في منزلها، تخلى جبريل عن زميله شامشا متظاهراً بأنه صديق قديم للعجوز البيضاء بعد ارتدائه ملابس زوجها القديمة (مما أعطاه فوراً مكانة اجتماعية معينة في نظر البوليس الإنكليزي). وفي المقابل، بدا شامشا وحده الأجنبي الدخيل والمتسلل الغريب الذي لا يحمل أية أوراق ثبوتية والذي ادعت روزا أنها وجدته على الشاطئ بين الحياة والموت فأدخلته بيتها بمساعدة ضيفها - الهندي الآخر - شفقة عليه ولأسباب إنسانية محض. حين همّت الشرطة بإلقاء القبض على شامشا احتج بجنسيته البريطانية وبزوجته الإنكليزية الرائعة البيضاء وبشهرته التليفزيونية ولكن دون جدوى:

= بحادثة الحورية "كاليسو" ثم ينتقل إلى حادثة "أكلة اللوطس". يقال أيضاً إن إكليل الشوك الذي وضع على رأس المسيح أثناء صلبه صنع من شوك ثمار شجر السدر.

"جبريل"، صاح شامشا "من شان الله أخبرهم بالذي حدث".
 "جبريل"، قال صلاح الدين شامشا، "ساعدني". لكن عين جبريل
 كانت في قبضة روزا دياموند. نظر إليها ولم يعد بإمكانه الإشاحة
 بنظره عنها. أوما برأسه بعدها وصعد إلى فوق من جديد. لم
 يحاول أحد منعه. حين وصل شامشا إلى ماريا السوداء أي عربية
 السجن المصفحة شاهد الخائن جبريل فاريشتا وهو ينظر إليه من
 البلكون الصغير خارج غرفة نوم روزا و(هذه المرة) لم يكن هناك
 نور مشع يلف رأس ابن الحرام هذا⁽¹⁾.

بعد اعتقال شامشا وسوقه مخفورا إلى مصير مجهول -
 معلوم:

"كثيراً ما تعجّب جبريل فاريشتا من سلوكه هذا، بدا له في
 تلك اللحظة الأشبه بالحلم والتي وقع فيها في أسر عيني الإنكليزية
 العجوز أن إرادته لم تعد ملكه ليأمرها وأن حاجات شخص آخر
 هي التي سيطرت"⁽²⁾.

تحرر جبريل في النهاية من سيطرة السيدة الماسية ومن أسر
 إرادتها. ركض بعيداً عن بيتها وهو يصرخ "لندن - شريف (على
 نسق شام شريف) ها أنا ذا آت"⁽³⁾.

ومع أن خطي الرواية الرئيسيين انفرجا عند هذه النقطة وافترقا
 وتباعدا، إلا أنهما عادا إلى الالتقاء والتقاطع والتفاعل والتداخل

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ١٤٢ .

(2) المرجع السابق، ص ١٤٣ .

(3) المرجع السابق، ص ١٥٦ (التشديد في النص الأصلي).

والتأثير والتأثر المتبادلين بعد خوض كل من شامشا وفاريلشتا لمغامرته اللندنية - الإنكليزية منفرداً إلى حين. تم اللقاء الأول بين البطلين في حفلة ضخمة أقامها بيلي بطوطة وميمي ماموليان (محتال ومحتالة على المستوى الدولي) لنجوم السينما الهندية والعالم ثالثة في لندن ومن لف لفهم من أصحاب مصالح وشخصيات وسياسيين صغار وتمولين كبار وانتهازيين ووسطاء وعارضات أزياء ونصايين وعملاء ووكلاء ونبلاء محليين من الدرجة الثالثة والرابعة⁽¹⁾.

في تلك اللحظة، كان جبريل فاريلشتا في قمة شهرته السينمائية على الرغم من مرض انفصام الشخصية الذهاني الذي ما فتئ يثقل عليه ويهرقه ويكاد يفقده البقية الباقية من عقله وصحته النفسية والجسدية. أما صلاح الدين شامشا فقد كانت تسيطر عليه في اللحظة ذاتها انفعالات الحسد والغيرة من زميله جبريل ومشاعر الحقد الشديد عليه والرغبة العارمة في الانتقام منه. فيما يلي تقرير عن حال شامشا في حفلة بيلي بطوطة وميمي ماموليان:

"لنلاحظ، أولاً، كم هو في عزلة هذا السالادين. في الوقت الذي يقف فيه فاريلشتا هناك على جسر لندن محاطاً بالمعجبين وفي قلب الحشد تماماً. يبكي هذا المتفرج الحائق في داخله، يتناول كأساً أخرى - يرى في قعرها: وضعه النكرة وشهرة الآخر الموازية كم هي ضيزى هذه القسمة. يا إلهي ما أقسى هذه الحال، أن يضطر هو سالادين - الذي كانت غايته وكان جهاده جعل هذه المدينة

(1) المرجع السابق، ص ٤٢١-٤٣١.

مدينته - لأن يراها راكعة أمام غريمه المزدري لها (أصلاً)! - كذلك هناك: شامشا تواق لأن يقف مكان فاريشتا في حين أن مكانه هو لا يهم جبريل على الإطلاق. وهكذا: جبريل فاريشتا يحاكم من قبل شامشا. والنتيجة: مذنب إلى الأبد بما لا يفتنر وتبعات ذلك سوف تتبع" (1).

في حين تظاهر شامشا بعد هذا اللقاء بأن المياه عادت إلى مجاريها بينه وبين غريمه كان في الواقع يخطط للانتقام منه بأكثر الأساليب خسة وضعة وخبثاً (2). راقب شامشا بدقة زميله سابقاً وصديقه حاضراً بغية اكتشاف نقطة الضعف الأكثر تعرضاً وإيلاًماً لينال منه عبرها ويدمره من خلالها فوجدها في مرضه العقلي والنفسي وفي حبه لآلي كون وهيامه بها وغيرته عليها لا سيما أنها كانت له بمثابة "العكاز والمرضة وكبش المحرقة" (3) في وقت واحد. بعد جولة طويلة في لندن سيراً على الأقدام برفقة جبريل، استنتج شامشاً ما يلي بينه وبين نفسه:

"لا حاجة إلى جهد كبير الآن لدفعه فوق الهاوية. يبدو أنني أصبحت محتالاً أنا أيضاً يا ميمي. يكمن فن القاتل في جذب الضحية قريباً إليه مما يسهل طعنها بالسكين" (4).

أخذ انتقام شامشا شكل سلسلة من "المكالمات" الهاتفية المغفلة التي توحى زوراً إلى جبريل بأن محبوبته تخونه يومياً وفي

(1) المرجع السابق، ص ٤٢٥-٤٢٦، (التشديد في النص الأصلي).

(2) المرجع السابق، ص ٤٢٨-٤٤٠.

(3) المرجع السابق، ص ٤٢٩.

(4) المرجع السابق، ص ٤٠٠، (التشديد في النص الأصلي).

كل الأوقات ومع أكبر عدد ممكن من الرجال . استخدم موهبته الفائقة في تقليد الأصوات وتمويهها، مهما كانت، لتحقيق غرضه بأكبر درجة ممكنة من الفعالية . كما وضع مهاراته الراقية وخبراته المتقدمة في ميادين التمثيل والدعاية والإعلان في خدمة عملية " دفع خصمه فوق حافة الهاوية " ونجح في مسعاه . انهال شامشا على جبريل عبر التليفون بسلسلة من " الطقاطيق " الموزونة والمقفاة والملحّنة - على طريقة الدعايات الغنائية التي نشاهدها على التليفزيون ونسمعها في الراديو - موضوعها الوحيد هو خيانة آلي كون له في كل لحظة ومع من هب ودب مما أفقده صوابه نهائياً وجعله يفر من منزلها (ومنزله أيضاً) هائماً على وجهه في شوارع لندن يحمل بوقاً اسمه " عزارئيل " ويهذي بعبارات من نوع " المجد لمجيء الرب القريب " و " أنا يد الله اليمنى " و " الملاك عزارئيل سيبيد البشر أجمعين " ، يقتل الأشرار ويبشر بسيادة الخير والحق والعدل وما إليه من هلوسات . هذه هي " الأبيات " أو " الكلمات " أو " الآيات " الشيطانية (الأخرى) التي وسوس بها الشيطان الآخر في الرواية - سلادين شامشا - لرفيق الطائرة وزميل الغربة بغية تدميره كلياً⁽¹⁾ .

بسبب موت الدكتور أوهورو سيمبا - سيلفستر روبرتس سابقاً - وهو قيد الاعتقال لدى البوليس الإنكليزي، انفجرت المدينة العالم ثالثية داخل لندن (" المدينة الظاهرة ولكن غير المرئية ")

(1) المرجع السابق، ص ٤٤٣-٤٤٨ .

بالحرائق والشغب والتدمير (حريق حي بريكستون في لندن، أي هارلم لندن، سنة ١٩٨١ و"بريك هول" في الرواية)⁽¹⁾. امتدت ألسنة اللهب إلى مقهى ونزل الشاندار الذي كان قد التجأ إليه شامشا في لحظات الشدة قبلاً. في هذه الفوضى العارمة وقعت عين جبريل على شامشا في الطريق، التقت الأعين مجدداً وفي واحدة من تلك الومضات الكاشفة في حياة البشر سقطت الغشاوة فجأة عن عيني جبريل وأدرك تماماً حقيقة ما حدث، حقيقة ما فعله به الصديق صلاح الدين شامشا⁽²⁾. في هذه اللحظة:

"لم يبق من سالادين الآن إلا هذا: نار الشر المعتمة في روحه وهي تلتهمه بالتمام والكمال كتلك النار الغامرة الأخرى بألوانها المتكثرة التي أخذت تلتهم المدينة وهي تصرخ"⁽³⁾.

لكن حيث شاهد شامشا ألسنة اللهب تلتهم نزل ومقهى الشاندار عادت له إنسانيته، ثارت حميته، تذكر سفيان وهند وأولادهما، اقتحم الدار المحترقة في محاولة لإنقاذ من فيها. والآن:

(1) يذكر رشدي في واحدة من مقابلاته الصحفية أن شقيقته تعرضت للضرب والأذى على أيدي الشباب العنصري الإنكليزي الأبيض في إحدى عربات مترو لندن أثناء أحداث حي بريكستون. ولما رفضت الشرطة المحلية التعامل بجدية مع شكواها، منعتها مشاعر الخجل والإحساس بالعار التي غمرتها وقتها من متابعة شكواها لدى السلطات الأعلى.

(2) "الآيات الشيطانية"، ص ٤٦٣.

(3) المرجع السابق، ص ٤٦٣.

"انظر إلى هذا الإنسان الساقط الذي حاول دون أدنى ندم تحطيم عقل إنسان آخر، واستغل لهذا الغرض امرأة بريئة كلياً. هذا الإنسان ذاته يجازف بحياته وبلا أدنى تردد تقريباً في محاولة إنقاذ طائشة. ما معنى هذا؟".

طرح الحطام المتساقط البطل أرضاً بلا حراك، كسر ذراعيه وأضلاعه وسبب له نوبة قلبية مفاجئة. في هذه اللحظة الحرجة يقتحم العدو جبريل المكان ذاته ليجد عدوه على هذه الحال المؤسفة. مرة ثانية التقت الأعين وتخاطبت ورأى شامشا ما في عيني جبريل من إدراك ومعرفة. حاول أن يقول شيئاً لكنه سكت واستسلم للأمر الواقع. ومع أن جبريل سأله: "لماذا فعلت ما فعلت؟" لم يتوقف جبريل للحظة عند السؤال بل صرفه بحركة سريعة من يده في وقت كان شامشا يواجه فيه ثلاثة أنواع من الموت: الموت احتراقاً، الموت لأسباب طبيعية، الموت على يد جبريل. حاول شامشا النطق بشيء ما وبصعوبة: "سامحني". "ارحمني". هنا:

"خطأ جبريل فارشنا بسرعة إلى الأمام حاملاً سالادين على طريق الصفح والغفران نحو هواء الليل الحار. وهكذا، في ليلة كانت فيها المدينة في حالة حرب، في ليلة مثقلة بالعداوات والغضب الشديد حدث هذا الانتصار الصغير للمحبة وكان هو العوض" (1).

(1) المرجع السابق، ص ٤٦٨ .

تم اللقاء الأخير بين شامشا وجبريل في منزل الأول في بومباي بعد وفاة والده. وجد شامشا جبريل في حالة يرثى لها بعد أن فقد صوابه نهائياً نتيجة اشتداد المرض عليه وبلوغه أقصى درجاته حدة. أخذ اللقاء شكل المجابهة من جانب جبريل مما فاجأ زميله القديم، لأن:

"اعتقد صلاح الدين - عن سذاجة كما تبين فيما بعد - أن أحداث حريق بريك هول، التي أنقذ جبريل حياته في غمرتها، قد طهرتها معاً بطريقة أو أخرى وطردت تلك الشياطين دافعة بها إلى النار الحارقة وأن المحبة أثبتت قوة تأثير مؤنسة تضاهي قوة الكراهية وأنه باستطاعة الفضيلة أن تغير البشر مثل الرذيلة. لكن ما من شيء يبقى إلى الأبد وما من علاج يمكن أن يكون كاملاً"⁽¹⁾.

اعترف جبريل بأنه قتل حبيبته آلي كون والصديق المشترك ويسكي سيزوديا الذي حاول مصالحتهما في بومباي. كما اعترف بجنونه وبدور "الآيات" الشيطانية الموزونة والمقفاة التي وسوس له بها شامشا عبر التليفون (ياغو وعطيل) ثم أخرج المسدس المخبأ في المصباح العجيب الذي كان قد ورثه شامشا للتو عن أبيه وقتل نفسه بدلاً من أن يطلق النار على غريمه انتقاماً منه واسترداداً لثأر من صديق مزعوم خطط بنفسه وعن سابق تصميم وإصرار لدفعه فوق الهاوية. للمرة الثانية أنقذ جبريل حياة شامشا على الرغم من كل شيء.

(1) المرجع السابق، ص ٥٤٠.

أستخلص من هذه المراجعة، الاستنتاجات التالية:

(١) لا تقبل رواية "الآيات الشيطانية" بأي شكل من الأشكال قراءة الدكتور عبد الرزاق لها، المبنية على فكرة وجود انفصام تام بين الخط السردى الذي رسمته شخصيتها المحورية الأولى من ناحية وبين الخط السردى الذي رسمته شخصيتها المحورية الأخرى، من ناحية ثانية. يبدو لي أن الزميل الناقد وقع هنا في الكثير من التبسيط والتبسيطة في محاولة منه لإنقاذ الجزء الذي يحبه ويعجبه ويوافق عليه سياسياً من الرواية عبر تنفيه الجزء الآخر منها وتسفيهه لأن الإحراجات السياسية والاعتراضات الدينية والتهديدات الإسلامية والمخاطر الحياتية كانت قد أسندت كلها إليه. بعبارة ثانية إن قراءة الدكتور عبد الرزاق المانوية هذه لا تحكمها اعتبارات النص الروائي وحركته الداخلية وخطه السردى ودلالاته المتبادلة بمقدار ما تحكمها اعتبارات خارجية وسياسية ودولية لاحقة نعرفها جميعاً. كما يبدو لي أن محاولة الإنقاذ المذكورة هي التي دفعته إلى القول إنه كان يمكن لـ "الآيات الشيطانية" أن تكون روايتين "دون أن تعاني من التمزق والخلل والعنت"؛ رواية تهمنا كثيراً لأنها نظيفة ومرضي عنها وتنتهي نهاية وطنية سعيدة اسمها "رحلة صلاح الدين"؛ ورواية لا تهمنا كثيراً لأنها تتصف، أولاً، بالصفات المعاكسة كلها؛ وثانياً لأنها "تستعير الإطار الجويسى أو الفوكنري" للتعبير عن "رحلة الحلم عبر الذاكرة"؛ وثالثاً لأنها تنتهي نهاية كثيفة تاعسة وعشبية؛ وكان يمكن

أن يكون عنوانها: "رحلة جبريل الشقية: عبرة لمن يعتبر". من هنا مغالاة الدكتور عبد الرزاق في تقبيح صورة جبريل والتشنيع عليها وإظهارها بمظهر الشر الخالص حتى لو أدى به ذلك إلى انتهاك مسطح لمنطوق الرواية الأولى والظاهري.

(٢) ليس صحيحاً على الإطلاق قول الدكتور عبد الرزاق بأن المحورين اللذين بنى عليهما رشدي روايته "كانا محورين متوازيين ليس بينهما تداخل أو تفاعل أو تناظر دلالي كما لدى بريشت." لأن خطوط "الآيات الشيطانية" المتوازية تقاطعت كلها وتداخلت وتفاعلت وتناظرت دلاليًا كما عند بريشت وأكثر. في الواقع تداخل الخطان المتوازيان وتفاعلا إلى درجة جعلت شامشا العاقل الحقود والحسود يتحول، في التحليل الأخير، إلى القاتل الحقيقي، كما جعلت جبريل المعتوه، ولكن الغفور والصفوح، يتحول إلى المنقذ الحقيقي (على الرغم من كل شيء) في خاتمتها. أما بالنسبة لملاحظة الدكتور عبد الرزاق بأن المقارنة التي أقمتها بين رشدي وبريشت في "ذهنية التحريم" لا تجد لها أية مصداقية في "الآيات الشيطانية" بسبب غياب التناظر الدلالي والتفاعل والتداخل... إلخ، بين خطي الرواية المتوازيين فأحب أن أوضح أن المقارنة المذكورة بقيت محدودة في شخصيتي الشاعر بعل في رواية رشدي وبطل مسرحية بريشت الأولى الشاعر بعل أيضاً ولم تطمح على الإطلاق إلى إقامة مقارنة عامة بين رشدي وبريشت علماً بأنني غير مؤهل بالتأكيد لإنجاز مثل هذه المهمة النقدية الأدبية المعقدة. مع ذلك ما زلت أعتقد بأن

للمقارنة المذكورة - ضمن حدودها المرسومة طبعاً - أساساً حقيقياً في عمل الأدبيين تماماً، لأن فكرة الدكتور عبد الرزاق عن غياب "التداخل والتفاعل والتناظر الدلالي" في رواية رشدي، مقابل حضورها كلها عند بريشت، خاطئة كلياً.

(٣) لا شيء في مراجعتنا للخط السردى العام للرواية والذي تندرج تحته تقاطعات وتفاعلات وتداخلات خطيها المتوازيين الرئيسيين - يسوغ استنتاجات الدكتور عبد الرزاق حول ضياع "الديالوج" فيها وهيمنة "المونولوج" عليها وافتقادها، بالتالي، لكل "شكل من أشكال الترابط الجدلي الحوارى" بين محوريها الرئيسيين . . إلخ. على الرغم من وجود "المونولوج" بقوة في "الآيات الشيطانية" إلا أنه ليس ذلك النوع من "المونولوج" الأوروبى الفردى المعهود الذي ينتهي إلى الانغلاق على نفسه كلياً في حالة مونايدية ذاتية أسرة تجعل من احتمالات تواصله مع "المونولوجات" الأخرى، المجاورة أو السابقة أو اللاحقة، من رابع المستحيلات. إن "مونولوجات" الشخصيات الرئيسية في رواية رشدي ذات طابع هندي وعالم ثالثى جماعى مشترك، أي أنها لا تؤثر في بعضها البعض بفاعلية فحسب، بل يدخل كل واحد منها بصورة حميمة جداً في التكوين العضوي لـ "المونولوجات" الأخرى جميعاً. وللتدليل على ما أقول تكفي المقارنة بين علاقات جبريل المتبادلة مع حبيته آكي كون والتي تبقى خارجية غير صميمية على الرغم من غرامهما العارم ومجادلاتهما

الدائمة، من ناحية، وبين علاقات صلاح الدين المشابهة مع حبيته الهندية زينات وكيل التي تتصف بالخصائص المعاكسة كلها، من ناحية ثانية. أضف إلى ذلك دور كل من شامشا وجبريل في تشكيل الآخر داخلياً وفي العمق - سلباً وإيجاباً - وفي تحديد مصيره ونهايته وفي تكوين دياالوجه الخاص والعام مما لا نجد له شبيهاً في تفاعلات شخصيات الرواية الأخرى كلها تقريباً: الأوروبية منها أو العالم ثالثة أو الواقعة في منزلة بين المنزلتين منهما. تصف الرواية، عند نقطة معينة، جبريل وصلاح الدين بالـ "ضدين الموصولين معاً. كل رجل منهما هو ظل الرجل الآخر" (1)، لذا نجد أن انتقام صلاح الدين شامشا المدروس هو الذي

أوصل جبريل فاريشتا إلى الجريمة والانتحار كما أن صفح جبريل وعفوه هو الذي أتاح لصلاح الدين فرصة لحياة ثانية أو ربما ثالثة ورابعة أكثر أصالة والتزاماً في بومباي . . إلخ. على كل حال أريد أن أسجل هنا الشهادة التالية للروائي المكسيكي الكبير كارلوس فوينتيس (Carlos Fuentes) فيما يتعلق بمسألة "الديالوج" و"المونولوج" عند رشدي عموماً وفي "الآيات الشيطانية" تحديداً: "رشدي هو تجسيد للخيال و"الديالوج" الباختييني (نسبة إلى ميخائيل باختين) في مواجهة "مونولوج" الدولة والدين المنظم والشركات المتعددة الجنسيات".

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ٤٢٦ .

(٤) درءاً لأي التباس، لا بد من إضافة ملاحظة توضيحية صغيرة وهامة إلى استنتاج الدكتور عبد الرزاق الصحيح، بأن خلاص شامشا في نهاية الرواية تمثل في تقبله الفعلي لدعوة زينات وكيل له إلى "احتضان الوطن والانتماء إليه كما هو لا كما ينبغي أن يكون" وإلى احتضان بومباي و"تقبلها بكل ما فيها من أخطاء ونواقص" وإلى السعي للتحويل إلى واحد من أهلها والانتماء إليها "كما هي لا كما ينبغي أن تكون". تبدو الدعوة، كما يصورها الدكتور عبد الرزاق، سلبية أكثر بكثير مما تسمح به شخصية زينات وكيل في الرواية ومنفعلة ومستكينة أكثر بكثير مما يقبله نص رشدي نفسه. بعبارة ثانية، تتجاوز دعوة زينات لصالح الدين مجرد احتضان المدينة والانتماء إليها على حالها البائسة، كما تتجاوز مجرد الرضى بالوطن بعجره وبجره ونواقصه ومصائبه. إلخ، إلى الإسهام، بصورة أو بأخرى، في نقد ذلك كله وفضحه والعمل على تغييره، أو ربما في العمل، قدر المستطاع في الوقت الحاضر، على التخفيف من أمراضه وشروره وأعبائه وبلاياه ومن آثارها المدمرة على أهل المدينة أنفسهم. زينات وكيل في الرواية طيبة فاعلة جداً في أوساط الناس العاديين والفقراء من أهل مدينتها، كاتبة، ناقدة أدبية، امرأة متحررة، مناضلة في صفوف "الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي)"، همها الطاغي في الوقت الحاضر هو الوقوف في وجه العنف الطائفي المكشوف في الوطن كما هو، والمسيطر على المدينة كما هي وكأن بلاياها وشرورها الأخرى لا

تكفيها. زينات وكيل هي التي ورطت صلاح الدين شامشا، بعد نصيحتها له باحتضان الوطن كما هو والقبول بمدينته على حالها، بما لم يكن ليخطر لها على بال في يوم من الأيام: الانخراط معها في تظاهرة جماهيرية عارمة ينظمها الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي) وحلفاؤه احتجاجاً على موجة العنف الطائفي التي تجتاح البلاد وتقضي على العباد وتهدد الوطن كما هو وتدمر حياة المدينة، المطلوب من شامشا الانتماء إليها كما هي لا كما يجب أن تكون!

بعد الانتهاء من مناقشات الإعداد للتظاهرة الكبيرة في المدينة "أصيب صلاح الدين شامشا بشيء من الذهول بسبب السرعة التي أخذت تتبدل بها حياته مرة أخرى" وكان لسان حاله يتساءل متعجباً: "أنا أشارك في نشاط للحزب الشيوعي الهندي (الماركسي)! لن تتوقف العجائب أبداً. لا بد أنني عاشق عن حق وحقيق"⁽¹⁾. لذا أدعو هنا لأؤكد استنتاجي في "ذهنية التحريم" بأن زينات وكيل، كما رسمها رشدي، هي بالفعل زينة روايته وسيدتها الأولى بلا منازع، بالإضافة إلى كونها وكيلة الاسترجاع الفاعل - وليس المنفعل والمستكين والراضي فقط - لشامشا إلى وطنه ومدينته ولكن دون إغفال حقيقة فرويدية هامة أخرى عنه: لم ينجح شامشا في التصالح مع نفسه ووطنه ومدينته وفي تحقيق توازنه الداخلي ونضجه الشخصي، إلا بعد موت والده.

(1) المرجع السابق، ص ٥٣٨ (التشديد في النص الأصلي).

II

بما أن "الآيات الشيطانية" لا تقبل التبسيطية التي فرضها عليها الدكتور عبد الرزاق باختلاقه هذه الثنائية الحادة بين بطلها الإيجابي الوطني الذي عاد إلى بلده الهند وتجنر فيه (مبدأ الخير)، من ناحية، وبين بطلها الشيطاني السلبي المضاد الذي انتهى إلى جرائم القتل والانتحار (مبدأ الشر) من ناحية ثانية، أجد لزاماً عليّ العودة إلى الرواية نفسها لطرح السؤال: من هو جبريل فاريشتا هذا حقاً؟ يكتسب السؤال أهمية مضاعفة لسببين: (١) لأن المراجعات والدراسات الأجنبية والمحلية التي تناولت "الآيات الشيطانية" بالنقد والمعالجة والتحليل أهملت بشكل ظاهر وملحوظ محور جبريل فاريشتا فيها، لصالح شخصيتها الرئيسية الأخرى الأكثر جاذبية وسطحية والأقل تعقيداً والأقرب منالاً (ولا أستثني نفسي من هذه الملاحظة في "ذهنية التحريم"). (٢) لأن الدكتور عبد الرزاق لا يرى في جبريل إلا أقبح الصفات وأبشع الخصال على طريقة: "شيطان رجيم"، "الشيطان المنبثق من الوحل والحامل لأوبئة شتى"، "صاحب ذاكرة هذيانية مريضة مفعمة بالنتانة والقبح والتشوه"، "شخصية مزرية، مقبته، مضطربة عقلياً، مشوهة، وضيعة، ملتاتئة، مدانة بالنص" . . إلخ. بعبارة ثانية، لا بد من دراسة جديدة لمحور فاريشتا في الرواية، وفقاً للمنهج النقدي - الأدبي الذي حدد معالمه الدكتور عبد الرزاق، بدلاً من الاكتفاء بإدائته وتسفيهه ورفضه كما هو حاصل حتى الآن عند الزميل الناقد وعند غيره أيضاً. وسأبدأ مناقشتي بمحاولة

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

للإجابة عن السؤال المعقد والمتعدد المستويات والدلالات: من هو جبريل فاريشتا هذا في "الآيات الشيطانية"؟

● جبريل فاريشتا وكّد من أولاد شوارع بومباي، أرقى بدرجة أو درجتين من أولئك الصبيان الذين شاهدناهم وشاهدنا طرفاً من يؤسهم وتشردهم في فيلم "سلام بومباي" لمخرجه ميرانير (1988) (Mira Nair) عمل مع والده عداءً في شوارع المدينة يحمل على رأسه في طبق كبير وجبات الغداء الساخنة لتوزيعها على أصحابها بأقصى سرعة وقبل أن تدب البرودة فيها. تيمم في سن الثالثة عشرة حين صدم باص والدته فقتلها. وبعد سقوط والده ميتاً في أحد شوارع المدينة بسبب الركض الكثير والإعياء الشديد تبناه شيخ الكار الهندوسي - بابا صاحب ماهتري - لسبب ما وعرفه على أحد أقطاب صناعة السينما في بومباي على أمل إنقاذه من حياة الشوارع⁽¹⁾. أو على حد قول الرواية "إن أحداً لم يخبر جبريل فاريشتا لماذا أشفق بابا صاحب عليه وانتزعه من اللامستقبل الذي تمثله الشوارع".⁽²⁾ بعبارة أخرى دفعت ظروف الحياة ومصادقاتها بهذا الفتى إلى احتراف التمثيل السينمائي حيث برع في تقمص أدوار الآلهة في "الأفلام اللاهوتية" الهندية مما حوّلته بسرعة فائقة إلى أعظم نجم سينمائي في تاريخ الهند الحديث. دفعته ظروف الحياة وطوارئها إلى عالم سينما هوليوود،

(1) المرجع السابق، ص ١٧-٢٢.

(2) المرجع السابق، ص ٢٠.

أي إلى "عالم الوهم والمال الأسود والشبق" (1) على حد تعبير "الآيات الشيطانية". بطبيعة الحال انتقلت سكناه بسرعة البرق من الأعماق السفلى لأزقة بومباي إلى أعلى شقة فوق أعلى طابق في أعلى ناطحة سحاب على أعلى رابية في بومباي. أما اسم الناطحة فهو: "مرتفعات إيفيرست" (2). معروف أن من يصعد القمة (وقمة إيفيرست بصورة خاصة) بهذه السرعة لا بد أن يصاب بالدوار وما هو أخطر وأدهى بكثير من الدوار وبعد بلوغ القمة على هذا النحو هل من طريق أخرى غير الهبوط أو السقوط؟

● جبريل فاريشتا هو إسماعيل نجم الدين: إسماعيل تيمناً بابن إبراهيم الذي كاد أن يذبحه أبوه تلبية لنداء حلم رآه فافتدى وقتها: "بذبح عظيم". إلا أن أحداً لم يفتد إسماعيل الآخر هذا الذي ذهب ضحية نشأته السفلى وظروفه الحقيرة وصعوده الصاروخي وجنونه العلوي وسقوطه المريع من فضاء بومباي الخارجي، علماً بأن سؤال رواية رشدي الضمني يبقى مطروحاً: لماذا نصدق أحلام إبراهيم أبو إسماعيل وهذياناته وهلوساته ونقدسها في الوقت الذي نكذب فيه أحلام إسماعيل فاريشتا نفسه وهلوساته وهذياناته ونسفها ونحتقرها؟ لماذا صدقت خديجة النبي (وصدق الناس بعدها) حين رأت حاله المزرية عند إعلامه لها بنزول الوحي عليه فأخذت بيده وشجعتة على المضي قدماً، بينما لم تصدق آلي كون جبريل فاريشتا حين شاهدت حاله المزرية عند

(1) المرجع السابق، ص ٢٥.

(2) المرجع السابق، ص ١٣.

إعلامه لها بأنه الملاك جبريل فعملت على تشييط عزمه وزيادة إحساسه بالإحباط⁽¹⁾. اسمه نجم الدين لأنه الأعظم لـ "اللاهوتيات" الهندوسية الكاسحة النجاح، والنجم المقترح لـ "اللاهوتيات" السينمائية الإسلامية التي شرع أمراء المال، المتعدد الجنسيات والعاير للقارات والثقافات والحكومات، في السينما الهوليودية بالإعداد لإنتاجها على أمل المزيد من النجاح التجاري والمالي في أوساط القطاع الآخر من الشعب الهندي وجيرانه وتحت عناوين وأسماء مثل: "ماحوند"، "انشقاق بحر العرب"، "جبريل في مدينة جاهلية"، "جبريل يقابل الإمام"، "جبريل مع فتاة الفراشات" . . إلخ. وكما كان جبريل يتقمص الآلهة التي كان يمثل أدوارها بألمعية باهرة، فيصبح هو هي وهي هو، أخذ يتقمص بالقوة ذاتها وبالتماهي نفسه الأدوار الإسلامية الجديدة المسندة إليه ويتوحد معها إلى درجة جعلتها تتسرب إلى أحلامه ورؤاه وانفعالاته وتخرق هويته وتسكن كيانه كله⁽²⁾.

● جبريل فاريشتا هو جبريل فاريشتا (أو جبريل جبريل، أو جبريل الملاك، أو الملاك جبريل) لأن أمه كانت تناديه "يا ملاك"⁽³⁾ أحياناً و"يا شيطان"⁽⁴⁾ في أحيان أخرى (لا سيما حين كان يسلي نفسه بخلط وجبات الغداء الهندوسية بالإسلامية قبل

(1) المرجع السابق، ص ٢٢١ .

(2) المرجع السابق، ص ٢٧٢، ٣٤٤-٣٤٥ .

(3) المرجع السابق، ص ١٧ .

(4) المرجع السابق، ص ٩١ .

توزيعها على أصحابها المغفلين فيأكلون ما هو حرام في دينهم وما هو حلال في دين زملائهم) مما رسخ في نفسه شيئاً من الاثنين معاً. أضف إلى ذلك أنها كانت تزرع في رأسه قبل موتها المبكر قصصاً وحكايا عن " السله والملائكة والشياطين والعفاريت والجن " وكأنها كلها وقائع عادية مثل أية عربة في الشارع أو عمود كهرباء في الطريق" (1) كان يلوم نفسه أشد اللوم لأنه لم يشاهد حتى تاريخه أيّاً من هذه الأسباب التي كان يشاهدها الآخرون بسهولة وكل يوم، على ما يبدو. أما أسرة بابا صاحب الهندوسي التي انتشلته من حياة الشوارع وتبنته فقد تعلم من سيدها الشيء الكثير عن السحر والشعوذة وتخضير الأرواح وتقمصها وتناسخها وما إليه من معتقدات أهل البلاد. وبعد دخوله عالم السينما تابع تثقيف نفسه بالإطلاع على أساطير الرومان واليونان: على تجسّدات الإله جوبيتر، على الفتى الذي تحول إلى زهرة، على المرأة - العنكبوت، على الساحرة كيركة (أو سيرسة)، على التعاليم الشيوصوفية العرفانية اللدنية، على نظرية المجال الموحد، على حديث الغرائق، على السياسة التي اتبعها النبي محمد في إدارة حريمه، على سورالية الصحف الشعبية الرخيصة وما تحمله من أخبار عجائبية، عن الفراشات التي تدخل أفواه الفتيات لتؤكل، عن أطفال يولدون بلا وجوه، عن فتیان يتكلمون بتفاصيل مذهلة عن تقمصاتهم في الحيات السابقة . . إلخ(2).

(1) المرجع السابق، ص ٢١-٢٢ .

(2) المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤ .

لا غرابة إذن أن تضج أحلام جبريل ورؤاه وتداعياته بمحتويات ثقافته ومعلوماته وتجربته وتنشئته الإسلامية الهندوسية الشعبية المختلطة، وأن تتقمصه هذه المعلومات والتجارب وتتناسخ في عقله ومخيلته، من ناحية، وأن يتقمصها هو ويتماهى معها ويوحد هويته بهويتها، من ناحية ثانية. لذا حين تمكن مرض انفصام الشخصية الذهاني منه كان من الطبيعي أن تضج هلوساته وهذياناته وشطحاته وذكرياته وتطلعاته وأحلامه وأوهامه ورؤاه بالملائكة والشياطين والتقمصات والأنبياء والتناسخات والآلهة والعفرات والعجائب والغرائق وما إليه. إن لغة هلوساته ورموزها وإشاراتنا هي ببساطة لغة ديانات الهند العامية (بما فيها الإسلام على أنواعه) برموزها المعروفة وإشاراتنا المألوفة بعد إعادة تدويرها وإنتاجها واستنساخها في ذهن مريض أصلاً ومصاب بدوار الصعود السريع إلى أعلى أيضاً.

● جبريل فاريشتا هو الملاك الساقط، إمام الكرويين المطرود من الفردوس والمشرّد في كل مكان وفي اللامكان، إنه الاثنين معاً. لذا صدرّ رشدي روايته بمقطع مقتبس من كتاب "تاريخ الشيطان" لأحد رواد الرواية الإنكليزية الحديثة العظام: دانيال ديفو⁽¹⁾، علماً بأن هذا التصدير الهام لم يحظ بأي تلميح أو إشارة من جانب الذين كتبوا عن "الآيات الشيطانية" وشرحوا معانيها ومضامينها في الشرق والغرب معاً. يقول المقطع المذكور:

(1) دانيال ديفو (1660-1731) Daniel Defoe وهو صاحب روايات شهيرة مثل "روبنسون كروزو" و "مول فلاندرز" (Moll Flanders).

"وهكذا لما انحصر حال الشيطان في متشرد يجوب بلا وضع مستقر، لم يعد له أي مقام معين. ومع أنه يتمتع بسلطة ما - بحكم طبيعته الملائكية - على النفايات المائعة أو الهواء، لا شك أن بقاءه بلا موضع محدد أو مجال مسموح له بأن يريح فوقه أسفل قدمه يشكل جزءاً من عقابه" (1).

بعبارة ثانية، إن المهاجرين في المنافي الأوروبية الذين تدور رواية رشدي حولهم وحول مآسيهم هم "شياطين" أشقياء تعساء من هذا النوع وبهذا المعنى الملتبس والمزدوج أيضاً. لذا يتقمص فاريشتا في أحلامه وأوهامه وهذياناته وذاكرته شخصية الملاك الذي يحمل اسمه بسهولة فائقة وبتطابق كامل معه كما يمثل بنجاح باهر دوره في "لاهوتيات" السينما الهندية المعروفة. ويحضرني هنا اجتهاد العلامة الشيخ عبد الله العلايلي الذي يشبه فيه الملاك جبريل الذي كان "يبدو ويشتهب ويتشخص بصورة من الناس مثل دحي الكلبي" بـ "الظهور أو الشهود أو الحضور السينمائي" على

(1) Daniel Defoe, The History of the Devil Ancient and Modern, Rowan and Littlefield, Totowa, New Jersey, 1972, P. 47.

صدرت الطبعة الأولى من الكتاب نفسه سنة ١٧٢٦ (تحت اسم مستعار) ولاقت رواجاً واسعاً وقتها إلا أن الكنيسة الكاثوليكية أدانته ومنعته كما حظرت على أتباعها قراءته. وجدير بالإشارة أن ديفو صدر كتابه بأبيات شعر "ذات مغزى بالنسبة لموضوعه، وفيما يلي ترجمة تقريبية لها:

الشيطان على سوئه يمكن أن يُساء له

وأن يُتهم زوراً وبلا سبب

حين لا يريد الناس أن يُلاموا وحدهم

يحبون إليه الجرائم التي هي جرائمهم وحدهم فقط".

حد تعابيره الحرفية⁽¹⁾. كذلك، يتقمص جبريل بسهولة مماثلة
 حكاية ذلك العملاق الذي يقف بلا أجنحة فوق الأفق وتلف يده
 الشمس (لوسيفر حامل النور ونجمة الصبح^(*)) وهو يحاول التعلق
 "بغصن سدرة المنتهى تحت العرش" تفادياً للسقوط في هاوية
 أسفل السافلين. سقط لكنه لم يمت وما كان يمكن أن يموت⁽²⁾.
 وبسبب طبيعته المزدوجة عرف جبريل فاريشتا تجربة الإيمان البسيط
 والتسليم الساذج والتدين العامي والاعتقاد الشائع في الهند وغير
 الهند. ومر أيضاً بتجربة الشك وقلقه وإغراء الكفر ونشوته وإغواء
 الإلحاد وعنفوانه ونداء الرفض وتمرده. ابتلي جبريل فاريشتا - على
 طريقة أيوب - وهو في ذروة نجاحه وشهرته بمرض رهيب لم يعرف
 له الطب سبباً أو شبيهاً. أعلن مسؤول كبير في المستشفى على
 الشعب الهندي المفجوع بأن نجمه ومعبوده مصاب بمرض غريب من
 عنده تعالى ولا يعرف سره إلا هو. مثل أيوب، خاطب جبريل

(1) انظر "ذهنية التحريم"، ص ٢٣٦ .

(*) قارن: "كيف سقطت من السماء أيتها الزهرة بنت الصبح. كيف قُطعت إلى
 الأرض يا قاهر الأمم" ("الكتاب المقدس"، سفر إشعياء ١٤ : ١٢).
 بالمناسبة، اللات الساقطة إلى الأرض في رواية رشدي هي نجمة الصبح أيضاً.
 (2) "الآيات الشيطانية"، ص ٩١ قارن: "ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء ملتحقاً
 بسحابة وعلى رأسه قوسٌ غمام ووجهه كالشمس ورجلاه كعمودين من نار
 ويده كتاب صغير مُفتوح فوضع رجله اليمنى على البحر واليسرى على
 الأرض" ("الكتاب المقدس": رؤيا القديس يوحنا ١٠ : ٢١). كذلك:
 "ونفخ الملاك الخامس في بوقه فرأيت كوكباً قد سقط من السماء على الأرض
 وأعطى مفتاح بئر الهاوية" (رؤيا القديس يوحنا: ٩ : ١).

ربه أثناء المحنة متضرعاً إليه بأن لا يتخلى عنه في أكثر ساعاته شدة وحرماً. اعتقد وقتها أن عقاباً إلهياً ما نزل به مما ساعده على تحمل آلام المرض المبرحة إلا أن صبره تحول إلى شيء آخر - إلى غضب - بعد مضي فترة كافية من الزمن:

"كفى يا الله! لماذا يجب أن أموت وأنا لم أقتل أحداً؟ هل أنت انتقام أم حب؟ ساعده الغضب على الله على تحمل يوم آخر (من المرض) إلا أن الغضب تلاشى بعد ذلك وحل محله فراغ رهيب، حلت محله وحدة حين أدرك أنه لم يكن يخاطب إلا هواء الأثير وأنه لا يوجد أحد هناك على الإطلاق. بعدها شعر بأنه أكثر حماقة من أي وقت مضى في حياته. أخذ يتوسل الفراغ: يا الله كن هناك. يا للجنة، كن. لكنه ما أحس بشيء، بأي شيء، بأي شيء. بعد ذلك، اكتشف في أحد الأيام أنه لم يعد بحاجة لأن يكون هناك أي شيء ليحس به. في يوم التحول هذا تبدل المرض وأخذ يتمائل للشفاء"⁽¹⁾.

وللمرة الثانية أعلن كبار المسؤولين في المستشفى على شعب الهند أن هذا الشفاء المفاجئ والعاجل، الغريب والعجيب لمعبود الجماهير جاء من عنده تعالى ولا يعرف سره إلا هو. "لكن حين استعاد جبريل قواه أضحى واضحاً أنه تغير. "، تغير "لأنه فقد إيمانه. "⁽²⁾. في الواقع بدل جبريل فاريشتا مجرى حياته بعد

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ٣٠ (التشديد في النص الأصلي). بالنسبة لـ "الأوب" الأمريكي المعاصر تراجع مسرحية آرثيبولد ماكليش الشعرية:

JB (١٩٥٨).

(2) المرجع السابق، ص ٢٩.

شفائه بأن لحق بحبيبته آلي كون في لندن⁽¹⁾. بعبارة أخرى، في حين عمقت المحنة إيمان أيوب بربه وعززت تعلقه بدينه فطابت أحواله من جديد، أفقد الابتلاء المشابه لإسماعيل نجم الدين إيمانه وبدد دينه مما لم يمنعه بدوره من استعادة تألقه السابق وبريقه الأول هو أيضاً من جديد. جبريل فاريشتا هو أيوب معكوساً، وهل كان يمكن لشخصية سطحية، طيبة عموماً، متحذلقة، ملساء وسلسلة وصحية جملة، مثل صلاح الدين شامشا، أن تعرف، أو حتى أن تتعرف على، مثل هذه التجربة الكيانية والوجودية والروحية العميقة؟

من هنا تطرح رواية رشدي مشكلة ديكارتية عريضة:

- "سؤال: ما هو عكس الإيمان؟".

- "ليس الكفر" بالتأكيد. إنه "قطعي أكثر من اللازم،

يقيني، مغلق، إنه نوع من الإيمان هو الآخر".

- "الشك"⁽²⁾

هذا بالنسبة للبشر، لكن عن الملائكة باعتبارهم "في منتصف

الطريق بين الله - الإله وحكيم - إنسان؟ هل شكّوا أبداً؟ شكّوا:

تجرأوا على السؤال عن أشياء محرمة: أنتي - أسئلة. "

لكن "الملائكة يمكن تهدئتهم بسهولة. أما البشر فهم أصعب

(1) المرجع السابق، ص ٣١.

(2) المرجع السابق، ص ٩٢.

مراسماً، بإمكانهم الشك في أي شيء، حتى في ما هو بينَ أمام أعينهم. ليس عند الملائكة الكثير مما نسميه نحن بالإرادة. أن نريد يعني أن نعارض لا أن نسلّم، أن نخالف".

"أنا أعرف، هذا كلام شيطان".

"شيطان مقاطعاً جبريل": "من، أنا؟" (1)

● جبريل فاريشتا هو الذي تميز في الرواية - على عكس صلاح الدين شامشا - بتلك الموهبة السماوية النادرة على الحب الحقيقي والمحبة العميقة والصفح بعد الإساءة والغفران على الرغم من شدة الأذية والعفو عند المقدرة(2). بالتأكيد هو الأعمق تجربة والأكثر أصالة والأعظم انسجاماً وصدقاً مع النفس، على الرغم من مرضه وجنونه وخيالاته وأحلامه وهلوساته. وفيما يلي المقارنة التي تعقدها "الآيات الشيطانية" نفسها بين فاريشتا وشامشا:

"ألا يشكل هذان الاثنان ضدين موصولين معاً، كل رجل منهما ظل الآخر؟. هل نقول إن هذين الاثنين هما نوعان مختلفان أساساً من الذوات؟ ألا يمكننا الاتفاق على أن جبريل، على الرغم من اسمه الفني وأدواره وعلى الرغم من شعارات التجدد الديني والبدايات الجديدة والتحويلات، أراد أن يبقى متواصلاً إلى حد كبير، أي موصولاً بماضيه ومنبثقاً عنه، وأنه ليس هو الذي اختار المرض الذي كاد أن يودي بحياته أو السقوط الذي حوّلته، وأنه، في الواقع، يخاف أكثر ما يخاف حالات التحول تلك التي

(1) المرجع السابق، ص ٩٢-٩٣ .

(2) المرجع السابق، ص ٢٤، ٢٥، ٣١٤ .

تسرب فيها أحلامه إلى ذاته الصاحبة ومجتاحها جاعلة منه جبريل الملائكي الذي لا يرغب في أن يكونه، وأن ذاته تبقى بهذا ذاتاً يمكننا أن نصفها - لأغراضنا الحالية - بالصدق".

أما صلاح الدين شامشا فهو :

"كائن التقطعات المختارة. إنه إعادة اختراع إرادية. ثورته المفضلة على التاريخ هي التي تجعله، بمصطلحاتنا المختارة، "مزيفاً"؟ أو ليس بإمكاننا المتابعة، لنقول إن زيف الذات هذا هو الذي يجعل زيفاً أعمق وأكثر سوءاً ممكناً في شامشا - ولنسمه بالشر - وأن هذه هي الحقيقة التي انفتحت فيه وهذا هو الباب الذي انفتح في داخله نتيجة سقوطه. ويعتبر جبريل في المقابل - إذا تابعنا منطق مصطلحاتنا المتعمدة - "طيباً" بفضل رغبته البقاء في العمق إنساناً غير مترجم على الرغم من تقلباته كلها".⁽¹⁾

على الرغم من محنة شامشا الصعبة مع البوليس الإنكليزي وعبوره تجربة المطهر في "نادي الشمع الملتهب" انكشفت الحقيقة الأعمق لـ "حاضرة العالم - لندن" ⁽²⁾ لمعتوه - مجذوب - رائية مثل جبريل فاريشتا وليس لعاقل وطني حيسوب مثل صلاح الدين شامشا. تقول الرواية عن جبريل هذا:

"بدا وكأنه لم يعد بحاجة إلى طعام أو راحة وإنما فقط إلى الحركة الدائمة في هذه الحاضرة المعذبة التي تحوّل نسيجها الآن تحولاً تاماً: صارت البيوت في الأحياء الشرية مبنية من خوف تجمّد، والأبنية الحكومية من الغرور جزئياً ومن الاحتقار في جزئها

(1) المرجع السابق، ص ٤٢٦-٤٢٧ (التشديد في النص الأصلي).

(2) المرجع السابق، ص ٤٢٤ .

الأخر، ومنازل الفقراء من الفوضى والأحلام المادية. حين تنظر بعيون مَلَاك ترى الماهيات بدلاً من السطوح، تشاهد تفسخ الروح يطفح بشوراً وبقافيل على جلود الناس في الشوارع. أثناء تجوله في المدينة، بعد تحولها هذا، شاهد عفاريت بأجنحة خفافيش تجلس في زوايا مشادة من الحداد ولمح شياطين تنزّ كالديدان من السراميك المكسور الذي يكسو المبالو العامة للرجال. وكما كان ريخالموس، راهب القرن الثالث عشر الألماني، يغلق ذات مرة عينيه فيرى فوراً غيوماً من الشياطين المتناهية في الصغر وهي تحيط بكل رجل وامرأة على وجه الأرض، ترقص كذرات الغبار في ضوء الشمس، أخذ جبريل هو أيضاً يكتشف الآن وفي كل مكان، بعيون مفتوحة وفي ضوء القمر والشمس أيضاً، حضور عدوه. حضور شيطانه⁽¹⁾

وتستمر رؤية جبريل لـ لندن الأخرى، لندن السود والملونين والآسيويين والبؤساء والفقراء المهمشين عموماً، لندن "المدينة الظاهرة لكن غير المرئية" على النحو التالي:

"تقف الأبراج على ركائز. ليس تحتها وبينها إلا عواء ريح دائمة ودوران الحطام: مطابخ مهجورة، إطارات دراجات هوائية فارغة، قطع من أبواب مكسرة، سيقان دمي، نفايات خضار تسحبها ققط وكلاب جائعة من أكياس القمامة البلاستيكية، أغلفة الوجبات السريعة، علب تنك تتدحرج، توقعات بفرص عمل ما تحطمت، آمال تم هجرها، أوهام ضائعة، غَضَبات استهلكت نفسها، مرارات تراكمت، خوف متقيماً وبانيو يعلوه الصدا يقف بلا حراك. مجموعات صغيرة من السكان نهرع باتجاهات مختلفة.

(1) المرجع السابق، ص ٣٢٠-٣٢١ (التشديد في النص الأصلي).

بعضها - وليس كلها - يحمل أسلحة: هراوات، مدى. في هذه الجماعات كلها فتيان بيض وسود أيضاً. يرفع بوقه إلى شفثيه وينفخ. براعم صغيرة من اللهب تنبت على الإسمنت تغذيها أكوام الممتلكات والأحلام المطروحة جانباً. هنا كومة صغيرة من الحسد المتفسخ تشتعل زرقاء(*) في الليل. لون النيران من ألوان قوس القزح جميعها(**) ولا تحتاج كلها إلى وقود. ينفخ الورود النارية الصغيرة من بوقه فترقص على الإسمنت دون حاجة إلى مواد مشتعلة أو جذور. هنا واحدة لونها زهري!. هناك. وردة فضية. والآن تورق البراعم شجيرات. تصعد مثل العرائش على جوانب الأبراج وتمتد نحو جيرانها لتشكل سياجات من اللهب متعدد الألوان.

إنها كالتفرج على حديقة منيرة وقد تسارع غمها آلاف المرات. حديقة من الأوهام الكثيفة، المتشابكة تضاهي غابة الأشواك التي نبتت حول قصر الحسناء النائمة منذ زمن بعيد في حكاية أخرى من حكايات الجنيات. لكن هنا لا حُسنٌ ينم في الداخل. هنا جبريل فاريشتا وهو يسير في عالم من النار⁽¹⁾.

(*) نقول في العربية "أزرق حسداً" أما في الإنكليزية فيقولون "أخضر حسداً". استعملت المصطلح العربي في ترجمة النص الإنكليزي.

(**) يقود الزعيم الأمريكي الأسود جيسي جاكسون تحالفاً شعبياً - سياسياً معادياً للعنصرية يضم الألوان والأعراق والأثنيات كلها في البلاد دون أي تمييز تحت اسم "ائتلاف قوس القزح". (The Rainbow Coalition) هناك محاولات كثيرة في بريطانيا وأوروبا عموماً لتقليد التجربة محلياً وتحت الاسم ذاته كما تطمح دولة مثل جنوب أفريقيا، بعد انهيار نظام الأبارتايد هناك واستسلام نلسون مانديلا مقاليد الحكم فيها، لأن تتحول إلى "أمة قوس القزح" (A rainbow).

(1) المرجع السابق، ص ٤٦١-٤٦٢.

وكي لا أبدو متعسفاً في تقديم شخصية جبريل فاريشتا على هذا النحو المتعدد المستويات والمتنوع الأبعاد والمتكثّر المعاني والدلالات والإشارات، أضع بين يدي القارئ ترجمة لما تقوله الرواية نفسها عن هذا الثراء والتعقيد في تعليقها المباشر على بطل الرواية الآخر وربما الأهم بأكثر من معنى من معاني العبارة:

"جبريل:

يتحرك كما لو أنه في منام لأنه لم يعد يدرك الفارق بين حالات الصحو والحلم بعد أيام من التجول في المدينة بلا طعام أو نوم، معه البوق الذي اسمه عزرائيل محشواً بأمان في إحدى جيوب معطفه الكبير. أخذ يفهم الآن شيئاً عن ما يمكن أن يكونه الوجود في كل مكان لأنه يتحرك في حكايات عدة في اللحظة ذاتها. هناك جبريل الذي يندب خيانة هليلويا كون له، وجبريل الذي يرفرف فوق فراش موت نبي، وجبريل الذي يسهر سراً على تقدم حجج إلى البحر وهو ينتظر اللحظة التي سيكشف فيها عن نفسه، وجبريل الذي يشعر بقوة أكبر كل يوم بإرادة العدو الذي يجذبه أكثر فأكثر إليه مودياً به إلى عناق أخير. هذا العدو المخادع والخبيث الذي اتخذ لنفسه وجه صديقه، صديقه الصدوق سالادين، ليهدته فينزل دفاعاته، وهناك أيضاً جبريل الذي يمشي في شوارع لندن يحاول أن يفهم إرادة الله.

هل سيكون أداة غضب الله؟

أو أداة محبته؟

هل هو انتقام أم غفران؟ هل يبقى البوق المميت في جيبه أم ينبغي عليه إخراجه والنفخ فيه.

وهو يصارع حكاياته العديدة، يتقدم⁽¹⁾.

ملاحظة: أعتقد أن سلمان رشدي يعارض في هذه المقاطع من روايته "سفر الرؤيا" من الكتاب المقدس معيداً إنتاج مناخه الرؤيوي وأسلوبه الملحمي وأحلامه الغيبية وخيالاته القيامية (نسبة إلى يوم القيامة) ولكن في قلب حاضرة حواضر العالم الصناعي الحديث - حيث لا الرؤيا رؤيا ولا الملحمة ملحمة ولا الحلم حلم ولا الخيال خيال - مما يعطي نثره هنا نكهة دونكشوتية خاصة وساخرة ومؤثرة وجميلة في وقت واحد. تبقى الإشارة إلى أن "سفر الرؤيا" يتكلم عن سبعة من الملائكة يحمل كل واحد منهم بوقاً بيده وعن الكوارث الطبيعية وفوق الطبيعية التي ستحل بالأرض والبشر بعد النفخ فيها إيداناً بقيام الساعة (يعارض رشدي بصورة مشابهة وفي مقاطع أخرى من عمله النص القرآني أيضاً، خاصة بالنسبة لإيقاعه ووقعه).

على سبيل المثال، نقرأ في "سفر الرؤيا" :

"فنفخ الملاك الأول في بوقه فحدث بردٌ ونارٌ يخالطهما دمٌ وألقيا على الأرض فاحترق ثلث الأرض واحترق ثلث الشجر وكل عشب أخضر احترق"⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ص ٤٥٧ .

(2) "الكتاب المقدس" رؤيا القديس يوحنا: ٨ : ٧ .

قارن :

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً (١٣) وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
فَدَكَّنَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الرُّوَّاقَةُ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ
فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ
فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً﴾ (١).

أما عند رشدي في لندن فقد قرأنا:

" . يرفع بوقه إلى شفتيه وينفخ . براعم صغيرة من اللهب تنبت
على الإسمنت تغذيها أكوام الممتلكات والأحلام المطروحة جانباً .
هنا كومة صغيرة من الحسد المتفسخ تشتعل زرقاء في الليل . لون
النيران من ألوان قوس القزح جميعها ولا تحتاج كلها إلى وقود .
ينفخ الورود النارية الصغيرة من بوقه فترقص على الإسمنت دون
حاجة إلى مواد مشتعلة أو جذور . والآن تورق البراعم شجيرات .
تصعد مثل العرائش على جوانب الأبراج وتمتد نحو جيرانها
لتشكل سياجات من اللهب متعدد الألوان .. إلخ " .

أضف إلى ذلك كله إشارة رشدي في الرواية بالاسم إلى
الملاك المطرود الآخر عزرائيل الذي تذكره جبريل فاريشتا فور
انتقاله إلى حالته الملائكية . جاء في " العهد القديم " أنه " . لما ابتداء
الناس يكثر على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات
الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا "

(١) سورة الحاقة: ١٣-١٦ .

(٢) " سفر التكوين " ٦ : ٢-٤ ، انظر كذلك " سفر اللاويين " ١٦ : ٩-١٠ ، راجع
تفسير هذه الآيات في الترجمة للكتاب المقدس الصادرة عن الآباء اليسوعيين ،
دار المشرق ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٨ ، ج ١ ، ص ٧٧ ، هامش ١ .

(2). وتقول الأسطورة القديمة إن عزرائيل كان قائد أبناء الله هؤلاء الذين اشتهوا بنات البشر، فطردهم الله من الجنة وأنجبوا منهم بعدها نسلًا شريراً من العمالقة الذين عاثوا في الأرض فساداً وسفكوا الدماء. أما الشاعر الإنكليزي الأعظم - جون ميلتون - فقد جعل من عزرائيل هذا شريكاً وصاحباً لإبليس في ملحمة الشعرية "الفردوس المفقود" (*). ويقارن الملاك جبريل في "الآيات الشيطانية" اشتهاه ألي كون باشتهاء الملاك عزرائيل وصحبه لبنات البشر وبالنتائج الشريرة التي ترتبت على ذلك بما فيها الطرد من الجنة(1).

كذلك يعارض رشدي في مقاطع أخرى من روايته - معارضة ساخرة ومتهكمة - المزيج الرائج هذه الأيام بين التجارة والدين، بين "البيزنس" والخلاص الأبدي، بين الربح الوفير وخروج المبشرين والوعاظ على الناس - على طريقة أنبياء "العهد القديم" - لاستتصال الشر وإحقاق الحق ونشر العدل وتثبيت الخير على وجه الأرض إعداداً لظهور المهدي المنتظر أو ما شابه مع الحرص الشديد في الوقت ذاته على عدم إضاعة فرصة واحدة للبيع والشراء والكسب السريع مهما كان نوعه(2). ولا يقصّر رشدي أبداً في

(*) جون ميلتون، "الفردوس المفقود"، الآيات ٥٣٠-٥٤٠.

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ٣٢١.

(2) انظر على سبيل المثال ص ٣٢٠، ٣٢٦-٣٢٧، ٤٣٢، ٤٤٧-٤٤٨ من "الآيات الشيطانية".

هجاء التسليح المعمم لكل شيء في حياتنا الراهنة من ناحية - الاستعمار الكوكا كولاني للكوكب، على حد تعبيره - أو في استنكار النزعة الطاغية لاستغلال كل شيء مهما كان بتحويله إلى "بيزنس" من نوع ما يدر الربح المالي وغير المالي الوفير، من ناحية ثانية. على سبيل المثال بعد انتشار أخبار حج العرافة عائشة - فتاة الفراشات - في طول البلاد وعرضها، استفاد الصحفيون من نشر صورها في الصحف كلها، واستعد محترفو السياسة المحليون كلهم لتجيير الأصوات الانتخابية لصالحهم عبر استدرار التصريحات المؤيدة لهم من فتاة الفراشات، وأخذ رجال الأعمال يقدمون العروض المغربية لرعاية الحج شريطة أن يوافق الحجاج على حمل يافطات إعلانية تروج لسلع وخدمات وبضائع معينة، كما هجم السياح الأجانب للاطلاع على أسرار الشرق وروحانياته. كذلك أقام أصحاب الشأن لوحات إعلانية عملاقة على طريق الحج تحمل صورة ضخمة للحاجة عائشة مكتوب عليها "منسوجة رقيقة رقة أجنحة الفراشات" كما أصدرت بعض الأحزاب السياسية بيانات هاجمت فيها "حج عائشة" بصفته مؤامرة لحرف انتباه الجماهير وأنظارها عن قضاياها الحقيقية. وفي الوقت ذاته استنكرت التنظيمات الهندوسية المتطرفة هذا "الخد على الأقدام" لأن هذا النوع من الحج عادة هندية أصيلة وليس بدعة جديدة جاء بها الغزو المغولي المسلم للهند⁽¹⁾. أما "ملكة الجليد" هليلوكون،

(1) انظر على سبيل المثال، "الآيات الشيطانية"، ص ٤٨٨ .

قاهرة قمة إيفيرست دون استخدام الأوكسجين، فكانت زبونة ممتازة أيضاً عند شركة "ماك موري" للعلاقات العامة التي صنّعت لها اللقب الجليدي المذكور كما رسمت لها صورة الشخصية الملائمة له: "أول قاهرة شقراء وجذابة جنسياً لقمة إيفيرست" (1). من هنا مشاركتها الكثيفة في الدعايات التليفزيونية (وغير التليفزيونية) للسلع الرياضية ولمجموعة من البضائع المشابهة التي تُتجج باسمها وتُسوق برعاية مناسبة من شهرتها. وأخذت آخر صفة مجزية جداً أنجزتها - شكل عقد ممتاز مع شركة عملاقة، موضوعه استخدام شخصها وصورتها وصوتها وشهرتها وبرودتها ولقبها الجليدي وجاذبيتها الجنسية للترويج للأطعمة المجمّدة التي تنتجها تلك الشركة .. إلخ.

IV

وكما أن لـ جبريل فاريشتا أعماقه المضيئة في نص رشدي الروائي (كما رأينا) فإن لـ صلاح الدين شامشا أغواره المعتمة في الرواية ذاتها. بعبارة ثانية لا بد لنا من تقصي عناصر الشر المتعددة وتجلياته المتنوعة في شخصية شامشا استكمالاً لتصحيح الصورة المسطحة والوحيدة الجانب التي رسمها له الدكتور عبد الرزاق في مقاله.

(1) المرجع السابق، ص ٣٠٨، ٣٢٤.

بعد واحد من انهيارات جبريل العقلية والعصبية المتكررة، استنجدت حبيبته ألي كون بشامشا لعله يساعدها على تجاوز الأزمة ولا سيما وأن جبريل كان يسأل عنه دوماً في لحظات هذيانه وصحوه معاً. استغل شامشا لحظة الضعف هذه لمزيد من الإمعان في تنفيذ خطته للإجهاز على زميله المريض. بعد سماعه الأخبار السيئة عن صحة جبريل من ألي كون "تظاهر شامشا، بقلبه الذي ما برح ممتلئاً بشهواته الانتقامية، بالصدمة والتعاطف" (1). وحين ذكرت له ألي - باعتباره صديقاً حميماً - شيئاً عن روعة علاقة العشق المتبادل التي تشدها إلى جبريل وتشد جبريل إليها، "عاشقين من عالم الأحلام" على حد تعبيرها:

"اندفعت مرارة شامشا إلى السطح مجدداً. العشاق من عالم الأحلام يحيطون به من كل جانب، أما هو فبلا أحلام وليس باستطاعته إلا أن يتفرج. عض على أسنان غاضبة وعض لسانه خطأ" (2).

في الواقع كان شامشا يكره ألي كون كرهاً شديداً في أعماقه - كامتداد لكراهيته لجبريل - ويغار منها غيرة شديدة بسبب شهرتها الواسعة ونجوميتها الساطعة كما كان يشتهيها جنسياً في الوقت ذاته ويحاول الوصول إليها بأساليبه الماكرة (3).

(1) المرجع السابق، ص ٤٣٢ .

(2) المرجع السابق، ص ٤٣٣ .

(3) انظر مثلاً ص ٤٣٨ و ٤٦٤-٤٦٥ من "الآيات الشيطانية" .

في أكثر من موقع في الآيات الشيطانية " يحيل رشدي شر تسلل شامشا المتعمد إلى أعماق جبريل إلى الشر المدروس جيداً الذي يمثله ياغو في مأساة شكسبير الشهيرة "عطيل" . بعد اللقاء الذي تم بين شخصيتي "الآيات الشيطانية" الرئيسيتين في حفلة بطوطة وميمي ماموليان، توقعت الرواية ما سيلي من أحداث على النحو التالي :

"إن ما سيتبع هو مأساة، أو على أقل تعديل هو صدى للمأساة الأصلية بتمام لحمها ودمها لم تعد متاحة للرجال والنساء المعاصرين، كما يقال. إن (المتاح) هو مهزلة لأزمتنا المنحطة والمزيفة حيث يعيد المهجرون ما كان يفعله في البداية الأبطال والملوك. حسنٌ، لكن الأمر كذلك، إذن. السؤال الذي نسأله هنا يبقى كبيراً كما كان دوماً وهو: طبيعة الشر، كيف يولد، لماذا يكبر، كيف يسيطر من جانب واحد على نفس إنسانية متعددة الأبعاد، أو لنقل لغز ياغو. ليس غريباً على مفسري الأدب والمسرح المهزومين أمام هذه الشخصية أن ينسبوا أفعالها إلى "شرانية لا دافع لها". الشر هو الشر ويفعل الشر وهذا كل ما في الأمر. حسنٌ، لكن مثل هذا التملص لن يفي بالمطلوب هنا. قد لا يكون شامشا كبير البندقية وقد لا تكون آلي عندي ديزديمونا مخنوقة وقد لا يكون فاريشتا نداءً للمغربي (أي عطيل) لكنهم سوف يتزبون، على أقل تقدير، بتلك التفسيرات التي يسمح بها فهمي. وهكذا يلوّح جبريل بيده محيياً، شامشا يقترب، وترتفع الستارة عن مسرح يظلم"⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ص ٤٢٣-٤٢٥ .

ملاحظة: تنطوي إشارة رشدي إلى "الشرانية التي لا دافع لها" أعلاه، معارضة نقدية لاجتهاد شائع جداً للشاعر الإنكليزي كولريديج في فهم شخصية ياغو. ويقول هذا الاجتهاد إن الشخصية المعنية تمثل الشر الخالص ولا حاجة بنا للبحث عن دوافع أخرى لفعاليتها الشنيعة لأن من طبيعة الشر أن يفعل الشر. يقدم رشدي في ثنايا روايته تأويلاً آخر يعتبر أن آدمية الإنسان كافية بحد ذاتها لتفسير أفعال الشر والخير الصادرة عنه معاً، تماماً كما في حالة كل من صلاح الدين شامشا وجبريل فاريلشتا. أن يفعل الملاك أو القديس الخير كله مسألة طبيعية ومتوقعة ولا تشير إشكالات جدية. وأن يفعل الشيطان أو الشرير الخالص الشر كله مسألة عادية ولا أهمية خاصة لها إن كان على صعيد الحياة أو على صعيد الأدب والفكر. لكن المهم الأهمية كلها هو إقدام الإنسان الطيب والقادر على الخير (شامشا) على فعل الشر. كما أن ما يشير الإشكالات جميعها هو إقدام الإنسان الشرير (فاريلشتا) على فعل الخير. وهنا أتساءل: ألا يتفق معي الدكتور عبد الرزاق بأن "الآيات الشيطانية" قدمت لنا، عبر جدلية العلاقة بين الثلاثي شامشا - جبريل - آلي كون، صدى باهتاً لمأساة "عطيل" وبما يتناسب مع عصر وثنية السلعة المعممة وعولمتها؛ ومع زمن لم يعد قادراً على تقبل التراخيديا العليا أو فهمها أو تحمل ثقل معانيها ومغازيها القريبة منها والبعيدة؛ ومع مرحلة "يعيد فيها المهرجون تمثيل ما كان يقوم به الأبطال والملوك" في عصور سابقة. وإذا كان القائل الحقيقي لـ ديزديمونا ولـ عطيل نفسه هو ياغو، عبر تلك

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

"الآيات الشيطانية" التي وسوس بها للفارس النبيل لدفعه فوق حافة الهاوية، ألا يرى معي الدكتور عبد الرزاق أن القاتل الحقيقي لـ آلي كون وويسكي سيزوديا وجبريل فاريشتا نفسه هو صلاح الدين شامشا عبر تلك "الطقاطيق الشيطانية" التي وسوس بها هو أيضاً للنجم السينمائي الأكبر والألمع لدفعه فوق حافة الهاوية كذلك؟ بعد نجاح شامشا في دفع جبريل فوق حافة الهاوية وفي لحظة التقاء نظراتهما بالقرب من مقهى الشاندار المحترق بنار المدينة الملتهبة بدورها، ما الذي انكشف لجبريل المجذوب؟

"أدرك جبريل فاريشتا أخيراً وللمرة الأولى أن عدوه لم يتلبس بملامح شامشا من باب التخفي فقط، وأن هذه ليست حالة من حالات التقمص الحارقة التي يختطف فيها غاز من جهنم جسداً، وأن الشر، باختصار، ليس من خارج سالادين بل ينبع من عمق أعماق طبيعته الحقيقية، وأنه ما زال ينتشر في شخصيته كالسرطان ماسحاً ما كان خيراً فيه، ماحياً روحه. أما الآن فلم يبق شيء من سالادين إلا هذا: نار الشر المعتمة في نفسه تلتهمه كله تماماً كما تلتهم تلك النار العارمة الأخرى، بألوانها المتعددة، المدينة وهي تصرخ" (٧١).

وجاء في نص الرواية ما يلي أيضاً:

"ها هو المستر سالادين شامشا في معطفه المصنوع من وبر الجمال وبياقته الحريرية يُركض في طول شارع هاي ستريت وكأنه لص حقير. إنه المستر شامشا الرهيب ذاته الذي كان قد أمضى للتو

(1) المرجع السابق، ص ٤٦٣ .

مساءه بصحبة همللويا كون المذهولة دون أي إحساس منه بومضة ندم. "إني أنظر سفلأ إلى قدميه"، قال عطيل عن ياغو، "ولكنه حديث خرافة" (*). كذلك، لم يعد شامشا خارقاً بعد الآن. آدميته تكفي كشكل وكتفسير لفعلة. دمر ما ليس هو وما لا يمكن له أن يكون (**). أخذ ثاره، رد على الخيانة بالخيانة، باستغلاله ضعف عدوه، جارحاً عقبته المكشوفة (***) (1).

بعد انكشاف الجريمة المزدوجة التي ارتكبتها جبريل فاريشتا وتصدر أخبارها عناوين الصحف وبالقلم العريض، انسحب شامشا من حضرة زينات وكيل:

"غادر. وهو لا يعرف كيف يفسر إحساسه الطاغي بالذنب، بالمسؤولية: كيف يخبرها أن هاتين الجريمتين هما الزهرتان القامتان لبذور كان قد غرسها هو منذ زمن طويل؟" (2).

أما في اللقاء الأخير بين شامشا وجبريل، فقد وجّه الثاني إصبع الاتهام لإبليس صراحة، قبل أن يطلق النار على نفسه قائلاً:

(* المشهد الثاني من الفصل الخامس من مسرحية "عطيل": ينظر عطيل إلى قدمي ياغو ليرى ما إذا كان مشقوق الظلّفين كالشيطان (أو ربما الشيطان مجسداً) ولكنه لا يشاهد إلا آدميته.

(**) ياغو أراد أيضاً في مسرحية شكسبير، أولاً، تحطيم إنسان ما كان يمكن له أن يكون، وثانياً، الانتقام منه لإساءة كانت قد صدرت عن عطيل بحق ياغو نفسه.

(***) الإحالة هنا هي إلى عقب آخيل (نقطة ضعفه ومقتله) في "إلياذة" هوميروس.

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ٤٦٥-٤٦٦.

(2) المرجع السابق، ص ٥٤٢-٥٤٣ (التشديد في النص الأصلي).

"أنت الفاعل إذن". فهم صلاح الدين، تابع جبريل: "لقد فعلتها حقاً: قتلتهما معاً" (1)

وإذا كان الجواب عن تساؤلاتي المطروحة آنفاً لا بد أن يكون بالإيجاب، كما تشهد على ذلك نصوص "الآيات الشيطانية" بلا لبس أو إبهام، ماذا يبقى من الصورة التبسيطية والبسيطة والأحادية الجانب تماماً التي قدمها الزميل الدكتور عبد الرزاق عن شخصيتي الرواية الرئيسييتين في مقاله "مناقشة لكتاب "ذهنية التحريم" ؟" يلحظ الدكتور عبد الرزاق ما يلي بالنسبة لكل من الشخصيتين الرئيسييتين في الرواية:

"فجربة المنفى تنطوي على مستويين، ملائكي وشيطاني، وكل منهما (أي جبريل وصلاح الدين) كان مقدراً لهما أن يحملا في مسار التجربة، البعدين معاً حتى حدث التحول والانفصال. فتجارب صلاح الدين في لندن مسخته إلى شيطان حقيقي في صورة "تيس" لكنه استعاد طبيعته الإنسانية الحيرة (الملائكية) بمغادرة المنفى الشيطاني ليعود إلى الوطن. بينما جبريل القافز من الوحل إلى الأعلى ظل يحمل وباءه الشيطاني على مسار الرواية لينتهي بالقتل انتحاراً".

تستدعي هذه الملاحظة عدة تعليقات على ضوء المناقشة السابقة:

(١) إن هذا النوع من المقاربة للشخصيتين الروائيتين المعنيتين لا يمكن أن تكون أكثر من مقارنة أولى للنص، بالإضافة إلى كونها (1) المرجع السابق، ص ٥٤٣، (التشديد في النص الأصلي).

المقاربة الألتصق بالسطح منها بالمستويات الدلالية الأعمق والأهم للرواية وهي المستويات التي يبيغها الزميل الناقد ولا يتفك عن تأكيد أهمية دورها في النقد الأدبي الجاد والكاشف عموماً.

(٢) إن مسألة الخير والشر كما عاجلتها وقدمتها الرواية أبعد بكثير من تجربة المنفى وأحداثها وتحولاتها ومآلاتها (تجربة المنفى جزء من هذا كله، طبعاً) كما أنها أكبر من أن تختزل إلى عودة الطبيعة الإنسانية الخيرة إلى شامشا بعد مغادرته المنفى، من ناحية، وبقاء فاريشتا على "وبائه الشيطاني" على امتداد الرواية كلها، من ناحية ثانية. في الواقع حين يصف الدكتور عبد الرزاق جبريل فاريشتا بـ "القافز من الوحل إلى الأعلى.. إلخ" فهو يكرر حرفياً الإهانة التي كانت تتعمد عشيقته الثرية الأولى ريكها ميرثانت توجيهها له عبر تذكيره على الدوام بأصله الاجتماعي الوضع ونشأته الطبقية الشارعية الفقيرة وبالأمراض والأوبئة التي يفترض أنه حملها معه، في نظرها، من حزام البؤس البومبي الذي خرج منه (1). ويجب ألا ننسى كذلك أن جبريل عاد هو الآخر إلى الهند لتابعة عمله السينمائي في بلده عموماً وللاضطلاع ببطولة فيلم لاهوتي مضاد مكرس لمحاربة العنف الطائفي المتصاعد في المجتمع المدني الهندي ذاته (وعلى نفقته الخاصة هذه المرة) (2). أعلن جبريل في محادثة تليفونية أخيرة مع شامشا "بأنه عائد إلى بومباي

(1) المرجع السابق، ص ٢٦ .

(2) المرجع السابق، ص ٥٣٨-٥٣٩ .

على أمل ألا تقع عيناه بعد اليوم عليها (أي ألي كون) وعليك (أي شامشا نفسه) وعلى هذه المدينة الباردة الملعونة (أي لندن). (1).

أضف إلى ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه جبريل، ومنذ البداية وحتى النهاية، يحتقر بلد المنفى إلى أقصى الحدود ويزدري سكان عاصمته وأهلها الأصليين الأزدراء كله ويستعمل حال المنفى، عن وعي وتصميم، لخدمة أغراضه ويسخره لتحقيق مآربه (2) كان شامشا، بالمقابل، يبدي مهارة فائقة في التلون بالألوان كلها وشطارة رائعة في التكيف مع الظروف والأحوال جميعها سعياً وراء غايته في أن يكون إنكليزياً من الدرجة الأولى: شامشا في الرواية هو (Spoon) "الملعقة" أي المدهان والمرائي أو Spoono) كما كان يناديه جبريل تحسباً (3). وهو صاحب الألف صوت وصوت (4) وهو صاحب الألف شخصية وشخصية (5) وهو الذي قال عنه والده منذ البداية: "هذا الممثل. هذا المدعي. جعل نفسه مقلداً لرجال غير موجودين" (82)، وليس جبريل فاريشتا. في الواقع جبريل هو الذي اكتشف وكشف منذ البداية حقيقة لندن الراهنة بوصفه إياها (بكل احتقار وازدراء):

- (1) المرجع السابق، ص ٥٣٨ .
- (2) المرجع السابق، ص ٤٢٥ .
- (3) المرجع السابق، ص ٨٣ .
- (4) المرجع السابق، ص ٦٠ .
- (5) المرجع السابق، ص ٦٣ .
- (6) المرجع السابق، ص ٧١ .

"مدينة روبنسون كروزو المعزولة على جزيرة ماضيها وهي تحاول
الحفاظ على المظاهر بالاعتماد على طبقة الزلّة - جمعة(*) السفلى
من البشر"(1).

(٣) إن مفتاح ثراء الشخصية الرئيسية الثانية في الرواية موجود في قول رشدي عن جبريل فاريشتا بأنه يعيش الحكايات كلها دفعة واحدة وعلى المستويات جميعها: حكاية البؤس والحمران والصعود الصاروخي إلى الفضاء الخارجي لمجتمع بومباي السينمائي المخملي. حكاية أيوب وابتلاؤه. حكاية الملائكة والشياطين والسقوط والقيامة وصراع الخير والشر في الحياة. حكاية آلهة الهند وعفاريتهها وملائكتها وجننها وسحرتها وروحانياتها وحكمتها بالإضافة إلى تقمصاته وتقمصاتها، تناسخاتها وتناسخاتها. حكاية الإنسان الذي شاهد الله وتناقش معه فاقنتع للحظة بأنه قد يكون الملاك الذي يحمل هو اسمه(2). حكاية الحب الكبير والانفعال العنيف والعشق العارم والجنس العابر بعظمتها وانحطاطها، بنسواتها وخيبتها. حكاية الحدائة والترحال والمنفى والغربة والأصالة والنجومية والشهرة بأبعادها كلها. حكاية الإمام

(*) الزلّة - جمعة هو Man-Friday الزنجي الأسود تابع روبنسون كروزو في رواية دانيال ديفو الشهيرة. من هنا عبارتا (Man Friday) و(Gal Friday) في اللغة الإنكليزية للدلالة على الشابة (أو الشاب) التي تساعد رئيسها أو مديرها، مثلاً، في شتى الأعمال دون أن تخصص بعمل من نوع معين دون غيره.

(1) المرجع السابق، ص ٤٣٩ .

(2) المرجع السابق، ص ٣١٨-٣٢٠ .

الذي قاد ثورة⁽¹⁾. حكاية مسيلمة الكذاب⁽²⁾. حكاية العرافة عائشة⁽³⁾. والأهم في هذا كله حكاية الحركة الدائمة بين الجنون والصحو، بين الهذيان والواقع، بين المعقول واللامعقول، بين المثال والمادة، بين الدنيا والآخرة، بين عالم الغيب وعالم الحس.

ويجب ألا ننسى أبداً، بهذا الصدد، أن عالم الحكاية عند رشدي هو في وقت واحد عالم: "كان يا ما كان في قديم الزمان كان في". و"كان يا ما كان في قديم الزمان ما كان في" أي أن الحكاية هي حكاية لا أكثر ولكنها أكثر من مجرد حكاية بكثير في الآن ذاته. من هنا حضور شهرزاد القوي في أدبه وحضور حكاية الحكايات معها على الدوام فيه. كتب رشدي في مطلع روايته "أطفال منتصف الليل" الأسطر التالية في تشبيه صنعه كروائي بمعجزة شهرزاد:

"في السكون المتجدد أعود إلى صحائف من الورق فيها القليل من رائحة الزنجبيل وكلي استعداد ورغبة لتحرير قصة من يؤسها بعد أن تركتها بالأمس معلقة في الهواء - تماماً كما اعتادت شهرزاد أن تفعل الليلة تلو الليلة للحفاظ على حياتها بإبقاء الأمير شهریار يتحرق فضولاً"⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، ص ٢١٢-٢١٤.

(2) المرجع السابق، ص ١٩١-١٩٣، ٤٤٧-٤٤٨.

(3) المرجع السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦، ٢٣٩.

(4) "أطفال منتصف الليل"، الأصل الإنكليزي، ص ٢٤.

وبالمناسبة إن عدد الأطفال السحريين الذين ولدوا ليلة ميلاد الهند الجديدة هو ألف طفل وطفل أيضاً لكن دون أن يكونوا أولاد آبائهم وأمهاتهم بل "أولاد الزمن والتاريخ" ، على حد تعبير رشدي نفسه في المحاضرة التي ألقاها في الدانمارك عن أعماله الأدبية الأولى⁽¹⁾. لكن الأهم من ذلك كله هو نشداننا الخلاص من حقيقة شهريار الدموية القاتلة في حقيقة شهرزاد الروائية المنقذة. كلنا يعرف الآن أن شهرزاد لجأت إلى فن الحكاية كي لا تميته الحقيقة السائدة. طرح رشدي في كتابه "هارون وبحر الحكايا" السؤال ذاته بصورة أخرى: ما نفع هذه الحكايا غير الصحيحة أصلاً؟ أما الجواب فهو عند شهرزاد التي أثبتت أنه ما كان يمكن للحياة أن تستمر دون تلك الحكايات "غير الصحيحة أصلاً". ولا يسعني أن أمسك نفسي عن التفكير هنا بأن انتصار حقيقة شهرزاد هذا هو الذي دفع نجيب محفوظ لأن يعطينا رواية مثل "ألف ليلة وليلة" تبدأ حكاياتها تماماً حيث انتهت شهرزاد، أي تبدأ حكاياتها عند النقطة التي اختتمت فيها رواية الرواة حكايتها الأخيرة وعند النقطة التي فازت فيها بعفو السلطان وأنجبت له الأولاد. ويقر شهريار بذلك كله بإعلانه: "حكاياتها السحر الحلال، تفتحت عن عوالم تدعو للتأمل".⁽²⁾ في عالم "ليالي ألف ليلة" المسحور تمتاز الحكايات الجديدة بالعتيقة وتلاقح

(1) مجلة Kunapipi، مرجع مشار إليه سابقاً، ص ٤

(2) نجيب محفوظ، "ليالي ألف ليلة"، حكاية "شهريار".

بخصوبة عجيبة فتقول دنيازاد - بعد تجربتها الغرامية الحاملة - لأختها: "لقد وقعت أسيرة صدق عالمك الخفي ولكنني لا أريد أن أكون ضحيته" (1). وفي هذا العالم "المجانين لا يكذبون" أبداً. ولما "انتهى سحلول إلى سور دار المجانين ووقف في الظلماء همس لنفسه: لولا الإيمان لتساءلت عن معنى ذلك." (2). ولكن لأن جبريل فاريشتا كان قد فقد إيمانه، تساءل عن معنى ذلك كله وكان ما كان مما أصبحنا نعرفه من سيرته ولربما الصحيح هو أن عقله لم يتحمل أعباء هذا النوع من الأسئلة والتساؤلات ومشاقه.

بهذه الإشارة التأكيدية إلى أهمية شهرزاد عند رشدي، لا أريد للقارئ أن يغمط، بأي شكل من الأشكال، التراث الحكائي الشعبي الهندي حقه في التأثير الواعي والكبير في أدبه، أي في سطو رشدي المتعمد على أساليبه وتقنياته وفنونه وحيله أيضاً وتوظيفها كلها لإثراء الرواية الحديثة وتلقيحها وتوسيع آفاقها وتطعيم تقنياتها. يؤكد رشدي، على سبيل المثال، أن الرواية، في بلد مثل الهند، هو صاحب الجمهور الحقيقي والواسع والكبير وليس الكاتب الروائي خاصة أن فكرة الأدب كإداء يشبه الإداء الموسيقي ما زالت حية وقوية ومهيمنة في الثقافة الهندية المعاصرة. وللتدليل على قوله، روى التجربة التالية في المحاضرة التي ألقاها في الدانمارك في منتصف الثمانينيات:

(1) المرجع السابق، حكاية "نور الدين ودنيازاد".

(2) المرجع السابق.

"زرت هذه السنة (١٩٨٥) بلدة تقع في منتصف الطريق بين بومباي ودلهي، اسمها بارودا حيث يعيش بالقرب منها واحد من حكواتية الهند الأكثر شهرة. حين أعلن هذا الحكواتي أنه سيقدم عرضاً لما عنده - أي لحكاياته - كان لا بد من إعداد ساحة البلدة وتحضيرها بإنشاء مطاعم طارئة وإقامة بيوت خلاء مؤقتة وتحويل حركة السير كله عن وسطها ووضع باصات خاصة في الخدمة لنقل الناس من الريف إليها. اجتمع ٦٠٠ ألف شخص في عطلة نهاية الأسبوع للاستمتاع إليه يروي حكاياته علماً بأن عدد سكان بارودا هو ٤٠٠ ألف نسمة. أي جلس هذا البحر من البشر في الساحة خلال عطلة نهاية الأسبوع للاستماع إلى هذا الرجل وهو يروي الحكايات. إن كان في الدنيا وسيلة لجعل الكاتب الروائي يشعر بالتواضع فهذا هي بالذات" (1).

يضاف إلى ذلك إشارة رشدي الصريحة في "الآيات الشيطانية" إلى الـ "ألف ليلة وليلة" الهندي السنسكريتي المنسوب إلى راوية الهند الأكبر "سوماديفا" (Somadeva) والذي يحمل عنوان "كاثا - ساريت - ساغا"، أي "محيط جداول الحكاية" (*).

(٤) باستطاعتنا بالتأكيد إعادة قراءة مسألة تقاطع خطي فاريشتا وشامشا وتفاعلهما في "الآيات الشيطانية" على ضوء حكايات أخرى قريبة وعريقة في الفكر والأدب والفلسفة وثقافات

(1) مجلة Kunapipi، مرجع مشار إليه سابقاً، ص ٧ .

(*) انظر "الآيات الشيطانية"، ص ٣٤٢، صدرت الترجمة الإنكليزية لهذا السفر

في بريطانيا مؤخراً (لم تسنح لي فرصة الاطلاع عليها بعد):

Tales Froc the Kathassaritsagara, by somadeva, translated Arshia satar, penguin Classics, London, 1997 .

الشعوب عموماً مثل حكاية الملاك الذي يتمم، بصورة من الصور، الشيطان والشيطان الذي يتمم الملاك في عمارة الكون أو حكاية قلب الأدوار الفجائي وغير المتوقع بين الملاك والشيطان، بين الله والإنسان بين خداع المظاهر وحقيقة النوايا والأفعال وذلك في صيرورة الأشياء عموماً وحركة الحياة تحديداً. ويكفي أن أضرب هنا مثال محمد إقبال - شاعر اللغة الأردنية الأعظم ومفكرها الأدبي والأب الروحي لدولة الباكستان - الذي استلهمه رشدي بكشافة واستعار منه الكثير، كما وظّف أفكاره وهمومه وهواجسه وأحاسيسه لإثراء رواياته وإغناء شخصياتها وإعطاء أذنه أبعاداً تأملية ورمزية وفلسفية - تمردية بعيدة المدى. أذكر على سبيل المثال المناظرة التي أنشأها محمد إقبال بين جبريل والشيطان حيث يشرح الأخير أسباب مفاخرته بحاله الحاضرة لينتهي إلى القول: "أنا أجرح قلب الله كأنني شوكة":

"جبريل: عندما قلت: لا أسجد حُرِّمْتَ منزلتك الرفيعة.

الشيطان: ما أشد هذه الوصمة التي نالت شرف الملائكة في عيون الله!

جرأتي هي التي وهبت لحمأة من الطين الشوق إلى النماء،

تحدياتي هي التي نسجت ثوب الذكاء والفكر،

أنت واقف على الشاطئ ترقب المعركة بين الخير والشر.

أأنت أم أنا من تصفعه العاصفة؟

إذ هبّت عواصفي في البحار جميعاً والأنهار والسواقي جميعاً،

الخَضِرِ لا حيلة له، واليأسُ لا حيلةَ له.

إذا لقيت ربك، في لحظة مناجاة، فاسأله هذا السؤال:

من جاء هذا الدم الذي خضب تاريخ آدم؟

أنا أجرح قلب الله كأني شوكة،

أما أنت فتردد دون فتور: "الله هو، الله هو، الله هو" (1)

وتحيل هذه المناظرة بالتأكيد، أولاً، إلى الحوار القديم الذي كان قد أنشأه الحلاج بدوره بين موسى وإبليس وموضوعه الله، وثانياً، إلى رأيه الديني - الفلسفي المعروف في ضرورة الشيطان للملاك وضرورة الملاك للشيطان في عمارة الكون كما في النصين التاليين:

" فقال موسى: "ألا تذكره؟"

قال: "يا موسى، الذكر لا يُذكر! أنا مذكور وهو مذكور: ذكره ذكري وذكري ذكره هل يكون الذاكران إلا معاً؟" (2).

"لأن الأشياء تعرف بأضدادها، والشوب الرقيق ينسج من وراء المسح الأسود. فالملك يعرض المحاسن ويقول للمحسن: "إن فعلتها جُزيت". وإبليس يعرض القبائح ويقول: "إن فعلتها جُزيت مرموزاً". ومن لا يعرف القبيح لا يعرف الحسن" (3).

(1) محمد إقبال، "ديوان جناح جبريل"، ترجمه عن الفرنسية عبد المعين ملوحي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧، ص ٢١٩ .

(2) الحلاج: "كتاب الطواسين"، حققه وصححه بولس نويال اليسوعي، منشورات جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٢، "طاسين الأزل والالتباس"، ص ١٨ .

(3) المرجع السابق، ص ١٩ .

وفي خطوة هي بمنتهى الجرأة الفكرية والأدبية والمعنوية، أقدم إقبال على قلب الشكوى المتداولة بين الناس في عالم الإسلام من أن الله تخلى عن المسلمين في العصر الحديث (لصالح الأوروبيين والأمريكيين والغرب) لأنهم تخلوا عنه وعن دينه الصحيح وابتعدوا عن سنة رسوله وهجروا شريعته. . إلخ، باتهامه الله بتخليه هو عن دينه في لحظة الحاجة القصوى وبخذلانه لشريعته هو في أسوأ الأوقات وأحلكها وبتركه أمة الإسلام لمصيرها في ساعة الخطر الداهم هذا على الرغم من كل ما فعله المسلمون عبر التاريخ لنشر دينه والجهاد في سبيل الدفاع عنه وتوسيع سلطانه والإعلاء من شأنه. . إلخ. بعبارة ثانية يشكو إقبال ربه إلى ربه (تماماً على طريقة إبليس) لأنه أعطى البشر الدين الصحيح وترك للمسلمين مهمة حمله ونشره وتوسيعه والرفع من شأنه فقاموا بالمهمة بنجاح مذهل، لكنه سمح أخيراً، وفي الوقت غير المناسب أبداً، للكفار والمشركين والأعداء بالنيل من الإسلام والتطاول عليه كما مكنهم من قهر أمة محمد وهزيمتها وإخضاعها لسيادتهم وسيطرتهم مع أن المسلمين حملوا أمانة دينه بجدارة وقاتلوا من أجله ودافعوا عن حرمة بشجاعة لا مثيل لها في التاريخ⁽¹⁾.
ويجد القارئ في النص التالي للمؤرخ حسين أحمد أمين توصيفاً دقيقاً لهذه الشكوى وتحديداً لمصدرها ولكن بلغة الفكر والتحليل

(1) انظر، على سبيل المثال، قصيدة إقبال "الشكوى وجواب الشكوى" المنشورة في كتاب الدكتور علي حسون، "فلسفة إقبال"، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥، ص ٢٠٧-٢٢٠.

هذه المرة بدلاً من لغة الشعر والتأمل الصوفي التي جرى عليها محمد إقبال وبرع بها أيما براعة:

" . والمسلم الحزين مسلم يشعر إزاء ما يجري حوله بالقهر، أو قُل مقهور يظن في نفسه الإسلام. والعبارة في حد ذاتها تحمل من التناقضات ما لا وجه للمصالحة بينها. فالمسلم على حد علمي امرؤ ثبت لديه بالدليل القاطع أن الإسلام دين يصلح لكل زمان ومكان، وأن بإمكانه أن يوفر لمجتمعه (ولغيره) أنجع الحلول لما يواجهه من مشكلات، وللمتمسك بأهدابه سعادة الدنيا والآخرة. والمفروض أن يرى المسلم في غير المسلمين، وإن كثروا، أناساً خليقين بالشفقة والرثاء، وأقواماً أصدق دليل على أن ثقته قد بدأت تتزعزع، وأنه لم يعد يرى في دينه مفتاح المعضلات، ولم يعد يجد في تعاليمه ما ينشده من طمأنينة النفس. وهو دليل أيضاً يمكن أن يتعلق به مخالفوه لإثبات عجزه وعيّه، والتدليل على أن الإسلام ما عاد يكفي، ولا هو بالقادر وحده على أن يسعده ويغنيه"⁽¹⁾.

لهذه الأسباب والاعتبارات كلها تبقى حقيقة جبريل في "الآيات الشيطانية" هي الأصدق والأخطر تماماً بسبب جنونها وهذياناتها وهلوساتها وأحلامها وكوابيسها وتقمصاتها وواقعيتها الجارحة جداً والكاشفة جداً أيضاً. إنها حقاً احتفال عارم بالجنون:

"يخرج عن هذا المؤلف الخائق فينفضح حجم إذعاننا وقبولنا تثلم أحاسيسنا، يظهر لنا كم هو عالم مرفوض ومقيت وخائق

(1) حسين أحمد أمين، "دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك في القرن العشرين" ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٥.

وكم هو عالم لا معقول ولا مقبول وكم هو مفرج ومبك وكم نحن خائفون وخانعون وقابلون. نحن في حاجة إلى الجرأة على الجنون والجرأة على الاعتراف بالجنون. صار علينا أن نكف عن اعتبار الجنون عيباً واعتبار الجنون عاهة اجتماعية. في حياتنا شيء يجنن" (1).

إن انفصام شخصية جبريل ومرضه يفضحان حقيقة أعظم وأكثر خطورة:

"بدأ الإحساس الغريب - أي عاوده - . ظن أنه يتحرك على طريق ستعرض عليه خياراً في أية لحظة الآن بين حقيقتين: هذا العالم وعالم آخر قائم هناك أيضاً ظاهرة ولكنه غير مرئي. شعر بالبطء والثقل وبالابتعاد عن وعيه. أدرك أنه لم تكن عنده أدنى فكرة عن أي من السيلين سيختار، أي عالم سيدخل. رأى الآن أن الأطباء كانوا على خطأ حين عالجوا فيه انفصام الشخصية، لم يكن الانفصام فيه هو، بل في الكون كله" (2).

من هنا تخطتني للدكتور عبد الرزاق حين يدعو رشدي عملياً إلى الاستغناء عن جبريل والاكتماء ببطله الإيجابي صلاح الدين لأن جبريل لا "يتحرك إلا في مجال فانتازي غائب وبين زمن الوحي وزمن العيش في لندن - وذاكرته ذاكرة هذيانية مريضة"، على حد تعبير مقاله. ومن هنا أيضاً تخطتني لحكمة القائل:

(1) ممدوح عدوان، "احتفالاً بالجنون"، دار النديم - الوعي، بيروت، ١٩٨٥،

ص ١٠ .

(2) "الآيات الشيطانية"، ص ٣٥١ .

"فمن جهة يريد "رشدي" أن يشرع أسئلته في وجه المقدس، ومن جهة أخرى يسعى ليتوارى وراء شخصية منحلة تهذي بهتك المقدس ليتجنب مساءلة الرأي العام الذي سيصدمه هذا الهذيان، وليختبئ وراء القول الفني بأن آراء الشخصية وأفكارها ليست بالضرورة هي آراء المؤلف وأفكاره. هذه المراوغة الفنية الفذة التي أجادها نجيب محفوظ أخفق فيها رشدي .. إلخ".

إنها لقراءة بائسة حقاً تلك التي تختزل شخصية مثل جبريل فاريشتا في رواية في مستوى "الآيات الشيطانية" إلى مجرد حيلة تقنية يختبئ وراءها فنان من عيار سلمان رشدي خوفاً من رأي عالم مصدوم لا محالة؟! مع ذلك أقول إنني أعرف جيداً أن الدكتور عبد الرزاق يعرف جيداً أن رواية رشدي تشرع تساؤلاتها الكبرى عن الآلهة والملائكة والأبالسة والنبوة، عن الخير والشر والمقدس والشك والإيمان والاعتقاد والوحي والعالم والإنسان والمعنى عبر شخصية جبريل وخطها وتحولاتها وتقمصاتها وشطحاتها وليس عبر أية حيلة فنية - تقنية قد يستخدمها الفنان هنا وهناك. في الواقع ألم تعالج البشرية عموماً أسئلتها الأكبر ومشكلاتها الأصعب عبر الجنون والانجذاب والعرافة والكهانة والنبوة والرؤى والأحلام والنامات والنبوءات مما كرت بعضه الحكمة الشعبية بقولها على سبيل المثال: "خذوا الحكمة من أفواه المجانين" و"مجنون يحكي وعقل يفهم" وفي اعتقادها بأن المجاذيب والمعتهوين هم "على البركة" وأن من أصابه جنون "صار له لطف أو مس"؟ ماذا لو قرأنا خط جبريل في "الآيات

الشيطانية" على ضوء حقيقة "خذوا الحكمة من أفواه المجانين"، الذين لا يكذبون أبداً كما رأينا، وحقيقة كون مجاذيب هذا العالم ومعتوهوه "مباركين" لأنهم مجاذيب الله؟ هل أغالي كثيراً إن أنا توقعت أن يفهم العقلاء من قراء رشدي ما يحكيه معتوه مثل جبريل فاريشتا وأن يفسروه ويؤولوه على النحو المناسب؟.

ولا بد من تنبيه إلى أن لهذا الأسلوب في مقارنة الموضوع مرجعيته المحترمة في الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية وخاصة فيما يسمى بأخبار "البهاليل" و"عقلاء المجانين" عند الجاحظ وابن خلدون والنيسابوري وأمثالهم⁽¹⁾. ما المانع من أن نعد جبريل فاريشتا عاقلاً من "عقلاء المجانين" هؤلاء بالمعنى القديم للعبارة؟ ألا يفتح لنا هذا أفقاً لمزيد من تعدد القراءات وتنوعها وفقاً لما يدعو إليه الدكتور عبد الرزاق بلحاح في مقاله وفي كتاباته النقدية عموماً؟ لذا لا أعتقد أن التوصيف التالي لمسألة الجنون ومغازيها في الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية يتعد بنا كثيراً عن أجواء أدب رشدي ودلالاته ومقاصده:

"ويمكن القول، إن صوت الجنون في الثقافة العربية - الإسلامية، هو شكل من أشكال الرد الثقافي الذي أنتجه المجتمع العربي تجاه وضع تاريخي تناحري. ولسوف يتضح أيضاً أن المشقفين في المجتمع العربي الإسلامي، من متصوفة ومؤرخين وأدباء وقاصّين ووعاظ، قد استعملوا صوت الجنون، كل من موقعه في شبكة

(1) انظر: محمد حيان السمان، "خطاب الجنون في الثقافة العربية"، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩٣ .

الصراع الاجتماعي، وارتهاناً منه لطبيعة وعيه وممارسته الثقافية، فأدرجوه في مؤلفاتهم في سياق ممارساتهم الثقافية والإبداعية المختلفة. كما أن الأوساط الشعبية العامة، كانت تتداول صوت الجنون، فتبتناه، وتحتفي به، وتشيع محمولاته في المجالس، عبر مثقفيها الشعبيين، ومتوجاتها الثقافية - الأدبية التخيلية - العديدة. وكان المثقفون، والأوساط الشعبية، كلاهما، يضيف إلى هذا الصوت، ويحوّر فيه، بما يتلاءم مع توجهاته ذات العلاقة بحيثيات الصراع ومحددات أطرافه الاجتماعية التاريخية. وبكلام آخر، إن صوت الجنون كان يتعرض، على الدوام، إلى إعادة إنتاج مستمرة، تهدف إلى تقديمه بالشكل والمحتوى اللذين يشفيان غليل القوى الاجتماعية المضطهدة⁽¹⁾.

في هذه المسائل كلها تقدم "الآيات الشيطانية" أطروحات كثيرة وأطروحات مضادة كثيرة أيضاً، تاركة للقارئ مهمة تركيب أطروحاته الأعلى لنفسه وبنفسه وهذا ما افتقده في قراءة الدكتور عبد الرزاق للرواية عموماً وفي تفسيره لحقيقة جبريل وخطه الروائي تحديداً. إن الذي لا يأخذه الزميل الناقد بعين الجهد هنا هو أن الرواية تتعمد عدم تقديم أي معنى متكامل أو تأويل متعمد أو تفسير واضح أو تركيب أعلى جاهز يمكن للقارئ الركون إليه بسهولة أو الاستراحة عنده بيسر. بعبارة ثانية، إن مهمة توليد المعنى وإنجاز التأويل والتفسير والتركيب من خطوط الرواية المتعرجة وأطروحاتها المتعارضة وخطاباتها المتنوعة وحواراتها المتضاربة متروكة للقارئ نفسه كل حسب طاقته وقدرته ورغبته واهتماماته

(1) المرجع السابق، ص ١٢-١٣ .

ومن العبث تماماً محاولة إرجاع هذه الأشياء كلها إلى مشترك واحد أحد وموحد في رواية مثل التي هي بين أيدينا. في الواقع يدفع رشدي في عمله هذا، على ما يبدو لي، مفهوم ميخائيل باختين للرواية الحديثة إلى حدوده التجريبية القصوى مستلهماً خصوصيته وتحرريته وانفتاحه وثرأه إلى ما لا نهاية. ومن المعروف أن باختين كان قد استنتج في أعماله المبكرة عن أدب دوستويفسكي أن صاحب "الجريمة والعقاب" كان أول من حرر شخصاً من رواياته وحواراتها وأطروحاتها وخطاباتها من هيمنة القاسم المشترك الواحد والموحد الذي يفترض بالمؤلف أن يفرضه دوماً عليها. أما النموذج الأعلى للعكس فيتمثل عند باختين في أدب تولستوي عموماً وفي رواياته بصورة خاصة⁽¹⁾.

والآن ماذا عن حكم آخر يطلقه الزميل الدكتور على الرواية وعلى الأجزاء المتعلقة بجبريل وخطه السردي بصورة خاصة بقوله إن:

"الكثير من المقاطع السردية في صيغة فصول الرواية، تتراصف متجاورة متضايقة، دون أية ضرورة داخلية تمنحها تشارطها النسبي وعلبيتها البنائية التكوينية".

(1) انظر: Mikhail Bakhtin, Problems of Dostovsky, s Art المنشورة سنة

١٩٢٩ والذي أعاد باختين نشره موسعاً تحت عنوان:

Problems of Dostoesky's Poetics, edited and translated by cary Emerson, Yniversity of Minessotta press, Minneapolis, 1984 .

يبدو لي أن من يطلب "الضرورة الداخلية" و"التشارط النسبي" و"العلية البنائية التكوينية" في عمل مثل "الآيات الشيطانية" يكون كمن يطلب وحدة المكان ووحدة الزمان ووحدة الفعل في المسرح الطليعي المعاصر! لكن لأن رشدي يدفع بمفهوم باختين للرواية الحديثة إلى حدوده التجريبية القصوى، كما ذكرت، تقحمنا روايته "الآيات الشيطانية"، أكثر من أية رواية أخرى له، في كرنفال لا ينتهي من النسبية المتبادلة في زوايا الرؤية، في المنظورات الخاصة، في المصالح الآنية، في الأزمنة المتداخلة، في الأمكنة المترابكة، في الخطابات المتصادمة، في الحقائق المتبدلة، في الأفعال المؤثرة، في الأحلام الخارقة، في الهويات المهزوزة، في الذوات الساعية، في طرائق السرد المألوفة وغير المألوفة... إلخ. في هذا العالم المسحور، من جهة، والكاشف جداً، من جهة ثانية، والحقيقي أكثر من الحقيقة، من جهة ثالثة، علينا أن نعلق ليس قانون التناقض - بمعناه التقليدي - فحسب، بل وقوانين الهوية والثالث المرفوع والضرورة النسبية معه أيضاً إن نحن أردنا الخروج بشيء ما حقاً من الدوام النسبية الأدبية - الروائية - البختينية التي يدعونا سلمان رشدي إلى مائدتها ووليمتها (يذكر دانتي في مكان ما من ملحمة الشعرية أن "كل تناقض هو صادق وكاذب في الوقت ذاته").

بعبارة أخرى، نحن لا نتعامل هنا مع الحقيقة السببية بمعناها القطعي العادي أو مع مفهومها الشئني والتشبيهي الثابت بل مع

معناها في الصيرورات والتحويلات والحركات والتحركات والظروف والأوضاع والأحداث والأشخاص والذوات والأفعال التي تتصف كلها بميوعة "اللاشيء" وسيلانه. لذا لا شيء في الرواية يبدو تماماً على ما هو وكل شيء هو على ما عليه أيضاً زائد ما كان يمكن له أن يكونه سابقاً وما يمكن أن يصير إليه لاحقاً. مرة ثانية أعود لأقول: يدفع رشدي حدود هذا النوع من الكتابة إلى مداه التجريبي الأقصى في "الآيات الشيطانية" عبر مزيج خاص من تقاليد السرد الحكائي العربي والهندي، من ناحية، والأسلوب الجويسى والفوكنري المعاصر من جهة ثانية.

في حج العرافة عائشة ومعجزة انشقاق بحر العرب ظل الناجون من الغرق يعتقدون حتى آخر أيامهم أن الذين ماتوا غرقاً قد وصلوا إلى مكة (على الرغم من الجثث التي قذفها البحر على الشاطئ) وأنه لسبب ما لم تسد الطريق إلى الكعبة إلا في وجوههم هم وحدهم. هل نجوا من الغرق، إذن؟ أم كتب لهم عمر جديد؟ أم حرموا من نعمة الحج؟ أم ذهبوا ضحية الجهل والوهم والشعوذة؟ أم. أم.؟ في أدب رشدي يبقى هذا النوع من الأسئلة مفتوحاً، أما الأجوبة فمتروكة للقارئ كل حسب فطنته وحساسيته وتجربته وثقافته وقناعاته وليس من الضروري أن تكون أجوبة رشدي واجتهاداته هي الأفضل أو الأدق أو الأصح. أي مرة ثانية نحن أمام دعوة مفتوحة، في هذا النوع من الأدب، للقارئ لأن يكون شريكاً فاعلاً في إنتاج المعنى لا أن يبقى مجرد متلق منفعل لمعان جاهزة مسبقاً⁽¹⁾. حين حمل جبريل

فاريشتا عدوه على طريق الصفح والغفران وسط حطام مقهى الشاندار المحترق خَيْلٌ لصلاح الدين شامشا، في تلك اللحظة، أن النار انشقت أمامهما انشقاق البحر الأحمر إلا أن صلاح الدين بقي حتى آخر يوم في حياته لا يعرف تماماً ما إذا كانت النار قد انشقت فعلاً أم أنه هَلُوسٌ بذلك بحكم كونه معلقاً بين الحياة والموت وقتها(*) . وحين جاءت المنية الساردار خصم العرافة عائشة وعدو حجها، غرق هو أيضاً غرقاً رمزياً في معجزة بحر العرب على النحو التالي:

" . وبعدها انسكب البحر فوقه، وكان في الماء إلى جانب عائشة. "إفتح"، كانت تصرخ: "إفتح على مصراعيك!". "إفتح"، صاحت. "إفتح"، قالت. أعلّق. كان يغرق. كانت تغرق هي أيضاً. رأى الماء يملاً فمها، سمعه يُقرُفُ مستسرباً إلى رثيها. وبعدها، شيء ما في داخله رفض ذلك واختار اختياراً آخر. وفي اللحظة التي انكسر

(1) في حادثة الغرق الحقيقية التي وقعت سنة ١٩٨٣ في باكستان، أقدمت الشرطة على اعتقال الناجين من أتباع العرافة الشعبية نسيم فاطمة - قائدة الحج - المعجزة سيراً على الأقدام عبر بحر العرب، بتهمة: محاولة مغادرة البلاد دون تأشيرة خروج! واضح أن الواقع كثيراً ما يكون أكثر سحرية من سحر بيان رشدي الذي يقول بدوره في "هارون وبحر الحكايا" إنه إذا كان العالم الحقيقي مليء بالسحر، ما المانع في أن تكون عوالم السحر حقيقة؟ (ص ٥٠).

بالنسبة للتفاصيل الواقعية لحادثة الحج - المعجزة وموت الكثيرين غرقاً نتیجتها بالإضافة إلى اعتقال الحجاج الناجين بتهمة الشروع بمغادرة البلاد بلا تأشيرة خروج. انظر كتاب المؤرخ أحمد أكبر:

Ahmed Akbar, Islam, Ethnicity and Leadership in south Asia, Oxford University press, Delhi, 1988, P. 56 .

(*) "الآيات الشيطانية"، ص ٤٦٨ .

■ عبد الرزاق عيد - سلمان رشدي في المنظور العربي ■

فيها قلبه، فَتَحَ. انشطر جسمه من حنجرتَه حتى أُرْبَيْتَه كي تستطيع الوصول عميقاً في داخله، والآن أصبحت هي مفتوحة، كلهم أصبحوا كذلك، ولحظة فَتَحَهم انشقت المياه فمشوا إلى مكة عبر أرض بحر العرب" (*).

هل شارك الساردار في المعجزة على الرغم من كل شيء؟ أم أنه هلوس لحظة مفارقتَه الحياة مستعيداً بذلك تجربة قاسية قتلت زوجته وأبناء ضيعته وقلبت حياته، فجأة، رأساً على عقب؟ تبقى الأجوبة عند القارئ في أدب رشدي.

يحضرني هنا مثال آخر منتزع من المقابلة الجميلة والمطولة التي أجراها الناقد اللبناني عباس بيضون مؤخراً مع محمود درويش⁽¹⁾ وتناول فيها، من جملة ما تناول، بعض قصائد ديوان "لماذا تركت الحصان وحيداً؟" والتي وردت فيها عبارة: "سنختار سوفوكل قبل امرئ القيس". شرح عباس بيضون للشاعر فهمه وتفسيره لهذه العبارة على النحو التالي:

"وجدت رابطاً بين امرئ القيس والوقوف على الأطلال، وصلة بين سوفوكل والتراجيديا. فالأول في مرحلة الغناء، مرحلة النوستالجيا وتتبع الأثر، والثاني في مرحلة الامتثال للمصير التراجيدي. وتفضيل سوفوكل تفضيل على هذا الامتثال"⁽²⁾.

(* المرجع السابق، ص ٥٠٦-٥٠٧.

(1) انظر مجلة "الوسط" الأعداد ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، تاريخ ٢٥ / ٩ و ١٠ / ١٩٩٥.

(2) مجلة "الوسط"، عدد ١٩٣، ١٩٩٥/٩/٢٥، ص ٥٣.

لكن محمود درويش أكد لمحاوره أنه لم يقصد شيئاً من هذا حين خط تلك العبارة وعلق على ذلك بقوله:

"أتمنى أن أكون قصدت ذلك. قد أكون قصدته في لا وعيي.
تعرف أننا لا نفهم كل ما يتسرب منا. لكنني أقبل هذا التفسير، لو
كنت عرفته من قبل لتبينته"⁽¹⁾.

أما ما قصده الشاعر وقتها فمشروح في المقابلة عبر السؤال
والجواب التاليين:

"بيضون: في قصائد الديوان نقرأ: "سنختار سوفوكل قبل امرئ
القيس". هذه عبارة لها معنى ويثيرنا معناها. ما المقصود بها؟
درويش: القصيدة التي اقتطفت منها هذه العبارة تنحرك أولاً في
أجواء كنعانية. ثم تنتقل إلى اختلاط الذات بالآخر على هذه
الأرض. وتسمى بتسامح وكرم إلى إجراء موازنة في علاقة الأنا
بالآخر، وتوسيع الهوية الثقافية، حتى الشعرية منها، إلى ما هو
أبعد من الذات العربية. سوفوكل كما هو معروف سبق امرأ
القيس. وأنا من الذين تشغفهم فكرة أن يكون الشعر الإنساني
نشيداً واحداً يتقلب على كتابته شعراء كثيرون. سوفوكل كما
تعلم أجرى تعديلاً على التراجيديا الإغريقية، خفف فيه من
صرامة تدخل الآلهة في المصير الإنساني. الشعر واحد بلاهوية
وبلا لغة سوى الشعر، ولا مانع عندي بالتالي من اختيار سوفوكل
على امرئ القيس. لا أقصد بذلك محاكمة امرئ القيس، لأنه
اختار قبصر وهذا موجود في نصوص أخرى. لكنني في النسب
الشعري لا أجد مانعاً من أن أكون من سلالة سوفوكل"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

والآن، هل من الضروري أن يكون إما محمود درويش أو عباس بيضون على حق؟ أي الاجتهادين هو الأفضل والأصح في فهم العبارة وتفسيرها؟ هل من ضرورة تحتم هنا تفضيل جواب الشاعر على جواب الناقد على جواب القارئ أم العكس؟ أعتقد أننا نسيء كثيراً إلى الأدب والنقد (ولأنفسنا أيضاً) إن نحن تناولناهما بتلك العقلية التشيئية الجامدة التي تصر على إجابات قاطعة ونهائية عن هذا النوع من الأسئلة والتساؤلات. أنا نفسي فهمت عبارة محمود درويش بصورة قريبة نوعاً ما من إichاءات تأويل عباس بيضون لها لكنني في الوقت ذاته أقول مع محمود درويش: أقبل التفسير الآخر أيضاً و"لو كنت عرفته من قبل لتبنيته" لأن ثراء عبارة الشاعر يكمن في قبولها الفهمين معاً وما هو أكثر بكثير منهما.

V

تبقى بعض الملاحظات الأخيرة المتعلقة بمفهوم معين طرحه الدكتور عبد الرزاق ويتناول الوظيفة التي يفترض في مؤلفات مثل "الآيات الشيطانية" وكتاب "ذهنية التحريم" أن يكونا قد أدياها، وفقاً لرأيه واجتهاده. لذا يؤكد الزميل الدكتور عند نقطة معينة في مقاله أنه سيركز:

"على الآثار الخارجية للرواية وتفاعلاتها المتصلة بالوظيفة التي أدتها ودرجة راهنتها وأولويتها من منظور سوسيو معرفي - دلالي .

ينطلق من أن فعل القراءة وإعادة إنتاج النص في علاقته بأفق
انتظار القارئ لا يقل أهمية بالنسبة للنص، عن إنتاج علاقات
النص ذاته الذي ناقشناه آنفاً.

ما المقصود بـ "الوظيفة" في هذا الكلام؟ يشرح الدكتور
عبد الرزاق أنه معني، أولاً، "بالوظيفة الاجتماعية والفكرية
لـ "الآيات الشيطانية" وفق الإشكالية المركزية للوضع العربي
الراهن" وثانياً، "بالأداء الوظيفي لرسالة الفكر وقدرته على إنتاج
الوعي المطابق بواقعه". و"إنتاج الوعي المطابق يستدعي أول ما
يستدعيه تحديد استراتيجية الأولويات التي يطرحها الواقع على
الفكر، أو ما يسمى باللغة السياسية تحديد الرئيسي والثانوي في
لحظة تاريخية محددة". أما هذه "الاستراتيجية فتنتقل أول ما
تنتقل من استراتيجية مدرسة القارئ بوصفه مستهلكاً ومنتجاً
للنص في آن واحد...". ولا تفوت الكاتب هنا الإشارة إلى أن
الإنجاز الجاد لهذه الوظيفة يتطلب مستوى عالياً من "الدهاء" الذي
يفترض أن يتحلى به المفكر أو الأديب أو المثقف المتوقع منه دوماً
"تحديد استراتيجية الأولويات التي يطرحها الواقع على الفكر"
وعلى "إنتاج الوعي المطابق بواقعه".

وكي يتمكن الزميل الناقد من قياس رواية رشدي (وكتاب
"ذهنية التحريم" معها) بهذا المقياس، يميز بحددة بين ما يسميه بـ :
(١) "الإسلام الأصولي النكوصي الظلامي الذي يرتد على
كل قيم الإصلاح والتنوير التي أرساها أعلام النهضة الإسلامية".

(٢) الإسلام الرسمي الذي تصوغ صورته الأنظمة التابعة للغرب والذي " لا يختلف عن الإسلام السياسي (الأصولي الظلامي) لأنه بمدارسه وجامعاته ومؤسساته الثقافية والإعلامية يكرس الخطاب (الأصولي) نفسه: الإسلام صالح لكل زمان ومكان، الإسلام دين ودولة. . إلخ " .

(٣) " الإسلام الشعبي الوطني " الذي أخذ يشكل في اللحظة الحاضرة الملجأ الروحي الأخير للشعب، على ما يبدو، بعد الانهيارات الكبرى التي شهدتها العقد الحالي من القرن العشرين وبعد الهزائم العسكرية والسياسية الكبرى التي لحقت بالأمة. وبما أن " من حق الشعب البحث عن الأمان الروحي " ، في مثل هذه الظروف الكارثية، أخذ الدين يشكل " الملاذ الروحي " الأخير له كما أصبح وحده مصدر "أمانه الوجداني " المتبقي و" ظهر تراث الأمة وكأنه خيمة نفيها الأخيرة " ، على حد تعبير الدكتور عبد الرزاق. أما النتيجة المركبة التي خلص إليها فتقول:

أولاً، إن رواية رشدي (وكذلك كتاب " ذهنية التحريم ") قد أدت وظيفتها جيداً بضرب الإسلام الشعبي الوطني عبر نقدها للمقدس، هذا الإسلام "المستههدف اليوم من قبل الغرب، الأمريكان بالدرجة الأولى، لأن الإسلام الشعبي يشكل اليوم العنصر الأساسي للهوية التي يراد تدميرها، بعد إخفاق النضال التحرري الوطني الذي قاده القوميون واليساريون " .

ثانياً، " إن نقد المقدس في الرواية، ووفق القراءة التي قدمها الدكتور العظم، لم يكن إلا هتكاً للمقدس الديني الشعبي " بدل أن يكون " هتكاً للمقدس الرسمي (السلطوي الأمريكي) وللمقدس الأصولي " مما سمح، بالتالي، للإعلام الغربي باستغلال الفرصة وسوق الجميع " إلى ثقافة الفتنة " .

ثالثاً، " إن معركة المثقف الوطني الديموقراطي الراديكالي بحق، هي المعركة التي تبدأ مع مقدسات السلطة ومقدسات الأصولية الظلامية التي هي الوجه الآخر للعنف السلطوي، وليست المعركة مع مقدسات الشعب " ، أي أنها ليست مع ذلك الدين أو ذلك الإسلام الذي " بقي حيث يجب أن يبقى في صدور الناس كنفثة مقهورة ترسل إلى السماء احتجاجاً على الأرض، الأرض الإسلامية التي زرعتها حكامها خيانة ودناءة وظلماً وجوراً " .

أما نموذج " المثقف الوطني الديموقراطي الراديكالي بحق " الذي يقدمه الدكتور عبد الرزاق فيتشخص، أولاً في طه حسين الذي نجح في " تفكيك منظومة المقدس " وفي " إثارة الشكوك والتساؤلات في قلب المقدس الرسمي السلطوي والمقدس الأصولي الظلامي " دون المساس بالمقدس الشعبي الوطني، ثانياً في نجيب محفوظ الذي أوغل بعيداً هو أيضاً " في تساؤلاته حول اليقينيات الكبرى " . ويرى الدكتور بأن رشدي قصر في روايته تقصيراً فادحاً عن مستوى " الدهاء " الذي تحلى به كل من طه حسين ونجيب محفوظ (وأشباههما) عند تناولهما المقدس نقداً وتفكيكاً وتعرية

على النحو المذكور، وكان من الأفضل له، كأديب وطني ديموقراطي راديكالي موهوب، أن يقتدي بمثالهما. أي أن المطلوب من رشدي هو رواية قادرة "على تفكيك المقدس من داخله عبر زرعه بالغام الأسئلة الكبرى التي تزعزعه من جذوره"، على طريقة نجيب محفوظ مثلاً، دون أن تتيح الفرصة، في الوقت نفسه، للغرب وماكينته الإعلامية الهائلة لاستغلال ذلك كله في سبيل إنتاج الفتنة وثقافتها.

لا شك عندي أن عدداً لا بأس به من المفكرين الكبار والكتاب المؤثرين والأدباء الموهوبين:

(أ) يعملون على تفصيل إنتاجهم الفكري والأدبي والثقافي بما يتناسب مع تحدياتهم المسبقة لـ "استراتيجية الأولويات التي يطرحها الواقع على الفكر" ومع تمييزهم الدقيق بين "الرئيسي والثانوي في اللحظة التاريخية" الراهنة. (ب) يتقيدون بوعي كامل "بالأداء الوظيفي" المناسب لرسالة الفكر والأدب والثقافة وبقدرتها كلها "على إنتاج الوعي المطابق بواقعه"، وفقاً لتقديراتهم. (ج) يجهدون بكل أمانة لإنجاز "الوظيفة" التي يعتقدون أنه على هذا النوع من الإنتاج الثقافي والفكري والأدبي العالي أن يقوم بها في "مدرسة القارئ" وفي مدرسة "الآثار الخارجية" لأعمالهم وبحوثهم وإبداعاتهم. ولا شك عندي كذلك أن الاضطلاع بمسؤولية استكمال مثل هذا البرنامج يحتاج إلى مستوى رفيع من "الدهاء" والمكر أيضاً لإنجاز المهمة المطلوبة على أفضل وجه ممكن.

تكمُن المشكلة في هذا النموذج للإنتاج الفكري والثقافي والأدبي المتعامل مع "الإشكاليات المركزية للوضع العربي (وغير العربي) الراهن" في النزعة الدفينة التي ألسها في مقال الدكتور عبد الرزاق (وفي بعض كتاباته الأخرى) إلى تحويله من نموذج إلى ما يشبه القالب الحديدي الذي على المفكر أو الأديب أو المثقف أن يلتزم به وبحدافيره إذا كان له أن يصنف في عداد المشاركين في "معركة المثقف الوطني الديموقراطي الراديكالي بحق" بدلاً من عداد المنتسجين لـ "ثقافة الفتنة" والمزودين للإعلام الغربي بالمادة الخام اللازمة لإثارة "الفتنة الثقافية" وإشاعتها. أضف إلى ذلك أن صفة "الدهاء" التي يشترطها الدكتور عبد الرزاق في المتعاملين بنجاح مع "الإشكالية المركزية للوضع العربي الراهن" من مفكرين وأدباء (وينصح رشدي بالاستزادة منها) قد تكون مطلوبة، بلا ريب، في كثير من الأحيان ومحمودة في بعض الكتاب ولكن دون أن ننسى أنها تتحول أيضاً إلى محض نفاق في أحيان أخرى وإلى نقيصة بشعة لدى كتاب من نوع آخر. بعبارة أخرى لا يلزم هذا النوع من الدهاء إلا أصحابه ممن برعوا فيه إما نتيجة موهبة طبيعية أو نتيجة مهارة مكتسبة كما أن غيابه عند روائي مبدع مثل سلمان رشدي لا ينتقص من أهمية أدبه أو مرارة سخريته أو دقة نقده أو عمق التزامه "بالإشكاليات المركزية" لبلاده. ما زلت أعتقد كذلك أن المجال يجب أن يبقى مفتوحاً أمام الأديب أو المثقف أو المفكر، في لحظة من اللحظات، ليقول ما عنده عن "الإشكالية المركزية

للوضع العربي (وغير العربي) الراهن " بقوة وحرية ووضوح وصراحة وجرأة وقسوة بمعزل عن اعتبارات الاستراتيجية والتكتيك والأولوية والوظيفة والدهاء والمكر وما شابههما من مصانعة ونفاق ورياء . ويوم تغيب هذه اللحظة نهائياً عن حياتنا وتنسد هذه الفسحة قليلاً في ثقافتنا تكون ستارة سوداء قد أُسِدَّت على "الإشكالية المركزية للوضع العربي الراهن" وعلى ثقافة هذا الواقع وفكره وأدبه وعلمه وتقدمه ومستقبله .

يبدو لي من التعسف والظلم بمكان اتهام رواية رشدي بتوجيه ضربة من الصميم إلى "الإسلام الشعبي الوطني" بدلاً من تناولها الإسلام الرسمي السلطوي من جهة والإسلام الأصولي الظلامي، من جهة ثانية، بالنقد والفضح والتفكيك . أجدني محرراً هنا لاضطراري تكرار معلومات يفترض أنها أصبحت معروفة وشائعة عند كل من قرأ نصاً ما لرشدي أو حتى تعليقاً ما على أدبه . يعرف الدكتور عبد الرزاق قبل غيره أنه ما من روائي ساخر في الربع الأخير من هذا القرن وجه ضربات نقدية لاذعة إلى دين السلطة ومقدساته وتبعيته وأمريكته وعنصريته وطبقيته وهمجيته وطفغيانه كما فعل سلمان رشدي في "أطفال منتصف الليل" و"العار" و"الآيات الشيطانية" . كما يعرف الزميل، على ما أعتقد، أنه ما من فنان برع في الرسم الكاريكاتوري الأدبي البراعة كلها في الربع الأخير من هذا القرن وتناول بالهجاء والتهمك والفضح نكوصية الدين الأصولي - بشقيه الإسلامي والهندوسي -

وظلاميته وأوهامه وعقده وأشخاصه كما فعل رشدي في رواياته المذكورة آنفاً كما في روايته الجديدة "زفرة المغربي الأخيرة"⁽¹⁾. أضف إلى ذلك أن أية مراجعة سريعة لأدب رشدي ستبين أن الضربات التي وجهها رشدي إلى الدين الشعبي لم تتناول على الإطلاق جانبه الوطني أو الروحي أو الإيمانى أو الوجداني وإنما أولاً، جانبه الخرافى، الخزعبلاتى، الوهمى، الظلامى، التعمياتى وثانياً، جانبه الماضوى المعطل الذى حوّل شخصاً وأبطلاً ونصوصاً تعود كلها إلى ما قبل أربعة عشر قرناً إلى المقياس المطلق لشرعية أو عدم شرعية كل ما هو حاصل اليوم وإلى أوثنان تحجب عنا المصالح الكبرى للحاضر الراهن وتحرف نظرنا عن المهمات الجسام التي يفرضها المستقبل الآتى. وحادثة البيت العمومى "حجاب" في "الآيات الشيطانية" (التي ركز الدكتور عبد الرزاق على شجبها واستنكارها في نقده للرواية ولكتاب "ذهنية التحريم") هي عملياً، وعلى مستوى معين من الفهم والتحليل، تحطيم أدبى ومعنوى وتنويرى لهذا النوع من الأوثان، كما سنرى لاحقاً. وكان يفترض بالزميل أن يكون أكثر الناس تنبهاً لهذه النقطة ووعياً بأهميتها لأنه هو الذي كتب الأسطر الجميلة والدقيقة التالية في تشخيص المعضلة التي نواجهها جميعاً:

"نحن العرب أكثر أمم الأرض قاطبة حفاوةً واهتماماً بالتراث، حتى نكاد أن نكون ممثلي الماضي بدون منازع، فكلما ادلهمت

(1) Salman Rushdie, The Moor's Last Sigh, Honathan Cape, London, 1995.

الخطوب، واضطربت الرؤى والخيارات، نهض لنا الماضي بوصفه الحيز الوحيد الذي تملكه في شريط الزمن الهارب من بين أصابعنا، وبوصفه المعطى المعرفي الذي يحتوينا بتراثيته، دون أن نحتويه بوصفه لحظة ثقافية مندرجة بالبنية الثقافية الوطنية المعاصرة. حتى غدا هذا التراث محدداً أساسياً لإشكالية الفكر العربي المعاصر منذ عصر النهضة حتى اليوم، فنحن نعيش داخله مثلما يعيش داخلنا، ونفكر بأدواته مثلما يفكر في أدواتنا، ونقيس حاجاتنا وخياراتنا على نموذج، دون أن يتكيف نموذج مع خياراتنا وحاجاتنا، بل يمكن القول إن الفتنة الكبرى (مقتل عثمان - صراع علي ومعاوية) لا تزال تمارس فتنتها حتى يومنا هذا، لكونها تمارس استقطاباً للملل والنحل على ضوء ما أنتجته منذ حوالي ١٤٠٠ سنة. ولذا ليس عبثاً أن نتحدث عن مسألة تراثية قارة في بنية الفكر العربي تعيد إنتاج إشكاليته في خبايا وزوايا حياتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية.⁽¹⁾

أما بالنسبة للدين الشعبي في جانبه الوطني ومن حيث هو "ملاذ روعي" و"أمان وجداني" وتوجه معنوي في الحياة و"نفثة مقهورة" يرسلها الناس "إلى السماء احتجاجاً على الأرض الإسلامية (وغير الإسلامية أيضاً) التي زرعها حكامها خيانة ودناء وظلماً وجوراً" فلن نجد عبارة واحدة في أدب رشدي تناله بسوء أو نقد أو تجريح مع التأكيد بأن أحداً في المرحلة الحاضرة لم يبرع براعة رشدي في هجاء الحكام الذين زرعوا بلادهم وأوطانهم

(1) د. عبد الرزاق عيدن "طه حسين: العقل والدين: بحث في مشكلة المنهج"، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سورية، ١٩٩٥، ص ١٢٣.

"خيانة ودناءة وظلماً وجوراً" وتبعية وفضحهم في رواياته. بعبارة ثانية، إن التزام أدب رشدي بالحلم الذي حمله "أطفال منتصف الليل" في البلدان المستعمرة وبأهداف "النضال التحرري الوطني الذي قاده القوميون واليساريون" وطموحاته وأغراضه هو الذي حفزه على تعرية الذين هدروا ذلك الحلم وباعوا وطنيته وابتدلوا تحرريته حفاظاً على مصالح طبقية ضيقة ودفاعاً عن مكاسب مادية وسلطوية آنية ومحدودة.

وسأضع بين يدي القارئ في الأسطر التالية نصاً مأخوذاً من "الآيات الشيطانية" يبين كيف أن الاعتبارات التي ألح عليها الدكتور عبد الرزاق بالنسبة لظاهرة الدين الشعبي، خاصة بالنسبة لعلاقتها المعقدة بالعمل السياسي المباشر، لم تكن غائبة عن أدب رشدي ووعيه واهتماماته في يوم من الأيام. أثناء جلسات الإعداد للظاهرة الشعبية الكبيرة في بومباي (بقيادة الحزب الشيوعي الهندي "الماركسي") والتي شارك فيها شامشا مع زينات وكيل ومجموعة من المناضلين والمثقفين والفنانين اليساريين، تأخذ علماً بالأحاديث والأحداث التالية:

"كان جورج ميراندا قد انتهى من إعداد فيلم وثائقي عن الطائفية أجرى فيها مقابلات مع مسلمين وهندوس من جميع الآراء. طالب أصوليو كلا الدينين بأمر قضائي يمنع عرض الفيلم. ومع أن محاكم بومباي ردت هذا الطلب فقد رُفعت القضية إلى المحكمة الدستورية العليا. ضرب جورج الطاولة بقبضتين متشائميتين صائحاً "ليس عندي الكثير من الأمل لأنه هذه هي المحكمة

الدستورية العليا الشهيرة شهرة الشهبانو"، ملمحاً إلى القضية سيئة الصيت التي حكمت فيها المحكمة، تحت ضغط المتطرفين الإسلاميين، بأن دفع نفقة الزوجة المطلقة يتعارض مع إرادة الله جاعلة بذلك قوانين الهند أكثر رجعية حتى من الباكستان. واختارت صديقة جورج الجديدة (اسمها سواتيلكها). هذه اللحظة لتهاجم (الشاعر) بهوين غاندي لنشره مجموعة شعرية عن زيارته إلى "مدينة المعابد الصغيرة" غاغاري في جهاتس الغربية. وكان اليمين الهندوسي قد انتقد المجموعة. أعلن أحد البروفيسورات المرموقين من جنوب الهند أن بهوين "فقد حقه في أن يدعى شاعراً هندياً". لكن الدين أغرى بهوين إلى التباس خطر، في رأي المرأة الشابة سواتيلكها. دافع بهوين عن نفسه. "قلت إن المحصول الوحيد في غاغاري هو الآلهة الحجرية المستخرجة من (مقالع) التلال. تكلمتُ عن قطعان من الخرافات ترعى على جوانب التلال حاملة أجراس الأبقار المقدسة وهي ترن. ليست هذه صوراً ملتبسة". لم تقتنع سواتيلكها. "في هذه الأيام، أصرت، يجب أن نحدد مواقفنا بوضوح تام. الاستعارات كلها قابلة لسوء التأويل". عرضت نظريتها: كان المجتمع ينتظم وفقاً لما أسمته بـ الروايات الكبرى: التاريخ، الاقتصاد، الأخلاق. أدى نمو جهاز الدولة الفاسد والمغلق على نفسه في الهند إلى "استبعاد الجماهير من المشروع الأخلاقي". نتيجة ذلك، طلبت (الجماهير) تعويضها الأخلاقي في الرواية الكبرى الأكثر قدماً، أي الإيمان الديني. لكن الشيوقراطية وبعض العناصر السياسية تتلاعب الآن بهذه الروايات بصورة ارتدادية تماماً. قال بهوين: "لا أستطيع إنكار وجود الإيمان في كل مكان. إذا كتبنا بأسلوب يحكم مسبقاً على هذا النوع من المعتقد بأنه

واهم أو باطل، بصورة من الصور، ألا نكون قد وقعنا في النخبوية عندئذ، في فرض نظرتنا إلى العالم على الجماهير؟". صاحت سواتيلكها بازدراء: "خطوط المعركة ترسم في الهند اليوم: علماني مقابل عقلاني، النور مقابل الظلام والأفضل لك أن تختار مع أي من الطرفين أنت". وقف بهوين ليغادر غاضباً. هدأته زينات: "لسنا في وضع يحتمل أية انشقاقات. أمامنا تخطيط لا بد من إنجازه". جلس مرة أخرى، قبلته سواتيلكها على خده. آسفة، قالت: "دراسة جامعية زيادة عن اللزوم، كما يقول جورج دوماً". في الواقع، أحببت القصائد. كنت أناقش قضية لا أكثر. ومرت الأزمة⁽¹⁾.

بعبارة ثانية، يبدو لي أن ما تناضل من أجله زينات وكيل في "الآيات الشيطانية" يمثل الوسط الشعبي الحقيقي الذي يبحث عنه الدكتور عبد الرزاق بين بلاء ما يسميه هو بـ خيار "البوط" وتحديثه السلعية "الكباريهاتية" المعجمة، من جهة، وبين البلاء الارتدادى النكوصي الآخر المتمثل حالياً في الخيار الأصولي الطائفي الظلامي، من جهة ثانية. ويعرف الزميل الدكتور قبل غيره أن أدب رشدي لم يقصر للحظة واحدة عن هجاء البلائين معاً وفضحهما وتعريتهما بلا رحمة أو مداراة أو مناورة.

والأطرف من ذلك كله هو أن رشدي الأديب تنبأ بدقة، على عادته، بالاتهامات الشنيعة التي ستوجه إليه من جانب أصحاب تلك البلاءات وممثليها وأصحابها، كما في الفقرات التالية من الفصل الثاني من رواية "العار":

(1) "الآيات الشيطانية"، ص ٥٣٦-٥٣٧ .

"منذ زيارتي الأخيرة إلى كراتشي قضى صديقي الشاعر شهوراً عديدة في السجن: لأسباب اجتماعية (كما يقال)، أي لأنه كان يعرف شخصاً يعرف بدوره شخصاً آخر هي زوجة ابن العم اللّزم بالمصاهرة لشقيق زوج أم شخص كان يمكن أن يكون أو لا يكون قد سكّن في شقة مع شخص يهرب الأسلحة إلى مقاتلي العصابات في بلوشستان. في الباكستان بإمكانك الوصول إلى أي موقع عبر المعارف بما في ذلك السجن. ما زال صديقي يرفض الكلام عن ما جرى له أثناء تلك الشهور، لكن آخرين أعلموني بأن حاله ظلت سيئة لفترة طويلة بعد إطلاق سراحه. ذكرو أيضاً أنهم علقوه مقلوباً من كاحليه، وضربوه وكأنه وليد جديد لا بد من دفع رثيته للعمل حتى يتمكن من الصراخ. لكنني لم أسأله ما إذا كان قد صرخ، أو ما إذا كانت أية قمم جبلية قد ظهرت له مقلوبة رأساً على عقب من إحدى النوافذ. ربما كان على صديقي أن يروي هذه القصة، أو قصة أخرى، قصته هو لكنه لم يعد يكتب الشعر. بدلاً عن ذلك، هأنذا أختلق ما لم يحدث لي، وستلاحظون أن بطلني (*) كان قد علّق من كاحليه وأن اسمه هو اسم شاعر مشهور لكن دون أن تكون أية رباعيات قد سألت أو هي مرشحة لأن تسيل منه.

يا دخيل! يا متتهك الحرّات! هذا موضوع لا حقّ لك في طرفه! أعرف ذلك: إن أحداً لم يعتقلني في يوم من الأيام كما أنه من غير المرجح على الإطلاق أن يفعلوا ذلك. يا معتدي! يا قرصان! نرفض سلطتك، نعرفك، بلغتك الأجنبية التي تتلفح بها كالراية: تتكلم عنا بلسانك المراوغ، هل عندك ما تقوله سوى الأكاذيب؟

(*) أي عمر خيام شاكيل في رواية "العار".

أجيب بمزيد من الأسئلة: هل نعتبر التاريخ مُلكاً للمشاركين فيه وخدمهم؟. هل الموتى وخدمهم قادرين على الكلام؟.

أما بالنسبة لأفغانستان: قابلت في حفل عشاء بعد عودتي إلى لندن دبلوماسياً بريطانياً رفيع المستوى، اختصاصي محترف في ذلك الجزء من العالم الذي أنا منه، قال: من المناسب تماماً، بعد أفغانستان، أن يدعم الغرب ديكتاتورية الرئيس ضياء الحق. ما كان يجب أن يطلع خلقي، لكنه طلع وبدون أية جدوى.

أثناء قيامنا عن الطعام قالت لي زوجته - سيدة هادئة لطيفة كانت قد صدرت عنها أصوات تهديئية - قل لي: لماذا لا يتخلصون في باكستان من ضياء الحق بالطريقة المعهودة، وأنت سيد العارفين؟ الخجل، أيها القارئ العزيز، ليس وفقاً على الشرق⁽¹⁾.

أما بالنسبة للمقارنة التي عقدها الدكتور عبد الرزاق بين "الدهاء" الذي مارسه طه حسين (ونجيب محفوظ أيضاً) في تناوله للمقدس وتفكيكه له وقول الحقيقة عنه وبين غياب هذا النوع من التكتيك الماكر لدى رشدي عند معالجته الموضوع ذاته، فأقول ما يلي:

(١) يصعب علي التصديق أن الدكتور عبد الرزاق يعتقد حقاً بأن الوصفة الاستراتيجية والتكتيكية التي كانت مناسبة لشروط الأديب طه حسين وظروفه في زمانه ومرحلته يمكن أن تنقل بهذه السرعة والخفة لمحاكمة الروائي سلمان رشدي في ظروف مغايرة

(1) "العار"، الأصل الإنكليزي، ص ٢٨-٢٩، (التشديد في النص الأصلي) Salman Rushdie, Shame, picador, London, 1984, pp. 28-29 .

وزمان مختلف ومرحلة من نوع آخر وشروط مستجدة وكأن شيئاً جديداً حقاً لم يطرأ على تاريخ القرن العشرين بين صدور كتاب "في الشعر الجاهلي" في مصر سنة ١٩٢٦ ونشر رواية "الآيات الشيطانية" في بريطانيا سنة ١٩٨٨! قد يكون جديد رشدي هنا هو اجتهاده الضمني بأنه مع اقتراب نهاية القرن العشرين وعلى ضوء واقع إسلامي وعربي وعالم ثالثي هو "أشد كابوسية وعبثاً وسوريالية من أي نص تخيلي أنتجه أدب اللامعقول والعبث" (1). يكون قد آن الأوان للتعامل مع المقدس وقول الحقيقة عنه بأسلوب الهتك الجريء والفج والمباشر بدلاً من أساليب الدهاء التكتيكي التي طبعت أعمال طه حسين في ثلاثينيات القرن وأساليب الترميز الأليغوري التي اشتهرت بها أعمال نجيب محفوظ في ستينيات القرن نفسه. وانطلاقاً من هذه المقدمة، وعلى العكس مما يؤكد الدكتور عبد الرزاق، يصبح هتك رشدي البذيء للمقدس قابلاً بجدارة وبصورة ممتازة للمقارنة مع "فانتازيا فيليني وجان جينييه وجويس أو بريشت" تماماً لأن الأرض الإسلامية ما زالت "تزخر بالجان والعرافيت والأرواح" بدلاً من أن تكون مليئة "بالمعادن والخامات وأدوات الإنتاج والقاعدة الصناعية"، على حد تعبير الزميل الناقد (2).

- (1) د. عبد الرزاق عيّد، "نصر حامد أبو زيد: الخيار الصعب خارج "الشيوقراطي" و"الأوتوقراطي"، مجلة "الهدف"، العدد السنوي، ١٤/١/١٩٩٦، ص ٨١.
- (2) "طه حسين: العقل والدين"، ص ٩٦.

(٢) لا يبدو أن دهاء طه حسين قد مر على الكثيرين أو خدع المعنيين بالأمر، بدليل أنه قذف يومها (وما زال يقذف اليوم) بالتهمة المميتة والنعوت البشعة والأوصاف الشنيعة كلها التي يجري قذف رشدي بها الآن، بما في ذلك العمالة للصهيونية، كما هو موثق بجدارة في كتاب الدكتور عبد الرزاق عن طه حسين. في الواقع، إن الزميل الناقد هو القائل بأن التقدميين أدانوا طه حسين طبقياً والعروبين أدانوه قومياً والدينيين أدانوه إسلامياً "فعاش ومات والإثم يطارده كمجرم فكر وشيطان حقيقة" (1). ما الذي يمنع الدكتور عبد الرزاق، إذن، من الاعتراف صراحة بأن سلمان رشدي هو أيضاً "مجرم أدب وشيطان حقيقة" اليوم؟ وما نفع "الدهاء" وما هي إنجازاته الحقيقية إذا كان الغضب على طه حسين قد انتقل من الأزهر والقاهرة إلى أهل المدن الأخرى في الدلتا والصعيد من الأعيان والتجار وغيرهم على حد ذكر تقارير تلك الأيام وكما هو مثبت في كتاب الدكتور عبد الرزاق نفسه (2). لنسأل من ناحية أخرى، كيف كان حال طه حسين وحال أفكار التنوير والتقدم التي حملها ودافع عنها طوال حياته مع الدين الشعبي الوطني وفقاً لتحليلات كتاب الزميل الدكتور؟ يأتينا الجواب على النحو التالي:

"والشعب الذي يعيش في عالم منفصل عن ملكوت السلطة هي دائماً أقلية انعزالية في العالم العربي، لا يرى في أفكار التنوير

(1) المرجع السابق، ص ١٧٢ .

(2) المرجع السابق، ص ٩٤ .

والتقدم التي يفترض، وفق المنطق التاريخي، أن تعبر عن تطلعاته وطموحه لممارسة سيادته، سوى أفكار هدامة تطعن بمقدساته وتهزأ بيقينيته التي هي مأمته الوحيد من واقع خارجي معاد له. ولذا فالمذكّرة (أي المذكرة التي تتكلم عن انتشار الغضب على طه حسين إلى الدلتا والصعيد) تتساءل إن كان هناك دين جديد، ما دام طه حسين يهدم لهم دينهم القديم، إنه تساؤل الضمير الشعبي منذ فجر عصر النهضة حتى يومنا هذا، وهو جوهر أزمة العلاقة بين التنوير والعقل من جهة والوعي الاجتماعي السائد المثقل بوعيه الماضي وأهوائه التي تحتويه في داخلها التراثي من جهة أخرى⁽¹⁾.

وهل يختلف مآزق رشدي مع الإسلام الشعبي الوطني الراهن، من حيث المبدأ، عن مآزق طه حسين مع الطبقة الأقدم للإسلام الشعبي الوطني ذاته؟

(٣) يحدد الدكتور عبد الرزاق المنحى العام الذي صبت فيه جهود طه حسين الفكرية والثقافية والأدبية على النحو التالي:

"يمكن القول إن معظم النشاط الفكري والشعافي والأدبي لطه حسين كان ينصب على التراث بتجلياته المتعددة في تنوع موضوعاته: الفكرية - الأدبية - الاجتماعية - السياسية. التراث في الممارسة الكتابية عند طه حسين يرتقي إلى مستوى المسألة الإشكالية، فهو لم يكتف بالتصدي لموضوعات ومشكلات هذا التراث دراسة وتأريخاً وقراءة وتحليلاً، بل كان يزرع كل حقل معرفي بأسئلة شائكة ومقلقة، فيشيع الاضطراب في الذات القارئة

(1) المرجع السابق، ص ٩٤-٩٥.

والمقروء، في الأنا الباحثة والموضوع، في العقل والتاريخ معاً. فأرسي قلقاً خصباً في تراث كان يبدو أنه ينطوي على استقلالية عقيمة في مسلماتها وبديهياتها، وأرسي قلقاً موازياً في علاقة التساكن بين الذات العربية ومخزونها الاحتياطي الهائل من الماضي، موقظاً ومجدداً لأرقى حالات تجلي الفكر العربي ضمن هذا المخزون التراثي الكبير⁽¹⁾.

أما بالنسبة لأهمية كتاب "في الشعر الجاهلي" ولوقعه الآني وأثره على المدى البعيد، فيقول الزميل الدكتور ما يلي:

"وكان ما كان مما هو معروف عن أثر الصدمة التي أحدثها طه حسين في العقل الكسول الذي ألف وتآلف واثتلف وتساكن في طمأنينة وادعة تحت سقف اليقينيات الكبرى، فلم يغادر إلا وترك هذا السقف متصدعاً متشققاً يسمع له ندايون إلى يومنا هذا تحت سقف جامعاتنا ذات البناء الحديث جداً"⁽²⁾.

ثم يشيد بالإنجاز الذي حققه أستاذ التنوير العربي الأكبر في كتابه الشهير "حديث الأربعاء" على النحو التالي:

"فأسقط بذلك قناع المقدس عن الماضي وانتزعه من لاهوتيته المتنافيزيكية ليدرجه في الزمن التاريخي بكل ما لهذا الزمن من جلال ووضاعة، عبر إحياء المصادر الأساسية له، حتى يطبّع العلاقة بين القارئ ومصادر التراث، ليغدو كتاب "الأغاني" مثلاً جزءاً من ذاكرة حية قادرة على الفيض خارج لحظتها، فيأنس لها وعي الحاضر ويدرجها في منظومته بمثابة لحظة قادرة على إشباع

(1) المرجع السابق، ص ١٢٤ .

(2) المرجع السابق، ص ١٢٥ .

ذاكرة الثقافة الوطنية والإرتقاء بها إلى ممكن قابل للحياة ثقافياً في المستقبل" (1).

أما بالنسبة لكتاب "على هامش السيرة" فيضيف الدكتور عبد الرزاق قائلاً:

"هكذا تفتتح لنا "السيرة" عن عوالم يتمازج فيها التاريخي بالخيالي، الموثق بالمروي، المكتوب بالشفهي، المقروء بالمتواتر في الذاكرة الشعبية والمخيال الاجتماعي، توثيق الرواة وإبداع القصاصين، ذاكرة التاريخ بذاكرة البشر، لتتكشف عن نص مفعم بغزارة المادة التاريخية التي تحيط بنشأة الإسلام وولادة الرسول، محيطه والمحيط الذي سيتفاعل معه عالمياً على مستوى الأمم (اليونان والرومان) وعلى مستوى الديانات: الوثنية، والمسيحية واليهودية" (2).

قياساً على الصورة التي قدمها الدكتور عبد الرزاق عن طه حسين، ما وجه الخطأ أو الخلل في أن نقول عن رشدي وأدبه عموماً وعن كتاب "الآيات الشيطانية" تحديداً (بعجره وبجره ومهما كانت عيوبه وسقطاته) ما يلي:

(أ) "يمكن القول إن معظم النشاط الإبداعي والثقافي والأدبي لسلمان رشدي كان ينصب على التراث بتجلياته المتعددة في تنوع موضوعاته: الفكرية - الأدبية - الاجتماعية - السياسية. التراث في الممارسة الإبداعية عند سلمان رشدي يرتقي إلى مستوى المسألة الإشكالية، فهو لم يكتف بالتصدي لموضوعات ومشكلات هذا

(1) المرجع السابق، ص ١٢٦ .

(2) المرجع السابق، ص ١٤٢ .

التراث. بل كان يزرع كل حقل معرفي بأسئلة شائكة ومقلقة، فيشيع الاضطراب في الذات القارئة والمقروء، في الأنا الباحثة والموضوع، في العقل والتاريخ معاً، فأرسى قلقاً خصباً في تراث كان يبدو أنه ينطوي على استقلالية عقيمة في مسلماتها وبديهياتها، وأرسى قلقاً موازياً في علاقة التساكن بين الذات الإسلامية ومخزونها الاحتياطي الهائل من الماضي، موقظاً ومجدداً.. إلخ، إلخ.

(ب). وكان ما كان مما هو معروف عن أثر الصدمة التي أحدثتها سلمان رشدي في العقل الكسول الذي ألف وتآلف واثلف وتساكن في طمأنينة وادعة تحت سقف اليقينيات الكبرى، فلم يغادر إلا وترك هذا السقف متصدعاً متشققاً يسمع له ندابون إلى يومنا هذا تحت سقف جامعاتنا ذات البناء الحديث جداً.

(ج). فأسقط سلمان رشدي بذلك قناع المقدس عن الماضي وانتزع من لاهوته الميتافيزيكية لدرجة في الزمن التاريخي بكل ما لهذا الزمن من جلال ووضاعة، عبر إحياء المصادر الأساسية له، حتى يطبع العلاقة بين القارئ ومصادر التراث، ليغدو "تاريخ الطبري" مثلاً، جزءاً من ذاكرة حية قادرة على الفيض خارج لحظتها، فيأنس لها وعي الحاضر ويدرجها في منظومته بمنابتها لحظة قادرة على إشباع ذاكرة الثقافة الوطنية والارتقاء بها إلى ممكن قابل للحياة ثقافياً في المستقبل.

(د) "هكذا تتفتح لنا "الآيات الشيطانية" عن عوالم يتميزاج فيها التاريخي بالخيالي، الموثق بالمروي، المكتوب بالشفهي، المقروء بالتواتر في الذاكرة الشعبية والمخيال الاجتماعي، توثيق الرواة وإبداع القصاصين، ذاكرة التاريخ بذاكرة البشر، لتتكشف عن

نص مفعم بغزارة المادة التاريخية التي تحيط بنشأة الإسلام ودعوة الرسول، محيطه والمحيط الذي سيتفاعل معه عالمياً على مستوى الأمم (الفرس والهنود) وعلى مستوى الديانات: الوثنية، والمسيحية واليهودية والهندوسية".

بعبارة ثانية، قطع رشدي مع "الموروث" واهتم إلى أقصى حد بالتراث تماماً، كما كان قد فعل طه حسين وفقاً لتقديم الدكتور عبد الرزاق وتحليلاته⁽¹⁾.

أخيراً لا بد من التذكير أيضاً أنه حتى في أكثر النظم ديموقراطية وشعبية وجماهيرية لا تتقرر الحقيقة العلمية أو الأدبية أو الفكرية أو النقدية باستفتاء الجماهير، ولا يتحدد صدق القضايا والنوايا والافتراضات بالتصويت الشعبي الحر والنزيه، ولا تثبت المعارف بامتحانها على مدرسة القارئ والمعتقد الشعبي السائد والإيحاء بعكس ذلك هو عين الديماجوجية.

(1) انظر: د. عبد الرزاق عيّد، "الثقافة / الحداثة: إشكالية الهوية"، دار الصداقة، حلب، سورية، ١٩٩٦، ص ٣٦-٣٧.

القسم

الثالث

3

ياسين الحافظ بين الماركسية

بجلد نهضوي والماركسية كوعي نقدي مطابق

عبد الرزاق عيد - لماذا ياسين الحافظ اليوم :

مقدمة كتاب ياسين الحافظ "نقد حداثة التأخر"

جورج طرابيشي - ياسين الحافظ : الماركسية كوعي نقدي مطابق

عبد الرزاق عيد - ملحق - إلياس مرقص وحوار العمر

صادق جلال العظم - ما هي العولمة ؟

رد عبد الرزاق عيد - ما هو جديد العولمة ؟

رد صادق جلال العظم - ما هي العولمة ؟

نص مفعم بغزارة المادة التاريخية التي تحيط بنشأة الإسلام ودعوة الرسول، محيطه والمحيط الذي سيتفاعل معه عالمياً على مستوى الأمم (الفرس والهنود) وعلى مستوى الديانات: الوثنية، والمسيحية واليهودية والهندوسية".

بعبارة ثانية، قطع رشدي مع "الموروث" واهتم إلى أقصى حد بالتراث تماماً، كما كان قد فعل طه حسين وفقاً لتقديم الدكتور عبد الرزاق وتحليلاته⁽¹⁾.

أخيراً لا بد من التذكير أيضاً أنه حتى في أكثر النظم ديمقراطية وشعبية وجماهيرية لا تتقرر الحقيقة العلمية أو الأدبية أو الفكرية أو النقدية باستفتاء الجماهير، ولا يتحدد صدق القضايا والنوايا والافتراضات بالتصويت الشعبي الحر والنزيه، ولا تثبت المعارف بامتحانها على مدرسة القارئ والمعتقد الشعبي السائد والإيحاء بعكس ذلك هو عين الديماجوجية.

(1) انظر: د. عبد الرزاق عبيد، "الثقافة / الحداثة: إشكالية الهوية"، دار الصداقة، حلب، سورية، ١٩٩٦، ص ٣٦-٣٧.

القسم

الثالث

3

ياسين الحافظ بين الماركسية

بجلد نهضوي والماركسية كوعي نقدي مطابق

عبد الرزاق عيد - لماذا ياسين الحافظ اليوم :

مقدمة كتاب ياسين الحافظ " نقد حدائث التأخر "

جورج طرايشي - ياسين الحافظ : الماركسية كوعي نقدي مطابق

عبد الرزاق عيد - ملحق - إلياس مرقص وحوار العمر

صادق جلال العظم - ما هي العولمة ؟

رد عبد الرزاق عيد - ما هو جديد العولمة ؟

رد صادق جلال العظم - ما هي العولمة ؟

الأول: دوافع ذاتية تتصل بنزوع الجهاز الحزبي للتكثُر
والتمركز حول صنمته المصطنعة والمبقرطة.

الثاني: لأن الاثنتين تمثلاً الماركسية نهجاً نقدياً، ديموقراطياً،
طليقاً، لإدراجها في بنية الثقافة الوطنية، ولمنحها خصائص قومية
وتاريخية وثقافية وحضارية عربية، مما أثار النزوع الأقلوي الذي
يتحكم في اللاشعور المعرفي لنخبة الجهاز المتسلط على الحزب،
حيث اتسم تاريخياً بحساسية وسواسية تجاه (القومية) باعتبارها
تظاهرة بورجوازية عالمياً، وبورجوازية صغيرة محلياً، من خلال
فهم امثالي "مُسْفَيْت" لـ "أمية ستالينية" لا صلة لها بالماركسية،
فافتأتت نخبة الجهاز على النضال القومي التحرري العربي،
بالدرجة نفسها التي افتأتت فيه على الأقليات القومية التي تنتسب
إليها، بسبب فهمها للمسألة القومية فهماً سلبياً، بمثابته علاقة
تناحر، وصراع، وعداء، وكُره، ولم تتمكن من فهمهما للمسألة
بوصفها ضرورة لامتلاك وعي "أموي" يتجاوز الوعي (المللي)
باتجاه (المواطنة) التي هي وعي مدني حديث، علماني،
ديموقراطي، عقلاني، كوني، كما فهم الحافظ، فلحقته اللعنات
التي طالت (خياطة - خوري).

هكذا كانت اللعنات تترى، على كل محاولة لتبيئة الفكر
اليساري في مناخ الثقافة الوطنية، من خلال البحث عن وعي
مطابق بالواقع، يعقل هذا الواقع فيما هو عليه (لتفسيره) ويعقلنه
فيما يمكن أن يكون عليه لـ (تغييره عبر البراكسيس) وإطلاقه من

عقال واقعيته الرثة باتجاه المثل والطموحات الكبرى (الحلم بصيغته اللينينية).

إن ثقافة التكفير، ودعاوى الحِسْبَةِ اليسارية التي مارستها نخبة الجهاز بوصفه (جهاز الحقيقة) تطرد من غير رحمة كلَّ التراث اليساري العقلاني الديمقراطي النوعي من ساحة الثقافة الوطنية بوصفه (تراث ردة)، فلا يبقى للتيار اليساري من إسهام في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية الوطنية سوى تقاريرهم السياسية، بلاغاتهم، وبياناتهم، وقراراتهم، وبرامجهم التي تُكرَّر، الجمل الجاهزة، والعبارات المتبسة، والصيغ المتخشبة خلال ستين سنة دون ملل.

لقد كانت تجربة ياسين الحافظ الفكرية والمعرفية السياسية استمراراً لأرقى التقاليد الوطنية الراديكالية للفكر اليساري السوري (خياطة - خوري) وتويجاً لها، بعد أن قام بأكبر عملية فك ارتباط نقدي مع أشكال الوعي التحرري الذي صاغ فكرة التحرر الوطني العربي الحديث، بتياراته الثلاثة (الليبرالية - القومية - الماركسية) وذلك من خلال التأسيس لنقد منهجي مُنظَّم، يذهب من نقد السياسية إلى نقد المجتمع.

إن عملية فك الارتباط هذه، بدأت بنقد الفهم السائد للتيارات الثلاثة، لشكل وأسلوب تَمَفُّصِهَا بالواقع، من خلال أدوات النظرية الناجعة "الوعي المُطَابِق"، والتي من خلالها يسبر

1

عبد الرزاق عيد

لماذا ياسين الحافظ اليوم؟(*)

ياسين الحافظ، بالنسبة لليسار العربي (الشيوعي) كاتب وسياسي ومفكر (مُنشَق)، مُرتدّ، تحريفي، شأنه في هذا الحكم شأن إلياس مرقص، سيما وأن الاثنين كانت لهما تجربة مُبكرة مع الحزب الشيوعي السوري في فترة مبكرة من تاريخ وعيهما السياسي، وظل الاثنان بحكم علاقتهما الفكرية والشخصية رمزاً للردّة، التي تلاحق لعتتها (الدينية) كل من تسوّل له نفسه في صفوف اليسار الشيوعي السوري أن يجهر بسؤال في وجه الإجابات الجاهزة المحفوظة عن ظهر قلب، كما صاغتها وصايا المؤسسة الحزبية.

لذا فإن المؤلف لهذا الكتاب، لم يقرأ (الحافظ - مرقص) إلا في أواخر الثمانينيات في مناخات الحوار والسجال الذي شهدته

(*) مقدمة كتاب: ياسين الحافظ (نقد حادثة التأخر) - د. عبد الرزاق عيد، دار الصداقة، حلب، ١٩٩٦ .

الحركة الشيوعية مع البيريسترويكما السوفيتية التي ما كان لها أن تنتهي إلا إلى ما انتهت إليه، لأن نمط التفكير الستاليني غير قابل للحوار والتعديل والتصويب. إن منطقاً ذا بنية مغلقة لا يحتمل سوى التفكير والانحلال، ولهذا عجزت الجورباتشوفية عن الإصلاح بالحوار، ونهضت (اليالتسينية) بوصفها الردّ الانحطاطي الممكن الوحيد على (الستالينية)، فبذلك، كانت (اليالتسينية) الوجه المقلوب لـ (الستالينية)، إنها قفاها!.

لقد كتبتُ عدداً من الدراسات والأبحاث في تلك الفترة الانعطافية، وقد نُشر بعضها في كتابٍ تحت عنوان "نحن والبيريسترويكما"، ولقد كانت دهشتي كبيرة عندما قرأت (الحافظ) فوجدت أن معظم المساءلات التي أشرعتها مع جيلي في وجه البنية المغلقة للكهنوت المؤسسي، سبقني وسبق جيلي إليها الحافظ الذي أشرعها منذ الستينيات، وأغناها وأنضجها عقلاً ونهاجياً في السبعينيات.

لقد سبق لي أن أنجزتُ كتابين في منتصف الثمانينيات عن مُفكرينٍ ماركسيين سطع نجمهما كنيك في الثلاثينيات، ثم خبا وانطفأ أو أطفئ بريقه، هما سليم خياطة ورثيف خوري - نُشر الثاني تحت عنوان "مدخل إلى فكر رثيف الخوري" - لقد تم إلغاء الاثنين: الأول (خياطة) عبر التجاهل والنكران، والثاني (خوري) عبر التأثيم والهجران، وذلك لسببين:

مدى إجرائية ومردودية هذا المنهج أو ذاك في إنتاج وعي عقلاني مناسب بالواقع، معرفة الواقع أي (تعقله) فيما هو عليه في "حقيقته" وهي ما يُسمِّيها "بالواقعية الباردة" ومن ثم إنتاج وعي مناسب بحاجات هذا الواقع للتقدم أي معرفة الواقع فيما يُمكن أن يكون عليه (عقلنته) في سبيل الارتقاء به إلى مستوى "حقيقته" كونياً، وهي ما يُسمِّيها بـ "الواقعية الثورية" حيث العقلانية والواقعية معركة مفتوحة "ينبغي أن يُعاد كسبها على الدوام".

انطلاقاً من هذا القانون النظري كان يخترق أشكال تَوْضُحٍ وتمفُّصُ التيارات (الليبرالية - القومية - الماركسية) فيقشرها من لحاء التأخر، والقوآت والانغماد الأيديولوجي، حيث يتبدى هذا الانغماد الأيديولوجي، في صيغة إعادة إنتاج التظاهرات الأيديولوجية والاجتماعية والسياسية القديمة في أشكال وإطارات حديثة فيكتشف "الطائفية في إهاب القومية، التقليد في ثنانيا الماركسية، الماضوية في أساس الاشتراكية، المعتقد الإيماني والقبليات في قاع الإلحاد والديالكتيك".

كنتُ مع سليم خياطة ورثيف خوري أتطلُّع إلى الكشف عن البُعد النهضوي (العقلانية، التقدم، التنوير، الديمقراطية، العلمانية)، التي هُدِّرتُ لاحقاً في الخطاب اليساري العربي، واختزِلتُ إلى مستوى خطاب سياسي مُعفَّر بالفاقة والبؤس، محكوم بالاعتبارات الدبلوماسية الدولية، لا بضرورات الوعي بإشكالية التأخر التي قادت إلى كارثة الهزيمة الشاملة اليوم، مع

الهزيمة التي لحقت بقوى التقدم على المستوى العالمي، وتزامنها مع الهزيمة التي لحقت بالأمّة قوميّاً، بعد أن حَسَمَتُ أمريكا المعركة عسكرياً، وتحرَّرتُ من عقدة هزيمتها الفيتنامية وأفرغتها في الأرض العربية على حدِّ تعبير بوش.

في هذا الفضاء العربي المهزوم بكلِّ حَيِّزَاتِهِ ومساماته وذرائعِهِ، التَفَّتْ مجموعةٌ من أصحاب "الضمير الشقي" حول مشروع ثقافي (عيبال) لإحدى الفصائل الفلسطينية (الجبهة الشعبية) وبدعم وحماس متميّز من حكيمها "جورج حبش" السياسي النادر المُتَبَقِّي من تاريخ الهزائم العربية والذي لا يزال لديه ضمير ينوء بعار الهزائم ويستشعر الإذلال والفضيحة، ويقاوم.

فقام هذا المشروع على أكتاف الصديق (فيصل درّاج) وبتعاوننا معه سوريين وعرب: (سعد الله ونوس - عبد الرحمن منيف - جابر عصفور - نصر حامد أبو زيد - هادي العلوي - أحمد برقاوي - عصام الخفاجي). فكان عنوان المشروع: إذا كانت الأمة قد انهزمت عسكرياً وسياسياً فينبغي أن لا تُهزم ثقافياً، أن لا تُهزم روحياً ووجدانياً وأخلاقياً، فأشدُّ أنواع الهزائم هزيمةُ روح الأمة وإرادتها.

لكن السؤال يُطَلُّ في صيغة: كيف يُمكن الدفاع عن جبهة الثقافة، إذا كنا نعرف أن الهزيمة العسكرية والسياسية ليست في المحصلة إلا تتويجاً لثقافة مهزومة بالأصل، ذلك السؤال المُورِّق

الذي يسكن نص الحافظ كإشكالية تُوجّه كلّ مسارات النصّ وخطوطه وفواصله، حيث نقطة البداية - بالنسبة له - قد قادت إلى نقطة النهاية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

فكانت بداية المشروع إصدار الكتاب الدوري الأول، طه حسين: (العقلانية - الديمقراطية - الحداثة) ثم كتاب بجزئين عن "الحداثة" وكتاب بثلاثة أجزاء عن "الثقافة الوطنية" عبر عناوين فرعية ذات دلالة إلى ما يطمح إليه المشروع على جبهة الثقافة: (العقلانية - الديمقراطية - الحداثة - النهضة - التحديث - القديم والجديد - الوطني - الاختلاف - حداثة الآخر - التبعية - التراث - الممارسة - العقلاني - الوطني - الكوني - الأدب - الواقع - التاريخ).

من الواضح أن هذه المفردات تنتمي إلى حقلٍ دلالي، وإلى نظامٍ مفاهيميٍّ مُغايرٍ ومُختلفٍ عن المألوف في الأدبيات الماركسية العربية السياسية، ويُمكن القول أن الماركسية العربية السائدة تنظر بعين الريبة والإدانة لهذه المنظومة المفاهيمية، بوصفها تنتمي إلى ساحة المعرفة الليبرالية البورجوازية، هذا بالنسبة إلى النخبة، أما بالنسبة إلى جهاز مؤسسة "الحقيقة" فإن هذه المفردات لا تعدو أن تكون "علاكاً تنظيرياً" .

إن استهزاء الحقل الدلالي للمفردات التي تداولها المشروع، تُتيح استنباط ساحتين دلاليتين متداخلتين في وحدتهما الوظيفية: نقد السياسة ونقد المجتمع .

النهضة - العقلانية - التنوير - الكوني في مواجهة التأخر المجتمعي، والوطني الديمقراطي التحرري في مواجهة التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية. هاتان الساحتان تتداخلان لصياغة منظورات الثورة القومية الديمقراطية ببعديها التاريخي والكوني.

من الواضح أن المنظورات، والأدوات المفهومية الماركسية، كانت مُستبعدةً من الساحتين كأهداف، لكنها كانت حاضرة كوسائل منهجية نقدية للمفاهيم التي تستمدُّ مسوغاتها المرجعية من المنظومة المفاهيمية للقومية والديموقراطية لدى غالبية المشتغلين في المشروع.

كيف يمكن حلُّ التناقض بين الأهداف والوسائل، سيّما إذا كان حلّ هذا التناقض هو معيار أُسّ للعقلانية في الفكر والممارسة؟.

إن الحلّ النظري العقلاني يقدمه الحافظ بأطروحته عن الوعي المُطابق المشار إليه، فالوعي المُطابق له مستويات ثلاث: تاريخي - حديث - كوني.

فالمستوى التاريخي في إنتاج وعيٍ مُطابقٍ بالواقع، يُوميُّ إلى أن الواقع العربي لم يُحقق الثورة القومية الديمقراطية، فهي هدف لا بدّ منه لتحقيق الاندماج القومي في وجه التكسّر الاجتماعي وتذريه ما قبل "الأموي - المواطنوي" لتجاوز الانتماء العمودي (نظام القرابة) باتجاه الانتماء الأفقي السوسولوجي الطبقي حيث هو البنية التحتية

للمجتمع المدني المتجاوز للمجتمع (العصبي - العضواني) والثورة الديمقراطية ضرورة داخلية تستدعيها "المواطنة" لتجاوز "الرعية" و"الأموية" لتجاوز "المللية" حيث تحديث السياسية بالديموقراطية، وتحديث الثقافة بالعلمنة، من أجل صياغة وعي وطني حديث قادر على القبول بالتعدد، والتنوع والمغايرة.

أما المستوى الكوني الحديث للوعي المطابق فهو يستجيب لحاجات المجتمع للتغيير والتقدم، وهنا تحضر الماركسية بوصفها ذروة العقلانية الكونية الحديثة القادرة على نقد الوعي القومي، والديموقراطية البورجوازية، على اعتبار "أن الاشتراكية إنجاز وتجاوز للديموقراطية وليست نفيًا لها"، لذلك يعلن الحافظ عن تراجع إلحاحه على الاشتراكية كهدف مباشر وقريب، في هذا الوقت الذي بقي فيه قانعا بصواب النقد الاشتراكي للنظام البورجوازي. من هنا وجدت أن مشروعنا يتقاطع مع مشروع الحافظ الذي سبقنا إلى رسم ملامحه الأولى منذ السبعينيات.

لابد من إنجاز الأهداف (النهضوية - التنويرية - العقلانية - الديمقراطية - الحدائثة) لتجاوز الفترات التاريخية، لتجاوز التأخر، فالاشتراكية لا تُبنى على أرضية "قروضية" ولا تُبنى على قاعدة تفتقر إلى الديمقراطية. ولا بدَّ لإنجاز الأهداف، من تملكها، ولا بد من امتلاكها، لتجاوزها ونقدها، "من الممكن للاشتراكي، فقط للاشتراكي الذي أنجز بلدُه ثورة ديموقراطية بورجوازية، أن ينتقد الديمقراطية البورجوازية".

في إطار هذه المعركة على جبهة الثقافة كان - الحافظ - يلازمي خطواتي، أنجزتُ كتاباً عن "طه حسين: العقل والدين" بتشجيعٍ من منظومته (الليبرالية - القومية - الماركسية) وبالاختلاف معه حول دور الليبرالية العربية وشكل تَمَفُّصِهَا في الواقع العربي.

فالتاريخانية اليسارية أو تاريخانية العقل، تصبُّ في حالة البلدان المتأخرة بالطبع، في الليبرالية وتُبَرِّرها، هذا المفهوم الذي يُقرُّ الحافظ بفضل العروبي في استلهامه، يعلم أن الاشتراكية لا يمكن أن تُبنى على أرضية ومفاهيم ومناهج تقليدية، بل فقط على أرضية ليبرالية، كما أن هذا الفكر التاريخاني يُهيئُ للفكر الثوري العربي، في سياق تاريخي انعدمت فيه فُرْصُ تكون طبقة بورجوازية حقّة، استيعاب الثقافة والفتوح الليبرالية قبل / وبدون أن يعيش مرحلة بورجوازية.

من هذا المنظور التاريخاني اليساري، تعاملنا مع طه حسين على مستوى مشروعنا الجماعي في مشروع "عيال" وعلى مستوى كتابي الفردي، بوصفه الممثل الأرقى والأشجع لهذه الليبرالية العربية في صورتها النهضوية العقلانية، التنويرية - الديمقراطية، فكنتُ في تعاملِي مع الليبرالية العربية من خلال طه حسين أكثر التقاءً بالعروبي الذي يرى أن الليبرالية العربية أنتجتُ وعياً مُطابِقاً بواقعها ومشكلاتها، في حين أن الحافظ قَبِلَ الليبرالية كمنظومة تنويريةٍ تدرج مع القومية الديمقراطية والماركسية، ورَفَّضَهَا

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

كمنظومة مستقلة باعتبار أن الليبرالية العربية انصبتُ على إشكاليات بورجوازية أوروبية ليست إشكاليات مجتمعها العربي المتأخر.

لا شك أن داعية التاريخانية اليسارية رغم إدراكه المُبكر للهزيمة التي نترسبُ في قاعها اليوم كان يجد ثمة ملاذاً ومناصاً، رغم وقوفه على حافة الانتحار بعد ١٩٦٧، ولذا كان أكثر تشدداً منا في اشتراطه المنهجي على قبول الليبرالية في ترسيمته، ولهذا قبلها كوعي كوني وامتصها في منهاجيتها القومية الديمقراطية اليسارية، ورفضها عربياً لأنها لم تملك هذا الأفق القومي اليساري، لقد رفضها لأنه واقف على خط النار كفاعلي، كممارسٍ، كمناضلٍ، وقبلها العروي كمفكرٍ لم تحرق أصابعه بنار الهزيمة الحزبانية، وإن كانت الهزيمة ذاتها ألهمته ضرورة تحديث وعقلنة ودمقرطة العقل العربي، من خلال القبول بمكتسبات الفكر النهضوي العربي، وشرعيته التاريخية في فهمه لإشكالات زمنه "الحرية".

في زمن شباب الثقافة الوطنية وفُتوتها وشجاعتها في الثلاثينيات والأربعينيات، تعامل عمر فاخوري وسليم خياطة ورثيف خوري مع الفكر النهضوي العربي على أنه العمق التاريخي لثقافتنا الوطنية وأن الليبرالية العربية مُكتسبٌ تنويري ديمقراطي يشكل قاعدة ضرورية لفكرهم اليساري، فوضع رثيف كتاباً خاصاً، عن الفكر النهضوي العربي وأثر الثورة الفرنسية فيه.

الليبرالية وشكلُ حضورها في المنظور التاريخاني لـ "حافظ" ستكون موضوع الفصل الأول من كتابنا هذا، حيث ناقش في

هذا الفصل علاقته الدرامية المكتظة بالالتباس التاريخي بالليبرالية العربية، من نقده اليساري الراديكالي لها، إلى القبول ببعض مكتسباتها (التعليم الأكاديمي الحديث - تحرر المرأة) أفضل من هذه الاشتراكيات "التأخرائية" التي بيننا، عندما تتراءى أمام بَصْرَتِهِ الهزيمة وهي تُعيد إنتاج ذاتها في مزيدٍ من التقهقر والتأخر.

لقد انشغل الخطاب العربي المعاصر، بهذه الأطروحة، الأطروحة القائلة بأن الفكر النهضوي طرح إشكالاتٍ غريبةٍ عن الواقع العربي، فكان بذلك عاجزاً عن اندماجه في واقعه، والتبؤ مع الخصوصيات المحلية والثقافية للذات الحضارية للأمم، بل ويذهب البعض إلى اعتباره فكرَ التشوُّه الثقافي والغزو الاستعماري.

وعلى هذا تتبين لنا صورةُ الانحدار والتقهقر للخطاب العربي المعاصر في فهمه ورؤيته وموقفه من الليبرالية العربية (النهضوية) بالمقارنة مع خطاب الحافظ، رغم ما يبدو أنه خطابٌ مُتَشَابِهٌ في النعْيِ على فكر النهضة تَغْرِبُهُ عن مشكلات العصر .

إذا كان خطاب الحافظ ينعي على الفكر النهضوي قصوره في امتلاك وعي (أموي) قومي ديموقراطي حديث، فإن الخطاب المعاصر ينعي عليه "قوميته" المستوردة من الفكر الغربي، التي أحلَّت "رابطة الأمة" محلَّ رابطة "الملَّة" بوصف الأخيرة خصوصية الذات الحضارية للأمم، وخطاب الحافظ ينعي على الفكر الليبرالي النهضوي عدم راديكاليته في تمثُّل "العلمنة" كشرطٍ

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

ضروري للعقلنة، وتحديث الفكر والثقافة، ووقوف هذا الفكر النهضوي في حدود التبسيطات الشعارية لعلمانية السطح (الدين لله والوطن للجميع) في حين أن الخطاب المعاصر ينعى عليه هذه "العلمانية" المُبسَّطة، ويرى فيها غُلُوًّا وتكثُّراً وتغرُّباً وخروجاً على هوية الأمة، والتحاقاً وتبعية لفكر الغرب.

ولهذا، أفردنا للعلمانية الحيزَ الأوسع في بحثنا، انطلاقاً من استقراء نصوصه، التي قادتنا إلى استنتاج، أن الفكر العربي لم يعرف حتى اليوم تناولاً لمسألة "العلمانية" بهذه الإحاطة والشمول بوصفها مسألة معرفية فلسفية قبل أن تكون ضرورة تاريخية ثقافية، سياسية، للمجتمع العربي، حيث تشكَّل الجذر "الابستامي" لتيارات تحديث العقل العربي (الليبرالية - القومية - الماركسية) رغم أن تيارات التحديث هذه كانت قاصرة، عن إدراك هذا الجذر المشترك الذي يفترض أن ينتظم خطابها، ويُوحدُه تجاه مسألة التأخر، ذلك لأن هذه التيارات بالأصل تفتقد إلى وعي نهضوي شامل بمسألة "التأخر" عندما أشاعت خطاباً سياسوياً يستبدل "النهضة" بـ "التنمية" والتأخر بـ "التخلف".

ذلك ما تناولناه في القسم الثاني، حيث تناولنا العلمانية كمستوى معرفي ضروري في إنتاج وعي مُطابِقٍ بترسيمته النظرية عن الوعي القومي الديموقراطي اليساري، فكانت "العلمانية" منظوراً فلسفياً معرفياً ضرورياً، يخترق تاريخانياً ويُؤسِّس نظرياً لوعي قومي (أموي) جديد يتجاوز تقليديته المُدَّسَّة بالحدائث،

وظَفَرَاوَيْتَهُ المُشَبَّعَةَ بِالْهَزِيمَةِ، وَلِيؤَسَّسَ لِفَهْمِ دِيمُوقْرَاطِي يُتَجَاوِزُ دِيمُوقْرَاطِيَةَ السُّطْحِ، دِيمُوقْرَاطِيَةَ الْأَكْثَرِيَّةِ الْمَلَلِيَّةِ الْعَصْبُويَّةِ إِلَى دِيمُوقْرَاطِيَةَ الْمُجْتَمَعِ الْمَدْنِيِّ الْعِلْمَانِيِّ الْحَدِيثِ الْمُرَقَّشِ سُوْسِيُولُوجِيًّا.

لكن قبل تناولنا المسألة العلمانية في القسم الثاني، وبعد تناولنا لمسألة (الليبرالية) توقفنا عند المسألة القومية والآليات النهائية التي أعادت إنتاجها وفق فهمٍ مُغَايِرٍ ومُخْتَلَفٍ عن الوعي (القوماوي) السلفوي المُحَدَّثِ، وعن الوعي (الماركساوي) الامتثالي الاقتصادي الطبقي (المُسْفَيْتِ)، وقد احتلَّت التجربة الناصرية حيزاً متميزاً في هذا السياق، نظراً لما مثَّله الناصرية من تجربة درامية مكتظة بالأسئلة التي لا تركز للإجابات السهلة في وعي الحافظ.

كما توقفنا عند الماركسية، وشكل استعادتها كمنهج نقدي لا يركن إلى الحقيقة إلا بوصفها نفياً لها على طريق امتلاكها اللانهائي لذاتها، حيث معركة العقل مع الحقيقة معركة يجب خَوْضُهَا كُلَّ يَوْمٍ، لِكَسْبِهَا كُلَّ يَوْمٍ، وذلك من خلال استعادة ماركسية طليقة تقشر الماركسية العربية السائدة من إيمانيتها، ووثوقيتها، ومذهبيتها العقائدية الدوغمائية بمرجعيتها الستالينية (المسفيته) في فهمها وموقفها من المسألة القومية والمسألة الديموقراطية.

وأخيراً لماذا ياسين الحافظ . ٩ .

لابد من الاعتراف، أننا في ظروف المحنة وانهيار الأحلام الكبرى (عالمياً - قومياً) كنا نتابع في سبيل البحث عن أفقٍ جديدٍ، التأملات والقراءات والتساؤلات النظرية التي كان يُثيرها في الفضاء الثقافي العربي، المفكرُ المصري والعالمي المعروف سمير أمين، نظراً لما ينطوي عليه الخطاب النظري لهذا الرجل من مستويات معرفية تركيبية قادرة على السيطرة على "كُلِّية المواضيع" بتعبير لوكاتش، حيث هذه الكلية التركيبية، تُتيحُ للاقتصادي سمير أمين، أن يتجاوز الاقتصادية المتذلة، بمعناها الاختصاصي الأكاديمي، أو بمعناها الوظيفي التقني، فيتناسج الاقتصادُ كعنصرٍ حاسم في مَصْفُوفته، مع الفلسفة والسياسة، والتاريخ، والمجتمع، وتتبادل العناصر المكوِّنة للمَصْفُوفَةِ النظرية، دور العنصر الحاسم، حيث كل عنصر يحمل قابلية التحوّل إلى الآخر، والتضمّن المُضمَّر بالآخر، وهذه الحركة بين المستويات والعناصر التكوينية للبنية النظرية هي التي تمنحها تجانسها، وتجانس رؤيتها للعالم حسب جرامشي. هذه المزية التي تمنح الخطاب النظري لأمين فرادته، هي الحافز على متابعة النشاط الفكري لهذا الرجل بجديّة واهتمام، وهي التي تُفسِّرُ تجدُّدُ اهتمام الفكر التحرري العربي، الوطني القومي الديمقراطي واليساري بأطروحاته، بعد مرحلةٍ طويلة من "التأيم والتكفير" اليساري المؤسساتي لمديري المقدّس الرسمي، ووزراء الحقائق الامتثالية والإذعانية اللاهوتية. وهم يُدينون هرطقة أمين!

ما علاقة هذه الإشارة إلى سمير أمين، بخيارنا لياسين الحافظ؟

تَكْمُنُ هذه العلاقة، ليس بتجربة العقل الشقي المنبوذ والمطرود للاثنين فحسب، بل في تلك النتائج النظرية التي انتهى إليها - أمين - في صيغته "البديل الوطني الشعبي الديمقراطي" التي تُتَاخَمُ وتُحَايِثُ في مضمونها الترسيمية النظرية للحافظ التي انتهى إلى صياغتها منذ السبعينيات، كردٍ على هزيمة ١٩٦٧، جذر الهزائم العربية اللاحقة وحتى اليوم الذي تتقدم فيه أطروحات سمير أمين كاستجابة لتحدياتها. فإحالة الاشتراكية إلى المستقبل، بوصفها تشكيلة عالمية الطابع ربما تتطلب قروناً، واعتمادها كمنهج في الرؤية والتحليل التي يخلُصُ لها سمير أمين اليوم، كان قد خُلِصَ لها ياسين الحافظ منذ بداية السبعينيات، عبر تراجعه "عن الإلحاح على الاشتراكية كهدفٍ مباشرٍ وقريب، في الوقت الذي بقي فيه قانعاً بصواب النقد الاشتراكي للنظام البورجوازي" ومنذ تلك الفترة كان يرى إلى الاشتراكية، كإنجازٍ وتجاوزٍ للديموقراطية وليست نفياً لها، فتخطى الإشكالية التي يدعو سمير أمين لتخطيها اليوم، وهي إشكالية الخيار بين الثورة الديمقراطية والثورة الاشتراكية.

تخطى هذه الإشكالية مبكراً، جعل الحافظ يركز على أهمية الثورة الثقافية كضرورة تاريخية عبر (العقلنة - العلمنة - الدمقرطة) لا بد منها من أجل الثورة الاجتماعية، الأمر الذي قاده للتحويل على دورٍ متميز وقيادي للإنتلجنسيا الثورية - كما يدعو أمين اليوم - وضرورة امتلاك هذه الإنتلجنسيا لوعي نقدي تاريخاني، كوني،

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

علماني، حديث، قادر على التبيؤ ونتاج وعيٍ مُطابقٍ بالواقع فيما هو عليه، وما يمكن أن يكون عليه. في حين كان أمين في تلك الفترة يُشاطر بعضَ أطراف الحركة الشيوعية العربية الرأي، في أن الخروج من المأزق إنما يمرُّ عبر ثورة اشتراكية تقودها الطبقة العاملة العربية، كما دعا في كتابه "الأمة العربية" الصادر عام ١٩٧٧، وكان يُشاطرُهُ هذه الدعوى مفكر طليعي، هو الشهيد مهدي عامل.

لن نُطيلَ في عقد المقارنة بين (الحافظ - أمين)، فالقارئ سيتلمس من خلال رحلته معنا في هذا الكتاب، مدى التقاطع، والتراسل بين ما يَخْلُصُ له أمين اليوم، وما خَلَّصَ له الحافظ بالأمس، وكأنَّ على الفكر العربي أن يُمَاحِكَ واقعه المهزوم ثلاثين سنة، ليكتشف سلسلةً من الهزائم والأيديولوجيات المهزومة التي تستدعي أطروحتها على الواقع العربي اليوم، الأطروحة المضادة في صيغة - أمين - عن "البديل الوطني الشعبي الديمقراطي"، تلك الأطروحة المضادة التي التقطتها باصرة الحافظ غِبَّ هزيمة ١٩٦٧، فأسَّس لترسيמתها بمشروع نظري نقدي لا يزال يُمارس راهنته بتألق. هذه المقارنة لا تهدف للمفاضلة، فالراهن العربي أشدُّ كارثيةً من أن يُشَرَّفَ أحداً، وأشدُّ بؤساً من أن يكون لأحدٍ علوُّ الكعب على أحدٍ في استشراف كلِّ هذا الحطام، وعلى هذا، فالمقارنة ليست حُجَّةً على سمير أمين، بل هي حُجَّةٌ له، حيث كانت أحدَ حوافزِ بَحْثِنَا في فكر الحافظ، لتؤكد أن أسئلة أمين هي

استمرار للأسئلة الشائكة التي كانت تُشهرُ أمام واقعٍ يتردى في كلِّ لحظةٍ تجاه قاع هزيمته، منذ هزيمة ١٩٦٧، التي تلمس الحافظ قاعها العاري، إلى يومنا هذا وهي تُراكمُ ثُقالاتها في عقلٍ وضميرِ المثقف الوطني الديموقراطي الشعبي بحقّ، الذي لا يركن لإجابات الحقّ ما لم تُحقق المناط في مصائر الخلق.. بتعبير الفقهاء.

ذلك ما يُفسرُ عبورنا للحافظ عبر أسئلة سمير أمين.

2

جورج طراييشي ياسين الحافظ، نهضوي بجلد ماركسي

لا بد بادئ ذي بدء من أن أسجل على نفسي هذا الإقرار. فلو كان لي أن أحاكي سلامة موسى وأكتب بدوري "تربية جورج طراييشي" لكان علي أن أقر بأن مرربي الكبير ياسين الحافظ. مرربي السياسي حصراً، أو مرربي الأيديولوجي بتعبير أدق. فعن طريق التماس الشخصي والقرائي مع ياسين نجز في الستينيات تطوري نحو الماركسية، الماركسية كشبكة مفهومية لقراءة الواقع، الماركسية، كما كان يحلو لياسين أن يقول، كوعي مطابق.

لكن بعد تسجيل هذا الإقرار على نفسي - وليعذرني القارئ عن هذا الإكثار من ضمير المتكلم - لا بد من أن أضيف حالاً أن علاقتي الأيديولوجية بياسين كانت مشحونة بكل توتر العلاقة التي يمكن أن تجمع بين معلم وتلميذ. فقد كنت وأنا أتلمذ على ياسين أصبو إلى اليوم الذي أستطيع أن أثبت فيه لنفسي، وللآخرين الذين هم القراء، أنني أمتلك القدرة المعرفية والنظرية للتمرد عليه. وذلك أنني في الوقت الذي كنت أتحرك ضمن شبكة المفاهيم التي

أسر تفكيري فيها، كنت أضيق ذرعاً - وأنا الذي يغلي في هوى التمرد - بـ "معلمته" التي كانت تتعالى عليّ كسور منيع. كانت تبدو لي معلمية "سادية"، مثلها في ذلك مثل كل معلمية أبوية، ولم يكن في طبعي أن أقبع في دور الابن المازوخي.

والواقع أنه مع إقرارتي بتفوق ياسين النظري الساحق وبمعلمته التي لا تضاهى في مداورة المفاهيم وفي تصعيدها إلى مستوى علمي أسر، فقد كان ثمة، في سور العلاقة التي تشدني إليه، ثغرة أستطيع من خلالها أن أخط لنفسني موقعاً نقدياً. هذه الثغرة هي ناصرية ياسين التي كانت - رغم حرصه على أن يبقها نقدية - من طبيعة وجدانية. فأنا ما استطعت قط أن أكون ناصرياً رغم الإغراء الهائل الذي كان يمارسه عبد الناصر علي. فلقد كان يتفق لي أن أرى فيه "أخاً أكبر"، ولكن كان يمتنع عليّ أن أرقى به إلى مصاف "أب مؤمثل". ولست أنكر على كل حال أنني اخترعت لنفسني، في مساري الفكري الذي شهد تقلبات لا مراء فيها، آباء رمزيين شتى. ولكن علاقتي المرحلية بكل واحد منهم كانت كعلاقة العربي بصنمه الذي من تمر. فحاجتي إلى التمرد على الأب كانت على الدوام أقوى من حاجتي إلى الانضواء تحت لواء أب حام.

هذا المدخل إلى قراءة كتاب عبد الرزاق عيد عن ياسين الحافظ قد يبدو في غير محله، بل حتى مستهجناً. ولكن لا حيلة في اليد

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

كما يقال. فأنا عاجز عن قراءة موضوعية خالصة لفكر ياسين ولأية قراءة لفكر ياسين ولو كانت في مثل ذلك المستوى الرفيع من الموضوعية الذي أراده عبد الرزاق عيد لقراءته. ولست أكتف أن قراءة عبد الرزاق بدت لي بنوية أكثر مما ينبغي، وأنها أعادت بالتالي تفعيل رغبة التمرد فيّ. فقد بدا لي وكأن عبد الرزاق مؤلف "نقد حدائث التأخر" إنما يكتب قصيدة حب لياسين الحافظ في كتابه هذا، ولكنها قصيدة حب غريبة في نوعها، فهي مكتوبة، لا بمفردات وجدانية، بل بمفاهيم نظرية صارمة. فعبد الرزاق عيد قد استطاع أن يتماهى تماماً مع لغة ياسين المفهومية. ومن هنا استعصى عليه - إلا لماماً - أن يتخذ موقفاً نقدياً. ففي زمن أزمة الماركسية الجذرية الذي هو زمننا، وجدت ماركسية الأخ الأصغر التي هي ماركسية عبد الرزاق عيد سقفاً تلتجئ إليه في حماية ماركسية الأخ الأكبر أو الأب المؤمّل التي كانت ماركسية ياسين الحافظ. ومن هنا الغنائية في التعاطي بين القارئ والمقروء - ولا أقول الناقد والمنقود - ولكنها دوماً الغنائية المفهومية التي لا تليق غنائية سواها بالموروث الماركسي الذي ما أسس نفسه إلا بالقطيعة المعلنة مع كل الأشكال الوجدانية من الغنائيات الطوباوية "اللاعلمية". هكذا يقول عبد الرزاق عيد عن ياسين الحافظ وهو يستعير توصيف لوكاتش للبطل الملحمي: "كان رجلاً مرفوضاً لأنه كلما لامس تجربة لغمها عقله الطليق. فقد كانت عيناه دائماً تخترق السطح الظاهر، لبلوغ القاع الباطن، العمق. عين

سوسيولوجية تنقّب وتفحص نسج البنى الداخلية للمجتمع ونظام تشكله التاريخي والثقافي والاجتماعي، وعين نظرية تستدل وتستقرئ وتستنبط الوعي المطابق به، فتجد تشخيصه في صورة "الفوات، التأخر" والوعي المطابق بحاجاته إلى التغيير فيجدها في "العقلنة"، "العلمنة"، "التاريخانية"، "الديموقراطية"، "الوعي القومي" و"الوعي الكوني"، "الحدثة"، "المعاصرة"، "الاشتراكية". هذه المفردات تشكل شبكة الجهاز المفهومي النظري للممارسة الفكرية في نص الحافظ، حيث تغدو أدوات إجرائية للتحليل والتصنيف والتنهيج. فتحقق امتلاءها الدلالي. الذي يمنح - ولأول مرة في الفكر السياسي - للكتابة حضورها الفيزيائي. فتتقشر من غلالاتها الميتافيزيكية التي كانت ترفع الخطاب القومي ببطانة وجدانية، شعورية، بلاغية بالمعنى الأرسطوي للبلاغة بوصفها فن الإقناع الذي يركز على مقتنعات الناس، فتغدو إقناعاً بالمقتنع به سلفاً. (ص ٢٢-٢٣).

واضح إذن أن القراءة التي يقدمها عبد الرزاق عيد لفكر ياسين الحافظ هي قراءة انتمائية، لا قراءة نقدية، قراءة من داخل جهاز مفاهيم الممارسة الفكرية لياسين الحافظ، لا من خارجه. بملاصقته، أو في أضعف الأحوال بموازاته، لا بمجاوزته، والحال أن ما ينسأه مؤلف "نقد حدثة التأخر"، وهو يقف من وجهة النظر الأيديولوجية على الأرض نفسها التي يقف عليها ياسين الحافظ - وهي هنا الماركسية الطليقة اللامُسْفِيّة - هو أن هذا الأخير

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

توفي قبل وفاة الماركسية نفسها بعقدين من الزمن، ومن ثم فإن ثمة سؤالاً مشروعاً يطرح نفسه: لو قيض لياسين أن يعيش إلى هذه اللحظة، فهل كان سيبقى متمسكاً بجهاز مفاهيمه الذي يحضه مؤلف "نقد حداثة التأخر" تمام انتمائه؟

لقد مثلت ماركسية ياسين الحافظ في حينه واحداً من أرقى أشكال الممارسة الفكرية في المجال الأيديولوجي العربي. ولكن على الرغم من الطعنات الناقدة التي سددها ياسين للإيديولوجيا بوصفها وعياً غير مطابق، فإن ماركسيته نفسها، على رقيها المفهومي، لا تنجو من حكم الأيديولوجيا بعامة. فقد مثلت هي الأخرى، مثلها مثل كل نتاج أيديولوجي، محاولة للسيطرة، لا على عالم الواقع، بل على عالم الخطاب. وبالمقارنة مع غيرها من التنتاجات الأيديولوجية، وعلى الأخص مع غيرها من الماركسيات فقد مثلت بكل تأكيد المحاولة الأكثر مطابقة للسيطرة على عالم الخطاب العربي المعاصر. ولكن باستثناء ذكائها الأيديولوجي الخارق، فإن رباط الزواج الذي حرصت على أن تعقده مع مقولة الواقع ما كان محصناً ضد مجازفة الطلاق. وقد تكون قوة البناء النظري لماركسية ياسين أوحى بأن الزواج الذي عقدته مع مقولة الواقع هو من نوع كاثوليكي. ولكن هذا الإيحاء ما قيض له قط أن يخضع لامتحان مبدأ الواقع. فوفاة ياسين المكبرة قد أنقذت منظومته، أو "مصنوفته" الفكرية كما يؤثر مؤلف "نقد حداثة التأخر" أن يقول، من الانفجار مع الانفجار الكوني للماركسية

بدءاً من التسعينيات، وبكل تأكيد، ليس لنا أن نتقول على الرجل ولا أن نتنبأ له بعدياً بتطور القطاعي في فكره، منتهزين في ذلك الفرصة التي لا تسمح له، والتي أتاحت لنا أن نجري محاكماتنا وأن نصدر أحكامنا بعد انفجار التسعينيات الكوني، ولكن الرجل كان يتمتع بقدرة هائلة لا على التنظير فحسب، بل كذلك على التحسس بتغيرات الواقع. ومن دون أن نجزم بأنه كان سيتخلى عن ماركسيته، أو حتى أن "يخونها" فإننا لا نستطيع أن نتعامل مع كتاباته وكأنها لا تزال تمثل "وعياً مطابقاً". وتلك هي نقطة الافتراق الكبرى بيننا وبين مؤلف "نقد حدائثة التأخر". فهو يقرأ ياسين اتصالياً، ونحن سنقرأه انفصالياً. فلن يكون موضوعنا الحمولة الدلالية المليئة لجهاز مفاهيم الممارسة الفكرية لياسين الحافظ، بل على العكس الانفراغ الدلالي لجهاز المفاهيم هذا بعد انفجار المنظومة المرجعية التي ينتمي إليها، عيننا الماركسية بعامة.

بالفعل، ما هو الأساسي في ممارسة الحافظ النظرية؟ إنها، كما يفيدنا عبد الرزاق عيد نفسه، الماركسية "بوصفها الخلاصة الأرقى لتطور العقلانية" من حيث إن "العقلانية تعريفاً هي إنتاج وعي عقلاني مطابق للواقع" (ص ٨٣). ولكننا لا نستطيع توصيف ياسين الحافظ بأنه ماركسي إلا إذا أضفنا حالاً أنه كان ماركسياً هرطوقياً أكثر منه ماركسياً أورثوذكسياً. فياسين ما كره شيئاً في الوجود الذي في الأذهان - بالتمايز عن الوجود الذي في

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

الأعيان - كما كره "الماركسية المسفيتة"، أي "الماركسية الإيمانية، التبريرية، الدوجمائية" (ص ٦٥). والحال أنه لا وجود خارج "المعتدية الماركسة المسفيتة" إلا لهرطقات، أو لأشكال من المعتدية الماركسية أكثر انحطاطاً بعد مثل الماركسية الكورية أو الماركسية الكمبودية. ولا شك أن ياسين الحافظ مال في حينه إلى أن يؤمّل الماركسية الصينية، وعلى الأخص الماركسية الفيتنامية. ولكنه ما كان له أن يعلم في حينه أن هذه المثانة كانت تلبّي حاجة نفسية إلى توهم ماركسية بريئة ومعيارية يمكن على أساسها إدانة ممارسات ديناصورات الماركسية الفعلية، سواء حملوا أسماء ستالين أم بريجنيف أم كيم إيل سونغ أم تشاوشيسكو. ولئن سعى إلى أن يقيم فصلاً حاداً بين اللينينية من جهة والستالينية وسائر أشكال الماركسية المسفيتة، من جهة ثانية، فلأنه كان مدفوعاً، كما في كل وضعية هرطوقية، بحاجة نفسية لا شعورية إلى توهم نقاوة أولى وإلى اختراع فردوس نظري سابق على السقوط. وحتى لا نظلم ياسين ووعيه النقدي المتقدم رغم ماركسيته - لا بفضلها - فلنقل حالاً إننا كنا نحن مجايليه جميعاً من حديثي التمرس تلاميذ له وشركاء في اختراع ماركسية مثالية ومعيارية. فبدون هرطقة كهذه ما كان لنا ولا لياسين أن نتخذ داخل الكنيسة الماركسية، الكونية والعربية على حد سواء، موقفاً استقلالياً ونقدياً. ولكن الهرطقة، بحكم طابعها الأقلوي الحتمي، مكتوب لها أبداً أن تعيش على هامش الكنيسة الأكرورية، وكما يثبت لنا تاريخ الفرق، فإن ما من هرطقة أفلحت قط في أن تغير مصير المؤسسة الدينية، ولكن على

حين أن فأر الهرطقة لا يستطيع أن يززع جبل الكنيسة، فإن انهيار المؤسسة الدينية يستتبع لا محالة اندثار الهرطقات والفرق كافة. وعلى هذا النحو فإن سائر الهرطقات أو المثاليات الماركسية لم تفلح في إنقاذ عمارة الكنيسة الماركسية من الانهيار، بل لم تفلح في نهاية المطاف إلا في أن تسهم بمعولها الصغير في التمهيد للزلزال الكبير الذي سيضرب قارة الماركسية عام ١٩٩٠ ويحوها من فوق وجه الأرض. كما أنها لم تفلح على الأخص في أن تتفادى الانحراف في مسار القارة الغارقة. فعندما يؤول الديناصور إلى انقراض تنقرض معه لا محالة جميع الطفيليات التي كانت تتعاش على جلده.

مرة أخرى نقول لا ندرى ماذا كان سيكون موقف ياسين لو قيض له أن يعيش إلى حين ساعة الانزياح الكبير في حركة القارات الأيديولوجية. ولكنه كان بكل تأكيد سيتفادى مصير الديناصور وطفيلياته معاً، ولعله كان سيكي "أيديولوجيته المهزومة"، أو يفكر مرة أخرى بالانتحار كما كان فكر عقب هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وفي الأحوال جميعاً، كان سيعمل على إعادة مطابقة وعيه، ونحن، من وجهة النظر هذه، لا نملك عليه أي امتياز سوى أنه قيض لنا أن نعيش من بعده. فسهل على الحي أن يحاكم الميت، وأن ينهش، كالضبع، لحمه. ولكن الضبع لا يثبت في هذه الحال سوى نتنه. وأرجح الظن أن النقد الذي نوجهه إلى ياسين بعد وفاته كان سيوجهه إلى نفسه لو قيض له أن يبقى

على قيد الحياة. فقد كان على الدوام أسبقنا إلى التقاط المؤشرات والنذر. ولعل ما نقوله اليوم بعد غرق قارة الماركسية كان سيقوله قبل غرقها. ومن هنا بالتحديد خلافنا مع الصديق عبد الرزاق عيد، فهو يقرأ ماركسية ياسين وكأنها لا تزال تعاصرنا ونعاصرهما مع أنها، ككل ما هو تاريخي، لا تعاصر سوى نفسها. ولقد كانت ماركسية ياسين في عصرها كبيرة وغنية وخلاقة، ولكن لا مندوحة بعد عصرها من أن تبدو مفوتة تاريخياً. والحال أن الفوات التاريخي كان واحدة من أرهف المقولات التي داورها عقل ياسين وقلمه. وحتى لا تنطبق هذه المقولة على نصوصه فلا بد من أن تُقرأ هذه النصوص بالإحالة إلى عصرها، وإلى عصرها حصراً. وأية محاولة لتمديد معاصرتها لن تعمل إلا تحييطاً. وياسين كان متمرداً كبيراً على أي شكل من التحنيط ومن عبادة الأسلاف بعامة. وهذا سبب إضافي لامتناع التلاميذ - السابقين منهم واللاحقين - عن تأسيس ماركسية ياسين في سلفية جديدة.

كما أنه لا ماركسية خارج الماركسية، كذلك لا رأسمالية خارج الرأسمالية، ولا غرب خارج الغرب. وذلك هو المأزق الكبير الثاني في جهاز مفاتيح ياسين الحافظ، على الأقل كما يتأوله عبد الرزاق مؤلفاً "نقد حدائث التأخر". فالتاريخ لا يعرف المانوية ولا الفصام. والحاجة إلى تنصيب الأشياء في قطبية متضادة، مؤتملة ومؤسلة، هي في الغالب حاجة نفسية، ونادراً ما

تعكس واقعاً موضوعياً. والنص التالي لا يدع مجالاً للشك في أن فلسفة التاريخ أو الأنثروبولوجيا قابلة أن تكون محلاً للاستيهام الرغبى: "في بنية وعيه [ياسين الحافظ] النظري يحضر الغرب كغريين، غرب عقلاني، ديموقراطي، تنويري، علماني، ذنوي، بروميثيوسي، ذي وعي وحس تاريخي، ومن ثم ماركسي، لينيني، تاريخاني. إنه الغرب "الذي بزغ في عصر النهضة وتابع نموه وتطوره في عصر الأنوار والثورة الفرنسية والمجتمع الصناعي والحركة الاشتراكية" [الإحالة هنا إلى كتاب ياسين الحافظ عن "التجربة التاريخية الفتنامية"، ص ١٧١]. والغرب الثاني هو غرب الرأسمالية والاستعمار الذي وظف كل مكتسباته التاريخية هذه للاحتلال والاستتباع. والذي استفاد من تفوقه الاقتصادي والتقني والسياسي والثقافي والاجتماعي لعملة العالم في خدمة مصالحه" (ص ٣٥).

إن مثل هذا "الاستيعاء" الفصامي للغرب لا يطابق أي واقع تاريخي. فماذا يبقى من "حضارة" الغرب لو فصلت عنها "همجية" الرأسمالية؟ وهل كان الغرب ليكون هو الغرب لولا اختراعه للرأسمالية كتشكيكة تاريخية قائمة بذاتها؟ وإذا كان "الحس التاريخي" هو أحد المكتسبات الكبرى التي أضافها إلى تراث البشرية الغرب العقلاني، الديموقراطي، التنويري، فهل من الحس التاريخي في شيء تعقل رأسمالية الغرب على أنها همجية؟ فالرأسمالية، بموجب الدرس الماركسي بالذات الذي ينتمي إليه

مؤلف "نقد حادثة التأخر"، هي تشكيلة تاريخية متقدمة، بل متقدمة للغاية، وصحيح أن الاستعمار هو الوجه الأوسع لهما، ولكنه، يبقى أقل بشاعة بما لا يقاس من همجية الرق في التشكيلات التاريخية العبودية أو الخراجية. وصحيح أيضاً أن الاشتراكية، بطبعتها الماركسية، قد حلمت بأن تجد تشكيلة تاريخية أكثر تقدماً من التشكيلة الرأسمالية. ولكن كل ما أثبتت الممارسة التاريخية للاشتراكية الماركسية والمملنة هو بناؤها لهما من نوع شمولي غير مسبوق إليها في التاريخ فوق أنقاض الرأسمالية. بل لنقل إن ما أثبتته التجربة التاريخية للاشتراكية الماركسية والمملنة، وكما بالأولى المستلثة، هو أنه إن يكن من همجية في التاريخ الحديث فهي إنما في محاولة الخروج على الرأسمالية بوصفها التشكيلة التاريخية الأكثر تقدماً التي عرفتها البشرية حتى الآن. فالرأسمالية - لنقل ذلك بملء الفم - هي التشكيلة التاريخية غير القابلة للتجاوز لعصرنا. وصحيح أن جوانب بشعة شتى في الرأسمالية تتعارض وستظل تتعارض لأمد طويل مع المثل الإنساني الأعلى، ولكن ما يبقى أشد بشاعة من جميع بشاعات الرأسمالية هو البقاء خارجها بقوة العطالة التاريخية في المجتمعات المتأخرة، أو محاولة الخروج عليها بقوة العسكر أو الثورة في التجارب الفاشية أو الشيوعية.

ليس إذن، ولأجل غير مسمى، من غرب آخر غير غرب الرأسمالية. وما كان الغرب ليكون "عقلانياً، ديمقراطياً، تنويرياً،

علمانياً، بروميثيوسياً" لولا أنه كان في الوقت نفسه رأسمالياً. فنحن هنا، شئنا ذلك أم أبينا، أمام علاقة علة بمعلول. وليس من عجب أن تكون الديمقراطية والعقلانية، إلخ، قد ألغيت من جميع المجتمعات التي ألغيت فيها الرأس مالية، بالمعنى الليبرالي للكلمة، سواء كانت مجتمعات ما قبل الرأس مالية كما في العالم الثالث أم مجتمعات ما بعد الرأس مالية (بالتوهم الأيديولوجي) كما في التجارب الماركسية.

هل معنى هذا أن الرأس مالية هي الأفق الوحيد لتطور البشرية؟ بديهي أن لا، فقانون التطور أن يكون بلا أفق. ولكن أي تطور نحو أفق جديد لن يكون إلا من داخل الرأس مالية ومنجزاتها ومن داخل حركة نقدها لذاتها وتجاوزها لعيوبها.

ياسين الحافظ، المأسور مثله مثل كل واحد منا في تاريخيته، ما كان له أن يقطع حبل السرة الذي يشده إلى الماركسية بوصفها "ذروة العقلانية الكونية الحديثة" (ص ١٢٤).

ولكن ياسين، ذا الحس التاريخي والواقعي النامي والعظيم التوق - وهو ابن دير الزور - إلى كل ما يحمل سمة الحضارة، استطاع أن يدرك قبل كثيرين غيرنا، وأكثر من كثيرين غيرنا، أهمية اللحظة الغربية في التاريخ التراكمي لحضارة البشرية. ومن هنا توكيده، رغم عدائه الأيديولوجي الماحق لهمجية النظام الرأس مالي العالمي، على أطروحات ثلاث ذات منزع "تغريبي"

بالمعنى الحضاري للكلمة بالمضادة مع ما كان يسميه بـ "الفوات التاريخية" لمجتمعات "الشرق" و"الاستبداد الشرقي".

لقد حرص دائماً على التذكير بأن الماركسية ذاتها على جذرية عدائها: للنظام الطبقي للرأسمالية الغربية، هي "ثمرة حداثة المصنع الغربي" (١٠٣)، وأنها تمثل نتاج الأرقى "للفكر الغربي" و"التقاليد العقلانية الغربية" (ص ١٠٤)، وأن اللينينية نفسها، وليس فقط الماركسية، هي "نتاج الغرب الأصيل في منهجها، قيمها ونزواتها. وعلى هذا كان نقدها لغرب البورجوازي في سبيل تجاوزه إلى غرب اشتراكي" (١) (ص ٣٦).

وقد كانت لياسين الجرأة، ثانياً، على أن يتبنى علناً أطروحة - هي في غاية الجرأة أصلاً - لعبد الله العروبي مؤداها أنه بالنظر إلى الوضع التأخري والفوات التاريخي للمجتمع العربي الذي لم يعرف "ثورة ديموقراطية بورجوازية"، فليس من سبيل إلى تحديث الأيديولوجية العربية، تمهيداً لتحديث المجتمع العربي نفسه، سوى عقد زواج فريد في نوعه بين "الليبرالية التنويرية" و"الماركسية

(١) هنا يتقلب لقاءنا مع ياسين إلى افتراق. فلئن يكن قد رأى بحق أن النظرية الماركسية هي أولاً وآخرها نتاج غربي، فإن ما لم يره هو أن تطبيق هذه النظرية لم يكن في أي محل من المحال "غريباً". وقد يكون لينين نفسه امتداداً للغرب، ولكن اللينينية، طرداً مع تطورها إلى ستالينية - وهذه الثمرة من تلك البذرة - مثلت قطيعة مع "الغرب". وهذه القطيعة تعاضمت مع الشيوعيات الآسيوية والاشتراكيات العالماثلية التي قد يكون من المبرر تعقلها بمفهوم "الاستبداد الشرقي".

التاريخانية"، لأنهما، "على ما بينهما من تناقض"، "متكاملان"، واجتماعهما وحده هو الذي يقدم للمثقف العربي [عند العروي] وللثوري العربي [عند الحافظ] "مناهج وأدوات وقيماً تسهل له امتلاك الوعي الكوني المنشود" (ص ٢٨). فبدون هذا الجماع الشاذ بين الأيديولوجيتين المتناحرتين، فإن اليساري العربي لن يذوق في صحن الماركسية سوى "نفايات الغرب".

وكانت التجلية الكبيرة الثالثة لياسين، من منظور التوكيد على أهمية اللحظة الغربية في المسار الحضاري للبشرية، أنه "نقد الاشتراكية التي تفتقد إلى مرتكز ديمقراطي، بوصفها اشتراكية تقليدية ما قبل بورجوازية، أي "اشتراكية" تشكل الخطوة إلى الوراء قياساً بالمجتمع البورجوازي الحديث، وقال عنها إنها ليست اشتراكية بل "تأخرائية". ولهذا فقد نبه الرجل منذ ربع قرن الاشتراكيين الذين يستبدلون الديمقراطية بالاشتراكية قائلاً: "من الممكن للاشتراكي، فقط الاشتراكي الذي أنجز بلده ثورة ديمقراطية بورجوازية، أن ينتقد الديمقراطية البورجوازية. أن يدعو إلى تجاوزها" (ص ١٣٧).

كان من حق ياسين على الوجود - ومن حق الفكر العربي - أن يبقى على قيد الوجود. ولو كان عاش لانتهزت سانحة العشرين سنة من التجربة التاريخية التي ما عاشها لأدخل معه في حوار أبرر به "تمردى". فكما تمثلت تجلية ياسين في الخروج على — ■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■ —

"الأورثوذكسية"، فقد بات من حق "التلاميذ" أن يخرجوا على "أورثوذكسيته هو". ذلك أن هرطقة ياسين في مجال التحليل الطبقي للمجتمعات العربية قد تأسست من بعده في أورثوذكسية. فياسين هو من يتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية عن التكريس النظري لإخراج البورجوازية - أو البورجوازيات - العربية من التاريخ. فهو من "تبدى عن وعي مبكر وسباق في اكتشافه للطابع الكولونيالي التابع للبورجوازيات العربية والعالم ثالثة، ومن ثم استحالة أن تقوم بالدور الثوري الذي قامت به البورجوازيات الغربية" (ص ٨٤). وهو من حرر شهادة وفاة البورجوازية حتى قبل ميلادها بإعلانه القطعي عن انعدام "فرصة تكوّن طبقة بورجوازية حقة في المجتمع العربي المتأخر" (ص ١٠٦). وهو من نظّر وشرّع للاستغناء عن خدمات البورجوازية بدعوته المجتمع العربي إلى أن "يحقق ثورته القومية الديمقراطية بدون البورجوازية، ورغماً عنها، لعجزها وتقليديتها" (ص ٢٦).

ولكن ما دامت كل هرطقة ياسين تتمثل في دعوته "الفكر الثوري العربي إلى استيعاب الثقافة والفتوح الليبرالية بدون أن يعيش مرحلة بورجوازية" (ص ٢٠١)، فلنقل لياسين - ولو بعد الوفاة - إن التجربة التاريخية للعشرين سنة التي لم يقبض له أن يعيشها قد أثبتت استحالة أطروحته. فبدون بورجوازية لا ثورة بورجوازية. والليبرالية التنويرية هي مشروع تغيير جذري إلى حد يستحيل معه أن يكتب له النجاح، بله أن يخرج إلى حيز الوجود

أصلاً، بدون سند طبقي. وليس لفلسفة أخرى - أي الليبرالية التنويرية بتعبير العروبي والحافظ معاً - من طبقة تساندها سوى البورجوازية. ذلك هو درس التاريخ، وعلى الأخص درس السنوات العشرين الأخيرة.

وصحيح ما قاله ياسين من أن البورجوازية العربية متخلفة بالقياس إلى تربتها الغربية. ولكن الطبقة البديلة التي أوكل إليها ياسين الدور الثوري للبورجوازية - ونعني الطبقة العاملة العربية - تبقى متخلفة بالمسافة نفسها عن عديلتها البروليتاريا الغربية. ولئن مال ياسين في نصوص أخرى له إلى أن يقيم "الإنجلنسيا الثورية" بمثابة ونائبة عن البروليتاريا العربية الجنينية، فإن المسافة التي تفصل الإنجلنسيا العربية عن قرينتها الأوروبية لا تقل عن تلك التي تفصل ما بين البورجوازيين العربية والغربية. فالمسافة واحدة والمأزق دوماً واحداً. فبدون بورجوازية سيبقى أفق التطور البورجوازي "القومي"، "الديموقراطي"، "التنويري"، "العلماني"، "العقلاني"، مسدوداً دوماً.

لقد كان في وسع ياسين، باعتبار التاريخية التي كان مترمناً فيها بالضرورة، أن يرى إمكانية تطور بورجوازي بدون البورجوازية.

ولكن باعتبار تزمنا التاريخي، فإنه ما عاد أمامنا من خيار في ألا نرى استحالة التطور البورجوازي بدون بورجوازية.

وقد تكون كل فاجعة النكوص الراهن في الواقع العربي مردداً إلى أن البورجوازيات العربية، على ضعفها وتأخرها

النسبي، قد أجبرت على مغادرة مسرح التاريخ بالقوة - قوة
العسكر المتريّف والمستند بظهره إلى النظرية الثورية القائلة بضرورة
حرق المرحلة البورجوازية .

ففي واقع "تأخراكي" كالواقع العربي ما كان تغييب
البورجوازية يمكن أن يعني إلا إحضاراً لجنّ "الفوات التاريخي"،
وبهيئته الأكثر فواتاً: الأصولية.

وإلغاء التطور البورجوازي ما قاد إلى تطور ما بعد بورجوازي
وما فوق بورجوازي، بل حصراً إلى تطور ما قبل بورجوازي وم
دون بورجوازي .

وباستثناء الأقطار التي ما تمت فيها مصادرة البورجوازية، فإن
العالم العربي يطالعا بمشهد دكتاتوريات متريفة أو بدوية،
ومعارضات شاهرة سيف الدين القروسطي .

تلك كانت خطيئة ياسين وجيلنا كله .

فهل نقول، مع لرمنتوف، إن الخطأ ما كان فينا، بل في
العصر؟

أم نقول، مع شكسبير، إن الخطأ ما كان في العصر، بل فينا؟
أم نحلّ الإشكال بالقول إننا، نحن، صنعنا العصر الذي
صنعنا؟

عبد الرزاق عيد

ياسين الحافظ: الماركسية كوعي نقدي مطابق

منذ شهور قرأت في جريدة "السفير" اللبنانية مقالاً مفعماً بالشجن الدرامي الذي يومئ إليه عنوانه وهو "حتى أنت يا طرايشي"، وكاتب المقال، عبد الحفيظ الحافظ، هو من أصدقاء وتلاميذ ياسين الحافظ، وأظنه أصغر سنّاً من الحافظ وطرايشي لأن المقال ينطوي على إعجاب وتقدير مزدوج لـ "الحافظ وطرايشي". ومن هنا كانت رنة الحزن والشجن الدرامي، التي تسربت بها كلمات الرجل. فقد بدا مفاجئاً، بخسارتين، الأولى بالطبع، هي بالحافظ، والثانية بطرايشي.

فقد بدا للكاتب أن طرايشي قد ضيَّعه، وهو إذ يضيِّعه (الحافظ) فإنما يضيِّع ذاته، التي هي بعين كاتب المقال كانت بمثابة سفير لليسار الديموقراطي في أوروبا، فإذا بالسفير المرتجى، يخيب الأمل إذ يضحى بالحافظ بكرنفالية كابوسية وهي تقييم أفراحها وأعراسها بتشجيع الماركسية ودفنها ببهجة رأسمالية فاجأت صاحب المقال فاستفاض بصرخة يوليوس قيصر "حتى أنت يا طرايشي".

لماذا أستعيد هذه اللحظة الدرامية الشكسبيرية؟

إن ما يحرّضني على استعادتها، أنه كلما دار الحديث عن ياسين الحافظ، فإن العنصر الشخصي الوجداني يتسلل ليباطن الموضوعي، وجورج طرابيشي يعبر عن ذلك في إعلانة العجز "عن القراءة الموضوعية الخالصة لفكر ياسين ولأية قراءة لفكر ياسين ولو كانت في ذلك المستوى الرفيع من الموضوعية الذي أراده عبد الرزاق عيّد لقراءته"، حيث يرى في كتابنا "نقد حدائث التأخر" أنه "قصيدة حب لياسين الحافظ، ولكنها قصيدة حب غريبة في نوعها، فهي مكتوبة لا بمفردات وجدانية، بل بمفاهيم نظرية صارمة".

بل يستهل مقاله بأسلوبية سردية تروي حكاية العلاقة التي ربطته بالحافظ، واصفاً إياه بمثابته "المربي الكبير له".

لسنا الآن في وارد التنويه بالنبل الأخلاقي لجورج طرابيشي عندما يقر بهذه الأستاذية التربوية للحافظ، في زمن الغدر والنكران والطعن في الظهر للأساتذة والمربين والرواد والمؤسسين لفكرنا العربي الحديث والمعاصر من قبل الأبناء والأحفاد! بل إننا نحاول تلمس هذه الشفافية للبطانة الوجدانية والذاتية التي تحيط بالكتابة عن الحافظ، حتى من قبل المنقّلين عليه والمتسردين على أبيوته وأستاذيته. بل يمكن القول إن بداية تفكيري في الكتابة عن الحافظ أتت في هذا السياق الوجداني.

ففي الفترة التي كان يصدر فيها الكتاب الدوري "قضايا وشهادات" طاف في ذهننا وخاصة المرحوم سعد الله ونوس وفيصل دراج وعبد الرحمن منيف إصدار أحد الكتب الدورية، تحت عنوان "مظالم الفكر العربي"، ونظراً لاهتمامي بياسين ودعوة الأصدقاء إلى ضرورة قراءته وتقويمه من جديد في الظروف العالمية الجديدة، فقد اقترح عليّ المرحوم سعد الله ونوس أن أتناول ياسين الحافظ بوصفه المظلوم الأكبر، ببساطة لأنه كان المنشق الأكبر على يقينيات الخطاب العربي الحديث والمعاصر (الليبرالي والقومي والماركسي)، ومع الأسف لم يكتب لهذا المشروع أن ينفذ. لكن هذه الفكرة النواة ترجمتها في كتابي "نقد حداثة التأخر" الذي تفضل العزيز جورج مشكوراً بقراءته ونقده.

لماذا هذه المقدمة التي تلح على أن أتناول فكر الحافظ كان يتم دائماً تحت ضغط لحظة الوجدان الشعوري الضميري، أم اللاشعوري المعرفي؟

هذا السؤال يجيب عليه جورج برهافة فرويدية جذابة مغرية بل مشوّقة، بأنه "في زمن أزمة الماركسية الجذرية الذي هو زمننا، وجدت ماركسية الأخ الأصغر التي هي ماركسية عبد الرزاق عيد سقفاً تلتجئ إليه في حماية ماركسية الأخ الأكبر أو الأب المؤتمل التي كانتها ماركسية الحافظ، ومن هنا الغنائية في التعاطي بين القارئ والمقروء. ولكنها دوماً الغنائية المفهومية".

لكن هذا التأويل يفقد جاذبيته وتشويقته، عندما ينتقل الصديق جورج من الحديث عن أزمة الماركسية، وهو توصيف نتفق معه عليه، إلى الحديث عن "موت الماركسية - انفجار الماركسية - محو الماركسية من فوق الأرض عام ١٩٩٠ - غرق قارة الماركسية". فبعد هذه الإعلانات عن دفن الماركسية يقول: "لعل ما نقوله اليوم بعد غرق قارة الماركسية كان الحافظ سيقوله قبل غرقها. ومن هنا بالتحديد خلفنا مع الصديق عبد الرزاق عيد". والصديق جورج محق بذلك فهنا بالتحديد خلفنا معه.

لكن قبل مناقشتنا لهذه المسألة الجوهرية في تغاير المنظور الذي قاد إلى هذا الخلاف، لا بد من التوقف عند تفسير استحالة الحيادية والقراءة الموضوعية الخالصة، التي أولها صاحب "انفجار الماركسية" تأويلاً نفسانياً، بأن قراءتنا كانت قراءة بَنوية يلتجئ فيها الأخ الأصغر إلى الأخ الأكبر أو الأب المؤمئل، وعلى هذا فهي قراءة تواصلية بينما قراءته قراءة تتمرد على الأب، فهي بهذا المعنى انفصالية تجاوزية.

ولقد نوّهنا بجاذبية هذا التأويل لو أن المسألة في حدود أزمة الماركسية، فمن المفهوم على مستوى التجربة الذاتية أن يتم تجاوز الأزمة في البحث عن نموذج، مثال أعلى، قادر في كماله على تجاوز أزمة النقص، أزمة البحث عن حل، لكن بالتأكيد لا يمكن البحث عن حل، أو ملاذ في حماية الأخ أو الأب المؤمئل في صورة الموت، أو الانفجار أو المحو، ولا نظن أن صاحب "انفجار

الماركسية" يظن فينا هذه السلفية المقيتة (عبادة الأجداد الأموات)، وإلا لكننا عدنا إلى الجسد الأول في صورة ماركس ذاته، كما يعاد إنتاجه من قبل العديد من الفصائل الشيوعية التي لا تزال على قيد الحياة، وهي تستعيد صورة الجد الأول في صيغته المؤمثلة بستالين، كفصيل خالد بكداش الذي لا يزال حتى اليوم، يرفع في مكاتبه صورة الأبوين ستالين وخالد بكداش!

يتحدث صاحب "انفجار الماركسية" عن تجربته الشخصية في العلاقة بالأخ والأب، فكان يأخذ على الحافظ ناصرته، رغم حرصه على نقدتها، في حين أنه لم يستطع قط أن يكون ناصرياً، رغم إغراء عبد الناصر له في أن يكون "أخاً أكبر"، لكنه لم يرتق إلى مستوى "الأب المؤمّل". فحاجته - على حد تعبيره - "إلى التمرد على الأب كانت على الدوام أقوى من حاجته إلى الانضواء تحت لواء أب حام".

هذا البوح الداخلي الذي يترسل ليراسل داخليا مع القارئ، يغريني ببوح عمائل وهو أنني لم أعش في أي يوم من الأيام مشكلة العلاقة مع الأب (انصياعاً أو تمرداً) فقد حُببت بأب مستمر وفق فلسفة الطبيعة، أي بدون فلسفة، فهو كزوربا يعتقد أن الله لم يخلق الحياة إلا لتعاش حتى النخاع، وهو يعتقد أنه لا ينبج أطفالاً بل رجالاً، ولهذا لا أذكر أنني عشت طفولة أو بنوة في علاقتي معه، بل كانت علاقتنا رجلاً لرجل، إذ لا يقبل أن يشكو أو يُشتكى إليه، وقد توفي رئيساً لرابطة رجال الثورة السورية

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

الكبرى، وشعاره الحياتي الوحيد الذي يردده دائماً بانتشاء، قول
عترة لعبلة :

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعفُ عند المغنم

هذا على المستوى الشخصي في العلاقة بالأب، أما على
المستوى الفكري فانتمائي للناصرية المبكر لم يحل دوني والانقلاب
عليه إسلامياً بعد إعدام سيد قطب، ثم الانقلاب على سيد قطب
ليبرالياً من خلال طه حسين الذي عرّى التاريخ أمامي من كل
لبوسه الكهنوتي والطقسي، ثم انقلبت على ليبرالية طه حسين
باتجاه ماركسية كهنوتية أرثوذكسية، وفي المتصف الثاني للثمانينيات
وفي ظل البيريسترويكيا السوفياتية، كتبت كتابي "نحن
والبيريسترويكيا"، حاولت من خلاله إعادة إنتاج البيريسترويكيا
محلياً، أي كيف يمكن إعادة بناء الحركة الشيوعية عريباً؟ وقد
كلفني ذلك الطرد من الحزب الشيوعي السوري، وحملة شعواء
معروفة مفرداتها (تحريفية، ارتداد، تكتل، ليبرالية، بورجوازية
صغيرة، عمالة، وأخيراً استعداد السلطة وتحريضها... إلخ".

لماذا أسوق هذه الاعترافات؟

- إن الصياغة السردية عبر أنا المتكلم التي استهل بها جورج
مقاله، حرضت أنا المتكلم عندي على السرد والبوح والإفشاء.

- إن انتقالاتي هذه، يصعب أن تفسر وفق دياكتيك ذاتي
يقوم على تضادات (الانضواء/ التمرد) مع الأب، رغم أهمية هذا

الديالكتيك في إنارة حركة الذات وهي تصطدم بالموضوع، لكن مع الأسف فإن الصديق جورج اختار منذ زمن أن يتمرد على أبوية ماركس، لكن ليستبدلها بأبوية فرويد، وبذلك انتقل من أبوية إلى أبوية أخرى، رغم أن تياراً واسعاً في الفكر الأوروبي (وأظن أن جورج قد ترجم الكثير منه) قال بالمصالحة بين الأبوين، باعتبار كل واحد منهما فاتحاً لقارة، الأول (ماركس) فتح قارة التاريخ، والثاني (فرويد) فتح قارة النفس الإنسانية، والعلاقة بين القارتين ليست علاقة تناظر وتضاييف وتجاور، بل علاقة تداخل وتواصل وتفاعل، وأظن أن تعدد الآباء كان سيسهل للعزيز جورج مشكلته في التمرد على الأب، إذ أن تعددية الآباء تعني رفض واحدية وصاية السلطة الأبوية، إلا إذا كان في الأمر مساس بتفتح جرح نرجسي آخر في النفس، هو جرح الخطيئة والزنا والدنس، من خلال الانتماء إلى الأم فقط!

- هذا التراسل الداخلي مع صاحب "انفجار الماركسية" إنما هو مدخل للقول بأن فكرة الكتابة عن الحافظ في التسعينيات، كانت مطروحة ومتداولة ومحل اهتمام في المنتصف الثاني للثمانينيات، تاريخ صدور الكتاب الدوري "قضايا وشهادات" المشار إليه، بالإضافة إلى أنني منذ هذه الفترة كنت "أهرب" بعض مقولات الحافظ في المقالات، ومن ثم في كتابي عن البيريسترويكا لتطبيع اسمه وشرعته في أذهان الشيوعيين الشباب. حيث أن الحافظ ومرقص وطرابيشي من المرتدين الأوائل المحرمة

قراءتهم وفق وصايا وأوامر المؤسسة الكهنوتية، ومن حسن حظ الثلاثة "المرتدين" أنهم عاشوا في مرحلة لاحقة، لم يكن متاحاً للكرادلة والفقهاء (الستالينيين) فيها أن يصدرُوا أوامراً لقواعد الحزب أن "تبصق" عليهم، كما حدث من قبل مع رثيف خوري! أقول إن تجدد اهتمامنا بالحافظ - كان سابقاً على "أزمة أو انفجار أو موت أو محو الماركسية في سنة ١٩٩٠".

بل تزامن هذا الاهتمام المتجدد مع الفضاءات التي أشاعتها البيريسترويكا، الأمر الذي من شأنه أن يبعث الدهشة تجاه وعي الحافظ المبكر - منذ السبعينيات - لمجموع العيوب والمثالب التي كشف النقاب عنها في سياق العلنية التي أطلقتها البيريسترويكا في أواخر الثمانينيات.

أي أن اهتمامنا بالحافظ ولد في زمن إمكانات تجدد الماركسية، لا في زمن أزمتهَا أو انفجارها، ومن هنا فإن الحافظ كان حضوره راهنياً ومتألقاً، من خلال ما بد لنا ذلك التطابق بين خطاب البيريسترويكا الراهني في أواخر الثمانينيات وخطاب الحافظ قبل عقدين، بغض النظر عن النتائج التي آلت إليها البيريسترويكا السوفياتية، لأن الحقيقة لا يبرهن عليها من خلال النجاح أو الإخفاق، بل في الصيرورة ذاتها وفق هيغل.

قد يقول قائل: إن العيوب والمثالب المتمثلة بالتوتاليتارية الستالينية وأزمة الديمقراطيات التي اعتورت التجربة السوفياتية، لم

يكن الحافظ الوحيد الذي عابها على التجربة وانتقدتها وندد بها، بل كانت الترسانة الإعلامية الغربية تدك التجربة السوفياتية دكاً بمسألة الافتقار إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان. بيد أن ما يميز الحافظ في موقفه النقدي وتقويمه السلبي للتجربة السوفياتية يأتيها بالضبط من الاتجاه المعاكس للغرب، وهو اتجاه التعاطف والتضامن مع التجربة، لكي تبرأ من عيوبها، انطلاقاً من موقف قومي يرى في استمرار الاتحاد السوفياتي كسباً للقضية العربية في الصراع مع الصهيونية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى استجابة لمصفوفته النظرية التي يتشابه فيها الليبرالي بالقومي بالاشتراكي، وهو يعي بعمق نظري متميز حاجة روسيا إلى تراث ليبرالي ديمقراطي تفتقر إليه بسبب تأخرها، ولهذا فهي لا يحق لها نقد الديمقراطية البورجوازية باسم ديمقراطية اجتماعية أو اشتراكية، لأنها لم تنجز الثورة القومية الديمقراطية بالأصل، لتمتلك الحق التاريخي في الحديث عن تجاوز الديمقراطية الليبرالية على المستوى الفكري والسياسي كمكتسب تنويري على الأقل دون المرور الضروري بالرأسمالية، وإلا فإن الاشتراكية لا يمكن أن تبنى على قاعدة قروسطية، عندها ستكون "تأخرائية" بسبب هذا التلاقي بين التراث الأوتوقراطي الروسي، والتوتاليتارية الستالينية.

- الأمر الآخر الذي لا بد من التوقف عنده، قبل مناقشة مسألة الخلاف الأساسية، وهي مسألة أزمة أو موت الماركسية، هو التوقف عند تلك الثغرة التي كانت في سور العلاقة التي كانت

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

تشدد جورج إلى ياسين، " هذه الثغرة هي ناصرية ياسين التي كانت، رغم حرصه على أن يبقها نقدية - من طبيعة وجدانية"، ويعقب جورج مظهراً هذه الثغرة بأنه لم يستطع قط أن يكون ناصرياً رغم الإغراء الهائل لعبد الناصر عليه.

هل ناصرية ياسين من طبيعة وجدانية رغم حرصه على أن يبقها نقدية؟

لا يسعنا أن نورد الأمثلة الكثيرة حول النقدية العقلانية الراديكالية التي اتصف بها خطاب ياسين وهو يتحدث عن الناصرية، وما يبدو من ناصرية "وجدانية" في خطاب ياسين لا يخرج عن ترسيمة ياسين النظرية عن الثورة القومية الديمقراطية، وعن المصفوفة المعرفية التي تتأسس عليها شبكته المفاهيمية. فالثورة القومية الديمقراطية، من منظوره التاريخاني، هي التي استدعت الليبرالية كمكسب نظري ضروري، دون ضرورة عيشه اقتصادياً، وهي التي أجلت الاشتراكية كمشروع مطروح للتنفيذ، وهي التي أملت على ترسيمة ياسين أولوية العلمانية والديموقراطية بوصفهما وجهين لا بد منهما للثورة القادرة على الانتقال بالمجتمع من "مجتمع الملة" إلى "مجتمع الأمة".

من هنا، ووفق هذه الترسيمة، كان نقده الجذري للناصرية، لكونها تفتقر إلى العنصرين الرئيسيين في الثورة القومية وهما العلمانية والديموقراطية. فقد نقد النزعة الأبوية للناصرية، التي

تقود إلى الوصاية على المجتمع، وإلغاء قواه الاجتماعية الفاعلة، من خلال تقويض المؤسسات الديمقراطية لصالح الزعامة الكارزمية.

بل إن ياسين يعزو هزيمة عبد الناصر في حرب ١٩٦٧، لكون الناصرية ثورية سياسياً، لكنها محافظة فكرياً، من هنا كان عبد الناصر - بحسب ياسين - يحصد الأخوان المسلمين سياسياً، بينما يزرعهم في مفاصل الدولة، يحتلون المواقع المفتاحية في مجال التعليم والثقافة، بدلاً من علمنة الثقافة والتعليم. إذن فالمشروع القومي لعبد الناصر - تاريخانياً - يفتقر إلى العنصرين (الديموقراطية والعلمانية) ولم يتلجج في نقده النظري الرفيع للمشروع القومي الناصري، ولأول مرة يرتقي الخطاب العربي، معه، في تناوله لمسألة العلمنة والديموقراطية، من المستوى السياسي إلى المستوى المعرفي المؤسس فلسفياً.

لكن المظهر الوجداني في ناصرية ياسين، يتأتى من أن نقده للناصرية لم يكن من موقع عداء، تماماً كنقده للسوفيات، بل نقول من موقع التضامن والدعم والتأييد لثورتها القومية السياسية، لكن مع ذلك فإن هذه الثورة السياسية كان يراهن على إمكاناتها الديمقراطية والعلمانية.

- كان يرى بعض آفاق الديمقراطية في الناصرية، تتمثل في عملية تسييس نادرة لم يشهدها العالم العربي، حيث لأول مرة

بدأت الرعية تتحسس ذاتها بوصفها كتلة (أموية) تشدها روابط المواطنة، والهوية القومية، إذ تمثل الناصرية مرحلة استثنائية في التاريخ العربي، عندما تمكنت من إخراج الناس من انكفائهم وعزوفهم وعزلتهم القروسطية، إلى فضاء الشارع ورحابته المدنية، ومن هنا كان ياسين يعتبر الناصرية فرصة تاريخية ينبغي أن لا تضيع على الأمة، وإن أقر بعد الحقبة "الشخبوطية" على حد تعبيره، بأنها كانت فرصة تاريخية ضائعة على الأمة، حيث سينزع التسييس، وتعود الكتل المليونية إلى كهفها الرعاعي في ظل التاج الملكي أو القبعة العسكرية، ولم تتمكن من الخروج حتى اليوم بعد أن ازدادت إلغاء وركوباً وتهميشاً وتهشيماً، مذلة مهانة لا تجد إلا في المسجد ملاذاً لكرامتها المهدورة، تنفث في فضاءاته آهاتها المقهورة لتجأر بها إلى السماء، فيزداد فرح السماء كلما ازدادت الأرض بؤساً على حد تعبير ماركس "الميت"، الذي أبّنه جورج، في حين أن الرأي العام الإنكليزي الموسوم بالمحافظة، يصوت لماركس بأنه مفكر الألفية الثانية!

وياسين وفق قاعدته الأثيرة عن الوعي المطابق، وجد في عبد الناصر ممثلاً حقيقياً لمنسوب الوعي التاريخي الواقعي للأمة فيما هي عليه، بينما عجزت الناصرية عن تحقيق المستوى الآخر من الوعي المطابق المتمثل بالاستجابة لممكنات التغيير العقلاني لمقولية الواقع فيما هو عليه، للارتقاء به إلى مستوى العقل، ومن هنا فقد كان نقده للناصرية نقداً تحفيزياً، تحريضياً، يراهن عليها كفرصة

تاريخية ينبغي أن لا تضيع . وكانت تتلامح له هذه الفرصة ليست في صدق ونزاهة عبد الناصر فحسب، ولا في هذه الكارزمية الحقيقية التي جعلت منه أسطورة في الوعي الشعبي المرهق بذل لقمة العيش، وهوان كرامة الأوطان، بل كانت تتلامح له هذه الفرصة بعينه الصقرية الحاذقة، وهو يرى الغرب واضعاً كل ثقله في ميزان هزيمة عبد الناصر عندما بدأت تتكشف مؤهلاته وممكنات اللحظة التاريخية على قيادة الأمة وتوحيدها. ويأسين يلتقط بنباهة لافتة أن عبد الناصر لم يتلمس خطورته وأهميته الذاتية على مستوى المستقبل القومي العربي إلا عبر الغرب، وعلى هذا بدأت دوائر عبد الناصر الإسلامية والأفريقية تضيق لصالح اتساع مساحة الدائرة العربية، فترجع المستوى الأفريقي والإسلامي في خطاب عبد الناصر ليحل محله الخطاب العربي، من خلال صياغة استراتيجية مضادة للغرب، الذي أدرك عبد الناصر من خلال الاستراتيجية الغربية أين تكمن خطورته، فقلب للغرب ظهر المجن، وكان عليه أن يكتفي وهو الضابط الوطني أن ينتظر الأطروحة، ليصوغ الأطروحة المضادة، ما دامت المبادرة ليست في يد العالم الثالث.

من هنا فإن ياسين كان يراهن، على المستوى الآخر، وهو ممكنات ارتقاء الناصرية من مستوى منسوب الوعي التاريخي الراهن للأمة (الوطني - الإسلامي - العروبي) إلى مستوى الوعي التاريخاني الكوني الحديث، عبر الارتقاء بالخطاب القومي من

مستواه الشعبي - وفي ذهن الحافظ ثورة صن يان صن القومية الديمقراطية الحديثة في بداية القرن العشرين في الصين التي كانت مثالا يستشهد به لينين حول إمكانات تحول الحركات الشعبية الفلاحية إلى حركات ديمقراطية ثورية تقطع مع تاريخ الاستبداد الشرقي، وتتوجه نحو أنوار الغرب.

فلعل الحافظ قد راودته نماذج عديدة لقادة تاريخيين كان يتنظر عبر نقد الناصرية البناء، وعبر نظافة الحس الوطني، ونباهة بدهاء الحس السليم عند عبد الناصر، ومجموع تجاربه العائرة مع الغرب أن تتوحد فيه إمكانات الثورة القومية الديمقراطية البورجوازية وممكنات الثورة الاشتراكية، ولهذا ربما تمازجت في ذهنه صور كمال أتاتورك وصن يان صن وماوتسي تونغ بوصف هذه الصورة تمثل إمكانات الناصرية، وذلك في بداية الستينيات حين كان يراهن على الاشتراكية كمشروع قائم للتو، لكن عندما راح يستبعدها في مصفوفته إلى مستوى المنهج، كان يطمح أن ترتقي الناصرية إلى مستوى الثورة القومية الديمقراطية بالضرورة والعلمانية بالضرورة، لأن الثورة القومية، هي ديمقراطية وعلمانية بالضرورة تعريفاً.

ولهذا فقد اعتبر أن حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كانت تستهدف رأس عبد الناصر الذي كان الفرصة الوحيدة الممكنة لمشروع قومي عربي ديمقراطي علماني، ولهذا أعلن وهو مفعجوج الوجدان ومحطم العقل، بأن الناصرية فرصة ضائعة على الأمة العربية، وعلى هذا كانت ناصرية الحافظ، ناصرية تاريخانية،

عقلانية تنطلق من قانونه الأثير عن الوعي المطابق، لكن وجدانية ياسين لا تتأتى من خلال هذه الصميمة الداخلية التي يبشها كلماته، وكأن ريشته تستمد مدادها لا من دماء القلب فحسب، بل من وعي شقي، يكمن مصدر شقائه في طليعيته القائمة على استكناه اللحظة واستنباء القادم، مما يفضي إلى هذا الإحساس الفجائعي والشعور الدرامي بالزمن، حيث يجعل من كتابته النظرية ذات الكثافة العقلية والاكتظاظ الروحي المازقي نوعاً من أنواع التراجيديا الخاصة، تراجيديا الزمن وهو يفرّ من بين أصابع أمة بلغت بها الشيخوخة حد أن تكون اللحظة الناصرية نيزكاً خاطفاً في ظلام بهيم.

إن الحس الديموقراطي القومي العميق لدى ياسين كان يدفعه باتجاه تلمس المنافذ الأقرب للوصول إلى جماهير الأمة، ومن هنا فإن الناصرية قد بهرته بقدرتها على فتح كل هذه المنافذ على الناس، لقد دخل عبد الناصر معركة كسر عظم مع الأخوان المسلمين الذين خرج من صفوفهم، وقد هزمهم هزيمة نكراء توجت بإعدام الرمز الأكبر لهم (سيد قطب) وكانت الجماهير إلى جانبه، ولم يضطر للمدافع أو الدبابات أو خوض حرب أهلية وقصف مدن كما حدث ويحدث بعده.

دخل معركته مع الشيوعيين وكانت الجماهير معه، وانهمز في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وكانت الجماهير معه، وعلى هذا فإن هكذا شخصية استثنائية إنما هي تعبير عن زمن استثنائي يجب استثاره

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

حتى النهاية، ومن هنا كان موقف ياسين الاستثنائي في وسط الماركسيين العرب، ومن هنا كان تأكيده على أن السنة هم ممثلو الضمير الجماعي للأمة العربية، ومن هنا أيضاً كانت معركته الفكرية على جبهتهم لتحريرهم من "سنويتهم"، فهم الأكثر تأخراً من بين شرائح الأمة، لكنهم أكثرية الأمة، وأي موقف ديمقراطي لا يحترم هذه الحقيقة، فإنه مشكوك بديمقراطيته، وهذا ما صاغه ياسين كأطروحة تمتحن مصداقية المثقف اليساري الديموقراطي الذي ينحدر من أوساط أقلوية، وتتمثل هذه الأطروحة في القول: ما دام السنة هم الأكثرية، فهم الذين يمثلون الضمير الوطني والقومي للأمة، وهم بالتالي الذين يملكون القرار التاريخي لتقدم الأمة، فلا بد للمثقف الوطني الديموقراطي المتحدر من أي وسط ديني أو إثني أو طائفي، أن يعمل على جبهة تحرير السنة من "سنويتهم" بوصفهم أكثرية الأمة لكنهم الأكثر تأخراً. ومن هنا كانت معركته في سبيل الديموقراطية والعلمانية على هذه الجبهة، هي المعركة ذاتها التي كان يخوضها على جبهة الناصرية التي كانت جبهة السنة ذاتها، في حين كانت الأقليات الدينية والطائفية بل الحزبية متوجسة، وفي الحالات الأكثر معادية.

من هنا يمكن القول إن التمرد على الأب "الناصري" في وسط هذه الأقليات لم يكن تمرداً، بل انصياعاً وانضواءً تحت لواء آباء حامين آخرين طائفيًا أو سياسيًا، بينما التمرد على الأب، هو ما قام ياسين به في وسط ماركسية عربية إن لم تكن معادية فهي

غير مرحبة، وغير ودودة نحو الناصرية، وعلى هذا فقد ترمد ياسين على النموذج الأبوي - الماركسي، ولم يتردد وفق قانون الوعي المطابق أن يقوم بنوع من المصالحة بين الناصرية كثورة قومية بحاجة إلى الديمقراطية والعلمنة، وبين الماركسية التي بحاجة للتبئ والاستنبات في بيئة عربية مغايرة ومختلفة، وبين الليبرالية كعمق تاريخي تنويري عقلاني ضروري للثورة الديمقراطية بعمقها القومي أو الاجتماعي.

وإذا كان لا بد من الحديث عن طبيعة وجدانية في علاقة ياسين بالناصرية، فتمثل بتلك النزاهة الرسولية، وروح الطوبى التي تجمع بين الاثنين، حيث توج عبد الناصر أخلاق الطوبى بموته، وذلك أنه هو الوحيد في التاريخ العربي والإسلامي بما فيه عصره الذهبي الراشدي، الذي يموت وهو لا يملك بيتاً باسمه الشخصي، وأظن أن هذه السمة لا يشاركه فيها أحد حتى في تاريخ الغرب.

ولا بد من التنويه في هذا السياق بأن الناصرية هي التي أسست لمجتمع الدولة في مصر، حيث لا يوجد اليوم في العالم العربي، أية دولة عربية لا تحكم بقوة الغلبة والشوكة اعتماداً على عصبية عائلية أو طائفية، سوى الدولة المصرية، التي أنهت مع الناصرية دولة العائلة، وعلى هذا فهي الاستثناء اليوم، إذ أنها الوحيدة التي لم تهبط - بحسب تعبير الحافظ - إلى الدولة المملوكية ما قبل الدولة الكولونيلية، بغض النظر عن تقويمنا لحكامها ومدى

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

أحجامهم بالنسبة لقامة عبد الناصر، لكنها ظلت الدولة الوحيدة التي لا تزال فيها القوانين ذات مرجعية فعالة، في وسط من الدول العربية التي تعتبر دولها، كما أعلن أحد أقارب عثمان للجماهير المحتشدة أمام منزل عثمان (السواد - أي العراق - بستان قریش)، حتى باتت بعض الدول العربية - وفق المعايير الدولية - تعتبر من الدول الخمس الأكثر فساداً في العالم، فأصبحت الأوطان مستعمرات للحكام (العائلة - القبيلة - الطائفة) وعلى هذا ففلسطين ليست المستعمرة العربية الوحيدة!

أزمة الماركسية أم موتها؟

لقد عبّر "ناظم حكمت" يوماً متحدثاً عن أولئك المأخوذین بكل صرعة من دعاة الحدائثة الشعرية، قائلاً إنهم جاهزون دائماً لأرجحة الجذع على دربكة كل إيقاع طارئ، وأنا أجلُّ العزيز جورج أن أسمي نزوعه للتمرد على الأب "أرجحة للجدع"، فالرجل انتقل من أبوية الماركسية إلى أبوية الفرويدية، وعلم النفس التحليلي بشكل عام قبل زلزال ١٩٩٠ وما يسميه بانفجار الماركسية، لكنني أشير إلى أولئك الذين يمارسون السياحة الثقافية، فيتخطرون بين طهران وباريس، ومكة ولندن، دون أي إحساس بالتناقض، سيما إذ كانوا قادمين من بعد عاصفة الصحراء للحج في مكة، وهم لا يفتأون، يأكلون على موائد معاوية ويصلون خلف علي!

لكن ما يلفت الانتباه في تحولات صاحب "انفجار الماركسية" هذا الإلحاح والإثارة في التوكيد على هجره للماركسية سيما بعد "الانفجار"، وسيما أنه بالأصل مع ياسين الحافظ لم تكن ماركسيتهما "مسفيتها"، وبالتالي فالصدمة ينبغي أن يكون وقعها أقوى علينا، أولئك الذين كنا خلال عقود من الزمن نؤمن بالماركسية السوفياتية، رغم كتمان الكثيرين منا - الذين عشنا رداً من الزمن في أوروبا - نقدهم العلني للستالينية، لأننا كنا نرى في ثورة أكتوبر، ليست فقط ثورة اشتراكية ستكون البؤرة الثورية للإطاحة بالرأسمالية، بل كان يقر في نفوسنا، نحن أبناء الشعوب المتأخرة أن التأخر ليس قدراً، وأن السوفيات الذين غزوا الفضاء لم يكونوا أكثر تقدماً بكثير من البلدان النامية، بل والعربية ومن هنا ينفتح الباب لدور الأنتلجنسيا، الذي راهن عليه الحافظ كبديل لدور الطبقة العاملة في مجتمع "البداءة والتخابط الطبقي" - وليس كما يذهب جورج على مراهنة الحافظ على الطبقة العاملة ثم الأنتلجنسيا. فتورة أكتوبر بما انطوت عليه من عوامل ذاتية، فتحت الأبواب لاقتحام السماء ولنزعة إرادية خارقة. فبلد متأخر كروسيا، ولا يملك سوى صناعات بدائية، وطبقة عاملة ضئيلة وسط قارة فلاحية، تتمكن بفضل دور الأنتلجنسيا أن تؤسس ولفترة، إمكانات تغيير وجه العالم الذي هزته، فهذا ما يدغدغ نرجسية المثقف في البلدان النامية، حيث لأول مرة في تاريخ البشرية يتحقق حلم الحكماء والمفكرين، في أن يقود المفكر العالم،

فكانت قيادة ثورة أكتوبر الأرقى فكرياً وثقافياً بين كل الحكومات التي عرفها التاريخ، فكل واحد منهم ترك عشرات المؤلفات في الفكر والفلسفة والثقافة والأدب، بمن فيهم ستالين الأكثر جهلاً، والأكثر عرضة لسخرية وتهكم تروتسكي، عندما كان يقول له في الاجتماعات التي تخص الخطة الثقافية: اجلس يا رفيق فنحن نتحدث في الثقافة!

ومع ذلك كان هذا الجاهل لا يكتب بمسائل النظرية السياسية، ومسألة القوميات، والتعريف بالماركسية فحسب، بل كان لديه الوقت ليكتب في مسائل فقه اللغة، طبعاً بغض النظر عن أهميتها وقيمتها، فلنا في سياق تقويم هذه الأهمية. ليس هذا موضوعنا، فما يعيننا من الإشارة السابقة، أن المأزوم، والذي مات هو وعينا نحن الذين عشنا ردهاً مع الزمن مع الأحزاب الشيوعية تنظيمياً، أو صداقة أو تأييداً، وأن من حق الحافظ وطرايشي أن يقولوا لنا: ألم نقل لكم، لأنهما كانا مع إلياس مرقص - وأنا أتحدث هنا في حدود التجربة السورية - ماركسيين نقدين جذريين للماركسية المسفيتة، وللأحزاب الشيوعية المسفيتة. وعلى هذا فإن الذي سقط وانهار، هو النموذج السوفياتي، وسقوطه وفق ترسيمة الحافظ - هو سقوط لتجربة اشتراكية يستحيل أن لا تكون ديموقراطية حتى بالمقاييس البورجوازية، لأنها بذلك ستغدو اشتراكية تقليدية "تأخرائية"، وكان يعتبر وضع الاشتراكية في معارضة الديموقراطية "مكراً أو غباء" فمن منظوره التاريخاني،

صاغ أطروحته الشهيرة حول غياب أو مكر الاشتراكي الذي ينتقد الديمقراطية البورجوازية باسم الاشتراكية، قبل أن ينجز بلده ثورة ديموقراطية بورجوازية .

وعلى هذا، فإن الإشكالية التي يصوغها الصديق جورج بصيغة سؤال: "لو قيض لياسين أن يعيش إلى هذه اللحظة، فهل كان سيبقى متمسكاً بجهاز مفاهيمه الذي يحضه عبد الرزاق عيد مؤلف "نقد حداثة التأخر" تمام انتمائه؟ والمحفز لهذا السؤال هو واقعة "أن ياسين توفي قبل وفاة الماركسية نفسها بعقدين من الزمن" .

سنجازف مع الصديق جورج في معاورة هذا التساؤل، الذي يتحول إلى الإشكالية المركزية لحواره، رغم أن "لو" تفتح عمل الشيطان، كما يقال، لكن مع ذلك فإن أعمال الشيطان كثيراً ما تكون مغرية لإعمال العقل والتفكير، سيما أن العقل الفقهي الكهفي، يتلخص تعريف العقل عنده بوصفه معادلاً للشيطان الذي يوسوس في صدور الناس .

إن المفارقة الثاوية في خطاب جورج أنه - مع العديد من المفكرين الماركسيين عربياً وعالمياً، كانوا ينظرون إلى التجربة السوفياتية الاشتراكية بوصفها "رأسمالية دولة" كما كان يوصفها سمير أمين، أو هي "مزيج من التقليد الأوتوقراطي الروسي، الذي كُسي بقشرة ماركسية في الحقبة الستالينية" وهي بالمحصلة،

ما دامت لم تحقق الثورة الديمقراطية، فهي ليست اشتراكية بل (تأخرائية)، كما كان يفكر ياسين، فما سقط هو "التأخرائية المتمثلة برأسمالية الدولة"، أو هي اشتراكية الدولة التي لا يتحقق في ظلها سوى مساواة الناس بالعبودية وفق ماركس نفسه.

فالأولى بالنسبة لهؤلاء المفكرين أن يعتبروا أن تجربتنا التاريخية أثبتت صحة وجهة نظرهم، فأسقطت نموذجاً لرأسمالية الدولة الأوتوقراطية الستالينية التي تدعي الاشتراكية أو لنموذج اشتراكية الدولة العبودية، فهم بذلك يكونون أكثر انسجاماً مع أنفسهم، معرفياً وضميرياً، وهذا ما فعله ويفعله سمير أمين، وهو حي، لسنا بحاجة للمراهنة على "لو" والمرحوم ياسين كان يكن احتراماً لسمير أمين، فهناك أكثر من إحالة في أعماله إلى أعمال أمين، فلا يعقل للعقل السليم أن ينفي الماركسية عن التجربة السوفياتية طوال عمر قيامها، وعندما تسقط هذه التجربة يقول: سقطت الماركسية!!

فالأولى بالعزیز جورج - واستناداً إلى ياسين الحافظ - أن لا يذهب به التأويل التكهنى والتخمينى لأن يخلط - عفواً أو عن قصد - بين "أزمة الماركسية" كما يعبر، وهذا ما لا يختلف معه ياسين الذى كان سابقاً لنا جميعاً في الإيماء لهذه الأزمة والتدليل عليها منذ السبعينيات، وبين القول بـ "موت الماركسية"، لأن ياسين ببساطة كان يعتبر الماركسية مشروعاً مستقبلياً لم يتحقق بعد، وذلك ليس تأويلاً أو استنباطاً يراهن على "لو" بل ما يقوله

الحافظ صراحة دون لجلجة: "عندما بدت لي الثورة القومية الديمقراطية البدوة التي لا بد منها للتقدم العربي، وعندما أصبحت أرى إلى الاشتراكية، كإنجاز وتجاوز للديموقراطية وليست نفيًا لها، تراجع إلحاحي على الاشتراكية كهدف مباشر وقريب، في الوقت الذي بقيت قانعاً بصواب النقد الاشتراكي للنظام البورجوازي"، [ص ٤٦ في "الهزيمة والأيدولوجية المهزومة"] .

فالرجل كان واضحاً، عندما لم يعد يلح على الاشتراكية كهدف مباشر وقريب، لأن النموذج الاشتراكي القائم يفتقر إلى الديمقراطية، وأن الاشتراكية ليست إلا ذلك المنهج القادر على نقد النظام البورجوازي، وعلى هذا فإن ما هو مطروح على جدول الأعمال المباشر الراهن بالنسبة له، كان الثورة القومية الديمقراطية التي تستند إلى ميراث ليبرالي، تنويري، عقلاني، يمكن للأنتلجنسيا أن تقودها بدون الحامل البورجوازي الذي يلحّ عليه صاحب انفجار الماركسية، رغم معرفته أن الإشكالية التي يطرحها في وجه مشروع كهذا، وهي إشكالية "الحامل الاجتماعي"، هي إشكالية ماركسية بامتياز، ما كان يصح للمؤمن بموتها أن يستخدم أحد أهم أدواتها، وهي تفسير الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي، حيث يقطع جورج بأسلوب ماركسي مدرسي ومعتدي بأن "الليبرالية التنويرية هي مشروع تغيير جذري إلى حد يستحيل معه أن يكتب له النجاح، بله أن يخرج إلى حيز الوجود أصلاً، "بدون سند طبقي". وليس لفلسفة الحرية طبقة ساندها سوى البورجوازية".

انطلاقاً من قانون إنتاج الوعي المطابق، فإن ياسين لم يجد لهذه الأطروحة الماركسية النظرية، وجوداً عياناً لتكون قادرة على القبض عليه، نظراً لاستحالة تكوّن بورجوازية عربية تعيد الدورة التاريخية ذاتها للبورجوازية الأوروبية، وإلا فإن ذلك هو عين الفوات التاريخي، الذي راح يتداول مقولة التخلف بدلاً من التأخر، ومقولة التنمية بدلاً من النهضة.

لقد رأى ياسين منذ السبعينيات نذر الاستقطاب الرأسمالي على المستوى العالمي، الذي تكثف اليوم في صورة "العولمة"، ومن ثم فإن هذا الاستقطاب المتزايد بل الأكثر وحشية في صورته الراهنة، لا يمكن أن يسمح ببناء تنمية مستقلة تقودها بورجوازية عربية، بعد أن قدم له زمنه صورتى الاشتراكية والرأسمالية. فإذا كانت الأولى "تأخرائية" فإن الثانية لم تكن إلا "تأخرالية" وها هي الرأسمالية في أعلى مراحل عولمتها تقدم لنا مثالين عربياً لاستحالة تكوّن تنمية رأسمالية غير كومبرادورية وريعية من خلال الجزائر والعراق اللذين كانا يملكان هذه الإمكانية حسب سميير أمين، فإذا بالأول يتفجّر من الداخل عبر الحرب الأهلية، والثاني تأتي الإمبريالية بقضها وقضيضها (٨٠٠ ألف جندي) لتدمير البلد فوق رؤوس أهله.

من هنا، فإن الثورة القومية الديمقراطية ذات الميراث التنويري، والمكتسب الليبرالي العقلاني، هي الفرصة الوحيدة للخروج من التأخر، ومن هنا كانت مأخذه على ثورة عبسب الناصر وآفاقها

البورجوازية الديمقراطية، بأنها كانت تفتقد الديمقراطية عبر أبيتها ووصايتها، وتفتقد التنوير بسبب محافظتها الأيديولوجية، من هذه الزاوية كانت مراهنته على أنتلجنسيا وطنية، قومية، كونية، حدثية، ديمقراطية قادرة على قيادة تحالف شعبي ديمقراطي كما يقترح الآن سمير أمين، على اعتبار أن الشعوب العربية اليوم بمجموعها تمثل الطبقة الثالثة، تجاه "الصحراوية" العسكرية والمدنية ذات الجذور الريفية الرعاعية والريعية التي يستحيل أن تقود عملية تنمية مستقلة، لافتقارها لأي مقوم من مقومات البورجوازية حتى في عصر الدولة الكولونيالية، حيث انحطت الدولة العربية إلى مستوى الدولة المملوكية التي هي دون الدولة الكولونيالية، فالدولة الكولونيالية وإن مثلت حالة اغتصاب قومي ووطني شامل، لكنها لم تكن فتوية أو ثيوقراطية على الأقل.

إن تاريخانية وعي ياسين الرهيف، وإدخاله (الطّف) إلى الخطاب العربي ترجمة لكلمة (Nuance) الفرنسية، عصمه من أي تصور شعبي حول اشتراكيات زائفة، بل كانت الحلقة المركزية في مصفوفته المعرفية هي الثورة القومية الديمقراطية، وهي إنجاز الثورة البورجوازية التي يدعو لها جورج، لكن عبر عين صقرية قادرة على إدراك استحالة تكون بورجوازية عربية قادرة على الشروع بمهمات نهضوية تخترق حجب التأخر والفوات التاريخي، وعلى هذا فإن الماركسية تحضر في المستوى الثالث بوصفها مشروعاً مستقبلياً نقدياً للرأسمالية كونياً، حيث الكونية والحدثية التي يصرّ

عليها الحافظ لا يجدها إلا في الماركسية، بوصفها الفلسفة الكونية الحديثة التي تتيح للمثقف، وللأنتلجنسيا بشكل عام، مميزات أن يكون كونياً ووطنياً في آن واحد. وأخيراً: أهمس في أذن الصديق العزيز الذي أقدره مع قطاع واسع من المثقفين المثمنين لأفضاله على الثقافة العربية، إن هذا الإلحاح الراض للماركسية كمعتقدية بائدة، ليس إلا وجهاً آخر لمعتقدية مضادة، راسفة في أغلال الإيمان ليس بالفكر كما كان من قبل، بل بالخبر الذي تصنعه وسائل الإعلام المخاطبة للمدارك في الإنسان "لا العقل" والإعلام هو المنتصر الأكبر اليوم.

عبد الرزاق عيد

ملحق: إلياس مرقص

حوار العمر واقتناص اللحظة

من حسن حظ الثقافة العربية أن كان هذا الحوار مع أحد ألمع نجوم الفكر اليساري العربي الباحث عن إنتاج وعي نظري مطابق لزمته، تاريخه، ثقافته، وهو المفكر الماركسي الهروطوقي الراحل إلياس مرقص.

لقد استخدمنا مصطلح "الوعي المطابق" الذي أدرجه ياسين الحافظ في المنظومة الثقافية العربية، بعد أن توقف الإبداع العربي في مجال البحث الاشتراكي واكتفى بتأثير مؤسساته السياسية التي تعفنت قبل أن تنضح، بما تترجمه له دار التقدم بموسكو نقول: استخدمنا مصطلح ياسين عن "الوعي المطابق" لنشير إلى تلك القربة الروحية والفكرية التي جمعت الصديقين (إلياس - ياسين) إلى درجة أن الموت وحدهما بالسبب، وهو "السرطان" المرض النموذجي للمثقف العربي، لا ينافسه سوى الجلطات الدماغية والقلبية، فتلك هي حرية الاختيار الوحيدة التي أبقاها النظام العربي أمام المثقف الطويل الأنف الذي يدسه في شؤون المجتمع والحياة السياسية على حد توصيف سارتر.

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

من حسن حظ الثقافة العربية، أن الحدس بدنو أجل إلياس ألهم جاد الكريم الجباعي أن يقتنص هذه الالتماعات والفيوضات التي أفاض بها الفقيه قبل رحيله على الأرجح بفترة قصيرة، وفي لحظة تاريخية فاصلة في حياة المجتمع العربي والدولي، وهي لحظة قرع طبول حرب الخليج الثانية، لتأسيس النظام العالمي الجديد، ولحاق الهزيمة بالعالم العربي من جديد وجديد، حيث لأول مرة في التاريخ العربي يستشعر كل عربي أياً كان انتماءه الفكري والسياسي والثقافي بأن هذا الواقع القائم لا يشرف أحداً أبداً!

لقد كان هذا الحوار اقتناصاً للحظة انعطافية هامة، التقطتها عدسة جاد الكريم على شاشة عقل من أهم العقول النظرية في الفكر العربي، انشغالاً بالسؤال والتساؤل وعدم الركون إلى اليقين، لأن اليقين عدم، وانكباباً على الواقع فاحصاً ومستقرئاً ومستنبطاً لاستكناه ما كن يدعو ترداداً "منطق الواقع"، ذلك المصطلح الأثير عند إلياس كان يناظره "الوعي المطابق" المصطلح الأثير عند ياسين، حيث يومئ معرفياً إلى التقاط الناظم الرئيسي الذي يحكم علاقات الواقع، أي قانون حركته، ليس وضعه فيما هو عليه، بل عملية تموضعه الدائمة، التي تسير وفق منطق، لا وفق رغبات وأهواء الذات. فالبشر يصنعون تاريخهم، لكن ليس على كيفهم، بل على كيف الواقع والعقل، كون العقل عقل الكون، على حد تعبيره، منطلقاً من جدل معقولية الواقع، وواقعية المعقول، فليس من المعقول أن يطرح البشر مهاماً على الواقع غير قابلة للحل واقعياً وعقلانياً.

يتوزع الحوار إلى خمسة فصول، الفصول الثلاثة الأولى يوظفها هم نظري يريد أن يفكك الأسس المعرفية والفلسفية للستالينية والوضعانية في تضييعها القبض على منطق الواقع الذي يحاول كشف نظام سيرورته من خلال الكشف عن الجذر الروحي الإنساني لجدل علاقة الإنسان بالواقع، مقولة الروح تلك ستغيبها الستالينية وبلغيتها ألتوسير، والكثيرون من المثقفين العرب من علمويين وماركسيين من محمد عابد الجابري وسمير أمين إلى حسن حنفي (ص ٤٧).

إن إلغاء مقولة الروح، والنظر إلى المجتمع والطبيعة، على أنهما مادة للإرادة الثورية، قوانين متماثلة ربما تفسر إرادة ستالين في إخضاع المجتمع لانضباط صارم كانضباط الطبيعة. الأمر الذي من شأنه أن يلغي مقولة التقدم بوصفها مقولة مرتبطة بالإنسان، وباعتبار الإنسان هو الكائن القابل للتحسن بخلاف غيره من الكائنات. وفي هذا السياق، سيتبدى أثر اللحظة الزمنية للحوار، وهو زمن البيريسترويكا السوفياتية. فالستالينية أوهمتنا أن "المادية" تعني الواقعية الأكيدة، وتبين اليوم بعد البيريسترويكا، أن هذه كذوبة. اكتشفنا أن أبعد الناس عن الواقعية هم الذين أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية (المادية)، (ص ٢٨).

من حق المرحوم إلياس أن يغتبط بالبيريسترويكا بوصفها برهاناً على حقائق ما فتئ يدافع عنها من قبل، لكنه في معمعان الغبطة هذه، يجرف أمامه ما يصعب جرفه، حيث في خضم نقده

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

للستالينية، تتطير سهام النقد، لتتال من فكر لينين بل من أخلاقه عندما يتهمه بتشويه أنجلز. . والتحليل على الموضوع. (ص ٢٨-٢٩)، بل بتحقيق الفكر وخفضه. إلياس بالصد من الستالينية والوضعانية والتوسير، يسعى إلى تأكيد وتعزيز بل واستعادة النزعة الإنسانية للنظرية، من خلال استعادة المطلق للتأسيس النسبي، والأزلي للتأسيس للزمني، وسر هذا الطموح إلى التاصيل النظري للمطلق، هو التاصيل للمطلق الأخلاقي بمثابته أساس كل مطلق، ومن هنا هذا التأكيد عبر مسار الحوار حول موضوع الاستلاب أو ما يسميه الانخلاع، مندداً بكل من تأثروا بعلموية التوسير كفيصل دراج، أو المغرمون بالمعرفة والعلم والعقل بمواجهة الفكر كصادق جلال العظم.

هل نحن تجاه حوار يرفرف في سديم فراغات المطلق، ساعياً لممارسة بطر فلسفي يتفكه به العقل؟

لا، لأن إلياس يفضي مباشرة بالوظيفة الراهنية لمشروع استعادة الروح والمطلق، وتمثل هذه الوظيفة الراهنية بمواجهة واقع يتهاوى أخلاقياً إلى الحضيض، فلا بد من خوض المعركة من أجل الأخلاق، فمنذ ٢٥-٣٠ سنة ينمو عندنا الكذب والعنف. . ونمو العنف يساوي انحدار الأخلاق، نمو العنف يساوي القتل والسجن والضرب والذبح والاختيال والمجازر. (ص ٥٠).

في مواجهة الفساد المعمم، لا بد من الاستفادة من تجارب الآخرين السابقين لنا في التجربة الذين كانوا يعلموننا أن لا أخلاق

من دون اقتصاد فقد كانت الأخلاق تابعة للاقتصاد، أما اليوم فيقولون علناً لا اقتصاد من دون أخلاق وليست الأخلاق بالمآل سوى الضمير (ص ٤٩).

فلا بد من التملك الروحي للعالم، لأن الاستبداد في أحد وجوهه ليس إلا نزع هذه الملكية والحيلولة دون تملك الإنسان ذاته وعالمه (١٧٨) فاشتراكية أو شيوعية الدولة - كما وصفها ماركس - هي مساواة الناس في العبودية. المساواة السوادية هي الاستبداد وأساس العاهل المستبد وأساس الاستبداد الشرقي (١٨٣)، وليس صحيحاً القول الستاليني بالملكية الجماعية في التشكيلة المشاعية، بل الصحيح أنها نظام اللاملكية، فالفرد والجماعة مملوكان للطبيعة التي لم تتأسن بعد. من هنا يستعيد تساؤل ياسين الحافظ، بعد أن أمضى سنة في السجن، هل نحن مع الاشتراكية ضد خالد العظم؟.. المسألة مسألة مدنية وبربرية، مسألة مدنية وهمجية. (ص ١٥٠).

فمقولة التحرر لم تعد تكفي لأنها جزئية، لا تظال سوى جوانب من الحرية، تحرر من الاستعمار، تحرر من الاستغلال، وهي بسبب جزئيتها يمكن أن تكون تضليلية وديماجوجية، فمن هنا، استطاع الروس أن يطووا الحرية المدنية والسياسية لمصلحة مقولة تحرر الفلاح والعامل والشعب، حيث تم تغليب فكرة الإرادة على الحرية، بل واستيعاب الحرية في الإرادة، في حين تستحيل الحرية من دون الاختيار، وفكرة الاختيار من دون فكرة

— ■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■ —

الاحتمال والاحتمالات، فإذا ما ألغى الاختيار والاحتمال قوض الأساس الفلسفي للحرية، ومن ثم ألغى الوعي والوجدان والضمير.

هذا الإلحاح على الحرية الذي يخترق الحوار على مدها، لا يعكس عمق الشقاء الروحي والانحلال الوجداني الذي يضمه الخطاب فحسب، بل هو تعبير عن شقاء وجودي، اجتماعي سياسي، ينتجه واقع ملثا بالعرف والفساد والهيمنة.

ولهذا فالديموقراطية ستكون المدخل الضروري الذي لا بد منه كمعادل سياسي لهذا الظمأ الروحي للحرية، لكن أية ديموقراطية؟

إلياس مرقص ينادي بديموقراطية مؤسسة على قاعدتها التاريخية الليبرالية، ويعتبر أن حذف الليبرالية سيعيد نتاج الاستبداد تحت النداء بالديموقراطية، والليبرالية - بالنسبة له - لا تستنفذ في النظام الرأسمالي. بل إن الليبرالية هي التي بنت وتبني حقوق الإنسان. (ص ١٨٤).

لكنه في مقدمته المطولة لكتابه المترجم "العبودية"، وفي (ص ٦٢) يرفع شعار: نعم لحقوق الإنسان وحرية الإنسان، نعم للتححر النسوي وللمساواة، لا لليبرالية. مفهوم الإنسان غير مفهوم الفرد، الإنسان غير مستنفذ في الفرد. من المعروف أن ياسين الحافظ متفاعلاً مع عبد الله العروي طرح فكرانية الليبرالية بدون عيشها اقتصادياً، أي إدراج مكتسبات عصر التنوير، في مشروع الثورة

القومية الديمقراطية، لأن أي ثورة قومية ديمقراطية لا يمكنها أن تتأسس على قاعدة فكرية قروسطية، من هنا نشأت الليبرالية كحاجة ضرورية لا بد منها للثورة الثقافية المناظرة للثورة القومية الديمقراطية وفق منظور الترسيمية النظرية للحافظ.

لكن نقطة ضعف ترسيمية الحافظ كان في قبوله لمكتسبات العقل الليبرالي كونياً، ورفضه له عربياً بوصفه ظل فكراً برانياً لم يستطع أن ينتج وعياً مطابقاً بمشكلات زمنه وحاجاته للتحرر والتقدم، وتلك هي الفكرة النموذجية التي سيرردها دعاة الحدائثة المترثثة بعده منذ الثمانينيات.

ومن هنا فقد كانت الناصرية هي حركة النهضة الثانية، لحركة أولى تمثلت في حركة أحمد عرابي، العروبية وذلك من منظور قومي.

بينما نقطة الضعف في ترسيمية مرقص التي تراهن باضطراب على الليبرالية (رفضاً وقبولاً) أتاحت له أن يرى بوضوح أن المرحلة الليبرالية العربية كانت مرحلة نهضوية بحق، وأن الناصرية إذ شكلت حركة النهوض الثانية فهي استمرار وليس انقلاباً على القيم التنويرية لعصر النهضة، حيث لم تشكل الناصرية ردة على انطلاقة التقدم التي انبعثت منذ عهد محمد علي حتى زمن ثورة يوليو، بل عمقت محتوى الكثير من الظواهر التي رافقت العصر الليبرالي، المتمثلة ببداية ولادة (شعب، مجتمع، أمة، وحدة)، مع عبد الناصر ستتسع دائرة التسييس لتشمل مجموع الأمة، فبالأمس

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

كانت "المظاهرة" تضم خمسة آلاف، مع عبد الناصر باتت خمسين ألف وعلى المستوى العربي .

إلياس مرقص وياسين الحافظ الماركسيان الهرطوقيان النادران اللذان استبصرا منذ منتصف الخمسينيات، كم ستكون الناصرية فرصة ضائعة على الأمة العربية!

صاديق جلال العظم ماهي العولمة؟

في مسرحية "يوليوس قيصر"، لـ "شكسبير" يفتتح مارك أنطوني خطبته البليغة في تأبين الفقيد المغدور بقوله للحشد: "جئتُ لا لأمتدح قيصر، بل لأدفنه". واقتداء بهذه الحكمة أريد أن أفتتح مداخلتني هذا المساء بالقول: جئتُ لا لأمتدح العولمة أو لأهجرها أو لأدفنها، حية أو ميتة، بل لأفهمها. أقول هذا لأن الذين حاولوا تغيير العالم عندنا كثرة كثيرة، لكن المطلوب في هذه اللحظة، على ما يبدو لي، هو فهم العالم وتفسيره بشكل أفضل وربما قبل فوات الأوان.

منذ فترة غير قصيرة يتدقق علينا، من كل حذب وصوب، خطاب متنوع المستويات عن العولمة، تسيطر عليه عبارات وأوصاف ومصطلحات من النوع التالي: ثورة المعلوماتية الكونية، ثورة الاتصالات والمواصلات الفائقة السرعة، أتوستراد المعلوماتية، تسارع حركة التبادل التجاري وتضخم حجمها بأرقام فلكية على مستوى العالم كله، الشركات المتعددة الجنسيات والعبارة للقارات، "العالم قرية واحدة" صغيرة أو كبيرة وفقاً لوحدة القياس. العمالة المهاجرة بأعداد وفيرة من أطراف الكرة الأرضية إلى أطرافها

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

الأخرى، السياحة المتجولة بكثافة ليس يسبق لها مثيل في كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية المكتشفة منها وغير المكتشفة، الدفق الهائل للصور والتعليقات والأخبار والمعلومات والرسوم والأشكال، هذا الدفق الآتي عبر الشاشات من جميع الأنواع والأحجام ومن كل مكان، الـ Internet، وما أدراك ما الـ Internet، الـ Fiber optic وتكنولوجيا الأقطار الاصطناعية، تصاعد الشبكات والترابط والتداخل بين الدول والمجتمعات والثقافات والتفاعل بينها. . إلخ .

وفي المقالات التي نشرها الدكتور محمد عابد الجابري مؤخراً عن العولمة، نقرأ عبارات من النوع التالي: العولمة تشمل "مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال. "، "العولمة من إفرازات الثورة المعلوماتية وما يرافقها من تطور في مجال الاتصال والإعلام"، العولمة هي "ما بعد الاستعمار"، العولمة هي "توحيد الاستهلاك وخلق عادات استهلاكية على نطاق عالمي"، وما إلى ذلك من أوصاف ألفناها جيداً في خطاب العولمة السائد.

لا أريد أن أشكك للحظة واحدة في أهمية الظواهر المذكورة وآثارها ومعناها ودورها وما إلى ذلك. لكن السؤال الذي أريد طرحه هو: هل هذه هي العولمة حقاً؟ هل هذا كل ما يمكن أن يقال عنها؟ هل هي مجرد المزيد من التطور التكنولوجي الفائق والمزيد من الحركية والحيوية والسرعة المذهلة، للهولة الأولى، والمزيد من التقدم الاتصالي والمعلوماتي والاستهلاكي الباهر لا أكثر؟ أما من شيء أكثر أولية وجذرية يربط هذه الظواهر كلها

بعضها بالبعض الآخر ويفسرهما جزئياً، على أقل تعديل، ويقول لنا شيئاً عن محرركاتها وآلياتها الأعمق متجاوزاً بذلك مجرد الوصف والتعداد وصولاً إلى الأسباب؟ أي، وبعبارة ثانية، ما الذي يجري حقاً تحت سطح الظواهر والتطورات الهائلة، لا شك، التي يكتفي خطاب العولمة السائد في الغرب والشرق بتعدادها وتكرار ذكرها ومجرد وصفها؟

في محاولتي المتواضعة الاقتراب من جواب عن هذه الأسئلة والتساؤلات - وأشدد محاولة اقتراب فقط لا غير وليس محاولة إجابة شافية وواثقة من نفسها عن الأسئلة المذكورة - قلت في محاولتي الاقتراب من جواب ما عن هذه الأسئلة ليس عندي من وسائل للمعالجة إلا واسطة التحليل الفكري وأدواته مثل الاستنتاج والتدقيق والاستدلال والشرح والتوضيح والتعريف والمقارنة استناداً إلى الاطلاع والمتابعة والملاحظة ومراكمة الخبرة وصولاً إلى طرح بعض الأفكار المدروسة لعلها تشكل محاولة أولية للإجابة عن الأسئلة إياها، إجابة مطروحة للنقاش والنقد والمراجعة والفحص والامتحان على ضوء معارف خبراء الأرقام وتحليلات إحصائية الإحصاء وعلى ضوء معطيات ومعلومات وتدقيقات علماء الاقتصاد والاجتماع.

منذ زمن غير قصير ونحن نتداول مفاهيم ومصطلحات وتصورات هامة - نتداولها علمياً وثقافياً وسياسياً وإعلامياً وحتى — ■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■ —

شارعياً - مثل: الرأسمالية العالمية، الاقتصاد العالمي، الإمبريالية العالمية، السوق الدولية، النظام الاقتصادي العالمي. . إلخ، ما الجديد في العولمة، إذن، إن كان هناك من جديد؟ جميعنا يعرف، كذلك، أنه من آدم سميث إلى Paul سوزي وسمير أمين، مروراً بريكاردو وماركس وماكس فيبر Weber ولينين وروزا لوكسمبورغ و Andre Gunter Frank وفوكوياما وهائنتغتون: هناك إجماع على أن نمط الإنتاج الرأسمالي نمط عالمي ودولي وتوسعي بطبيعته ومنذ نشأته. ما معنى العولمة إذن؟ ما معنى القول إن النظام الرأسمالي الموصوف بالعالمي أصلاً وتعريفًا، من جانب أصحابه كما من جانب أعدائه ونقاده. قد تَعَوَّلَم أو هو قيد العولمة الآن أو أنه أصبح عالمياً أو كونياً أو ربما عَوَّلَمياً؟ هل العولمة هي مجرد المزيد من الامتداد الأفقي لنمط الإنتاج الرأسمالي بحيث يُلحق بعض الأصقاع والمجتمعات والثقافات الإضافية التي فلتت منه سابقاً بحلقة من حلقات أطرافه؟

حتى لا تضَيِّعنا كثرة المصطلحات المستخدمة في هذا المجال وتنوعها، أريد أن أضرب المثال التوضيحي التالي:

في عالم اليوم توجد واقعة قائمة على امتداد رقعة جغرافية معينة وعلى امتداد تاريخي وتراثي وثقافي وحضاري معين اسمها العرب. نحن نستخدم مصطلحات وتعابير متعددة ومتنوعة الإشارة إلى هذه الواقعة المعقدة والمركبة ولوصف بعض جوانبها وتناول أوجه من حياتها ومن حراكها وتناقضاتها. مثلاً: الوطن العربي،

العالم العربي، المنطقية العربية. وعلى الرغم من أن هذه المصطلحات الثلاثة تشير كلها، في التحليل الأخير، إلى الواقعة ذاتها، فإن من شأن كل مصطلح من هذه المصطلحات أن يُبرز جانباً معيناً من جوانب الواقعة المذكورة وليس غيره عند الاستخدام والاستعمال ووفقاً للظروف والأحوال.

على سبيل المثال: في سياق يؤكد العوامل التاريخية والاجتماعية الموحدة للعرب ويؤكد مشروع مستقبلهم الوحدوي ويؤكد عمق انتمائهم الواحد الموحد نستخدم عادة مصطلح "الوطن العربي".

في سياق آخر يسيطر فيه وعليه واقع التجزئة العربية واستمراريتها وواقع ترسخ القطرية العربية وتجدد مؤسساتها وأمط حياتها وفكرها ودولها، على الرغم من العوامل الثقافية والتاريخية واللغوية والدينية المشتركة كلها عربياً، نستخدم بصورة طبيعية وعفوية ومناسبة جداً مصطلح "العالم العربي".

وفي سياق ثالث يطغي عليه تفكك الواقع العربي وهزله ولا فاعليته وعجزه وتحوله إلى مجرد تعبير جغرافي يحوي مواد خام مهمة للعالم وإلى مجرد كتلة منفصلة هاملة تفعل فيها مشاريع واستراتيجيات الدول الأخرى، الكبرى منها والصغرى، نستخدم عندئذ، بشكل عفوي وملئم جداً أيضاً، مصطلح "المنطقة العربية".

قياساً على هذا المثال القريب منّا جداً، يجب أن يكون مفهوماً جيداً من قبلنا وأن يكون واضحاً في أذهاننا، أقول: في عالم اليوم توجد واقعة قائمة على اتساع الكرة الأرضية كلها وعلى امتداد تاريخي معين - يعود هذا الامتداد إلى القرن السادس عشر وفقاً لبعض التحليلات - اسمها الاقتصاد الرأسمالي العالمي. نحن نستخدم مجموعة كبيرة من المصطلحات والمفاهيم والتصورات المتعددة والمتنوعة للإشارة إلى هذه الواقعة وللكلام عنها ولوصف بعض جوانبها ولتحليل بعض أجزائها مثل: الاقتصاد العالمي، نظام المركز والأطراف، السوق الدولية، الإمبريالية العالمية وغيرها. وعلى الرغم من أن هذه المصطلحات تشير كلها في التحليل الأخير إلى الواقعة ذاتها، فإنّ من شأن كل مصطلح من هذه المصطلحات أن يُبرز جانباً معيناً من جوانب الواقعة المذكورة وليس غيره عند الاستخدام والاستعمال. فمصطلح السوق الدولية، على سبيل المثال، يؤكد ويُبرز الجانب التبادلي والتجاري للواقعة الاقتصادية العالمية الشاملة ذاتها. بينما يُبرز مصطلح المركز والأطراف علاقات الاستغلال والتبعية التي تتصف بها الواقعة نفسها أيضاً.

أما مصطلح الرأسمالية العالمية فيُبرز الامتداد الأفقي لنمط الإنتاج الرأسمالي، أي المدى الذي وصل إليه تمدد الواقعة ذاتها أيضاً. في حين يُبرز مصطلح الاستعمار العالمي طابع الفتح التوسعي العنفي والطابع الإخضاعى القهري لمجتمعات العالم الأخرى كلها تقريباً لمصالح دول المركز ومصالح هيمنتها وسيطرتها.

أما مصطلح الإمبريالية العالمية فيبرز بدوره عملية إخضاع اقتصادات البلدان الأخرى وأساليب حياتها وأشكال إنتاجها للثروة إلى مصالح التراكم الرأسمالي في المركز وحده، بحيث يصبح كل ما تبقى عالقاً في شبكة علاقاته المتنوعة والمتضاربة والشاملة.

الآن، أي جانب من جوانب واقعة الاقتصاد الرأسمالي العالمي يُبرز مصطلح "العولمة" وأي ناحية من نواحيها يؤكد؟

للإجابة على هذا السؤال، أرجع إلى تقسيم كلاسيكي في علم الاقتصاد السياسي - وفي الاقتصاد السياسي الماركسي بصورة خاصة - يميز هذا التقسيم داخل نمط الإنتاج الرأسمالي بين دائرة الإنتاج المباشر من ناحية ودائرة التبادل من ناحية أخرى. دائرة التبادل هي دائرة تداول وتبادل وتوزيع الثروة التي تم إنتاجها. الدائرة الأولى - أي دائرة الإنتاج - هي عمق نمط الإنتاج الرأسمالي وحقيقته، إنها دائرة الرأسمال الثابت وقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج التي تتم عملية الإنتاج وإعادة الإنتاج في ظلها وضمن شروطها. أما الدائرة الثانية فهي سطح نمط الإنتاج الرأسمالي ومظهره، أي اقتصاد السوق وتداول المال والرأسمال المتحول، وتوزيع الثروة، تبادل السلع والخدمات، التجارة وما تعنيه من البيع والشراء... إلخ، حتى منتصف هذا القرن ظلت عالمية نمط الإنتاج الرأسمالي مقتصرة في الغالب على دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والاستيراد والتصدير مع بقاء دائرة الإنتاج ودورها في دول المركز الأصلي وحدها.

العولة، وفقاً لهذا التحليل، هي إذن، وصول نمط الإنتاج الرأسمالي، عند منتصف هذا القرن تقريباً، إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها، أي أن ظاهرة العولة التي نشهدها هي بداية عولة الإنتاج والرأسمال الإنتاجي وقوى الإنتاج الرأسمالية، وبالتالي علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً، ونشرها في كل مكان مناسب وملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله. العولة بهذا المعنى هي رَسْمَلَة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى سطح النمط ومظاهره، قد تمت. بعبارة أخرى، إن ظاهرة العولة التي نعيشها الآن هي طليعة نقل دائرة الإنتاج الرأسمالي - إلى هذا الحد أو ذاك - إلى الأطراف بعد حصرها هذه المدة كليا في مجتمعات المركز ودوله. في الواقع، لأن عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق بلغت حد الإشباع بوصولها إلى أقصى حدود التوسع الأفقي الممكنة وشمولها مجتمعات الكرة الأرضية كلها - باستثناء جيوب هنا وهناك - كان لا بد لحركية نمط الإنتاج الرأسمالي وديناميكيته من أن تفتح أفقاً جديداً لنفسها وأن تتجاوز حدوداً بدت ثابتة سابقاً عن طريق نقلة نوعية جديدة بدورها تأخذ الآن الشكل المزدوج لعولة دائرة الإنتاج ذاتها ونشرها في كل مكان مناسب تقريباً على سطح الكرة الأرضية، من ناحية وإعادة صياغة مجتمعات الأطراف مجدداً، في عمقها الإنتاجي هذه المرة، وليس على سطحها التبادلي التجاري

الظاهر فقط، من ناحية ثانية، أي إعادة صياغتها وتشكيلها على الصورة الملائمة لعمليات التراكم المستخدمة في المركز ذاته.

من هذا الموقع واستناداً إلى الشرح، يمكنني القول إن عالمية الإمبريالية العالمية التي أعطانا لينين تحليلها الكلاسيكي بقيت ضمن حدود عالمية دائرة التبادل والسوق وتداول السلع واستيراد مواد الخام وتصدير الرساميل العالمية عموماً. هذا بالنسبة للجانب الأول من المعادلة، أي المركز: أما بالنسبة لجانبها الثاني، أي مجتمعات الأطراف ودولها، فيبدو لي الآن، وعلى ضوء ما سبق، أن أفضل مصطلح يلتقط حقيقة واقعها في مرحلة عالمية دائرة التبادل وهو مصطلح "نمط الإنتاج الكولونيالي" الذي قدمه ودافع عنه المنظر اللبناني الذائع الصيت «مهدي عامل». أقول ذلك لأن عمليات الإنتاج وعلاقات الإنتاج السائدة في مجتمعات الأطراف ودولها في تلك المرحلة تناسب تماماً عالمية دائرة التبادل هذه وليس دائرة الإنتاج المحلي المتراجعة والمضمحلة. وكما هو معروف، فإن نمط الإنتاج الكولونيالي هو حصيلة اختراق دائرة التبادل الرأسمالي في المركز وعلاقتها ومبادلاتها، عبر واسطة النقل أو الـ Cash nexus للتشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية قبل الرأسمالية واستقرارها فيها وصعودها المستمر لتتحول إلى العلاقات الحاسمة في حياة تلك التشكيلات إن لم تكن دوماً العلاقات المسيطرة في الوقت ذاته. لذا تتمفصل في نمط الإنتاج الكولونيالي أشكال إنتاج متعددة

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

ومتنوعة مع تحول علاقات التبادل والسوق والتوزيع الرأسمالية إلى العلاقات الحاسمة فيه ومن ثم المسيطرة عليه أيضاً.

أستنتج من هذا العرض أن تحليلات كل من لينين وروزا لوكسمبورج في سفرها الرائع "تراكم رأس المال" وبوخارين في كتابه "الإمبريالية والاقتصاد العالمي" وروودولف Hilferding في مجلده الكبير "رأس المال المالي" دراسة في آخر طور للتطور الرأسمالي، Finance Capital: A Study of the Latest phase of Capitalist development.

أستنتج أن هذه التحليلات للمرحلة الإمبريالية سليمة في خطها العام، طالما بقينا ضمن إطار عالمية دائرة التبادل الرأسمالي وتوسع سوقها المضطرد إلى زوايا الأرض الأربع. لكن التطورات الراهنة بينت أن عنوان كتاب لينين، على سبيل المثال، الذي يؤكد أن "الإمبريالية هي أعلى مراحل الرأسمالية، خاطئ لأنه أضحي من الواضح الآن، على ما يبدو لي، أن عالمية دائرة التبادل ليست أعلى مراحل الرأسمالية بالفعل وأن النقلة المنطوية على عوامة دائرة الإنتاج أخذت تشكل في هذا الوقت مرحلة أعلى منها وأهم وأعمق. كذلك بينت التطورات ذاتها - على ما يظهر لي - خطأ اعتقاد روزا لوكسمبورج و Hilferding معها بأنه ما إن يصل توسيع دائرة التبادل لنمط الإنتاج الرأسمالي أفقياً إلى أبعد حدودها الممكنة وبلوغها أقصى إمكاناتها الكامنة بشمول سطح الكرة الأرضية بأكمله، ليس أمام النمط إلا الانهيار بسبب استحالة المزيد

من التوسع، وبالتالي استحالة المزيد من التراكم. واضح إذن، أن روزا و Hilferding وبوخارين عدّوا، هم أيضاً، أن التوسع الأفقي لدائرة التبادل الرأسمالي هو النوع الوحيد من التوسع الإمبريالي الذي يقدر عليه نمط الإنتاج الرأسمالي المركزي. ولا أريد أن أجازف بارتكاب خطأ جديد بالقول إن العولمة هي أعلى مراحل الإمبريالية أو هي أعلى مراحل الرأسمالية أو ما شابه حتى لا نقع في تكرار كليشيهات دوجمائية خاوية بخشت آذاننا حتى بضع سنوات خلت من نوع: بما أننا نعيش اليوم عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية فإذن كذا وكذا، أو بما أننا نعيش اليوم عصر العولمة الذي هو أعلى مراحل الرأسمالية والإمبريالية وما إليه فإذن كذا وكذا.

في كتاب سمير أمين وتحليلاته - مؤلف "التطور اللامتكافئ" مثلاً - ذكر "لتطور ما اسمه "ما بعد الإمبريالية" أو ال Post Imperialim، ومرّ معنا كلام محمد عابد الجابري القائل أن العولمة هي ما بعد الاستعمار Post Colonialism. باستخدام مثل هذا المصطلح، يمكننا إنقاذ عنوان كتاب لينين على اعتبار أنه إذا كانت العولمة هي مرحلة ما بعد الإمبريالية لا أكثر يكون لينين مصيباً في عدّه عالمية دائرة التبادل الرأسمالية هي أعلى مراحل الرأسمالية، لكنني أجد هذا النوع من محاولات إنقاذ عنوان لينين الشهير غير مقنعة على الإطلاق، كما أجدها أقرب إلى السفسطة والمكابرة منها إلى الجدلية والواقعية.

إن اعتبارات مشابهة تنطبق على نظرية التبعية وفكرة المركز والأطراف، كما عرفناهما في الستينيات وما بعدها.

أعتقد أن التمتع مجدداً بنظرية التبعية وطروحاتها من مواقع اليوم وعلى ضوء التطورات الحاصلة أخيراً، تبيّن أن المصطلحات والمفاهيم والتصورات الحاسمة عندها في تحليل طبيعة العلاقة بين المركز والأطراف هي من النوع التالي:

التبادل التجاري غير المتكافئ، الاستغلال، نهب العالم الثالث، مواد خام، أرباح فاحشة (Super profits) فرص للاستثمار غير المنتج، تصدير رؤوس أموال، كومبرادور، الميركانتيلية العالمية، الفائض الاقتصادي المنهوب، التنمية الرثة، البورجوازية الرثة، الدور المركزي للبنوك والمصارف ورأس المال المالي... إلخ، واضح أن هذا الجهاز من المصطلحات والمفاهيم والتصورات والتحديدات والتمييزات والتحليلات ينتمي كله إلى دائرة التبادل والسوق والسطح في نمط الإنتاج الرأسمالي والأقل من قليل من تصورات هذا الجهاز له علاقة جدية بدائرة الإنتاج. بعبارة ثانية نظرت نظرية التبعية هي أيضاً - ونظرت جيداً وبكفاءة عالية بلا شك - للعلاقات المتبادلة بين المركز والأطراف في المرحلة السابقة على العولمة استناداً إلى سيادة رأسمالية التبادل والسوق في الأطراف وسيادة رأسمالية الإنتاج في المركز مع تأكيد استحالة كسر الحاجز بينهما. بعبارة أخرى، في عرف نظرية التبعية سيبقى التوسع الإمبريالي للمركز على الدوام توسعاً تبادلياً أفقياً وتجارياً

ولا يمكنه تجاوز ذلك إلى نوع آخر وجديد من التوسع - كالذي نشاهده اليوم في عصر العولمة مثلاً. بعبارة أخرى، ما زال حتى هذه اللحظة تعريف عالمية النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي عند أعلام نظرية التبعية من أمثال سمير أمين وأندريه جونتير فرانك وثمانويل فاليرشتاين وأرغيري إيمانويل وجيوفاني أريغي محصوراً ضمن نطاق دائرة التبادل والسوق والتجارة أفقية الامتداد لا أكثر. على سبيل المثال، نجد التعبير الكلاسيكي الأمثل عن هذا التنظير في كتاب أرغيري إيمانويل المعروف والذي يحمل عنواناً يشرح نفسه بنفسه. "التبادل غير المتكافئ: دراسة في إمبريالية التجارة". كذلك حين تؤكد الأسماء المذكورة أعلاه كلها أن الأطراف كانت قد أصبحت رأسمالية تماماً منذ القرن السادس عشر الميلادي، لا يمكن لمثل هذا الادعاء أن يكون صحيحاً إلا إذا فهمنا التوسع الرأسمالي على أنه لا أكثر من توسع دائرة التبادل والسوق والتجارة على مستوى السطح وما إليه. لكنه لا يمكن أن يكون على حق أبداً إذا فهمنا الرأسمالية بمعناها الأعمق أي استناداً إلى دائرة الإنتاج وعلاقاتها المميزة واستناداً إلى احتمال انتقال نمط الإنتاج الرأسمالي إلى طور يتطلب، بل يفرض، توسيع دائرة الإنتاج ذاتها إلى الأطراف.

وصف أندريه جونتير فرانك رأسمالية الأطراف بالرأسمالية الرثة، وسمى بورجوازيتهما بالبورجوازية الرثة، كما نعتَ تنميتها بالتنمية الرثة، لكن لماذا هي رثة على هذا النحو؟

الجواب هو لأنها تبقى كلها محصورة في دائرة التبادل والتوزيع على مستوى السطح والمظهر ولا تتعدها أبداً وبصورة جدية، إلى دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج. شيء شبيه يمكن أن يقال عن كتاب المنظر الماركسي البريطاني Bill Warren صاحب دراسة تحمل عنوان "الإمبريالية رائدة الرأسمالية"؟ والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أي نوع من أنواع الرأسمالية قاد التوسع الإمبريالي؟ الجواب هو مرة أخرى رأسمالية مستوى التبادل والتوزيع والسوق والتجارة ليس إلا عالمية الإمبريالية هي هذا النوع من العالمية لا أكثر، أما العولمة فهي شيء آخر وإضافي كما حاولت أن أبين. لذا، مع مرحلة عالمية دائرة الإنتاج وانتشارها - وهي المرحلة التي نسميها اليوم بالعولمة - لا بد من إعادة نظر جذرية في نظرية التبعية حتى تتمكن من التعامل بجدية مع هذه النقلة النوعية الجديدة في حياة الرأسمالية التاريخية وحتى نتمكن من إنقاذ الحقيقة الأساسية والأولية التي تنطوي عليها النظرية نفسها. على سبيل المثال، هل ما زال لفكرة القطع أو الـ Delinkign التي طرحها سمير أمين، وما زال يصرّ عليها، أي معنى استراتيجي أو أي أهمية عملية أو أي مدلول نظري في الوقت الحاضر على أقل تعديل؟ سؤال شبيه يمكن أن يُطرح على فكرة التنمية المستحيلة، المبنية على تحليلات نظرية التبعية. ألا يمكن أن تحل محل فكرة التنمية المستحيلة، في ظل العولمة الراهنة، فكرة التنمية المحدودة، مثلاً؟ مع تفاوت كبير في اتساع هذه الحدود وضيقتها من منطقة إلى أخرى، ومن بلد إلى بلد وفقاً للمصالح والظروف والأحوال.

هنا يخطر في البال تجربة النمر أو الثنينات الآسيوية الخمسة أو الستة، حيث تأخذ التجارة الآن، في هذه البلدان، شكل تبادل السلع الجاهزة والبضائع المصنّعة عالية الجودة والمعلومات الحيوية لعملية الإنتاج والمعرفة العلمية المتقدمة بدلاً من التبادل التجاري التقليدي مع المركز القائم على تصدير المواد الخام واستيراد البضائع المصنّعة عالية الجودة والمعلومات الحيوية لعملية الإنتاج والمعرفة المتقدمة بدلاً من التبادل التجاري التقليدي مع المركز القائم على تصدير المواد الخام واستيراد البضائع المصنّعة والسلع الجاهزة. أين موقع دول الاتحاد السوفياتي سابقاً وأوروبا الشرقية عموماً في ترتيب حلقات المركز والأطراف؟ أين موقع الصين الجديدة، مثلاً؟ هل نعدّ البلدان المذكورة في مرحلة انتقالية تمهيداً لدمجها في حلقة من حلقات النظام الاقتصادي العالمي الواسطي مثلاً؟ إذا استخدمنا مصطلحات أخرى يمكننا طرح السؤال بالصيغة التالية: هل تشكل الدول الاشتراكية سابقاً شمال الجنوب اليوم أم هي جنوب الشمال ضمن نظام الحلقات المعروفة لنظرية التبعية؟

لم تقدّم نظرية المركز والأطراف أية إجابات عن هذه الأسئلة بعد، علماً بأنه إذا كانت العولمة اليوم هي نقل العملية الإنتاجية إلى الأطراف، فإن بلدان الاتحاد السوفياتي سابقاً وأوروبا الشرقية عموماً قد تجد نفسها في موقع ممتاز - داخل نظام العولمة الجديد - بالمقارنة مع بلدان الأطراف التقليدية بسبب وجود قاعدة صناعية إنتاجية جاهزة فيها.

شيء شبيهه يمكن أن يُقال عن الصين حيث يجري الآن
استكمال بناء مثل هذه القاعدة هناك.

بعد الشروح والإيضاحات والتحليلات النقدية السابقة، أقدم
التعريف العام والأولي التالي للعولة:

"العولة هي حقبة التحوّل الرأسمالي العميق للإنسانية
جمعاء، في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفي
ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ"، مع التذكير بأن كلمة
عميق تشير هنا إلى عمق نمط الإنتاج الرأسمالي وليس إلى سطحه
فقط، كما تمّ إيضاح ذلك سابقاً. أما فيما يتعلق بالتشكيلات
الطرفية ومجتمعاتها ودولها، ونحن منها طبعاً، يلحظ هذا
التعريف حركة صعود علاقات الإنتاج والتبادل الرأسمالية فيها إلى
مواقع السيادة والسيطرة والحسم النهائي في عملية استكمال إعادة
صياغة حياتها على صورة تلك العلاقة. باختصار، العولة هي
The Commodification of everything تسليع كل شيء
بصورة أو أخرى وفي كل مكان بما في ذلك أشكال الإنتاج غير
الرأسمالية وقبل الرأسمالية وتلك التي كانت محاذية وموازية
للأشكال الرأسمالية. إنها أمية رأس المال على الأصعدة كلها
وعلى المستويات كافة السطحية منها والعميقة. هذا واضح الآن من
حركة صعود علاقات الإنتاج والتوزيع والتبادل الرأسمالية إلى
مواقع الحسم، وإن لم يكن إلى مواقع السيطرة بعد في التشكيلة

القسم الثالث

"الاشتراكية" المتمثلة في الصين، علماً بأن السيطرة ستأتي حتماً وبسرعة بعد ضم هونغ كونغ، على ما أعتقد كما هو واضح أيضاً في بلدان التشكيلة الاشتراكية السوفياتية السابقة، كما يجب أن يكون قد أصبح واضحاً الآن أن طليعة الانتقال والصعود هذه تمثلت في دول النمرور أو التينينات الخمسة أو الستة في آسيا ولربما في بعض دول أمريكا اللاتينية ولكن بدرجة أقل وأضعف.

تعني العولمة أيضاً، وفقاً للتعريف الذي قدمته، الانتصار، من حيث المبدأ، ولكن في كل مكان، لنمط معين من أنماط الملكية ولنمط معين من السيطرة على وسائل الإنتاج ولنمط معين من التحكم بقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج والتبادل والتوزيع، أي انتصار - من حيث المبدأ - لنمط معين من إنتاج الثروة وتوزيعها في كل مكان على سطح الكرة الأرضية.

إن هذه النقلة النوعية في حياة الرأسمالية التاريخية العالمية كانت قد أخذت بالتبلور منذ ما يزيد على الربع قرن، إلا أن الاهتمام العالمي واليومي المكثف بها لم يتفجر حقاً إلا لحظة زوال الاتحاد السوفياتي الفجائي من الوجود لحظة تسارع نموها تسارعاً هائلاً، بالتالي. أي لم ينصب الاهتمام على العولمة بالشكل الذي نراه في هذه الأيام إلا بعد إزالة المانع الأخير المتبقي في وجه انفلاتها من عقابها وفي وجه اندفاعها على النحو الذي نخشاه الآن. في الواقع يبدو لي أن المسرح الذي تفتح عليه الجانب الأكثر دراماتيكية وإثارة من صيرورة العولمة هذه في الوقت الحاضر - بكل

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■ —

صراعاتها وتوتراتها وتناقضاتها - هو، بالدرجة الأولى، بلدان الاتحاد السوفياتي سابقاً وأوروبا الشرقية عموماً، والصين بالدرجة الثانية.

الآن، ماذا تعني نقلة العولمة النوعية هذه في دول المركز وبالنسبة لها؟ - تعني، بالدرجة الأولى، ما يُسمى بلغة أهل المركز وأصحاب رساميله الانتقال المتصاعد والمتسارع إلى الـ Foreign Dirict Investment أو باختصار الـ (F.D.I) أي إلى "الاستثمار المباشر الأجنبي" في مجتمعات الأطراف ودولها واقتصاداتها، والكلمة الكاشفة في هذا المصطلح الجديد هي كلمة Direct أو الاستثمار "المباشر" لأنها تفيد أن طليعة الاستثمار الرأسمالي المركزي في الأطراف تتجه الآن إلى دائرة الإنتاج المباشر ذاتها، إلى التوظيف فيها مام يفيد بدوره، أن الاستثمار الرأسمالي المركزي في المرحلة السابقة على العولمة كان من النوع غير المباشر Foreign Indirect Investment، أي أنه كان يصبّ في دائرة التبادل والتجارة والسوق وحدها. لذا نجدهم يعرفون في المركز "الاستثمار المباشر الأجنبي" بأنه الاستثمار الذي يقوم به الرأسماليون في الإنتاج المباشر ومشتقاته وحاجاته ولوازمه، في البلدان الأجنبية. كما يصفونه بعملية "إعادة توزيع للاستثمار الصناعي" باتجاه الأطراف". بعبارة أخرى إن الذي يجري تصديره الآن إلى الأطراف هو الرأسمال الصناعي الإنتاجي نفسه. العولمة تعني، إذن، بالنسبة للمركز، انتقال الرأسمال المركزي من الاستثمار

الكلاسيكي في المرافئ والمناجم والتعدين والمواصلات والعقارات والموارد الأولية والمواد الخام وأنواع معينة من المنتجات الزراعية والتجارة فيها كلها بشروط تفضيلية للطرف الأقوى، قلت: الانتقال من ذلك كله إلى الاستثمار في الصناعة وما تحتاجه من تنظيمات وتوابع ولواحق ومؤسسات مالية ومصرفية ودعائية واتصالاتية وما إليه دون أن يعني ذلك التخلي، بأي شكل من الأشكال، عن استثمارات النوع الأول غير المباشرة. ويعني هذا بدوره أن الميل الآن هو ليس إلى التبادل التجاري التفضيلي واللامتكافئ مع دول الأطراف فقط، بل إلى الإنتاج فيها أيضاً.

لذا باستطاعتي القول: كما أن الرأسمالية المركزية كانت قد اخترقت التشكيلات الطرفية على مستوى دائرة التبادل في مرحلة سابقة وفتحتها لنفسها ورسمتها على صعيد السطح فهي تعمل الآن، وفي ظل العولمة وعبر مرحلتها، على اختراق دائرة الإنتاج في الأطراف ذاتها وفتحتها لنفسها ورسمتها بما يتناسب مع مصالحها الأساسية والحيوية.

وتشير الإحصاءات والأرقام إلى أن هذا النوع من الاستثمار المباشر الأجنبي (F.D.I) تضاعف بقوة في مطلع السبعينيات من هذا القرن، وتوسع توسعاً هائلاً ومذهلاً وبسرعات لا سابقة لها خلال الثمانينيات منه وهو يبلغ الآن مليارات من الدولارات في أنحاء العالم كافة. ثانياً، يعني تصدير الإنتاج وتدويله وعولمته على النحو المذكور تمكّن الشركة العملاقة العابرة للجنسيات

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

والقارات من موضوعة أجزاء من عملياتها الإنتاجية في الصين وأجزاء أخرى في المكسيك وأجزاء ثالثة في كوريا وأجزاء رابعة في إسبانيا وأجزاء خامسة في إسرائيل وهكذا دواليك. هنا، تحلّ الوحدات الإنتاجية والصناعية الفرعية والمبعثرة في أكثر من بلد وقارة ومكان محل الوحدات الإنتاجية الصناعية التقليدية العملاقة في بلدان المركز. مما يعني بدوره أن الشركة المذكورة تضع الآن استراتيجياتها وخططها الإنتاجية - وليس التوزيعية والتسويقية فقط - دولياً وعالمياً وحتى عولمياً وفي الوقت ذاته فإنها تدير كل جزء من أجزاء العملية الإنتاجية محلياً وفقاً للظروف والأوضاع والأحوال السائدة إقليمياً. من هنا الأهمية القصوى التي تكتسبها كل من ثورة الاتصالات وثورة المعلوماتية وثورة الكومبيوتر وأشباهها والتي كثيراً ما يراد لنا أن نظن وكأن هذه الثورات هي العولمة بذاتها أو هي سببها أو هي المسؤولة الرئيسية عنها، كما في قول الجابري (وغيره) الخاطيء كلياً: "العولمة من إفرازات الثورة المعلوماتية وما يرافقها من تطور في مجال الاتصال والإعلام".

حين ننزل إلى السوق لشراء سلعة مستوردة من الخارج، مستوردة إما نظامياً أو تهريباً، تعودنا أن نسأل: هل هذه بضاعة فرنسية أم إيطالية أم ألمانية أم أمريكية، لأن التجربة علمتنا أن صناعة هذه البلد أو ذلك تعطينا مواصفات معينة نريد الاختيار بينها ومنها، وفقاً لحاجتنا ومطلبنا ومستوى دخلنا. تعودنا كذلك تفحص البضاعة لنرى ما المكتوب عليها:

Made in Japan - Made in Germany - Made in USA
 إلخ. لأن بلد الصنع يعني الكثير بالنسبة لمواصفات السلعة التي نريد شراءها. في ظل العولمة لا يعود من معنى بعد اليوم للسؤال: هل هذه بضاعة فرنسية أم ألمانية أم يابانية. كما أن شعار Made in USA أو Made in Germany قد تحول إلى شعار دون أي حقيقة أو محتوى. في ظل العولمة السؤال الذي يصح هو: هل البضاعة هي من صنع IBM أو من صنع Puma أو شركة Nike كما أن تفحص البضاعة يعني أن نرى هذا المكتوب عليها هو Made in Toshiba أو Made by 3M، فالجهاز الأجنبي العالمي الذي نشتريه من السوق صنع IBM مثلاً يمكن أن تكون تصاميمه قد تمت في مكاتب IBM في كاليفورنيا في الوقت الذي كان يجري فيه بناء هيكله الخارجي في معمل الـ IBM في البرازيل. كما يمكن أن تكون IBM قد استخرجت موادها الأولية وصنعتها في الأرجنتين في الوقت الذي كان يجري فيه تصنيع قطعة في وحدات إنتاجية تابعة - بشكل أو بآخر - لـ IBM في تايوان أو تايواند وسنغافورة، إلى أن يتم تجميع ذلك كله في ورشة للشركة نفسها في ماليزيا مثلاً، وهكذا دواليك. يجب أن يكون واضحاً أن ضبط هذه العمليات كلها وتنسيقها وتسييرها على تبعثرها الجغرافي والثقافي والإقليمي والمحلي شبه مستحيل بدون ثورة الاتصالات و ثورة المعلوماتية والفاكس والكمبيوتر والـ Fiber optic والأقمار الصناعية وما إلى ذلك من التكنولوجيا العالية. لكن على العكس مما يقال ويشاع، العولمة ليست إفرازاً من إفرازات ثورة المعلوماتية

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

والاتصالات والإعلام، بل ثورة المعلوماتية والاتصالات والمعلومات والإعلام شرط ضروري ولكن غير كافٍ لتحقيق العولمة وتقدمها وتوسعها وتسارعها، والثورات المذكورة كلها موضوعة الآن في خدمة العولمة بالمعنى الذي شرحتة ولا يمكن لها أن تستمر وتزدهر بدون العولمة ذاتها والعمليات الإنتاجية التي تنطوي عليها.

يضاف إلى ذلك أن السلع المنتجة نفسها قد تَعَوَّلَتْ هي أيضاً بمعنى أنها تميل لأن تصبح أكثر فأكثر تشابهاً وتجانساً وفقاً لمواصفات محددة مسبقاً وموجهة إلى سوق عالمية هي بدورها بدلاً من أن تكون موجهة إلى سوق محلية أو إقليمية أو قومية تتطلب مواصفات خاصة بها. العولمة ليست توحيداً للاستهلاك كما يقول الجابري، مثلاً، لكن العولمة تعمل على المزيد من التوحيد للأذواق ولأنماط الاستهلاك المفيد منها وغير المفيد.

ولتقديم صورة محسوسة أخرى عن وضع هذا النوع من الشركات وعن أحجامها، أعرض عليكم المقارنة التالية بين حجم المبيعات السنوية لبعض هذه الشركات وبين الـ (G.N.P) أي الناتج القومي الإجمالي لبعض البلدان المعروفة: شركة جنرال موتورز أكبر من سويسرا + باكستان + جنوبي أفريقيا وفقاً لهذه المقاييس. شركة شل أكبر من إيران + فنزويلا + تركيا. شركة Good Year للإطارات المطاطية أكبر من العربية السعودية.

علماً بأن الأرقام التي تستند إليها هذه المقارنة قديمة نسبياً إذ أنها تعود إلى ما يزيد على عشر سنوات إلى الوراء وأية مقارنة

مشابهة نجريها بأرقام اليوم سوف تعطينا فوارق أضخم بكثير من سابقتها. يضاف إلى ذلك أن حكومات البلدان المذكورة في هذه المقارنة محدودة ضمن نطاق السيادة على أراضيها في حين أن حكومات الشركات المشار إليها لم تعد تحد من سيادتها الإنتاجية والتوزيعية والتبادلية والتسويقية أية أرض أو حدود سياسية أو جغرافية أو قومية أو إقليمية أو ثقافية أو عرقية أو حضارية أو إثنية أو أقوامية فهي تحوم حرة فوق العالم وتطوف طليقة حوله تساعدنا في ذلك ثورة الاتصالات والمعلوماتية وسرعة المواصلات كما يساعدها على ذلك ما يمكن تسميته بالـ Elites Global الصاعدة - أي النخب العولمية - وهي نخب في الخبرة والتقنية والإدارة والمال والمصارف والتسويق والبحث العلمي - نخب تنتقل دون عناء من موقع إنتاج أو تسويق أو استخراج على سطح الكرة الأرضية إلى أي موقع آخر حسب الحاجة والطلب والمصلحة، نخب ترتقي إلى مواقعها بغض النظر عن خلفياتها القومية أو الدينية أو الثقافية أو الإثنية أو حتى عن كونها من جنس الذكور أو الإناث.

لذا يمكنني أن أقول إنه إذا كان الرأسمال المالي هو رائد التوسع الإمبريالي في المرحلة التي قدم كل من لينين وروزا لوكسمبورج وHilfeding وبوخارين وغيرهم تحليلها الكلاسيكي فإن رائد التوسع الإمبريالي العولمي اليوم هو الرأسمال الإنتاجي الصناعي بذاته.

ثالثاً: تعني العوامة في المركز وبالنسبة للمركز: الاستفادة القصوى من الأسواق الواسعة والعميقة والعطشانة في وقت واحد الآخذة في التشكل في بلدان الأطراف وخاصة حول مراكز الاستثمار الإنتاجي الجديد ومواقعه ومواضعه ودوائر إشعاعه ونفوذه، علماً بأن مراكز الإنتاج ذاتها تعمل على رفع الطاقة الشرائية للسكان المتأثرين بوجودها والمتعاملين معها بصورة أو بآخرى أو الواقعتين ضمن نطاق مجال إشعاعها ونفوذهما، علماً بأن الطاقة الشرائية الجديدة والمتنامية توجّه، بطبيعة الحال، باتجاهات معينة دون غيرها من جانب الشركات والرسميل ذاتها، كما نعرف. كما تعني الاستفادة من الرأسمال الوطني ومن التكنولوجيا والخبرات الوطنية المتوفرة وتعبئتها في خدمة العمليات الإنتاجية المحلية الجديدة مع تأمين إيرادات تُرضي السلطات السياسية وتكسب الإرادة الطيبة لأجهزة الدولة: إيرادات منظورة وغير منظورة طبعاً، إيرادات مشروعة وغير مشروعة وفقاً للظروف والأحوال.

رابعاً، تعني العوامة في المركز تحوُّلاً في نمط استغلال الأطراف باتجاه الاستغلال بمعناه الرأسمالي الكلاسيكي، أي لا ينهب نظام العوامة الفائض الاقتصادي للأطراف عبر التبادل التجاري غير المتكافئ فقط، على سبيل المثال، بل أخذ يُنتج فائض قيمة محلياً لينقله بعد ذلك إلى حيث يشاء عبر آلياته وميكانيزماته المعقدة.

بعبارة ثانية، لا يكفي نظام العولمة بالحصول على مواد خام وطاقات رخيصة من الأطراف على الطريقة القديمة - بل يحصل أيضاً على مصادر جديدة ورخيصة لقوة العمل مدعومة بجيش العمل الاحتياطي المتوفر والمتشكل عولمياً، من هنا الشكوى الكبيرة في بلدان المركز من أن العولمة تخلق البطالة في بلدان اعتادت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على العمالة شبه الكاملة، ومما يزيد الشكوى حدة أن البطالة ترتفع في القطاعات الصناعية والإنتاجية التقليدية والتي تهجر رساميلها الآن إلى الأطراف - إذ لا تفسر الأتمتة التوسع في البطالة الصناعية في المركز إلا بصورة جزئية.

خامساً، تعني العولمة في المركز حاجة لمراجعة نظرية لنقطة أساسية في علم الاقتصاد الذي نشأ في المركز أصلاً. حدد الاقتصاد السياسي الكلاسيكي عوامل الإنتاج على النحو التالي:

الأرض : ودخلها هو الربح العقاري.

الرأسمال: ودخله هو الربح.

العمل، ودخله هو الأجر.

في ظل العولمة أعتقد أنه أصبح من الضروري زيادة عاملين إضافيين على عوامل الإنتاج الكلاسيكية المذكورة وهما وفق اقتراحي:

الطاقة: ودخلها العائدات.

البحث العلمي: ودخله هو ربح الابتكارات.

الآن، ماذا تعني العولمة على العموم في الأطراف وبالنسبة

للأطراف؟

أبدأ إجابتي: إيضاح هام من شأنه تبديد أي سوء فهم محتمل أو يمكن أن ينبج عن التعريف الذي قدمته للعولمة قبل قليل. أرجو أن لا يفهم من لحظ هذا التعريف إنتقال رؤوس أموال المركز إلى التوظيف والاستثمار في الأطراف في دائرة الإنتاج ودورتها - عبر ما يسمونه اليوم بالاستثمار المباشر الأجنبي كما ذكرت - أرجو أن لا يفهم من هذا الكلام أن هذه الرساميل الإنتاجية المركزية قد خرجت أخيراً من معاقلها التقليدية وجاءت عالم الأطراف لتصنع فيه تنمية حقيقية، مثلاً، أو لتضعه، عن قصد أو غير قصد، على طريق المعالجة الجدية الشاملة لمعضلات التخلف المعروفة جيداً والمدروسة جيداً جداً أيضاً. بعبارة ثانية أرجو ألا يفهم من التعريف السابق الذكر أن العولمة ورساميلها "راح تشيل الزير من البير" في عالم الأطراف عموماً وما في تعارفنا على تسميته بالعالم الثالث تحديداً. لذا أجد لزاماً عليّ هنا - ودرءاً لأي التباس محتمل - التذكير بالقسم الثاني من التعريف - أي القسم الذي يلحظ بدوره أن عملية العولمة، وفقاً للتشخيص الذي قدمته لها، تتم كلها بقيادة المركز ورساميله ودوله ومؤسساته وتحت سيطرته وفي ظل هيمنته وبما يخدم مصلحته على المدى البعيد. يعني هذا أن حركة العولمة المتفاقمة ونظامها الآخذ في التبلور الآن لا يسمحان بحدوث تنمية حقيقية وبمعالجة جدية لمعضلات التخلف

المعروفة إلا ضمن حدود معينة وفي بلدان محددة وفي مناطق منتقاة لهذا الغرض على سطح الكرة الأرضية كلها. بعبارة أخرى تبقى عملية نقل دائرة الإنتاج إلى الأطراف محكومة بسقوف متفاوتة الارتفاع، وفقاً للظروف والأحوال، ومضبوطة بضوابط متنوعة ومتبدلة وفقاً للمصالح والأوضاع. أي لا تُقدم العولمة ضمانات مؤكدة لحدوث تنمية حقيقية وجدية من ناحية دون أن يعني ذلك أن كل محاولة تنمية جدية في ظل شروطها هي من قبيل التنمية المستحيلة كما كانت تقول نظرية التبعية، من ناحية ثانية. وحين تقع التنمية في ظل العولمة، أعتقد أن التدقيق سيبين، وعلى عكس ما يُشاع ويُراد لنا أن نعتقد - أن وقوعها لم يتم بفضل العولمة وحدها ولا شيء غيرها. تُشجع العولمة على إنجاز مستوى معين من التنمية الحقيقية والتصنيع في بلدان محظوظة من جهة، وفي البلدان التي تعرف جيداً كيف تستفيد من الفرص المتوفرة نتيجة العولمة عبر سياساتها وقراراتها ومستوى نضجها، من ناحية ثانية. صحيح أن آليات المركز ونظامه العولمي هي التي تقرر، على العموم وفي التحليل الأخير، أية بلدان ستجري فيها تنمية حقيقية ما وضمن أية حدود ووفقاً لأية اعتبارات وشروط، لكن دون أن يعني ذلك اختزال أي من تلك البلدان إلى مجرد كم منفعل لا حول له ولا قوة على الإطلاق، أو إلى محض أداة يستخدمها الرأسمالي العولمي الآتي من الخارج أو اختزالها إلى لا أكثر من مزرعة لمصانع المركز على الطريقة الاستعمارية القديمة.

أقول هذا لأن الكثير يتوقف، في ظل العولمة، على ما تفعله البلدان الطرفية نفسها وعلى نوع القرارات التي تتخذها وعلى طبيعة ونوع السياسات التي تتبعها في التعامل مع ظاهرة العولمة نفسها وفي عملية التأقلم معها والاستفادة، بأكبر مقدار ممكن، من الفرص التي تقدمها وتتيحها. إن المطلوب، من وجهة نظر الرساميل العولمية المركزية هو ما يسمونه الآن بـ *Appropriate Direct Investment Climate* والمقصود هنا هو الـ *Investment*. طبعاً، أي مناخ ملائم للاستثمار المباشر في الإنتاج والذي يعني من ضمن ما يعنيه في الأطراف: استقراراً سياسياً، وفرصة في قوة العمل، قاعدة تحتية مقبولة، مستوى جيد للمواصلات والاتصالات والمبادلات، خبرات تقنية ولغوية ومعلوماتية محلية متنوعة ومتقدمة، إمكانية جيدة لاستنفار الرأسمال المحلي ولتعبئة التكنولوجيا السائدة والمتوفرة، نظاماً مالياً ومصرفياً معقولاً، حوافز تشجيعية للرأسمال الإنتاجي العولمي يجري التفاوض عليها وحولها مع السلطات السياسية المحلية. . إلخ.

بناء على هذا التحليل، يبدو لي أن العولمة لن تؤثر جذرياً على جوهر نظام المركز والأطراف أو تعيد تشكيله بنسبياً، ولكنها تعطي في الوقت ذاته فرصة لا بأس بها لبعض البلدان لتغيير مواقعها، بسرعات متفاوتة، في حلقات نظام التبعية والتبادل غير المتكافئ عبر الاقتراب، إلى هذا الحد أو ذاك، من المركز نفسه ومن مستوياته في الإنتاج والتبادل والإنجاز. كذلك، سيبقى التفاوت

النسبي بين المركز عموماً والأطراف كلها على حاله أو هو سيزداد لأن المركز يتقدم هو الآخر وبسرعات أكبر بكثير مما هو متاح أصلاً للبلدان الطرفية وحتى المحظوظة منها. يبدو لي، ثانياً، أنه كما أن الرأسمالية التاريخية أعادت ترتيب أوضاع المجتمعات الطرفية وفقاً لمصالحها الكبرى وعلى صورتها في مرحلة توسع دائرة التبادل ودورها - أي في المرحلة الإمبريالية الكلاسيكية - تقوم الرأسمالية التاريخية في طورها العولمي الآن بإعادة ترتيب مشابهة، وعلى صورتها الجديدة، لأوضاع المجتمعات ذاتها بما يتناسب مع مصالحها الكبرى في الحقبة الراهنة. يبدو لي، ثالثاً، ومن مواقع اليوم، وكأن التحديث الشيوعي الإنتاجي والجذري الشامل الذي تم في دوله المعروفة من جهة، والتحديث الذي نفذته اقتصاديات التحرر الوطني في دولها المعروفة، من جهة ثانية، لم يكونا إلا تحضيراً وإعداداً لهذه الدول والبلدان لتندمج لاحقاً بصورة أسهل وأفضل وأكثر فاعلية في نظام العولمة الكوني الآتي لا محالة. من هنا الإحساس الطاعني في عالم الأطراف وكأن العولمة اليوم هي مملكة الضرورة التي لا فكاك منها بامتياز أو أنها هي المصير والقدر والمستقبل شئنا أم أبينا.

تعني العولمة في الأطراف أيضاً على ما يظهر لي:

١- حيث ما زال إنتاج الثروة في الأطراف يجري في ظل شروط رأسمالية من نوع ما وفي ظل شروط غير رأسمالية من نوع ما وفي ظل شروط قبل رأسمالية، مجتمعة معاً بصورة من

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

الصور، تميل العوامة إلى تصفية أشكال الإنتاج غير الرأسمالية وتصفية شروطها لصالح سيادة الشكل الرأسمالي وشروطه وحدها.

٢- الميل إلى التعاضم المتسارع لحجم الكتل البشرية الطرفية التي تعمل وتنتج وتستهلك في ظل شروط رأسمالية كلاسيكية أو شبه كلاسيكية.

ويصح هذا الميل إن نحن قدرنا حجم تعاضم هذه الكتل بالأرقام المطلقة أو بالأرقام النسبية إلى باقي سكان البلد المعني أو المنطقة المعنية.

٣- الميل إلى تحويل كل المنتجين المباشرين في التشكيلات الطرفية إلى العمل المأجور، أي إلى جعل دخولهم تعتمد على السوق والتوزيع والتبادل عبر الـ Cash Nexus مع التراجع السريع والعميق للترتيبات الاجتماعية والقانونية والعرفية التي كانت تضمن للفرد حقاً في دخل ما بمعزل عن اعتبارات السوق وبمعزل عن القيمة التبادلية في السوق للخدمات أو السلع التي ينتجها لك الفرد أو هو يسهم في إنتاجها، وهذا تماماً ما يحدث الآن في الدول الشيوعية سابقاً.

٤- الميل إلى تعاضم البطالة بجميع أشكالها وأنواعها، لأن مقدرة علاقات الإنتاج الرأسمالية الطرفية على استيعاب قوة العمل في ظل العوامة أقل بكثير من أعداد الناس الذين يتركون ويغادرون

أشكال الإنتاج قبل الرأسمالية وغير الرأسمالية أو الموازية والمحاذية للأشكال الرأسمالية.

٥- الميل إلى تعميق التخلف الاقتصادي في البلدان الطرفية وتحويله في الواقع إلى فضيلة. أقصد بالتخلف الاقتصادي ارتباط قطاع الفوسفات في بلد معين بالمركز بروابط أقوى بكثير من ارتباطه بقطاع القطن، مثلاً، في البلد ذاته، وهو القطاع الذي يرتبط بدوره ببورصة القطن في المركز بروابط أقوى بكثير من روابطه بقطاع البترول المحلي وفي البلد نفسه أيضاً. كنا نلحظ في السابق إلى واقعة التخلف على أنها علامة من علامات التخلف في البلدان النامية والتي لا بد من تجاوزها باتجاه تكامل قطاعات الاقتصاد الوطني بعضها مع البعض الآخر، إلا أن العلامة ذاتها تتحول إلى فضيلة في ظل العولمة لأن العولمة نفسها تشتت مواقع الإنتاج وتوزعها، كما رأينا، مما يعني أن الوحدة الإنتاجية التابعة لشركة IBM في الهند ترتبط بعلاقات مباشرة وأوثق بكثير مع وحدة مشابهة تابعة للشركة نفسها في المكسيك، مثلاً، مما ترتبط بباقي اقتصاديات الهند وباقي وحداتها الإنتاجية المحلية. بعبارة ثانية، إن توسط السوق العولمية بين الوحدة الموجودة في الهند وتلك القائمة في المكسيك أقوى بكثير من توسط السوق الهندية والمحلية بين وحدات الإنتاج الموجودة داخل الهند نفسها وكذلك الأمر بالنسبة إلى ارتفاع كبير في التبادل التجاري بين الأطراف والمركز للبضائع الجاهزة والسلع المصنعة على حساب التبادل

التقليدي الذي يأخذ عادة شكل مواد خام مقابل سلع جاهزة وبضائع مصنعة.

٦- ميل الأطراف لاستقبال الصناعات الأكثر تلويثاً وتلك التي تتطلب كثافة عالية في اليد العاملة بدلاً من الكثافة العالية للرأسمال والتي تنتج البضائع والسلع الأقل ربحية من غيرها والتي لا تتطلب، في الوقت ذاته، التكنولوجيا العالية المستخدمة.

٧- ميل إلى اكتساب المعلومات والمعارف والاتصالات المعلوماتية والبحث العلمي وما إليه، دوراً أكثر حيوية بما لا يقاس عما ألفناه في السابق في حياة البلد الطرفي المعني، خاصة إذا كان هذا البلد يحاول المحافظة على موقعه الحالي في حلقات النظام العالمي أو إذا كان يحاول تحسين مواقعه بالانتقال من حلقة بعيدة نسبياً عن المركز إلى حلقة أكثر قرباً منه.

أقول أخيراً وبناءً على هذا التحليل إن حال العولمة تفرض علينا التفكير جدياً في عدد من الأسئلة الاستراتيجية الكبرى، مثلاً:

- هل العولمة هي حقاً وبالفعل مملكة الضرورة كما يظهر لنا الآن نحن أهل الأطراف وفي معظم الأحيان؟ هل هي حقاً القدر والمصير؟ صدقاً، لا أعرف، كما وأعترف بأنني منقسم على نفسي بهذا الشأن. يبدو لي أحياناً أن الجواب هو بالإيجاب، ولكن في أحيان أخرى يبدو لي أيضاً أن الجواب الأقرب إلى الصواب هو أن

العولمة هي مملكة الضرورة والقدر والمصير من مواقع المركز ومواقع المسكين بزمام الأمور فيه، وليس بالضرورة من مواقعنا نحن. وأن الجواب الفعلي على أرض الواقع يتوقف أيضاً على ما نفعله نحن أهل الأطراف. على كل حال أترك السؤال مفتوحاً وكذلك الجواب.

- هل العولمة هي إمبراطورية الفوضى كما يؤكد سمير أمين في كتابه الأخير أو ربما قبل الفوضى مجسدة:

أ- تبقى العولمة الرأسمالية في توصيف سمير أمين لها، وفي تفسيره لآلياتها، محصورة ضمن نطاق عالمية دائرة التبادل والتجارة والسوق والسطح، ولا تلاحظ أبداً النقلة النوعية الجديدة التي تكلمتُ عنها واعتبرتها العنصر المحدد لطبيعتها والعامل الحاسم في حركيتها وتوسيعتها. لذا لا شيء في كتاب سمير أمين عن دائرة الإنتاج عموماً وعن الـ F.D.I، أي الاستثمار المباشر الأجنبي، في عمليات الإنتاج، تحديداً. فالصفحة الأولى من كتاب "إمبراطورية الفوضى" تكرر المقولة التقليدية القائلة بأن "الرأسمالية كانت دوماً نظاماً عالمياً" وتُعد مرحلة العولمة التي دخلها هذا النظام منذ حوالي ٤٠ سنة، على حد قول سمير أمين نفسه، ليست أكثر من تكثيف وتسريع وتشديد لعلاقات التبادل الدولية المعروفة.

بعبارة ثانية، لا يتعدى تصور سمير أمين هذا للعولمة مستوى سطح نمط الإنتاج الرأسمالي ومظهره دون الولوج إلى عمقه الإنتاجي. في الواقع فإن سمير أمين في كتابه، جعل

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

"الاستقطاب" - على حد تعبيره - و"انتشار أسلحة الدمار الشامل" - على حد قوله - الصفتان الجوهريتان المميزتان لمرحلة العولمة الجديدة، كما نختبرها اليوم. في حين أعتقد من جانبي أن الصفة المميزة حقاً للعولمة هي شيء آخر تماماً، كما بينت وشرحت، وهي صفة اقتصادية قبل كل شيء وبامتياز.

ب- لا أعتقد أن العولمة تساوي الفوضى، أو هي الفوضى لا أكثر، كما يوحي عنوان كتاب سمير أمين، وكما توحى محتوياته وتحليلاته.

لا شك أنه في العولمة الكثير من الفوضى والتناقض والتضارب والميول المتنافرة والقوى المتضاربة وعمليات الاستقطاب الواسعة. إلخ، لكن النظام ككل ليس فوضى، وليس محكوماً بالفوضى بالتأكيد. في كل نظام معقد شيء من الفوضى والتناقض والتضارب، وكلما ازدادت حيوية هذا النظام وتسارعت حركيته وتكثفت ديناميكيته، كلما ازدادت عناصر الفوضى الموجودة فيه حكماً دون أن يعني ذلك أن الفوضى على وشك التهامه أو تدميره. لا أستبعد أبداً أن تكون عناصر الفوضى التي يلحظها سمير أمين في نظام العولمة مجرد جزء طبيعي وعادي من حركيته ونتيجة جانبية غير مقصودة من نتائج ديناميكيته لا أكثر. يجب أن لا ننسى بهذا الصدد أن تعويل الاقتصاد الماركسي منذ القرن الماضي على ما يسمى "فوضى الإنتاج الرأسمالي" وتناقضاته الداخلية كعامل أساسي في انهيار النظام بأكمله لم تُجدِ نفعاً. وبرهنت

التطورات اللاحقة أن الرأسمالية قادرة على التعامل مع عناصر الفوضى الموجودة فيها ومع التناقضات الكامنة في بنيتها بشكل خلاق يوظفها كلها في التحليل الأخير في خدمة المزيد من الرأسمالية. في الواقع برهنت الرأسمالية التاريخية، على ما يبدو لي، أن الفوضى والتناقض والتضارب ليست عوامل انهيار ودمار دوماً، بل كثيراً ما تكون علامات حيوية ونشاط وتجدد وصحة وقوة.

يضاف إلى ذلك أن نظام العولمة الآخذ في التبلور يدار بكليته من مواقع المركز بكفاءة عالية. كما تعمل آتته بكفاية جيدة جداً، على ما يبدو لي، وهو يحقق هدف التراكم في ظل الشروط الجديدة بشكل ممتاز بعد إزاحة خصومه وأعدائه من وجهه، الواحد تلو الآخر. لذا لا أرى أن الفوضى عل وشك أن تبتلعه أو هي على وشك أن تؤدي إلى انهياره.

لذا أقول إن عملية نعت إمبراطورية العولمة ونظامها بالفوضى وحدها، وتسميتها باسم "إمبراطورية الفوضى" لا أكثر، هي أقرب إلى تمنيات أهل الأطراف وإلى التفكير الرغبي العالم ثالثي مما هي إلى التحليل الموضوعي والوصف الدقيق والمطابق لواقع الظاهرة الموصوفة وحقيقتها.

- هل سيؤدي أخذ العولمة مجراها الطبيعي إلى نشوء نمط إنتاج واحد يسيطر في كل مكان وفي كل القطاعات وفي كل

البلدان والأصقاع على وجه الكرة الأرضية على الرغم من تفاوت مستويات إنجاز نمط الإنتاج هذا من مكان إلى آخر؟ أي هل سيؤدي أخذ العولمة مجراها الطبيعي إلى سيادة نمط إنتاج عالمي أو عولمي حقيقي واحد له قواه المنتجة وله علاقات إنتاجه الملائمة والتميزة وله بنيتة الفوقية العولمية المناسبة وله دائرته التبادلية والتوزيعية التسويقية والتجارية الملائمة، وله أيديولوجيا وفكر وثقافة وأدب معبرة عنه وعن طبيعته؟ لا أعتقد أن أحداً يعرف الجواب. لكن السؤال جدير، في نظري، بالتأمل والبحث والدراسة والاستقصاء والنقاش.

- أم هل سيؤدي أخذ العولمة مجراها الطبيعي إلى نشوء تشكيلة اقتصادية - اجتماعية واحدة تتمفصل فيها مجموعة من أنماط الإنتاج وأشكاله في ظل قيادة نمط الإنتاج الرأسمالي وهيمته ومع احتواء التشكيلة العولمية على تنوع واسع من المجتمعات والدول والأنظمة السياسية والثقافات الوطنية والقومية والأقوامية والمحلية. . إلخ، وبحيث يكون لهذه التشكيلة الناشئة قاعدتها التحتية الاقتصادية وبنيتها الاجتماعية المدنية العولمية (مجتمعها المدني) ومن ثم بنيتها الفوقية السياسية الأيديولوجية والحقوقية والفكرية والثقافية الملائمة. . إلخ؟ لا أعتقد أن أحداً يعرف، لكن السؤال جدير، في نظري، بالتأمل والبحث والدراسة والاستقصاء والنقاش.

طرح الزميل طيب تيزيني في محاضرة له ألقاها في الأسبوع الثقافي الرابع (جامعة دمشق) تحليلاً يقول إن أزمة الثقافة العربية

الراهنة هي أزمة انسداد آفاق الفئات الوسطى - حاملة هذه الثقافة - في المجتمعات العربية المعاصرة. لكنني أتساءل: ألا يجوز أن تكون أزمة الثقافة العربية الراهنة هي أزمة الفئات والطبقات والشرائح والقوى الاجتماعية العربية كلها في محاولتها التكيف المفاجئ والتأقلم السريع مع البيئة العولمية الجديدة ومع شروطها ومتطلباتها وإيقاعاتها ومستلزماتها التي لا تحيط بنا من كل صوب فقط، بل تضغط علينا من كل الجهات وتنفذ فينا من الجوانب كلها؟ بخاصة إن تذكرنا أن أي كائن حي يمر بأزمة حادة حين تطرأ تبدلات سريعة ومفاجئة ونوعية على البيئة التي تحيط به والتي يتفاعل معها ويتغذى منها ويغذيها مما يفرض عليه الاستجابة والتكيف والتأقلم أو الضمور والتراجع حتى حد الانقراض. إن البحث العربي عن وسائل جديدة ومشاريع جديدة وأفكار جديدة ومناهج جديدة للتعامل بشيء من النجاعة مع البيئة العولمية الجديدة هي الأزمة بعينها، إن كان على المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

أختتم كلامي أولاً بالاعتذار إلى زملائي علماء الاقتصاد والاجتماعي المحترفين على هذا الاعتداء الصارخ من جانبي على مجال اختصاصهم وعلى هذه الاستباحة قليلة الحياء لموضوعاتهم وهمومهم، وأعزّي نفسي باستذكار قول الاقتصادي الشهير ألفريد مارشال ما معناه أنه "على الاقتصاد أن يشغل نفسه أيضاً بغايات الإنسان القصوى ومشكلاته الكبرى". كما أرجوهم أن يعذروا

أخطائي التقنية والمصطلحية وما شابهها لأنني سأشاورهم في هذا كله عند إعادة النظر في النص الذي قدمته .

وثانياً بالتذكير بضرورة قيام اقتصاد سياسي نقدي حقيقي للعوامة يتجاوز، بلا شطحات أو أوهام أو عنتريات، مجرد الوصف الفيزيولوجي الكيفي والكمي للظاهرة السائدة حالياً. يتجاوزه باتجاه التفسير والتعليل وكشف المحركات العميقة وتحديد الأسباب القريبة والبعيدة وما إليه، أقول هذا لأن فينومينولوجيا العوامة كما أرصدها الآن، تعمل في الغالب لا على تغيير العالم ولا على فهمه ولا على تفسيره، بل تعمل على تكريسه وتسويغه وتبريره وعقلنته على حساب الطرف الأضعف في المعادلة.

عبد الرزاق عيد ما هو جديد العولمة؟

تابعنا مؤخراً بعض مساهمات الباحثين العرب في ندوة "العرب والعولمة" التي دعا لها "مركز دراسات الوحدة العربية" حيث نشرت السفير مختارات من هذه المساهمات، بالإضافة إلى عروض وتعقيبات على أعمال الندوة، والبحوث المقدمة، ومع ذلك، فإن السؤال عن العولمة غداً أكثر غموضاً وارتباكاً واضطراباً، ما هو جديدها وما هي المبررات لولادة هذا المصطلح وشيوعه وتداوله بهذه العراضات الفكرية والثقافية عربياً، حيث يتم التوقف عند ترجمة كلمة Globalisme هل هي كوكبة أم عولمة، وهل علينا أن نتعلم أو نتكوكب، وهل عملية العولمة صيرورة رأسمالية ضرورية لن تأخذ رأينا ولن تستشير هويتنا، ولا ذاتيتنا الثقافية والتراثية والحضارية، أي أنها ضربة لازب حيث لا بد مما ليس منه بد، وحيث الحصافة تقتضي المسارعة لحجز موقع في قاطرتها السريعة، وعلى هذا فلا بد من المشاركة، على اعتبار أن العولمة الحديثة تسير بسرعة بينما الوحدة الاقتصادية العربية لا يبدو تحقيقها ممكناً على المدى القريب حسب قول الرئيس المنتدب للجامعة الأمريكية سمير المقدسي، الذي يثني وجيه كوثراني في السفير

(السبت ٢٧/١٢/١٩٩٧) على ألقى المعيته في معاينة مفارقات الواقع العربي والعالمي، وألمعية حازم الببلاوي المعقب الثاني على ورقة إسماعيل صبري عبد الله الذي يغدو حسب - كوثراني - صاحب خطاب عالمثالثي، كان المعقبون أجدد بتقديم بحوث بدل بحث إسماعيل صبري عبد الله العالمثالثي المتخلف أيضاً عن نباهة بول سالم مدير المركز اللبناني للدراسات، الذي قدم بحثاً لافتاً عن "الولايات المتحدة والعولمة" حيث يلاحظ محرر السفير كوثراني - بعد حملة التوبيخ والتهزيء لإسماعيل صبري - تلك المتابعة للمستجدات العالمية في تحليل بحث سالم: حيث نظام التحالفات الأميركية المتجددة دوماً تؤكد قدرة الولايات المتحدة على تحمل عجز ميزانها التجاري واسترداد دورها المركزي المرتقب في الاقتصاد العالمي، وشيوع ثقافتها الشعبية عالمياً وسيطرتها على الأذواق، هذه العولمة بوجهها الأميركي الاقتصادي والسياسي والثقافي التي تنحو نحو الهيمنة . . هل من سبيل لمواجهةها والتعامل معها عبر مشاركة عربية فاعلة ومؤثرة وضابطة أو معدلة لوطأة هذه الهيمنة؟ ذلك هو السؤال الذي يؤرق قسم قضايا وآراء في السفير، وهو سؤال لمحرر السفير . . كيف نشارك عربياً بشكل فاعل بعملية تعديل وطة الهيمنة الأمريكية؟

ولهذا بدا خطاب إسماعيل صبري عبد الله عالمثالثياً لأنه ليس خطاب مشاركة في التعديل، بل هو خطاب وطني قومي وداعية لتنمية مستقلة قائمة على مفهوم Selective delinking الانسلاخ

الانتقائي، حيث الاستيراد بقدر حاجتنا المخططة بعد دراسة، والتصدير بما يكفي لتغطية تكلفة الاستيراد، (السفير ١٩٩٧/١٢/٢٥) وعلى هذا فهو ليس داعية مشاركة ولا داعية الانسلاخ، وليس مبهوراً أو مأخوذاً بهذه الثقيلة النظرية البراقة المسماة عولة، تماماً كجلال أمين الذي لا يرى فيها سوى تلك الطفرة التكنولوجية التي تعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم ظهور الشركات المتعددة الجنسيات، وليست المتعددة حسب الباحث - التي لم يعد يناسبها بقاء الحدود أو الدولة القومية، التي كانت ضرورية سابقاً عندما كانت الأمة الوحيدة الأولية للسوق، والدولة رب عمل أساسي، ومشترياً رئيسياً للسلع والخدمات، وعلى هذا فإن الجديد في هذه العولة، هو التغيير الملحوظ على دور الدولة، ومن ثم انهيار أسوار عالمية أمام عملية التوسع الرأسمالية الملائمة لها، حيث كانت تحتمي بها أمم وشعوب (الاتحاد السوفيتي - أوروبا الشرقية - الصين) من الرأسمالية المتوحشة، وعلى هذا فهي ليست ظاهرة جديدة نوعياً، بل تعود إلى ما يقارب الخمسة قرون (السفير ١٩٩٧/١١/٢٥) ولهذا فإن عزمي بشارة الذي قدم نصاً نظرياً رفيعاً عن بعض جوانب العولة إسرائيلياً، يشير بأن اتخاذ المواقف سلباً أو إيجاباً، شجياً أو تأييداً من عملية العولة في إسرائيل، لا تثير سوى الابتسام لأنها منشغلة عن ذلك بتأسيس وضعها الاقتصادي ضمن العملية الجارية. (السفير ١٩٩٧/١٢/٢٧) مما يومئ إلى أن هذا الهوس العربي بالعولة ليس إلا ردة فعل نفسية يقوم بها العقل العربي الذي طالما

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

شكك بفعاليتها ونجاعته تجاه الوقائع التي تصادمه والموضوعات التي تستثيره، فأحوت تحركه دوافع نفسية تتحكم بألياته، أكثر من شغله وفق قانونياته العقلية الذاتية المستقلة عن هذه المؤثرات النفسية والشعورية.

فما إن يكتب فوكوياما مقالاً في الصحافة عن نهاية التاريخ، حتى تنتفض الأقلام متحدية، مبارزة، بأن التاريخ لا يزال في بدايته ينتظر العرب حتى يمتطوا صهوته، فلا يبقى مثقف لا يدلي بدلو، ليبرهن على معاصرته، ومتابعته لما يجري، ولنبرهن أننا نحن العرب لسنا مغفلين أو غافلين عما يحدث وراء ظهرنا، وليس صحيحاً أننا أمة لا تقرأ كما يدعي الإسرائيليون. هكذا هاجت الأقلام أيضاً أمام تقليعة صراع الحضارات (هيننتجتون)، وحرب الثقافات، فسلت سيوف الفكر للذود عن حياض الذات الثقافية للأمة لتحافظ على طهارتها وبكارتها من الاختراق الثقافي، فنهضت مشاريع ثقافية كاملة تؤطرها هذه التقليعة، وتوجه إشكالاتها مقالات صحفية (فوكوياما و هيننتجتون) تتناسب مع زمن العولة التي ليست هي بحاجة لتبرير أو تفسير أو تعديل أو تأطير أو تنظير، ما دامت قادرة على تعميم نمطها الأمريكي ولو كره الكارهون، إنها ببساطة نبتة طبيعية في حقل حرث وزرع عبر قرون حمسة من الرأسمالية التي لم تتوقف لحظة واحدة عن العولة، باعتبار العالمية سمة ملازمة لبنيتها التكوينية إذ هي تحطم الحدود والحواجز الإقطاعية، فالقومية والدولتية اليوم.

فالرأسمالية، استبدلت الأطروحة الأونطولوجية عن الوجود الذي كانت بدايته (الكلمة) لاهوتياً، إلى الوجود الذي بدايته (الفعل)، إنها تفعل، تصنع، تنتج، وتترك للآخرين حق وضع المشاريع الكبرى عن التراث والمعاصرة، وعن وجوه العقل العربي البيانية والعرفانية والبرهانية، حيث صاحب المشروع النقدي للعقل العربي (الجابري) لم يقدم في الندوة المذكورة، سوى لمامات لما ينشره هنا وهناك على المنابر، فهو يميز لنا بين العالمية والعمولة، تمييزاً، لا نعرف إلى أية مرجعية نظرية أو تاريخية أو واقعية يستند في هذا التمييز، وكأن عالمية الرأسمالية ما قبل العمولة كانت تنتج وعياً كونياً إنسانياً ديمقراطياً، لكنها مع شيطان العمولة تحولت إلى قوة اختراق، وكأننا نحن العرب لم نخترق، إلا في زمن العمولة، وبإصبع كليبتون وتنياهو فقط!

وسط هذه الجلبة التي تستثيرها سرعة العمولة يقدم المفكر المعروف الصديق الدكتور صادق جلال العظم مقاربة لموضوعة العمولة، تحت صيغة سؤال "ما هي العمولة؟".

رغم أن الدكتور صادق يختتم ورقته بالاعتذار إلى الزملاء علماء الاقتصاد والاجتماع لقله حياته؛ إذ هو يعتدي بشكل صارخ على اختصاصهم ويستبيح موضوعاتهم وهمومهم، لكن المقاربة التي قدمها لا تبرر هذا الاعتذار إلا إذا اعتبرنا هذا الاعتذار ضرباً من ضروب التواضع الذي ملؤه الاعتداد والثقة، إن القراءة التي تقدمها المقاربة رغم ما تثيره من خلاف إيديولوجي وسياسي مع

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

الباحث فإنها على المستوى المعرفي هي القراءة النادرة التي قالت جديداً، فيما يخص العولمة، وهذا الجديد المستنبط من قراءة الظاهرة هو الذي يبرر المشروعية النظرية لتداولها في صيغة اصطلاح العولمة، بوصفها ظاهرة جديدة نوعياً في صيرورة تطور الرأسمالية، رغم الاختلاف الشديد الذي تستثيره الوظيفة الإيديولوجية والسياسية لهذه القراءة المعرفية كما أشرنا، فإذا صح التعريف الذي يقدمه لها، فإنه بذلك سيبرر مشروعية تداولها كاصطلاح . . فما هو جديد العولمة؟

يعمد الباحث للإجابة على هذا السؤال إلى التقسيم الكلاسيكي في علم الاقتصاد السياسي والماركسي بصورة خاصة، حيث يميز هذا التقسيم داخل نمط الإنتاج الرأسمالي بين دائرة الإنتاج المباشر ودائرة التبادل، الدائرة الأولى هي عمق نمط الإنتاج الرأسمالي وحقيقته، وهي دائرة الرأسمال الثابت وقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج التي تتم عملية الإنتاج وإعادة الإنتاج في ظلها وضمن شروطها، أما الدائرة الثانية فهي سطح نمط الإنتاج الرأسمالي ومظهره، أي اقتصاد السوق وتداول المال والرأسمال المتحول، وتوزيع الثروة، تبادل السلع والخدمات وما تعنيه من البيع والشراء . . إلخ.

وفق هذا التمييز يعتبر الدكتور صادق أن مرحلة عالمية نمط الإنتاج الرأسمالي تعود إلى الدائرة الثانية، دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والاستيراد والتصدير، مع بقاء دائرة الإنتاج

ودورتها في دول المركز الأصلي وحدها، وهذه المرحلة استمرت حتى منتصف هذا القرن.

بينما العولمة، فهي تنتمي إلى الدائرة الأولى دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها، وهذه المرحلة بدأت بعد منتصف هذا القرن، حيث وفقاً لهذا التحليل - وصول نمط الإنتاج الرأسمالي إلى نقطة الانتقال من عالمية التبادل والتوزيع والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج - وحيث العولمة بهذا المعنى سترسمل العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسّمته على مستوى سطح النمط ومظاهره.

وفق هذا التحليل يستنتج الباحث أن كتاب لينين الذي يؤكد أن "الإمبريالية هي أعلى مراحل الرأسمالية، خاطئ، لماذا؟ لأنه أضحى واضحاً على ضوء تميزه بين مرحلة العالمية والعولمة، إن عالمية دائرة التبادل ليست أعلى مراحل الرأسمالية بالفعل وإن النقلة المنطوية على عولمة - أعلى منها وأهم، غير أن الباحث لا يلبث أن يجبر خاطر لينين اعتماداً على تسمية سمير أمين لهذه المرحلة بوصفها "ما بعد الإمبريالية" واعتبار الجابري للعولمة أنها "ما بعد الاستعمار"، على هذا يمكن إنقاذ عنوان كتاب لينين باعتباره يعدُّ عالمية دائرة التبادل الرأسمالية هي أعلى مراحل الرأسمالية! وعلى ضوء هذا التمييز للعولمة، تتم الدعوة لإعادة النظر جذرياً في نظرية التبعية، حول مسألة القطع، ومسألة التنمية المستحيلة، متسائلاً إن كان لا يمكن أن تحل محل فكرة التنمية المستحيلة في ظل العولمة، فكرة التنمية المحدودة مثلاً؟

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

والمثال الذي تؤسّس عليه القراءة استنباطها النظري هذا هو تجربة النّمور أو التّينات الآسيوية الخمسة أو الستة، إذ أن المثال يساق في صيغة البداة، حيث يعبر أنه "يخطر على البال" هذا المثال (مثال النّمور) وليس أن البال - في حقيقة الأمر - هو الذي انطلق من هذا المثال ليصوغ ترسيمته النظرية، للإيحاء ببداهة الترسيمه وسطوع برهانها!

وهنا تخلص المقاربة إلى تقديم تعريفات عديدة للعولة "العولة هي حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء، في ظل هيمنة المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير متكافئ، ووفقاً للتعريف هذا، فإنها تعني "الانتصار" لنمط معين من السيطرة على وسائل الإنتاج. "

وهكذا فإن كلمة "انتصار" تختصر الموضوع، فيختزل التجريد النظري إلى حدود الواقعة السياسية المتمثلة بزوال الاتحاد السوفيتي. الخ.

وعلى هذا وفي إطار العولة، وبدون تردد، يغادر النص حذره فيطلق حكماً يثير الذعر في أوصال العالم الثالث، عندما يؤكد "إن الذي يجري تصديره الآن إلى الأطراف هو الرأسمال الصناعي الإنتاجي نفسه" ويمضي النص محاججاً ومفنداً، ومفسراً ومعللاً، ليدراً أثر هذا الحكم، فيؤكد لنا أن عملية تصدير الرأسمال الصناعي تتم كلها بقيادة المركز وتحت سيطرته وبما يخدم مصلحته

على المدى البعيد، إذن ما قيمة هذا الرأسمال إن كان صناعياً أو تجارياً؟ والنص إذ يحاول أن يظهر توازناً بين الأطروحة والأطروحة المضادة، سرعان ما يبرز المسكوت عنه والمضمر في ثنانيا التحليل، من خلال ما يسميه اللسانيون السيكلوجيون (فلتات اللسان)، عندما يقال لنا أن العولمة ورساميلها "ما راح تشيل الزير من البير" ومن المعروف إن هذا المثل الشعبي يساق في إطار المبالغة في الرهان على حل ما، حيث الرهان صحيح لكن يجب عدم المبالغة لكي لا ننصدم بنتائج العولمة، وكأننا حتى الآن لم ننصدم بعد!؟

ما هو المناخ النموذجي الذي تفضله الرساميل العولمية المركزية للاستثمار؟ إنه المناخ الملائم للاستثمار المباشر بحيث يتطلب الاستقرار السياسي، وفررة في قوة العمل، قاعدة تحتية مقبولة، مستوى جيد للاتصالات والمواصلات خبرات تقنية ولغوية ومعلوماتية محلية متنوعة ومتقدمة.. إلخ، ويختم الدكتور صادق مقاربه هذه بتلخيص تحفظاته على معالجة سمير أمين لمسألة العولمة:

- العولمة في منظور سمير أمين لا تلحظ النقطة النوعية، من عولمة التبادل إلى عولمة الإنتاج، ولهذا لم ير فيها سوى "الاستقطاب" و"انتشار أسلحة الدمار الشامل" باعتبار هاتين الصفتين هما الميزتان الجوهريتان لمرحلة العولمة الجديدة.

- نعت سمير أمين لإمبراطورية العولمة بإمبراطورية الفوضى هي أقرب إلى الأمنيات من قبل أهل الأطراف، لأن فكرة "فوضى

الإنتاج الرأسمالي " ومتناقضاته ستقود إلى انهيار تلك الفكرة التي كان يراهن عليها والتي لم تجد نفعاً.

وأخيراً يتساءل عن آفاق العولمة إن كانت ستؤدي إلى نشوء تشكيلة اقتصادية - اجتماعية واحدة تتمفصل فيها مجموعة من أنماط الإنتاج وأشكاله في ظل قيادة نمط الإنتاج الرأسمالي وهيمنته .

أما بالنسبة لنا نحن العرب ما موقعنا في سياق هذه النقلة العولمية؟ يجيب إجابة عامة يرد فيها على أطروحة لطيب تيزيني مفادها أن أزمة الثقافة العربية المعاصرة هي أزمة انسداد آفاق الفئات الوسطى - حاملة هذه الثقافة - في المجتمعات العربية المعاصرة، غير أن الدكتور صادق وانطلاقاً من تحليله للعولمة يقدم قراءته في صيغة تساؤل يرى أن أزمة الثقافة هي أزمة الفئات والطبقات والشرائح والقوى الاجتماعية العربية كلها في محاولتها التكيف المفاجئ والتأقلم السريع مع البيئة العولمية الجديدة ومع شروطها ومتطلباتها وإيقاعاتها ومستلزماتها التي لا تحيط بنا من كل صوب فقط، بل تضغط علينا من كل الجهات وتنفذ فينا من الجوانب كلها؟

إن مناقشتنا لأطروحات الصديق صادق ستأسس منهجياً على نظرية الثقافة بوصفها إطاراً نظرياً يتيح لكل العناصر المشكلة للظاهرة أن تتراسل وتتجاوز داخلياً، حيث يمكن للعنصر

الاقتصادي أن يحل محل الاجتماعي والمعرفي محل الإيديولوجي وبالعكس بحركة مكوكية متداخلة ومتفاعلة، سيما وأن الموضوع يستدعي تدخلاً اقتصادياً تقنياً لا ندعيه، وعلى هذا فإن منظور نظرية الثقافة يتيح قراءة النص، أي نص، وفق حاجات القارئ بوصفه مواطناً مدنياً ينتمي لنظام ثقافي قومي، له كل المشروعية أن يختبر الأفكار والنصوص والنظريات على ضوء حاجة واقعه أو الممانعة لها، ومدى أهميتها وقيمتها وفعاليتها الإجرائية لنظامه الثقافي والاجتماعي والسياسي.

وعلى هذا فإن حوارنا مع النص المعروض، سيحكمه منظور إجرائي ينطلق من مفهوم المصلحة، ومن موقع وطني وقومي، أي سينطلق من سؤال، ماذا تعني العولمة لنا كعرب؟

سأدرج بتناول النقاط الخلافية وفق ورودها في النص:

- تتوقف المقاربة مطولاً عند كتاب لينين "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" لا للاهتمام والمقارنة والمناظرة بين زمنين بهدف الوصول إلى تركيب نظري عبر المراكمة التعااقبية للوقائع والأحداث واستخلاصاتها الفكرية والنظرية، بل يناقش لينين في إطار الخطأ والتصويب، وكأن لينين أستاذ للاقتصاد في جامعة موسكو اليوم، وليس الرجل النظري النادر في التاريخ الذي استطاع أن يجعل من أفكاره واقعاً، أي أن ينقل هذه الأفكار من عالم الأذهان إلى عالم الأعيان، فجمع في شخصه جان جاك روسو وروبسبير معاً، على

اعتبار أن الثورة الفرنسية ساهم في صناعتها المفكر من جهة
والمناضل من جهة ثانية .

ولهذا فإن مناقشة آراء لينين تخطيئاً أو تصويباً، وثورة أكتوبر
بوصفها خطأ أو صواباً تاريخياً، هي مناقشة لاهوتية بامتياز، وهي
تحسب زاعمة أنها تفكك المقدس . فالنظرة اللاهوتية إلى الوقائع
والظواهر لا تعرف من خلال نزعة التقديس فحسب، بل قد
يتتهك المقدس بأسلوب لاهوتي، وذلك لأن النظرة اللاهوتية إلى
العالم هي تلك النظرة التي تجوب فوق صفحات الزمن والتاريخ
بحرية سحرية عجيبة، تقدس ما تريد تقديسه، وتتهك مقدسات
باسم مقدسات أخرى، فمطالبة لينين أن يجيب نصياً على متغيرات
لم يشهد تاريخ البشرية قرناً مشابهاً في تسارع إيقاعه لهذا القرن
الذي يفصلنا عن لينين، هي مطالبة لاهوتية لأنها تعامله كنبى عليه
أن يتنبأ ويتكهن ويحدث بالعوامة!

لينين وثورته يجب أن تحتل حيز الرأس مال الرمزي الثقافي
والروحي والأخلاقي في سفر البشرية المتطلعة إلى الحرية والتقدم
والعدالة، كما كانت الثورة الفرنسية من قبل، وكما ستكون هناك -
وبالضرورة - نضالات بشرية في سبيل الحرية والعدالة . هكذا تغدو
اللينينية وثورة أكتوبر رأس مالاً رمزياً لا يجوز تنفيه الرموز من
خلال وضعها أمام أسئلة ليس مطلوباً الإجابة عنها، كما يفعل
السلفيون عندما يطالبون القرآن أن يكون سفرراً في العلوم
والرياضيات والفيزياء . . إلخ .

ويحضرني في هذا السياق التفتيهي للرأسمال الرمزي للبشرية، مقارنة قام بها غالي شكري بين لينين وجاك بيرك، حيث حسب - شكري - يصحح بيرك للينين أخطاءه الفلسفية، وذلك في مقدمة أطروحة الدكتوراه التي كان يشرف عليها أستاذه (بيرك) ذاته، والمنشورة بالعربية تحت عنوان "تجربة النهوض والسقوط في الفكر المصري".

لم أسق هذا المثال، إلا من باب التداعي، وليس الهدف منه المقارنة بين الموقعين، بل إنني أكبر صادق عن أن تحركه الدوافع التي حركت شكري باتجاه أستاذه (بيرك) الذي أظن أن الأخير كان سيرفض هذه المقارنة لو كانت من طالب فرنسي، لكن الرجل كان قد اعتاد على هذا الرياء من طلابه العرب، فأفسدوه حتى غدا طاووساً في أواخر حياته!

- تقدم المقاربة تعريفها النظري الذكي للعولة، ولا يرى المرء المرجعية الواقعية لهذا التعريف في أي بلد عربي، أي تصدير الرأسمال الصناعي الإنتاجي لا في الدول الصديقة للغرب وأمريكا، ولا في الدول العربية التي تتوفر على الشروط المناخية النموذجية لما تفضله الرساميل العولمية، من استقرار سياسي، فليس هناك نظام في العالم أكثر استقراراً ورسوخاً من الأنظمة العربية ملكية كانت أم جمهورية!

أما العوامل الأخرى التي تعددها المقاربة (قوة العمل، قاعدة تحتيّة مقبولة، خبرات تقنية ولغوية ومعلوماتية محلية متنوعة

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

ومتقدمة). فهي متوفرة في عدد من البلدان العربية (مصر - العراق - سوريا - الجزائر) فإذا استبعدنا العراق وسوريا لأسباب سياسية، علماً أنه يفترض للعوامل السياسية - وفق منطق السوق - أن لا تقف عائقاً أمام التوسع الرأسمالي التبادلي أو الإنتاجي، فلو أخذنا مصر مثلاً، فسرى أن مصر تكيفت منذ عشرين سنة بل وربطت مصيرها من خلال كامب ديفيد السادات بالإرادة الأمريكية والإسرائيلية، وكان يفترض أن تتحول مصر إلى قاعدة لعولمة الرأسمال الصناعي، بما تتوفر عليه من قوة عمل، وقاعدة تحتية، وخبرات تقنية، وكل ما تسرده المقاربة من شروط تفضلها رساميل العولمة الإنتاجية، بالإضافة لما يمكن أن تحققه على المستوى الجيوبوليتيكي في ظروف الحرب الباردة، وهي تخرج مصر من عالمها العربي، لتقدم مثال التنمية التي لم تعد مستحيلة كما يذهب الخطاب النظري، للدكتور صادق وهو يرد على مدرسة التبعية، إذ تغدو التنمية ممكنة في ظروف العولمة، وعلى مدرسة التبعية أن تعيد النظر في أطروحاتها على ضوء الانتقال النوعي للرأسمالية من العالمية التبادلية إلى العولمة الإنتاجية. لماذا لم يتعولم الاقتصاد المصري، فيتصنع ويقدم مثلاً للتنمية في العالم العربي؟ حيث كان بإمكان الأمريكي أن يحققوا فائزين، فائض التبادل وفائض قيمة العمل المأجور الرخيص، بالإضافة إلى أهمية ذلك سياسياً في ظروف الحرب الباردة، فإذا كان ذلك لم يكن كذلك في ظروف الحرب الباردة، والتنافس على كسب مواقع النفوذ، فكيف يمكن ذلك بعد أن أصبح العالم مستباحاً!؟

فها هو أحدا الاقتصاديين المصريين البارزين (د. جلال أمين) يحدثنا في دراسة حديثة عن الاقتصاد المصري، بوصفه لا يستحق حتى أن يكون اقتصاداً ربيعياً بمعنى الاقتصاد الذي يعتاش خلال العشرين سنة الماضية على (البترو، قناة السويس، تحويلات العاملين في الخارج، السياسة) ذلك هو الجانب الربيعي في الاقتصاد المصري، الذي يبدو لجلال أمين أن لفظ (الربيع) محترم بالنسبة لواقع الاقتصاد المصري، فالالاقتصاد الربيعي هو مجرد حصول على دخل بلا جهد، بينما الاقتصاد المصري لا يتوقف عند ذلك، بل يتعيش على الإحسان والشفقة (الهبات الواردة من بعض الدول الإسكندنافية) أو تخفيض الديون كلما أثبت حسن السلوك تجاه إسرائيل. استناداً لذلك يقترح جلال أمين أن يستخدم بدلاً من اصطلاح "الاقتصاد الربيعي" اصطلاحاً مثل "اقتصاد البقشيش" فهذا الاصطلاح هو الأدق تعبيراً عن حقيقة الاقتصاد المصري الآن (جلال أمين - الدولة الرخوة ص ٤٩).

إن النماذج الخمسة أو الستة للنمو الآسيوية، التي تكمن على الأغلب وراء المصفوفة النظرية لمقاربة الدكتور صادق، ها هي تموء كالكقطط، بل ها هو الرئيس الماليزي يعلن أنه سيصمت ويكف عن المواء، بعد أن تلقى توبيخاً معولماً فائقاً في عولته من قبل الأب الأمريكي البطركي للعوامة!

لا أظن أن الصديق صادق سيقول: إن مقارنته مقاربة اقتصادية تقنية بحتة ليس لها مؤدى أو وظيفة سياسية أو

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

أيدولوجية، وذلك لأنه وفق تقدير الكثير من الذين يرون أن الاقتصاد لم يتيسر، والسياسة لم تتأقصد وابتدال في تاريخ الرأسمالية كما يجري اليوم، ولعل المثال الصارخ لهذا الابتدال يتمثل في صورة زعيم الدولة (كلنتون) التي يتأقطب ويتعولم العالم حولها، يبدو كوكيل لشركات السيارات الأميركية في اليابان، إذن ما هي العولمة، وما هي مميزاتها؟

ليس صحيحاً القول إنها تعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، كاصطلاح، فقد تم تناول الخصائص التي أفاضت بذكرها مقاربة صادق للعولمة تحت اسم الاستعمار الجديد من قِبَلِ الأدبيات اليسارية، كصيغة معبرة عن أشكال التوسع الجديدة للرأسمال المتعدد الجنسيات، أما مصطلح العولمة والنظام العالمي الجديد فلم ينتشر ويتداول كصرعة وتقليعة فكرية بوصفها نهاية التاريخ، نهاية الأيدولوجيات، حيث لا بناء فوقي ولا تحتي، ولا صراع طبقي ولا قومي، ولا عالم ثالث ولا أول، إلا بعد حرب الخليج التي خاضت أميركا من خلالها حرباً عالمية ثالثة غير مكلفة عسكرياً، لكنها ذات غلال رمزية هائلة لقد كان الاتحاد السوفيتي في طور الانهيار، وحلف وارسو يتلاشى، فوجدتها الفرصة المناسبة لخوض حرب استعراضية، تكون بمثابة حرب مجازية رمزية لحرب عالمية ثالثة، ما دام الاتحاد السوفيتي ينهزم وحلفه من تلقاء نفسه، فتم تكبير بلد عالمي صغير، واستطاعت إمبراطورية الإعلام، أن تجعل من العراق وريثاً مجازياً (لإمبراطورية الشر) السوفياتية حيث

الانتصار الأميركي لن يكون على العراق بل وعلى كل قوى الشر العربية والعالمالثية والسوفياتية!

منذ تلك اللحظة التي أخرج فيها بوش جورباتشوف وميتران أي الاتحاد السوفيتي وأوروبا باحتقاره لمبادرتهما، بدا واضحاً أن مرحلة جديدة ستدخلها الرأسمالية، فراحت تتناسل المصطلحات والتسميات والصيغات الإعلامية للمتصر، فكانت العولمة إحدى الصيغات الإعلامية لزعامة أمريكا الحاسمة وبدون منازع للعالم، حيث المزيد من "الاستقطاب" والمزيد من "العسكرة" وانتشار أسلحة التدمير الشامل، كما يستقرئ سمير أمين محقاً.

ولهذا فإن جديد العولمة، ليس سوى إعادة إنتاج لجوهر الرأسمالية المتوحشة على حد تعبير رمزي زكي، وقد انطلقت غرائزها بعد زوال الحواجز الرادعة (الاتحاد السوفياتي) حيث غدت طليقة غير مجبرة على أخذ مصالح الجنوب بعين الاعتبار ما دامت ساحاته وخيراته أصبحت مفتوحة أمامه على مصراعيها دون منافس استراتيجي كما كان عليه الأمر في ظروف الحرب الباردة.

فإذا كانت الرأسمالية في مرحلتها الإمبريالية الاستعمارية الأولى تمثل قاطرة غير واعية للتاريخ، إذ توحد العالم على حد تعبير ماركس، الذي كان يرى في دورها الاستعماري وجهين مزدوجين (التقويض والإنشاء) لكن المرحلة الجديدة هي مرحلة تقويضية، هدامة، مدمرة لا تنتج إلا معادلهما الأكثر بشاعة،

فالرأسمالية في مرحلة عالميتها الأولى إذ كانت تدمر البنى التقليدية للمجتمعات المتأخرة فيما يخدم عملية نهبها الإمبريالي، كانت تولد بالمقابل شعوراً بالهوية الوطنية والقومية، راح المستعمر يصوغها في وعي قومي حديث، حيث ولادة الوعي بالتأخر يتحاث مع ولادة الوعي بالتاريخ، فتناسلت من صلب هذا الوعي مفاهيم النهضة، اليقظة، التنوير.

لكن التوسع المعولم اليوم، لا ينتج مضاده التقويضي للهوية، والأنا الثقافية لشعوب الجنوب، إلا في صورة أصوليات من النموذج الأفغاني والجزائري، وحروب أهلية، قبائل، إثنيات أقوام، أو وعي حدائثي يعمم ثقافة حسية تهبط بالمعرفة إلى مستوى الإدراك المتلفز المتعدي في المفعولية والمتعدد الجنسية.

إنها عولمة تقويضية، بما فيها للنمور الآسيوية التي كانت امتداداً ضرورياً للتوسع الرأسمالي الياباني، ومثالاً مفيداً في ظروف الحرب الباردة، لكن العولمة القائمة على المزيد من (الاستقطاب) حسب أمين، حول الولايات المتحدة الأميركية، لم تعد تبالي بمصالح الإمبرياليات الأخرى، ولا بالأمثلة التي كانت مفيدة كنماذج في ظروف الحرب الباردة.

فما هي العولمة إذن؟

إنها الرأسمال الأميركي + العسكرية الأميركية = بلطجة من طراز تقني رفيع، هكذا يتوسع الرأسمال الأميركي وهو يحمل في

يده بلطة، إنه توسع إمبريالي نووي جديد.

إن ما يدعو للاستغراب أن يكون العرب هم الأكثر اهتماماً وتجاوباً مع هذه العولمة، والتي لا تثير سوى ابتسامة السخرية في إسرائيل، وهم أكثر شعوب الأرض امتهاناً وإذلالاً من قبل الأميركيين، والأغرب أن مفكراً يسارياً وطنياً من طراز الصديق صادق جلال العظم، وهو الأكثر معرفة بالمجتمع الأميركي يتصور بأن العولمة يمكن أن تفتح آفاقاً للتنمية كانت مستحيلة من قبل، أي يمكن أن تفتح آفاقاً للتنمية ممكنة!

ولكي لا أبدو متعترراً، وصاحب شطحات وأوهام إيديولوجية، كما يحذرنا الدكتور صادق في خاتمة مقاربته، سأحيله إلى نص لمفكر أميركي يساري معروف وهو يكشف جديد العولمة وجوهر النظام العالمي الجديد دون أن يكون له أية صلة بعنتر أو بعبلة أو بأصحاب الشطحات، يقول تشومسكي: "إن القادة السياسيين في واشنطن ولندن، قد تسببوا سياساتهم في مجموعة من الكوارث الاقتصادية والاجتماعية في داخل بلادهم مما لا يعرفون له حلاً، باستثناء حل واحد هو استخدام ما لديهم من قوة عسكرية، فبناء على نصائح رجال الأعمال قد يقوم هؤلاء القادة السياسيون بتحويل دولهم إلى دول مرتزقة، تقوم بدور أشبه بدور المافيا الدولية فتبيع "الحماية للأغنياء" تحميمهم مما يتعرضون له من "أخطار" العالم الثالث، وتتقاضى في مقابل هذه الخدمات المبالغ المناسبة، فالثروات التي تحول إلى هذه الدول من دول النفط

■ ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي والماركسية ■

بالخليج، تقوم بدعم الاقتصاد المنهار في أمريكا وبريطانيا، في الوقت الذي تقوم فيه أوروبا، بقيادة ألمانيا ومن بعدها اليابان، بمهمة إدخال نمط أمريكا اللاتينية في النمو إلى تلك الأجزاء المنهارة من الإمبراطورية السوفيتية، بينما يقوم موظفو جهاز البيروقراطية السوفياتية المنهار بتشغيل المكاتب الجديدة التي سوف تفتحها الشركات الأجنبية لفروعها في الاتحاد السوفياتي. أما بقية العالم الثالث فسوف يجري الحكم فيه والسيطرة عليه عن طريق استخدام الضغوط الاقتصادية، إذا كانت هذه كافية، أو بالقوة العسكرية إذا لزم الأمر، هذه هي أهم معالم "النظام العالمي الجديد" الذي جرى تخطيطه، والذي تظهر لنا سماته بوضوح بمجرد أن نتخلص من الشعارات والأوصاف الجوفاء المضللة التي يستخدمونها في وصفه".

ذلك هو صوت المفكر اليساري الصادر من جوف وحش الرأسمالية المعولة، والأولى بنا أن نسمع لتشومسكي المفكر، وليس للإعلام المدبر صاحب الشعارات والأوصاف الجوفاء على حد تعبيره.

إن صادق جلال العظم ذا التاريخ اليساري العقلي والفكري الشجاع، والذي توج سيرته الفكرية بكتابه الذي يعلو فوق سقف الثقافة العربية "دفاعاً عن المادية والتاريخ" والذي يرتقي فيه إلى مستوى المناظرة الفلسفية عالمياً، والذي أثبت من خلاله أنه المثقف الأخلاقي بحق، عندما رفع راية الماركسية كعلم وهي تنكس من

قبل أصحابها لاهوتي ومديري المقدس في المركز والأطراف،
وجاهر بيساريتته، عندما كان الكثر يتوارون خجلاً من تاريخهم
اليساري، ليجدوا لهم موقعاً في عالم المافيا الدولية المرتزقة على
حد تعبير تشومسكي.

أقول إن الفكر العربي، والثقافة العربية، بحاجة إلى صادق
جلال العظم اليساري المفكر سياسياً وطنياً وقومياً، وليس اليساري
فكرانياً!

وأخيراً، وبعد أن احتطت وتحصنت بشجاعة خطاب
تشومسكي من الاتهام السائد بالشعارية والخطابية الأيديولوجية
المشاعرية، أقول إن هذه العولمة ليست سوى "عمولة" حيث تبدو
الولايات المتحدة فيها بصورة البلطجي العالمي الذي يحمل بلطته
مهدداً للحصول على "عمولة"، إنها عولمة الارتزاق والعسكرة،
القائمة على إشاعة ثقافة كوزموبوليتانية استهلاكية سفهة في
ابتدالها وتفاهتها الإعلامية المعتصبة للعقل، لتحويل الفرد إلى كائن
إدراك، وقد أصاب الجابري في توصيف وظيفة الإعلام في تحويل
البشر من كائنات عقل إلى كائنات إدراك في مداخلته عن العولمة.

هذه الثقافة تهدف إلى تكريس الفردية، ومن ثم العائلية،
فالعشائرية فالقبلية، فالأقوامية، فالإثنية، للعودة بوعي البشر إلى
مستوى ما قبل الوعي القومي (الأموي) ليكون البشر جاهزين في
أية لحظة يشاء قادة العولمة أن يفجروا كياناتهم القومية والوطنية إلى

شظايا قبائل وطوائف وأقوام عبر الحروب الأهلية، فعلى العالم أن يتفكك من أجل الولايات المتحدة التي تريد أن تتأقطن، وعلى الشعوب أن تتخلى عن هويتها وثقافتها، وتاريخها، من أجل المزيد من (القومية) الأميركية، التي ينبغي أن ينظر البشر جميعاً إلى أن مصالحهم تكمن في المصالح القومية لأمريكا أولاً التي هي فوق الجميع، وإلا فحرب الحضارات والثقافات والمزيد من تشجيع الأصوليات المذهبية والطائفية، لاستخدامها في الوقت المناسب (الجزائر - التوتسي والهوتو - الصومال - مشروع تقسيم العراق - السودان - حادث الأقصر، من أجل إعادة مصر إلى بيت الطاعة الأمريكية الإسرائيلية، حيث إسرائيل هي البلد الوحيد المسموح لها أن (تتقومن) وأن تتدخل الدولة في الاقتصاد، وأن تملك السلاح النووي، لأنها حسب - وزير الدفاع الأمريكي - لا تهدد بسلاحها مصالح الولايات المتحدة، وعلى هذا فالقول بأن مصالح العالم يجب أن تتطابق مع مصالح أمريكا القومية، ليس استنتاجاً نضالياً من قبلنا، بل هو جزء من هذه العنجهية الأمريكية، التي لا تخجل من بلطجيتها المافوية المتوحشة .

إذا كان التوسع الرأسمالي الاستعماري القديم، يكبح من وحشيته تراث من الفكر التنويري، الديموقراطي، فإن الولايات المتحدة لا تملك سوى تراث سلخ فروة رأس الهندي الأحمر، ولهذا فإن صيحة جيفارا "الولايات المتحدة هي العدو اللدود للجنس البشري" لم تكن صيحة ضمير مقهور فحسب، ولم تكن

دعوة تعبوية نضالية فحسب، بل كانت توصيفاً في منتهى الواقعية
والحس التاريخي السليم لهذا المناضل الغد.

وأخيراً فالعولمة في المآل ليست إلا الصياغة التقليدية الإعلامية
لإخفاء دماء الجنس البشري العالق على فم الولايات المتحدة
القدر.

وتعريفنا الأخير هذا، ليس عنترية جيفارية، بل هو الحد
الأدنى من عقلانية العقل في الدفاع عن الوجود والنفس (1).

(1) يجدر الإشارة - في سياق هذا السجال - للقاري المتبع لكتاباتنا أن يلحظ ما
أومأنا إليه في المقدمة إلى أن تحرر عقل الكاتب من "المعتدوية" اليساروية
القومية التي تنطلق من مفهوم الوطنية بوصفها تضاداً مع الآخر لم تكن قد
أنجزت، ولذا فقد انعكست هذه الرؤية على شكل مقاربتنا الهجائية الحادة
والعنيفة للعولمة، ولكن تغيير منظور الرؤية لأولوية التحديات: (مسألة
أولوية الحرية الداخلية كمقدمة لازمة لتحرر الخارجي الوطني)، يفترض
مقاربة أقل هجائية وأكثر تأملاً هادئاً لظاهرة العولمة، تخفف من حدة التباعد
مع الصديق الدكتور صادق العظم . . .

صادق جلال العظم ماهي العولمة؟

نجد في ردود الفعل العربية الراهنة عليها (العولمة) اتجاهات اختزالياً - هجائياً معكوساً لا محتوى له سوى انفعالات الحق والتزق والعصية والاستخفاف والاستهجان والاستنكار بالنسبة لكل ما يمت للعولمة بصلة. ردود فعل تلخصها أحكام (على الماشي) من نوع "العولمة تعني بناء وحدة السوق واستتباع الشعوب وإلغاء ثقافاتهما"، "العولمة هي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الأيديولوجي". "العولمة إرادة للهيمنة وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي". "العولمة طموح بل إرادة لاختراق الآخر" وسلبه خصوصيته وبالتالي نفيه من العالم". "العولمة هي الأمركة". إلخ. ولربما كان أفضل من عبّر عن هذا الاتجاه في الوقت الحاضر هو الدكتور عبد الرزاق عيد وخاصة في مقاله (ما هو جديد العولمة)⁽¹⁾، هنا أيضاً يحلّ اختزال العولمة إلى مجموعة من القبائح والكبائر المنكرة والمستنكرة بانفعال عظيم، محل التحليل العقلاني للظاهرة، ومحل المحاولات الجادة لتفسيرها

(1) الدكتور عبد الرزاق عيد، (ما هو جديد العولمة؟)، مجلة (الهدف)، العدد السنوي، آخر سنة ١٩٩٨، ص ٨٠-٨٣.

عبر تحقيق فهم أفضل لأشياء مثل خصائصها العامة والأساسية؛ أسبابها، محرركاتها، آليات عملها، القوى الفاعلة فيها، نتائجها المتوقعة على المدين: القريب والبعيد. إلخ. لذا لا يجد الدكتور عبد الرزاق من وصف للعمولة وللنقاشات الكثيرة الدائرة حولها عربياً في الوقت الحاضر أفضل من نعتها بـ "التقليعة النظرية البراقة المسماة عمولة". وفيما يلي تعريفاته لها:

"إنها الرأسمال الأمريكي + العسكرية الأمريكية = بلطجة من طراز تقني رفيع، هكذا يتوسّع الرأسمال الأمريكي وهو يحمل في يده بلطة، إنه توسّع إمبريالي نووي جديد." (1).

كذلك:

"أقول إن هذه العمولة ليست سوى "عمولة" حيث تبدو الولايات المتحدة فيها بصورة البلطجي العالمي الذي يحمل بلطته مهدداً للحصول على "عمولة"، إنها عمولة الارتزاق والعسكرة، القائمة على إشاعة ثقافة كوزمبوليتانية استهلاكية سفهة في ابتذالها وتفاهتها الإعلامية المغتصبة للعقل." (2).

أما حين يحاول الزميل الدكتور عبد الرزاق الإجابة عن السؤال الذي كنت أنا قد أثرته في دراسة سابقة لي (3) - أي سؤال:

(1) المرجع السابق، ص ٨٣ .

(2) المرجع السابق .

(3) (ما هي العمولة؟)، مجلة (الطريق)، بيروت، عدد ٤، تموز - آب (يوليو - أغسطس)، ١٩٩٧، ص ٢٦-٤٤ .

ما هي العولمة إذن؟ - فإنه يكرّر الاختزالية الهجائية التي لحظناها أعلاه بتأكيد أنه لا جديد تحت شمس الرأسمالية التاريخية أبداً، أو على حدّ تعبيره:

"ولهذا فإنّ جديد العولمة ليس سوى إعادة إنتاج لجوهر الرأسمالية المتوحّشة على حدّ تعبير رمزي زكي، وقد انطلقت غرائزها بعد زوال الحواجز الرادعة (الاتحاد السوفياتي)، حيث غدت طليقة غير مجبرة على أخذ مصالح الجنوب بعين الاعتبار، ما دامت ساحاته وخيراته أصبحت مفتوحة أمامها على مصراعيها دون منافس استراتيجي، كما كان عليه الأمر في ظروف الحرب الباردة" (1).

بعبارة ثانية، إنّ اختزال العولمة إلى (البلطجة) و"العمولة" و(الارتزاق) و(انفلات الغرائز المتوحشة) ليس أكثر فائدة بكثير في تشخيص الظاهرة وفهمها جدّياً من اختزالها الآخر إلى (الفضاء السبراني) و(الاقتصاد الناعم) و(الأعداد الأثرية) و(الإشارات المسجلة على ألواح إلكترونية). من هنا ضرورة محاولة الإجابة عن السؤال الأساسي المطروح: ما هي العولمة؟ إجابة مسؤولة ومدروسة وموضوعية، بعيداً عن محض التغني بها، من ناحية، ومحض التفجّع منها، من ناحية ثانية، ومحض الاكتفاء بوصفها ظواهرياً، من ناحية ثالثة. ومن شأن إجابة كهذه، على ما أعتقد، أن تسهّل أيضاً الردّ على السؤال الذي يورق الدكتور عبد الرزاق

(1) مجلة (الهدف)، مرجع مشار إليه سابقاً، ص ٨٣ .

حقاً (ويؤرقنا جميعاً كذلك)، أي ماذا تعني العولمة بالنسبة لنا كعرب أحياء اليوم؟ في الواقع تكمن نقطة الضعف الأخرى في مداخلة الزميل، في نظري، في رغبتها الجامحة في التصدي لسؤال ماذا تعني العولمة بالنسبة للعرب اليوم؟ قبل أي تناول جدّي للسؤال الأسبق منطقياً ومعرفياً وبدونه، أي سؤال: ما هي العولمة أصلاً؟

أريد لفت الانتباه كذلك إلى أن اختزال المنظرين العرب (وغيرهم أيضاً) لظاهرة العولمة إلى أشياء مثل (تكنولوجيا الاتصالات) و(ثورة المعلومات) و(مجتمع المعرفة) وعالم (الشركات متعددة الجنسيات والمتعدّية لها) وإلى (قوانين السوق) و(علمية السوق) و(مرجعية السوق).. إلخ، تنطوي، أولاً، على ميكانيكية تقنية فجّة تتهم بها عادة الماركسية والتفسيرات الماركسية عموماً. وتنطوي، ثانياً، على اقتصادية بدائية مبتذلة - ما زالت تتهم الماركسية حتى اللحظة الحاضرة - تُحوّل الدول والحكومات والأنظمة القائمة اليوم في العالم أجمع إلى ما ليس أكثر من "اللجان التنفيذية" المحلية للسوق الدولية أو العالمية أو العولمية أو لشركاتها العملاقة وما شابه. وتنطوي، ثالثاً، على ارتداد، ضمني أحياناً وصريح في أحيان أخرى، إلى الطروحات القديمة - الجديدة التي نادى بها مدرسة "نهاية الأيديولوجيا"⁽¹⁾ و"المجتمع بعد

(1) راجع: Daniel Bell, The End of Ideology: Harvard University Press. Cambridge, Massachusetts, 1960, 3d edition 1988.

الصناعي" (1) و"المجتمع التكنولوجي" (2) و"المجتمع بعد
الرأسمالي" (3) و"مجتمع الرفاه" (4) و"مجتمع الاستهلاك
الجماهيري الواسع" (5) بالإضافة إلى "نهاية التاريخ" و"نهاية
الحدثة" و"نهاية السياسة" حيث يفترض بالمعرفة والتكنولوجيا
العالية والتخزين الإلكتروني للمعلومات والاتصالات اللحظية
والذكاء الفطري والمكتسب (6). . إلخ، أن تشكل كلها المحركات

(1) راجع: Daniel Bell, The Coming of Post Industrial Society, Harper and Collins Basic Bookd, New York, 1973, 2 nd edition 1976.

(2) راجع: s Role in the Technotronic Era, Greenwood publishing group Inc, Westport, Connecticut, 1970. Zbignew Brzenzinski, Between Two Ages: America

(3) يبدو أن أول من استخدم مصطلح المجتمع "بعد الرأسمالي" هو عالم الاجتماع الأمريكي رالف داهريندورف (Ralph Dahrendor) في كتابه: Class and class conflict in an Industrial society, stanford University press, palo alto, California, 1959.

يحمل أحد فصول الكتاب العنوان التالي: (التطبقات في المجتمع بعد
الرأسمالي)"

(4) راجع: John Kenneth Galbraith, The affluent society, Houghton Mifflin Co Boston, 1958, 2 nd edition 1960.

(5) راجع: W.W. Rostow, Stages of Economic Growth: A Non-Communist Manifesto, Cambridge University press, New York, 1960.

(6) راجع: Steven Fraser, The Bell Curve Wars: Race, Intelligence, and the Future of America, Harper Collins Basic Bookd, New York, 1995.

الأولى لمجتمعات المركز المتقدمة ولتطورها ونموها وتحولها بدلاً من المحركات المعهودة قبلاً والمشخصة سابقاً.

عاب عليّ الزميل الدكتور عبد الرزاق عيد مناقشة "لينين في إطار الخطأ والتصويب، وكان لينين أستاذ للاقتصاد في جامعة موسكو اليوم". كما اعتبر أن مناقشتي "آراء لينين تخطيطاً أو تصويماً، وثورة أكتوبر بوصفها خطأ أو صواباً تاريخياً، هي مناقشة لاهوتية بامتياز." (1) أوافق صديقي الدكتور مئة بالمئة بأن مناقشة أي حدث تاريخي كبير - ثورة أكتوبر أو غيرها - بالقول إنه كان خطأ تاريخياً كبيراً أو صغيراً أو العكس هي مناقشة لاهوتية عبثية بامتياز. لكن أقول بحق نفسي إنني لم أقدم في يوم من الأيام على هذا النوع من المناقشات الغيبية لأحداث التاريخ، أو على إطلاق هذا النوع من الأحكام عليها. أما عنوان كرّاس لينين فإنه لا ينطوي على أية دعاوى لاهوتية أو أية تأكيدات غيبية، بل ينطوي على أطروحة علمية تاريخية تتناول جوانب معينة من عالمنا الحديث والمعاصر، وتكون بالتالي قابلة للخطأ والصواب، للنقاش والتعديل، للنقد وإعادة النظر، كأى أطروحة علمية تاريخية أخرى، بغضّ النظر عما إذا كان صاحبها أستاذاً في جامعة موسكو أو قائداً لأعظم الثورات في هذا العصر ومهندساً لها. لهذا يبدو لي وكأن موقف الدكتور عبد الرزاق هنا يعمل على سدّ الطريق أمام أية محاولة لإعادة فتح النقاش الحي والجاد لأطروحة لينين

(1) مجلة (الهدف)، مرجع مشار إليه سابقاً، ص ٨٢ .

المعروفة على ضوء تطورات تاريخ القرن العشرين وأحداثه منذ ثورة أكتوبر وحتى يومنا هذا، وعلى الاستبعاد المسبق لأية مقارنة تهدف لامتحانها مجدداً بمراجعتها على قراءتنا اللاحقة لتاريخ العالم المعاصر ومستجداته، بخاصة بعد انهيار التجربة السوفيتية على النحو الذي شاهدناه وبعد تقدّم واقعة العولمة وخطاباتها فوراً ليتبوء مركز الصدارة في الشأن العام محلياً وإقليمياً ودولياً.

تنطبق اعتبارات مشابهة كثيرة على نظرية التبعية ونموذج المركز والأطراف، كما عرفناهما في الستينيات وما بعدها. أقول هذا لأنّ التمعّن مجدداً في نظرية التبعية وطروحاتها، ومن مواقع اليوم على ضوء التطورات الحاصلة أخيراً، يبيّن أن المصطلحات والمفاهيم والتصورات الحاسمة عنها في تحليل طبيعة العلاقة بين المركز والأطراف هي من النوع التالي: التبادل التجاري غير المتكافئ، الاستغلال، نهب العالم الثالث، مواد خام، سوّبر - أرباح (Super profits)، فرص للاستثمار غير المنتج، تصدير رؤوس أموال، كومبرادور، الميركانتيلية العالمية، الفائض الاقتصادي المنهوب، التنمية الرثة، البورجوازية الرثة، الدور المركزي للبنوك والمصارف ورأس المال المالي. . إلخ. واضح أن هذا الجهاز من المصطلحات والمفاهيم والتصورات والتحديدات والتمييزات والتحليلات ينتمي كِله إلى دائرة التبادل والسوق والسطح في نمط الإنتاج الرأسمالي، والأقل من قليل من تصورات هذا الجهاز له علاقة جدية بدائرة الإنتاج، إن كان ذلك على مستوى الدراسة النظري أو الوصفي أو التجريبي أو الإحصائي.

القسم

الرابع

4

المجتمع الاستهلاكي

والبلدان العربية النامية

الانعكاسات الاجتماعية والفكرية والثقافية

ندوة فكرية:

أدارها : الدكتور عبد الرزاق عيد

وشارفها فيها:

سعد الله ونوس

د. خضر زكريا

د. عبد الله حنا

الأستاذ : حنا مينة

د. صادق جلال العظم

د. رزق الله هـيلان

1

الانعكاسات الاجتماعية والفكرية والثقافية د. عبد الرزاق عيد

تبدو موضوعة "المجتمع الاستهلاكي" وكأنها تنطوي على تناقض، منظوراً إليها من الوجهة الماركسية: هل ثمة مجتمعات غير استهلاكية؟ أي هل ثمة مجتمعات بدون استهلاك؟ واضح أن ذلك محال. فمنذ أن وجد البشر على الأرض لم يكفوا عن الإنتاج ولا عن الاستهلاك.

الاستهلاك، بهذا المعنى، ضرورة حياتية، وهو ثمرة للإنتاج.

وتذكرنا "المقدمة العامة" التي وضعها ماركس حول منهج بحث الاقتصاد السياسي، وحول مقولات هذا العلم (دمجت فيما بعد مع الغروندريسة) بأن الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، عناصر ثلاثة أساسية في كل عضوي واحد تبادل التأثير، حيث يلعب الإنتاج، كما في كل هنظمة، دور العنصر المقرر.

بيد أن دراسة مفصلة للإنتاج الرأسمالي، قادت ماركس إلى تقسيم الإنتاج الاجتماعي بوجه عام إلى قطاعين رئيسيين: القطاع

الأول - إنتاج وسائل الإنتاج. القطاع الثاني - إنتاج وسائل الاستهلاك. (رأس المال - المجلد الثاني)، وقادته إلى تقسيم القطاع الثاني إلى فرعين ثانويين: (أ) إنتاج وسائل العيش الضرورية، و(ب) إنتاج وسائل الترف.

وبداهة أن وسائل الترف هي ثمرة إنتاج الترف، وهذا بدوره يعني تكريس قسم "إنتاج وسائل الإنتاج" لتوليد وسائل إنتاج مواد الترف.

ما هو إنتاج الترف؟ أو بتعبير آخر ما هو الاستهلاك الضروري وما هو الاستهلاك الترفي، دون أن ننسى لحظة واحدة أن كلا الاثنين ثمرة لنشاط إنتاجي معين؟ إن الجواب تاريخي، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك. فما كان ترفاً في ظرف تاريخي، يغدو ضرورياً في ظرف آخر. كما أن حركة التاريخ تفرض حاجات جديدة، وتفرض بالتالي وسائل إشباعها.

في ضوء ذلك يمكن القول إن أنماط استهلاك معينة تسود في المجتمعات البرجوازية المتطورة، أنماط استهلاك برجوازية. ومثلما تسعى البرجوازية إلى أن تصوغ العالم على صورتها، إنتاجاً واستهلاكاً، فإنها تعمل بوسائل شتى على أن تنشر أنماط استهلاكها الترفي. ولا يدور الأمر حول بيع تجاري لسلع من صنف خاص.

وبالطبع فإن البرجوازية ليست مغرمة بالقيم النافعة أي بالقيم

الاستعمالية لذاتها، فهي تلهث، كما هو دأبها أبداً، وراء الربح، وراء القيمة التبادلية، وراء الثروة، وراء "الذهب الرنان". بيد أن هذا الجري وراء القيمة التبادلية لا يتحقق ما لم تجد هذه القيمة تعبيرها في أشياء نافعة قابلة للاستهلاك، أشياء نافعة تتنوع وتشعب بتطور الحياة الاجتماعية.

ومن دون الإيغال في تفاصيل متشعبة، حسبنا القول إن هذه الندوة، أو هذا الحوار، هو فاتحة ندوات عديدة تتناول ظاهرة أنماط السلوك البرجوازي الغربي، وانتقاله إلى مجتمعاتنا العربية، ومحاولة لاستجلاء جوانبه الاجتماعية والثقافية، بل ودوره أيضاً في الصراع الإيديولوجي، أي بتعبير آخر تأثير هذه الظاهرة على أنماط السلوك، ودورها في الصراع السياسي والفكري الراهن والمقبل.

يشارك في هذه الندوة التي تدرس النموذج السوري: الروائي المعروف الأستاذ حنا مينه، والمسرحي البارز الأستاذ سعد الله ونوس، والمفكر المعروف الدكتور صادق جلال العظم، والباحثان في الاقتصاد وعلم الاجتماع الدكتور رزق الله هيلان والدكتور خضر زكريا، والمؤرخ الدكتور عبد الله حنا، وهذه الندوة تمت في "النهج" التي تصدر عن مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي سنة 1985.

موضوعات الحوار:

١- الاستهلاك كمقولة اقتصادية: التعريف - الاستهلاك الضروري والاستهلاك الترفي.

٢- الاستهلاك كمقولة فكرية اجتماعية أخلاقية: وثنية السلعة وعبادة الأشياء.

الاستهلاك وصنمية السلعة وتفريخ الاستلاب، وتغريب العامل عن إنتاجه.

الاستهلاك وتعميق الأزمة الفردية في المجتمع الرأسمالي، وتجريد العلاقات الاجتماعية من مضمونها الإنساني وتفكيك وتمزيق الروابط الاجتماعية.

تأليه الأشياء وعبادتها وانعكاس ذلك على الجوانب الروحية والأخلاقية للبشر، بإطلاق الغريزة الكلبية التي تنقرز من المثل والقيم وكل ما يتصل بالعالم الداخلي للإنسان بما فيها الفن والأدب عموماً، وتدمير الشخصية وانحلالها وانعكاس ذلك على طرائق السلوك وأشكالها وأسلوب الحياة الاجتماعية.

ضغوط النزعة الاستهلاكية التي تدفع بالفرد للتضحية بمعناه الإنساني وذلك باللجوء إلى الغش والرشوة والاختلاس والاستعمال السيء للنفوذ والعمل الوظيفي.

البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية وظاهرة الاستهلاك غير الإنتاجي، وسياسة الانفتاح ودورها في تدمير القيم والأخلاق الوطنية.

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

مبدأ المحاكاة والمثال الغربي .

تأثير الاستهلاك على البنية الديموقرافية ونمط العمران الوطني .

٣- الاستهلاكية وانعكاساتها على الثقافة العربية .

الثقافة العربية في مرحلة التوسع الرأسمالي العالمي وإشكالية النهضة بين السلفية والليبرالية . الغزو الاقتصادي والغزو الثقافي .

الأجناس الأدبية بين خصوصيتها الوطنية والاجتماعية وبين استهلاكيته للنموذج الأدبي الغربي (الرواية - المسرح) .

الاستهلاكية وانعكاسها على وسائل الإعلام والاتصال (التلفزيون - الإذاعة) .

الأدب والفن وأساسية دورهما في مقاومة آثار التشويه الذي تلحقه الاستهلاكية بالعالم الروحي للإنسان .

ماذا فعل الأدب السوري تجاه هجمة الأسلوب الحياتي الاستهلاكي (الرواية - المسرح - الشعر) .

الحوار

عبد الرزاق عبيد:

إننا نرى في هذا اللقاء، والحوار الذي سيدور فيه، بداية سنسعى إلى استمرارها وتطويرها لتحقيق تفاعل مؤثر أعمق بين المثقفين الوطنيين الديمقراطيين في البلدان العربية للإسهام في إضاءة طريق العمل الوطني والديموقراطي واستشراف المستقبل.

نبدأ حوارنا هذا بمداخلة الدكتور صادق جلال العظم عن المجتمع الاستهلاكي ومن ثم بداية استخدام هذا المصطلح وسياقه التاريخي، والظروف السياسية التي أحاطت بنشأته، وتداوله، ودوره السياسي ووظيفته الأيديولوجية.

المجتمع الاستهلاكي

منذ مدة غير قصيرة، شاع استخدام تعبير "المجتمع الاستهلاكي" ومشتقاته في النقد الاجتماعي والحوارات الثقافية والمناقشات الفكرية. أرجو أن تضيء هذه الندوة بعض المعاني الجوهرية التي حملها وما زال يحملها تعبير "المجتمع الاستهلاكي"، إن كان بالنسبة لاستعمالاته الوصفية أو النقدية أو القدرية أو الأيديولوجية الصرفة.

فيما يختص بمدخلتي، أريد أن أتناول ما أعتقد أنه الاستعمال الأول والأصلي لهذا التعبير وأن أذكر بالظروف الدولية والسياسية التي أحاطت بنشأته وبدخوله سوق التداول الفكري وميدان التأثير السياسي ومجال الخدمة الأيديولوجية.

(١) أعتقد أن تعبير "المجتمع الاستهلاكي" أطلق بادئ ذي بدء في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع الستينات كمقولة سوسيولوجية وصفية على السطح، يفترض فيها التعبير عن الواقع الاقتصادي - الاجتماعي الراقي والمتوازن والجديد الذي وصلت إليه

البلدان الرأسمالية المتقدمة وبصورة خاصة الولايات المتحدة نفسها وأوروبا الغربية .

(٢) أذكر هنا بالفترة التاريخية التي طرح فيها هذا التعبير في سوق التداول والتأثير: في السنة الأولى من ستينات هذا القرن، بدأ السناتور الأمريكي اليفاع جون ف. كيندي استعداداته الجدية لدخول المعركة الانتخابية بهدف الفوز بالرئاسة الأمريكية. التف حول السناتور الشاب والديناميكي مجموعة من البروفسورات والخبراء والمنظرين - المستمد معظمهم من جامعة هارفارد - بغية مساعدته على حمل أعباء المهمة الكبرى التي أراد التصدي لها، وأعني قيادة أمريكا في الحملة المضادة لاستعادة المواقع الإمبريالية المفقودة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة الانتصارات التي حققتها الحركات الاستقلالية وحركات التحرر الوطني في بلدان كثيرة من بلدان القارات الثلاث المعروفة. ونحن نعرف أن مسلسل الانقلابات العسكرية المضادة في دول العالم الثالث بدأ في تلك الفترة ووصل إلى أوجه في الانتصار الإسرائيلي المدوي عام ١٩٦٧ .

(٣) مجموعة من الخبراء والمنظرين الأيديولوجيين التي التفت حول كيندي بصورة رسمية في معظم الأحيان وغير رسمية في أحيان أخرى، هي التي طرحت مقولة "المجتمع الاستهلاكي" ومشتقاتها وشبهاتها كنموذج جديد يحتذى به أمام العالم أجمع. اسمحوا لي أن أستعيد بعض الأسماء التي عملت قوياً وفعالاً على

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

ترويج هذه المقولة وشرحها وتعريفها وعلى تلميع صورة النموذج الجديد وتجميلها وتقديمها إلى العالم كله.

هناك W.W. Rostow أحد كبار المستشارين والمسؤولين في إدارة كينيدي و Johnk. Galbraith أول سفير للرئيس كينيدي إلى الهند، و Arthur schlesinger أيضاً، أحد كبار المستشارين والمسؤولين في إدارة كينيدي، و S.M. Lipset عالم الاجتماع الأمريكي المشهور وثاني أهم اسم في المدرسة الوظيفية الأمريكية بعد Daniel Bell و Taleot parsons منظر وأيديولوجي اكتسب شهرة واسعة يومها.

طرح هؤلاء الخبراء كتباً للتداول حققت وقتها نجاحاً باهراً وتأثيراً واسعاً وبعناوين تفسر نفسها بنفسها:

أ - "نهاية الأيديولوجيا" لـ دانييل بيل.

ب- مراحل النمو الاقتصادي: البيان غير الشيوعي " لـ روستو.

ج- "مجتمع الرفاه" لـ جالبرايت.

هنا أريد أن أذكر، كملاحظة جانبية، أن بعض أفكار هذا التيار وجدت مكاناً لها في "ميثاق العمل القومي" الذي أعلنه الرئيس جمال عبد أناصر سنة ١٩٦٢، بخاصة فكرة تذويب الفوارق بين الطبقات عبر السياسة التنموية للدولة.

(٤) ما هو المحتوى الجوهرى لمقولة "المجتمع الاستهلاكي؟".

الزعم، وبدون أية مبالغة من طرفي، أن المجتمعات الرأسمالية الصناعية المتقدمة، وعلى رأسها الولايات المتحدة طبعاً قد نجحت أخيراً في حل العضلات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية والكبرى التي عانت منها الإنسانية منذ نشوء المجتمع البشري. أو على حد ادعاء جالبرايت في كتابه "مجتمع الرفاه"، لم يبق في هذه المجتمعات المتقدمة إلا جيوباً قليلة من الفقر وحالات معزولة من الفاقة والعوز. لقد حل عصر الاستهلاك اللامحدود على الصعيد الجماهيري الواسع وهو ليس استهلاكاً لسد الحاجات الأولية والضرورية، كما كانت الحال في السابق، بل لسد حاجات الرفاه عند الأكثرية الساحقة، وحاجات الترف عند الأقلية المحظوظة. ملاحظة جانبية صغيرة. بعضكم قد يذكر كتاباً تم تداوله عربياً وفي سورية بشكل خاص في تلك الفترة ويحمل عنوان: "الرفاه للمجتمع" أما "البيان غير الشيوعي" الذي طرحه روستو، فقد أطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل النمو الاقتصادي، الوصف التالي: "عصر الاستهلاك الجماهيري العالي" The Age High Mass consumption أما عالم الاجتماع "ليست" فقد بنى كلياً شعار "انتهاء الأيديولوجيا" في المجتمع الاستهلاكي وأدخله في علمه العلمي ونظرياته الاجتماعية، وعبر عن كل ذلك بقوله إن مجتمع الرفاه حل أخيراً المشكلات الناجمة عن الثورة الصناعية، مما يعني نهاية الأيديولوجيا

والصراعات الأيديولوجية فيه لأن العمال حققوا أخيراً "مواطنيتهم الصناعية والسياسية" على حد قوله وبالحرف الواحد. تم ذلك بسبب "الثورة الاستهلاكية" على حد تسميتهم، التي أُنجزتها مجتمعات الرفاه، مما أدى إلى تقارب وتشابه كبيرين في أنماط الاستهلاك التي أخذ يعيشها المواطنون بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها. بعبارة أخرى: أصبح باستطاعة العامل، في هذه المجتمعات، أن يعيش نمطاً من الاستهلاك يشبه النمط الذي كان حكراً على البرجوازية في السابق. وبسبب هذا التقارب الاستهلاكي ذابت الفوارق بين الطبقات في مجتمع الرفاه الجديد وشارفت الصراعات الأيديولوجية - السياسية الناتجة عن تضارب المصالح الطبقيّة سابقاً على التلاشي والزوال. ولهذا السبب أيضاً بشر عالم الاجتماع الفرنسي المعروف ريمون آرون بقرب تلاشي وزوال العناصر الاجتماعية التقليدية التالية في المجتمع الاستهلاكي الصاعد: التماسك الداخلي لكل طبقة من طبقات المجتمع واستمراريته من جيل إلى جيل، أهمية وعي الأفراد بانتمائهم الطبقي، دور وعي الطبقة لنفسها كطبقة.

(٥) ما هي الوظائف الأيديولوجية لمقولة المجتمع الاستهلاكي

ومشتقاتها وشبهاتها؟

أ- اختزال الفوارق والموانع الطبقيّة في المجتمع - أي مجتمع - إلى النمط الاستهلاكي المتوفر للفرد أو الجماعة أو لفئة اجتماعية معينة.. إلخ. الثورة الاستهلاكية على حد تعبيرهم وفرت السيارة

والثلاجة والغسالة والبيت المريح للعامل والمحروم سابقاً. مما يعني، وفقاً لهذا التطبيق، تجاوزاً حقيقياً وتاريخياً للبنية الطبقيّة المعروفة للمجتمعات البشرية المعاصرة ولتعارضاتها وتناقضاتها!

ب- إحلال فكرة الاستهلاك غير المحدود والعبثي والمدمر لموارد الكرة الأرضية المحدودة، محل فكرة الوفرة في إنتاج الثروة وسد الحاجات الإنسانية وتأمين الخدمات للمجتمع.

ج- إظهار الاستهلاك بمظهر المحرك الرئيسي للاقتصاد الرأسمالي المعاصر بدلاً من الإنتاج في سبيل أكبر قدر ممكن من الربح. أي إخفاء الحقيقة البسيطة التي أعلنها أحد رؤساء شركة جنرال موتورز بقوله في حديث صحفي: "يجب أن نذكر دوماً أن الهدف الأخير لشركة جنرال موتورز ليس إنتاج السيارات، بل إنتاج أكبر قدر ممكن من الأرباح".

د- إشعار المستهلك العادي زيفاً بأن حاجاته الاستهلاكية ومطالبه الحياتية هي التي تدفع المنتجين إلى صنع السلع الموجودة والخدمات المتوفرة، وإخفاء الحقيقة البسيطة الأخرى وهي أن المستهلك مضطر لاستهلاك ما ينتجه هؤلاء في سبيل الربح بغض النظر عنه وعن حاجاته الاستهلاكية منها والحياتية.

هـ- إذا كان المجتمع الاستهلاكي قد حقق حلم البشرية القديم بالبحوثة العامة الكاملة، وبالسلام الاجتماعي الداخلي، وأنجز ما لم يستطع أي مجتمع آخر إنجازه حتى يومنا هذا، من الطبيعي أن

تتشدد الدول الطامحة للنمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي في كل مكان إلى نموذج المجتمع الاستهلاكي وتحذو حذوه وتسير على الطريق التي سار عليها بهذا النجاح الباهر. وإذا كان الاستهلاك هو المحرك الأساسي للاقتصاد فما على هذه المجتمعات إلا أن تستهلك بتدرج متزايد، حتى تجد نفسها صاعدة بتسارع باتجاه سد حاجياتها وتنمية اقتصادها وتحقيق تقدمها الاجتماعي حتى بلوغ المرحلة الأخيرة من مراحل النمو الاقتصادي عند روستو، أي "عنصر الاستهلاك الجماهيري العالي"، كما أشرت. ما أحلى الحياة وأسهلها استناداً إلى وعد نموذج المجتمع الاستهلاكي: في وقت واحد بإمكاننا أن نستهلك على كيفنا ونسد حاجياتنا كلها وأن ننمي اقتصادنا ونحقق تقدمنا الاجتماعي، وكل ذلك بدون عذاب أو تضحيات، وبدون حاجة لأية خطوات جذرية تعيد توزيع الثروة والفائض في المجتمع مما من شأنه أن يهز بنيته الطبقيّة المسيطرة ويهدد سلامه الاجتماعي السائد. هنا، اسمحو لي أن أرجع بكم مرة أخرى إلى "ميثاق" عبد الناصر حيث طرح القائد العربي على نفسه وعلى ثورته مهمة من النوع التالي:

"زيادة الإنتاج وفي الوقت نفسه زيادة الاستهلاك في السلع والخدمات، هذا مع استمرار التزايد في المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة".

أيدولوجية مجتمع الاستهلاك فتانة حقاً.

وكي لا يظن أحد بأن تأثير هذه الأيديولوجيات قد انتهى وتلاشى، أشير هنا إلى أن المفكر الإيطالي اللامع لوشيوكوليتي - عضو الحزب الشيوعي الإيطالي سابقاً وصاحب عدد من المؤلفات الماركسية النظرية الممتازة وفقاً للتقليد الجرافي - قد انتهى به المطاف مؤخراً إلى نشر كتاب يحمل عنوان: "زوال الأيديولوجيا". ذلك بعد ربع قرن تقريباً من صدور كتاب الأميركي دانييل بيل - "نهاية الأيديولوجيا". ونعرف جميعاً أن روجيه جاردوي كان قد سبق كوليتي إلى مثل هذا المآل حين أحل "حوار الحضارات" محل "صراع الأيديولوجيات" على الصعيد العالمي وتوجه في مقدمة كتابه إلى شخصية بارزة جداً بصفقتها راعية لهذا الحوار، أعني الشهبانو السابقة فرح ديبا. أما البنيوي الشهير ميشيل فوكو فقد أعلن حلول "نهاية الإنسان" سنة ١٩٧٠، و"نهاية السياسة" سنة ١٩٧٧.

عبد الرزاق عيد:

شكراً للدكتور العظم على مداخلته القيمة هذه، التي أضاءت لنا ظروف نشأة هذا التعبير ودلالته الاصطلاحية، السياسية والفكرية ووظيفته الأيديولوجية، كاشفاً عن السيرورة التاريخية لظهور أطروحة "نهاية الأيديولوجيا". قبل أن نتقل إلى مستوى آخر في الحوار، ربما من المفيد أن نستمع إلى أية إضافة أو مداخلة تصب في هذا الإطار.

خضر زكريا:

برأيي يمكن الانتقال للحديث عن المضمون الحالي في بلادنا لما يسمى بالمجتمع الاستهلاكي ولمقولة الاستهلاك بوجه عام، وكيف نفهم، وكيف تتوضح، ومن ثم يمكن الحديث عن الأيديولوجيا، وتأثير المجتمع الاستهلاكي على المفاهيم الأيديولوجية.

رزق الله هيلان:

في رأيي أن المداخلة التي قدمها الدكتور صادق تركز على نقاط أساسية وإن كانت تدور حول مفهوم الاستهلاك في الغرب.

لا يمكن لنا نحن كإقتصاديين إلا أن نرى انعكاس هذه الموضوعة الأيديولوجية على المفاهيم النظرية للأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التي تصدر إلينا بنصوصها أو مترجمة، وتبني نظريات اقتصادية دون أن تعلن عن هويتها الأيديولوجية، فهناك على سبيل المثال كتاب "استراتيجيات التنمية" لهرشمان، وهو اقتصادي كبير ومعروف في البلدان النامية، ولقد لفت نظري الدكتور صادق إلى الأساس الأيديولوجي لهذه النظرية التي انتشرت على نطاق واسع، ومضمون هذه النظرية، إن الاستيراد ينمي الاستهلاك، حتى تنشأ سوق داخلية تسمح بالتصنيع، أي يجب علينا أن نوسع سوقنا الداخلية الاستهلاكية إلى الحدود القصوى حتى نصل فيما بعد إلى صنع الأجهزة بالتركيب أو التجميع، إن كتاب هيرشمان عن استراتيجيات التنمية موجه إلى

البلدان النامية ليقدم لها الحلول من أجل عمليات التنمية فيها. وبتقديري أن معظم الكتب الأمريكية المهتمة باقتصاديات التنمية تنطلق من هذه النظرية إذا أخذنا نماذج التنمية في سورية أو غيرها من البلدان النامية، نجد أن هذه النظرية التي لم تنته إلى أساسها الأيديولوجي والذي أوضحه الدكتور صادق هي التي تنعكس معظم استراتيجيات التنمية فيها، فلعل تصنيفنا يتوجه نحو الاستهلاك، فصناعات اللمسات الأخيرة، والتركيب، والتجميع، سميت صناعة تحويلية زوراً وبهتاناً، وهي لا صلة لها بالتصنيع قطعاً، وهي ليست إلا التفافاً على الحواجز الجمركية، والكوتا، لكي تسمى صناعة وطنية، على الرغم من أن ٩٠-٩٥٪ من عناصرها وأجهزتها ووسائلها مستوردة، وكثيراً ما تكون تكاليفها أكثر من سعر استيرادها.

ولذلك فإن مداخلة الدكتور صادق لفتت انتباهي، وأنارت نقاطاً لم أكن منتبهاً إلى عناصر الاتصال بينها، لقد كانت واضحة لي اقتصادياً، إلا أن المنطلق الأيديولوجي لها كان غائباً، فإذا انتقلنا من هذه المقدمة الأيديولوجية وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية على موضوع الاستهلاك، فسيكون ذلك مفيداً وضرورياً.

عبد الرزاق عيد:

الدكتور خضر زكريا فيما يبدو يريد التعقيب.

خضرة كريا:

في هذا الإطار يمكن الحديث عن هذا النمط الذي يسود في البلدان العربية، والبلدان النامية، والصيغة التي من خلالها يبدو شعار تقدمياً، وهو إشباع حاجات الناس، باعتباره الهدف الأخير لكل تنمية سياسية واقتصادية، وحيث يأخذ هذا الشعار باعتباره شعار استراتيجية التنمية في البلدان العربية.

يجب التنبيه فيما يتعلق بهذا الموضوع إلى:

أولاً: الاستهلاك كشعار يقوم على إشباع حاجات الناس وباعتباره هدفاً أساسياً وجزءاً من الاستراتيجية العامة للنظام الاقتصادي والاجتماعي، لا يمكن أن يكون إلا في المجتمع الاشتراكي.

أتوقف عند هذه المسألة، لأشير إلى أنه كثيراً ما يستخدم هذا الشعار بشكل مجرد، حيث الكثيرون في بلداننا يعلنون أنه ما دام شعار الاستهلاك هو تلبية حاجات الناس في المجتمعات الاشتراكية، فلماذا لا يكون غرض استراتيجية التنمية عندنا إشباع حاجات الناس؟.

وتحت هذا العنوان تبنى كل السياسة التنموية في بلداننا، وهنا يغدو الخلل مزدوجاً أو ربما أكثر من مزدوج - فشعار إشباع حاجات الناس يفترض بالضرورة سؤال أي الحاجات ستشبع: هل الخبز والسكن أم الحاجة إلى السيارة والفيديو والفنادق

الفخمة والفيلات؟ ومن ثم أي الناس هم المقصودون بتلبية الحاجات؟

لابد من الانتباه إلى أن الاستهلاك أو إشباع حاجات الناس كان خاتمة العمل الإنساني وليس بدايته.

فالمجتمع الاشتراكي عندما يضع هذا الشعار، فهو يبدأ من الإنتاج، وقد بدأ بإشباع حاجات الناس المتنامية بالتدريج، ومن إنتاجه هو بغض النظر عن الغرض الكامن وراء هذا الشعار وعن أن الكثيرين من رافعيه، ليسوا ذوي نية سيئة، بل منهم الوطني والتقدمي. لذلك لا بد من التأكيد على أن الاستهلاك إذا كان غاية كل إنتاج فالإنتاج هو الأساس، ومن هنا فإن التنمية لا بد من أن تركز على الإنتاج، والاستهلاك يجب أن يكون تابعاً للإنتاج.

ثانياً: لا يمكننا أن نتجاهل أسئلة مهمة متعلقة بهذه المستهلكات: ماذا نستهلك؟ ومن أين نحصل على المواد الاستهلاكية؟ ما هي مصادر الدخل الذي نشترى بها هذه السلع؟ من ينتج هذه السلع أو الخدمات؟ لا بد من التنبيه، على أن تأمين إنتاج متطور لسلع أساسية وبنفس الوقت تأمين حاجيات الناس وتأمين الادخار، من أجل زيادة الإنتاج، هو معادلة مستحيلة.

فلا بد من التركيز بداية على الإنتاج المحلي في قطاعات أساسية على حساب الاستهلاك، ليس الترفي فقط، بل كل أنماط الاستهلاك التي راحت تنفث في المجتمع ليس لدى الفئات الغنية

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

فحسب، بل والفئات المتوسطة والدنيا التي تضطر إلى إنتاج أنماط من الاستهلاك تقليداً أو إرغاماً أو أنها لا تجد في السوق غيرها.

فلا بد إذن من تقييد الاستهلاك لصالح الإنتاج، وتطوير الإنتاج على حساب الاستهلاك وليس إلى جانبه، ولا يمكن تأمين حاجات كل الناس، وكل الفئات والطبقات، وكل أشكال الحاجات، وبنفس الوقت تطوير الإنتاج، بخاصة الميادين الأساسية منه.

عبد الرزاق عيد:

بعد أن قام الدكتور صادق بالتعقب التاريخي لنشوء تعبير مجتمع الاستهلاك والعوامل السياسية والأيدولوجية لظهوره، وبعد أن تحدث الدكتور خضر عن الاستهلاك وإشكالات التنمية وسوء فهم شعار إشباع حاجات الناس، في بلدانا النامية، لا بد لنا من التوقف عند الاستهلاك بالمعنى المرذول للمصطلح، أي الاستهلاك كـ (نزعة) استهلاكية تنطوي على الفهم الغريزي، وليس كمقولة اقتصادية ملازمة للإنتاج، فماركس تحدث عن ديكالكتيك العلاقة بين الاستهلاك والإنتاج، ومن ثم هذه العلاقة قائمة في النظام الرأسمالي والاشتراكية، لكنها في النظام الرأسمالي تتعرض للخلل وسط فوضى السوق ودوافع قانون الربح، الأمر الذي يؤدي لأن يغدو الاستهلاك محفزاً مصطنعاً لإعادة الإنتاج الموسع لرأس المال، ومن ثم ينشأ ما يمكن أن نسميه

بـ "الاستهلاكية" كتعبير عن التحفيز الإعلامي والأيديولوجي للاستهلاك غير الضروري، وتحول هذه الاستهلاكية كأيديولوجيا إلى جزء من أسلوب الحياة الاجتماعية للناس، وتحول السلعة إلى وثن، على حد تعبير ماركس، والناس إلى عبيد للأشياء.

سعد الله ونوس:

حسب مداخلة الدكتور صادق، فإن مقولة الاستهلاك بدأت كمقولة أيديولوجية، ربما هناك مقطع ناقص في مداخلة الدكتور صادق، إلا أنه أشار إلى ذلك في سياق حديثه عن "ميثاق العمل القومي" لجمال عبد الناصر. فالمنظرون يريدون عبر الاستهلاك كأيديولوجيا أن يلغوا الصراع الأيديولوجي والفوارق الطبقيّة والوعي الطبقي، وقيموا نوعاً من الاستهلاك الجماعي الشامل لمجتمع بكامله موحد، وكان المقصود بذلك بالدرجة الأولى أوروبا الغربية.

والنقطة الثانية، وهي بعد أن أحرز النمط الاستهلاكي نجاحات كبيرة في أوروبا الغربية، تحول إلى أداة أيديولوجية واقتصادية وسياسية لتعميمه بين المركز والأطراف، أي بين أوروبا الصناعية والعالم الثالث، بهدف تمييع الصراع الطبقي فيه وإيهامه بالبحث عن شكل مستقل للنمو والاستهلاك.

وما ذكره الدكتور خضر هو بمثابة إجابة على هذا الموضوع إذ لم نعتبره برنامجاً لمواجهة الاستهلاك، فما دام الاستهلاك مرتبطاً

بالإنتاج، بإنتاجية المجتمع وبالاحتياجات الأساسية، مع تحليل دقيق للاحتياجات الأساسية، فإن الاستهلاك يبدأ بالضبط عندما تبدأ التبعية، أو عندما ترتفع التنمية لهيمنة رأس المال العالمي، فعندها سيخضع لنموذج الاستهلاك العالمي، الذي تشكل الإمبريالية الأمريكية مركزه ومصدره الاقتصادي والأيدولوجي.

رأيي أن نبدأ بتناول آثاره على أوضاعنا، فمن العسير أن نضع حداً فاصلاً بين تلبية الاحتياجات الضرورية الاستهلاكية.

عبد الرزاق عيد:

ألا يمكن ربط الاحتياجات الضرورية بمستوى تطور قوى الإنتاج ومستوى الدخل القومي، فما هو ضروري في حياة المواطن الأوروبي قد يشكل طموحاً مترفاً لمواطن العالم الثالث؟

سعد الله ونوس:

ربما يكون هذا الربط معقولاً في تحديد الاحتياجات الضرورية.

رزق الله هيلان:

إذ أردنا أن نناقش ما جاء في مداخلة الدكتور صادق، فإن الدكتور خضر طرح موضوعاً مختلفاً.

ولدي إضافة صغيرة في هذا الموضوع، فبالنسبة للمجتمع الاستهلاكي في الغرب إذا عدنا إلى ما قبل صياغة المفهوم النظري

لموضوعة الاستهلاك، أي إلى ثلاثينيات أو عشرينيات هذا القرن، فنأخذ مثال فورد، فقد كان يعتمد على إعطاء العمال أجوراً مرتفعة لهدفين: الأول، أن يستهلكوا، لأن الإنتاج بحاجة إلى التصريف، لا سيما في ظروف الأزمة العالمية للرأسمالية.

وثانياً: ألا يفكروا، وذلك بإغراقهم في العمل وانهماكهم في الحصول على الأجور المرتفعة.

ولقد رفع في وقتها شعار في المجتمع الغربي، لا تفكروا، استهلكوا أنتم، فالمستهلك ملك هذا الزمن، هناك مهندسون يخططون لكل شيء، نحن نفكر عنكم، ولهذا فإن الصياغة الأيديولوجية المتأخرة أتت لغزو العالم الثالث ضمن أشكال الغزو المتعددة الثقافية والأيديولوجية لهذا العالم.

فأنا أفضل أن نستمر في إكمال هذا الموضوع، إذا كان لدينا إضافات، ومن ثم نتقل إلى استراتيجيات التنمية، حيث تحتاج كل استراتيجية منها إلى مناقشة خاصة، ومنها الاستراتيجية الأخيرة المتعلقة بإشباع الحاجات التي تحدث عنها الدكتور خضر.

خضرزكريا:

أنا ما قصدت أن أبحث استراتيجيات التنمية، وإنما مناقشة ما يتعلق بموضوع الاستهلاك.

رزق الله هيلان:

نعم أوافق معك على أن المجتمع الاستهلاكي هو المؤهل لإشباع الحاجات الأساسية، غير أن استراتيجية التنمية، أخذت بشكل مزيف، حيث تخدم الاستهلاك الترفي، والفئات الطبقة العليا. وهذه الاستراتيجيات مبنية على أوهام، حيث تنطلق من الاستهلاك الفوقي، لا من الاستهلاك الذي يستجيب إلى الحاجات الاجتماعية للناس كالتعليم الذي ينعكس إيجابياً على التنمية ومن ثم الإنتاج.

عبد الله حنا:

في رأيي أن الدكتور صادق والدكتور رزق الله ركزا على العامل الخارجي في مسألة الاستهلاك مع أهميته، ولم يجبر الحديث حتى الآن عن العوامل الداخلية التي تساعد على نمو انتشار الاستهلاك. ولذلك سأقدم مداخلة تاريخية تلقي الضوء على تشكل الطبقات في المجتمع العربي وعلاقة هذا التشكيل بالاستهلاك وبخاصة الاستهلاك الترفي.

عبد الرزاق عيد:

يبدو أن الأستاذ حنا مينة، لديه ما يضيفه قبل أن يتفضل الدكتور عبد الله حنا بمدخلته.

حنا مينه:

أنا سعيد في الحقيقة لسماع آراء الدكتور صادق وآراء الدكتور خضر حول موضوع المجتمع الاستهلاكي.

يخيل إلي أنه بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، خرج العالم ما عدا الولايات المتحدة متهدم الصناعة، وبدأت أمريكا بالتصدير إلى بلدان العالم. إلا أنه شيئاً فشيئاً بدأ التصدير يتضاءل نتيجة امتلاء الأسواق بالبضائع وكسادها، عندئذ بدأ الاقتصاديون والمنظرون في أمريكا - كما قال الدكتور صادق - يبحثون عن أيديولوجيا لهذا التصدير الذي هو فوق التصدير، أي التصدير بقصد الاستهلاك، وحين يكون غير متكافئ مع الدخول الموجودة لدى الناس في البلدان المستهلكة، طبعاً دائماً يكون الواقع، ومن ثم ينشأ الفكر عنه، تكون الحاجة، ثم تنشأ عنها النظرية، وبهذا المعنى، فقد بدأ الاستهلاك في الستينيات، غير أن صياغته النظرية والأيديولوجية أتت بشكل لاحق بقصد الترويج للاستهلاك لتعميمه، من قبل الاقتصاديين والأيديولوجيين.

إن تكاثر البضائع الذي خلق تناقضاً بين ضرورة التصريف الاستهلاكي ومحدودية الدخل، دفعهم للتنظير من أجل الاستهلاك، ورفع شعارات عديدة لخدمة هذا الغرض (البيع بالدين والبيع بالتقسيط)، هذا الشعار لم يكن معروفاً قبل الحرب العالمية الثانية، غير أن الولايات المتحدة هي التي روجت له بعدها، سيما في بلدان العالم الثالث ومن ثم بلادنا العربية.

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

وسأقرأ لكم بعض الصفحات من روايتي " الثلج يأتي من النافذة " حيث تبرز فيها صورة المجتمع اللبناني في الخمسينيات، ومدى انعكاس الغزو الاستهلاكي لحياته الاجتماعية، وسأرجئ قراءتي حتى نتقل إلى فقرة انعكاس الاستهلاك على حياتنا العربية.

صادق جلال العظم:

لي ملاحظ على ما قاله الدكتور رزق الله من أن حديث الدكتور خضر لا صلة له بما قلته، فقد ركز على ضرورة التمييز في سلم الحاجات، حيث أن جزءاً من الأيديولوجيات التي تحدثت عنها هو نفي وجود سلم حاجات، وهذا مهم جداً، حيث أن الحاجة هي أخت الحاجة وفق هذه الأيديولوجيا، وليس هناك حاجة ضرورية وغير ضرورية، بل كل الحاجات تبحث عن الإشباع، ولذلك فإن ما طرحه الدكتور خضر هو بمثابة رد على الأطروحة القائلة بتساوي سلم الحاجات. فالاقتصادي السياسي التسليفي، كان يميز بين الحاجات، نظراً لكون المجتمع في مرحلة البناء والتصنيع، لكن بعد الحرب، أصبحت الحاجات كلها متساوية ما دامت تدير آلة التصنيع وتخلق فرص التشغيل، وما دام الهدف في الأخير هو الربح.

هذه نقطة إيديولوجية هامة حيث تركز عليها الكتب الاقتصادية الجامعية وتحرص على إدخالها في عقول الناس.

والنقطة الثانية التي تحدث عنها الأستاذ حنا المتعلقة بالتنظير للاستهلاك في الستينيات فأنا موافق معه على أنهم كانوا ينظرون للوضع الاقتصادي بعد الحرب العالمية، حيث شهد النظام الرأسمالي نمواً بعد الحرب، وهم يكذبون عندما يتحدثون عن مجتمعهم بأنه مجتمع استهلاكي، فمجتمعهم مجتمع إنتاجي، أي أنه ليس مجتمعاً استهلاكياً بالمعنى المردول، لأنهم ينتجون، غير أن إنتاجهم أكثر من الحاجة، من هنا يتحول الاستهلاك إلى صنم، ومن ثم يصدر هذا الصنم إلى المجتمعات النامية الأخرى.

أما النقطة التي أشار لها الدكتور عبد الرزاق المتصلة بمستويات معنى الاستهلاك، فأقول: هناك معنى عام، وهو المعنى البريء للكلمة والمشارك بين كل كلام عن الاستهلاك، أي المعنى الذي إذا فقدناه نفقد مجال التواصل، حيث تختلف التعريفات، لكن هناك معنى بريء عادة يكون في ذهننا جميعاً عندما نتحدث عن الاستهلاك، وهناك معنى علمي وهو الذي استخدمه ماركس في مقدمة نقد الاقتصاد السياسي القائم على العلاقة الديالكتيكية بين الإنتاج والاستهلاك، وإن الفصل بينهما عملية تعسفية يقوم بها الاقتصاديون البرجوازيون.

وهناك المعنى الرديء، وهو أن المجتمعات الاستهلاكية حقيقة تتمثل في بلادنا نحن. وهناك معنى عميق للاستهلاك وهو الذي لا يمكن أن يتحقق إلا في مجتمع اشتراكي حقيقي، حيث يكون المستهلك فعلاً هو الملك، بمعنى أن الجماهير تحكم نفسها وتخطط

اقتصادها وفقاً لحاجاتها. ففي مجتمع اشتراكي حقيقي وديموقراطي حقيقي يصبح المستهلك ملكاً بمعنى معين.

والغريبيون يعمدون في تنظيراتهم للاستفادة من هذا المفهوم ولكن بشكل مقلوب، ولا أعتقد أننا قد وصلنا في حياتنا المعاصرة إلى مرحلة يتحقق فيها هذا الشكل الاستهلاكي الذي تحدثت عنه.

خضركريا؛

يبدو أن هناك فكرة لم أوضحها بشكل كاف، لقد ذكرت أن الاستهلاك لا يمكن أن يكون إلا الهدف الأخير للعملية الإنتاجية. ومن هنا فإن طرح شعار إشباع الحاجات الأساسية بغض النظر من أين نشعبها وكيف، وما هو مصدر هذه الحاجات الأساسية، يكون طرحاً ناقصاً.

أريد أن أشير إلى أن مصدر شعار إشباع هذه الحاجات، وبالتحديد المصدر الرئيسي هو الغرب. لكن المشكلة تبدو عندما نرى مفكرين اقتصاديين في بلداننا النامية وطينين ويساريين، يطرحون مسألة إشباع الحاجات بصفقتها الهدف الأساسي لأية عملية تنموية، أو يطرحونها على أنها العملية الأولى التي تتطلب البحث والتحقيق، تحت عنوان أن هذا الشعار هو شعار اشتراكي.

إن شعار إشباع الحاجات لكل الجماهير يجب أن يكون هدفاً لعمليات الإنتاج الوطنية المحلية، فنحن في بعض الأحيان نشعب الحاجات الأساسية كما تريد النظريات الغربية التي تحدثت عنها

الدكتور صادق، حيث نستورد حتى الآن الأعلاف للأبقار والدواجن، في الوقت الذي نستطيع فيه إنتاجها وذلك لأسباب كثيرة منها الدعاية والإعلان وقوة تأثيره الغربي الذي أشار إليه الدكتور عبد الرزاق، ومنها بعض الاقتصاديين الذين يسوغون ذلك وينظرون له بارتياح، ومنها عدم توفر الأعلاف المحلية. . إلخ. لكننا نستورد الأعلاف بأسعار مرتفعة الأمر الذي يؤدي إلى عكوف المربين عن شرائها ومن ثم عن تربية الحيوانات، مما يؤدي إلى استيراد الألبان والدواجن لإشباع الحاجات ومن ثم إلى الدوران في حلقة مفرغة، والانتهاى إلى الاستيراد من الغرب.

لهذا السبب فإنني قد ذكرت منذ البداية وأكدت على ضرورة أن يتحقق إشباع الحاجات من الإنتاج الوطني.

عبد الرزاق عيد:

أعتقد أن ما قاله الدكتور خضر يوضح عناصر الصلة القائمة بين أيديولوجية الاستهلاك الغربية التي تحدث عنها الدكتور صادق، والتنظيرات الاقتصادية السائدة في بلادنا، عن هذه الموضوعة بدافع حسن نية أو سوءها.

ولنتقل الآن إلى انعكاس الاستهلاك على حياتنا الاجتماعية والفكرية والثقافية، والدكتور عبد الله سيتناول جذور نشأة الاستهلاك من خلال إلقاء ضوء تاريخي على تشكيل الطبقات في المجتمعات العربية.

عبدالله حنا:

للاستهلاك جوانبه وتأثيراته الداخلية المرتبطة بالواقع الطبقي، فمجتمعنا كمجتمع استهلاكي هل يتساوى فيه استهلاك الذي يحوز مليارات الليرات مع أصحاب الدخل المحدود؟

سأقدم مداخلة بسيطة أتناول فيها تشكل الطبقات في المجتمعات العربية في القرن التاسع عشر وعلاقته بالاستهلاك، ومن هي القوى ذات الاستهلاك الأكبر.

فالإقطاعيون سابقاً كانوا يستهلكون الجزء الأكبر من الثروة، بينما الفلاحون يعيشون كفاف حياتهم، إذن فالاستهلاك يرتبط بالتمايز الطبقي أساساً. أما بالنسبة للنظريات التي تحدث عنها الدكتور صادق، مع أهمية دورها، إلا أنها لا تتعرض إلا في مناخ يساعدها على النمو. فالتأثير الخارجي إذا لم يجد أرضاً خصبة في الداخل لا يمكن أن ينتشر. فمع ظهور البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية، وجدت الأيديولوجيات الاستهلاكية الأمريكية والغربية مسوغاتها النظرية في مجتمعاتنا، وسأنتقل الآن لأقدم لكم مداخلتني التاريخية.

يمكن اعتبار منتصف القرن التاسع عشر علامة مميزة لبداية تشكل الطبقات ومراتبها في المشرق العربي، فمع انتشار العلاقات الرأسمالية من جهة والانتقال من شكل الإقطاعية الشرقية العثمانية إلى شكل آخر مع ظهور الرأسمالية الهامشية؛ أخذت معالم

الطبقات تتوضح أكثر فأكثر، والتخوم بين الفئات الاجتماعية داخل الطبقة الواحدة ترى بالعين المجردة الخبيرة .

قبل عهد الإصلاحات في الدولة العثمانية كان سيف المصادرة والضرائب الباهظة والتعسفية مسلطاً على رقاب التجار والحرفيين في المدن، ولم يكن بإمكان هؤلاء تحقيق تراكم نقدي يمكنهم من الانطلاق الاقتصادي من جهة والتمتع بثمره ما جمعه من ثروة أو بجزء منها، ولهذا فإن تجار المدن وحرفييها من الأغنياء كانوا حريصين على إخفاء ما يجنونه وتحويله إلى ذهب يُخبأ في الأقبية وبين الجدران هذا من جهة، والظهور بمظهر الفقراء أو الأشخاص العاديين في مآكلهم وملبسهم ومسكنهم من جهة أخرى حتى لا يطالهم سيف المصادرة وفرض الأتاوات من الفئة الحاكمة، وقد عبر مؤرخ الشام محمد كرد علي عن الحالة النفسية والسلوكية للتجار والحرفيين والناس قاطبة بقوله: "كان المرء سرياً في ثلاثة أمور: في ذهبه وذهابه ومذهبه" .

وبالمقابل لم تكن الفئة الحاكمة العثمانية، التي استأثرت بقسم كبير من الثروة وأنفقتها على استهلاكها الشخصي الترفيهي، لم تكن هي الأخرى مستقرة، بل كانت تتبدل باستمرار، ولهذا فإنها سعت جاهدة للتمتع بمباهج الحياة بقدر ما تستطيع قبل أن يطالها هي الأخرى سيف العزل وبالتالي المصادرة أحياناً وأحياناً القتل . معنى ذلك أن ما جرى جمعه من ثروات سواء في المدينة أو الريف، أنفقته الفئة العثمانية الحاكمة سواء في المدن أو العاصمة استنبول، على ملذاتها ومفاسدها .

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

قبل صدور قانون الأراضي العثماني عام ١٨٥٨، مرت أراضي الميري - أي الأراضي التي تعود رقبته لبيت مال الدولة - وهي أوسع الأراضي، بثلاث مراحل من الاستثمار الإقطاعي، اختلف شكلها وأساليب إدارتها مع بقاء جوهر الاستغلال الإقطاعي للفلاحين واحداً لم يتغير إلا بصورة طفيفة وسطحية، هذه المراحل الثلاث هي: مرحلة الإقطاعات الحربية المعروفة بالتيمار، مرحلة نظام الالتزام، مرحلة المالكانة حيث أمسى الملتزم ملتزماً، ليس لموسم واحد أو فترة زمنية محددة بل أصبح ملتزماً مدى الحياة. ومعنى ذلك أن أسلوب المالكانة اقترب كثيراً من نظام الملكية الخاصة الشخصية، التي كانت محدودة في الريف قبل ظهور قانون الأراضي، وصاحب المالكانة لم يكن كالملتزم مضطراً إلى الإسراع في ابتزاز محاصيل الفلاحين وجهدهم قبل أن يحل متنفذ آخر محله، فهو كان مطمئناً إلى أن الأموال ستصله دون أن يكون هنالك منافس له في استثمار الفلاحين. ولهذا فإن ظهور المالكانة، تزامن، أو بالأصح تبعه إنفاق قسم من الثروة المجموعة في بناء القصور وعدد من المؤسسات التي تخدم صاحب المالكانة.

ومع حلول القرن التاسع عشر، وبفضل عوامل داخلية وخارجية، أخذت أراضي الميري تتحول إلى ملكية خاصة كرسيتها سلسلة من القوانين ذات الصبغة البرجوازية في الربع الثالث من القرن التاسع عشر.

لقد جرى الانتقال من أحد أشكال الإقطاعية العثمانية (التيمار، الالتزام، المالكانة) إلى شكل آخر للإقطاعية العثمانية أكثر تطوراً وأكثر تلاؤماً مع الأوضاع الداخلية والخارجية المستجدة في القرن التاسع عشر. وهذا الانتقال عبر عنه قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨، الذي جعل تطور العلاقات الإقطاعية الجديدة في حوض نمو الرأس مالية الهامشية والتابعة للغرب الاستعماري ممكنة بصياغة قواعد الملكية الإقطاعية الجديدة وفق مصطلحات إسلامية.

وقد استطاعت القوى المنتفذة العسكرية والسياسية والدينية والتجارية في مراكز الولايات ومدنها الرئيسية. أن تحوز على القسم الأكبر من الأرض وأن تقوم بتسجيل (تطويب) أراضي الميري والوقف والأرض الموات وقسم من أراضي الفلاحين وتحويل هؤلاء إلى فلاحين بالحصة. وهكذا تكونت في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين، طبقة إقطاعية تألفت من عدة شرائح اختلفت مواقفها القومية والاجتماعية وتنوعت طرق استهلاكها لما جمعت من ثروات بفضل تملكها للأرض وصلتها بمؤسسات الدولة.

حتى منتصف القرن العشرين لم يكن بإمكان الأثرية الساحقة من الجماهير العربية أن تشبع حاجاتها سواء في الغذاء أم في اللبس فضلاً عن المسكن وغيره. فأثرية الفلاحين وجماهير غفيرة في المدن كانت تعيش على حدود المجاعة وتسكن في بيوت الشعر

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

والبيوت الطينية أو الحجرية البسيطة. ولم يكن أمراً غريباً أن الفلاح لم يملك إلا ثوباً واحداً.

وبالمقابل كانت الطبقة الإقطاعية تستأثر بالقسم الأكبر من جهود الفلاحين وتشارك البرجوازية الناشئة في استنزاف قسم من مجهود الحرفيين وفي استثمار مجموع الشعب عن طريق التبادل التجاري، الذي حاز الرأسمال الأجنبي وبرجوازية الكومبرادور على قسم من أرباحه.

وهنا لا بد من التفريق بين أكثرية الشرائح الإقطاعية التي كانت تبدد الثروة، التي حصلت عليها دون تعب، في حياة الترف والبلذخ والمجون والمظاهر الفارغة، وبين البرجوازية الناشئة، التي كانت تسعى للحصول على تراكم نقدي تستخدمه في استثماراتها وتسهم بهذا الشكل أو ذاك في عملية التنمية، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن البرجوازية الناشئة أنفقت جزءاً من ثروتها في أعمال غير منتجة واستهلاكية ولكن في حدود معقولة.

يتبين مما سبق أن النزوع الاستهلاكي كان مقتصرًا على الطبقة الإقطاعية وإلى حد ما البرجوازية. ومع دخول الآلة على نطاق واسع في الحرف ومن ثم في الزراعة، وسيطرة الإنسان النسبية على الطبيعة والارتباط أكثر فأكثر بالسوق الرأسمالية، أخذ نمط الاستهلاك هذا، ينتشر تدريجياً في النصف الثاني من القرن العشرين بين فئات أوسع وبخاصة في صفوف البرجوازية الصغيرة الصاعدة إلى الأعلى بعد توجيه ضربات غير قاضية للإقطاعية

القسم الرابع

(الإصلاح الزراعي) والرأسمالية الكبيرة (التأميمات) في عدد من الأقطار العربية.

وهكذا نرى أن النزوع الاستهلاكي أخذ يغزو شرائح اجتماعية جديدة، إلى أن أصبح في السبعينيات ظاهرة عامة لا يمكن تجاهلها. وقد أدت زيادة الإنتاج نتيجة دخول الآلة واستخدام التقنيات الحديثة من جهة، وتدفق أموال النفط من جهة أخرى، والغزو الثقافي والسلعي الإمبريالي من جهة ثالثة، إلى انتشار نمط الاستهلاك أكثر فائزاً ووصوله حتى إلى أقسام واسعة من الفئات الشعبية. وهنا لا بد من التنويه بأن انتشار نمط الاستهلاك تزامن أو بالأصح كان نتيجة لنمو البرجوازيين (الطفيلية والبيروقراطية).

وفي النهاية لا يمكن بحث الاستهلاك داخلياً مع أهمية العوامل الخارجية دون فهم وتحليل عملية نمو وتسارع البرجوازية الطفيلية البيروقراطية سياسياً وفكرياً وأخلاقياً وتربوياً، وتمهيد السبيل لأنماط وأشكال مختلفة ومتنوعة للاستهلاك.

عبد الرزاق عيد:

بعد مداخلة الدكتور عبد الله القيمة، ينشأ تساؤل: هل يمكن الحديث عن الاستهلاك بمعنى الرفاه الطبقي، الملازم دائماً للقوى المهيمنة في المجتمع الطبقي، أي هل يمكن الحديث عن بذخ وترف الفئات الإقطاعية على أنه استهلاك؟ أم أن الاستهلاك تلازم مع صياغته كمقولة أيديولوجية وطراز حياة، تسعى هذه الأيديولوجية

لتعميمه بعد أن وجد صياغته النظرية في الفلسفة وعلم الاجتماع البرجوازيين كالحديث عن مذاهب "المجتمع الاستهلاكي" الذي تحدث عنه الدكتور صادق، و"المجتمع ما بعد الصناعي" والحديث عن "الثورة الصناعية الثانية" . . إلخ؟ هذه الصياغات النظرية أتت لتستوعب التطور الهائل للمجتمعات الصناعية الرأسمالية ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما تحدث الأستاذ حنا، ولتضع الأساس الفلسفي للاستهلاكية كوظيفة اقتصادية تقوم على التحفيز المصطنع للاستهلاك، الضروري لإعادة الإنتاج الموسع لرأس المال، حيث تتحول هذه الاستهلاكية من وظيفة اقتصادية في خدمة رأس المال إلى عقيدة وذوق وسلوك وأسلوب حياة.

رزق الله هيلان:

إذا أخذنا الاستهلاك بمعناه العام، فهو يرتبط بالمجتمع الطبقي، حيث دائماً هناك طبقات تحوز على كل شيء وطبقات لا تحوز على شيء. لكننا نتحدث عن الاستهلاكية كنزعة، عن أيديولوجية استهلاكية، تتحكم بأسلوب المجتمع ليس الاقتصادي فحسب، بل الاجتماعي والثقافي والديني، أقول الديني لأشير إلى أن المساجد ذاتها لم تعد تُبنى لتؤدي وظيفتها الدينية، بل تتدخل العناصر الاستهلاكية بما تتصف به من حيل للأبهة والفخامة في أشكال بنائها كالأرخام الإيطالي والمكبرات الصوتية الحديثة. . إلخ.

فإذا تناولنا الاستهلاك بمعناه العام المرتبط بالمجتمع الطبقي عامة، فسيؤدي بنا إلى التوسع لأن ذلك يطبق على كل العصور الطبقية. ولذلك فمن الأفضل التوقف عند الاستهلاك بمعناه الأيديولوجي والاقتصادي الذي أشار له الدكتور عبد الرزاق.

هل يمكن الحديث عن الاستهلاك كمقولة اقتصادية؟ أعتقد أنه لا يمكن، لأن الاقتصاد يبحث في الإنتاج ولا يبحث في قضية التلف، أنت تملك دخلاً فأنت تستهلك حكماً. بل هناك اتجاهات اقتصادية منذ الأزمة الاقتصادية الكبرى عام ١٩٢٩ وما بعد، دفعت كينز وغيره لإحلال الاستهلاك محل الإنتاج، بينما في مرحلة نشوء الرأسمالية كان العكس أي دفع الإنتاج، ونشر عادات التصوف بالنسبة للاستهلاك، فالله لا يسمح لك بهدر المال والذي تملكه وهو ليس ملكك بل الله قد منحك إياه ولا يجوز التفریط به، أي حاولت البرجوازية أن تعتمد الأخلاق الدينية التقشفية. هذه النظرية الأيديولوجية المرتبطة بنشوء البرجوازية معروفة، إلا أن البرجوازية التي تطورت ودخلت في الأزمات الأولى في ١٩٢٩، ومن ثم في الخمسينيات عام ١٩٥٤-١٩٥٥، وبعد أن تعمرت أوروبا، بدأ التنظير للاستهلاك كإيديولوجيا.

فالاستهلاك إذن كمقولة، ينشأ عن موضوعة الحاجات، حيث يرد عليها، فهناك الحاجات الأساسية كالغذاء والسكن، ومن ثم تأتي الحاجات الروحية المعبرة عن انتقال الإنسان باتجاه إنسانيته. فالنظرة الاستهلاكية عكست الأمور تماماً، فقد قضت على مسألة

التكون الروحي والفني والثقافي، ودفعت المجتمع إلى العمل دون تفكير، ودون أن يكون له وقت للتفكير، ورسخت القانون الاقتصادي المعروف، وهو تقليد الطبقات الأدنى للطبقات الأعلى.

ونتيجة لهذا التوجه الأيديولوجي، نشأت نظريات لتوزيع الدخل، كيف يجب توزيع الدخل ليتناسب مع حاجة المجتمعات الغربية للتغلب على أزماتها.

حنا مينه:

إن التحديد في تمييز نوعية الطبقة البرجوازية المهيمنة ضروري في رأيي، فالبرجوازية الوطنية هي برجوازية منتجة، بينما البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية تتسم بالاستهلاك. فماركس عندما تحدث عن صعود البرجوازية التي كانت تطمح لتطوير الإنتاج ودفعه، أشار إلى اصطدامها بالإقطاع ذي العقيدة الكاثوليكية التي تحتفل بأعياد عديدة (مارحنا، بطرس... إلخ).

إلا أن البروتستانتية التي لا تحتفل إلا بعيدين (عيد الميلاد والفصح) وجدت الترحيب والمساندة من البرجوازية الصاعدة لأنها ألغت الأعياد المتعددة، لذا نلاحظ كيف أن ماركس ربط بين ظهور البروتستانتية والبرجوازية الصاعدة التي ساندتها البروتستانتية عقائدياً في الدفاع عن الإنتاج ومقاومة كسل المجتمع الإقطاعي. فالبرجوازية الوطنية تريد الإنتاج، مع الأخذ بعين الاعتبار أن البرجوازية العربية لم تستطع أن تطور الإنتاج كثيراً، ولا تطوير

أيدولوجية خاصة بها بسبب ظروف عديدة، أدت إلى انكفائها وحلول البرجوازية الصغيرة محلها في قيادة المجتمعات العربية.

هذه البرجوازية الصغيرة هي الأساس الاجتماعي لفرز شرائح البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية، وما تتفقان به من عدم الإنتاجية والاكتفاء بالاستهلاك.

عند هذه الموضوعات يمكن التوقف مطولاً، لمناقشتها وبحثها. وبعد أن عرفنا المجتمع الاستهلاكي بشكل شبه علمي، وبعد هذه المناقشات التي دارت حوله، يجب أن نناقش انعكاس الاستهلاك على مجتمعاتنا في ظل البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية، فإيا هذا أن يتفضل أحد الزملاء الاقتصاديين لتناول هذه المسألة.

صادق جلال العظم:

أنا موافق على اقتراح الأستاذ حنا، فقد حان الوقت للحديث عن انعكاس الاستهلاك على الحياة الثقافية، خاصة من قبل الزملاء الأدباء.

عبد الرزاق عيد:

ما رأيكم، هل ننطلق من الاستهلاك كمفهوم عام بمعناه المتداول والواسع، فتحدث عن بداية تأثيره على المجتمعات العربية في مرحلة التوسع الرأسمالي العالمي وما رافقه من توسع ثقافي آخذاً شكل الغزو، وعندها نتناول إشكالية النهضة وما تمخضت

عنه من أنماط فكرية وثقافية كانت نتاج هذا الاختراق الغربي للمجتمع العربي (رفضاً أو قبولاً)؟ أم تنتقل مباشرة للحديث عن أثر الاستهلاك على حياتنا الثقافية بعد أن تشكل كصيغة أيديولوجية في مرحلة الستينيات التي تحدث عنها الدكتور صادق.

حنا مينه:

أنا أفضل أن نتجاوز المرحلة الأولى لأن مناقشتها تحتاج إلى وقفات مطولة، ومنتقل مباشرة إلى المرحلة المعاصرة.

سعد الله ونوس:

لقد أصبح واضحاً أن الاستهلاك كنمط اقتصادي وفكري واجتماعي هو نتاج طبقة ما، عبر الارتباط الوثيق بالغرب، وكيف عممت هذه الطبقة هذا النمط وما هي نتائجه على المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ثم من الناحية الأيديولوجية، فليس بوسعنا الآن أن نقوم باستعراض تاريخي بشكل مطول. لدي الآن فقرة لجمال الدين الأفغاني تلخص إلى حد بعيد غرضنا من التوقف عند مرحلة النهضة. يقول الأفغاني: "قلبوا أوضاع المباني والمسكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون، وتنافسوا في تطيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدّوها من مفاخرهم، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم، وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم، وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها، ويحط بشأنها! لقد علمتنا التجارب أن

المقلدين من كل أمة، والمتحلين أطوار غيرها، يكوّنون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلّاع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات، يهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم".
أعتقد أن هذا المقطع يعطي صورة حية عن هذه الإشكالية، ومن المفضل الآن أن نتقل للحديث عن النتائج الاجتماعية والسياسية والفكرية المعاصرة لكي يتحدد البحث بشكل أفضل.

حنامينه:

سأتحدث كيف رسم الأدب خصائص النزعة الاستهلاكية ونموها في مرحلة الخمسينيات، وهي المرحلة التي بدأت فيها أمريكا وأوروبا تتعش وتصدر بضاعتها وسلعها. فبدأ الضغط على العالم الثالث، ويمكن أخذ لبنان نموذجاً على ذلك، ولبنان وسوريا في تلك الفترة يتسمان بخصائص مشتركة على مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

لقد بدأ النموذج الاستهلاكي يتغلغل في حياتنا الاقتصادية، عن طريق البضائع الأمريكية وأقل منها الأوروبية، فجاءت الحرب الكورية، فأرادت أمريكا أن تعوض عن خسائرها بفرض صادراتها على كل البلدان التي تتعامل معها، وكان نتاج ذلك أن أفلس العديد من التجار الذي كانوا يتعاملون معها.

أقول بدأت الهجمة الاستهلاكية في أواخر الأربعينيات من هذا القرن، وبالضبط مع الحركة العدوانية التي شنتها أمريكا على

كوريا عام ١٩٥٠، وأذكر أن صديقي موريس حجار، وكان تاجراً، قد أفلس في لبنان مع الذين أفلسوا، بسبب كثرة البضائع التي غمرت الأسواق اللبنانية التي اجتاحتها الفساد.

جوزيف كان مناضلاً، كان يعمل في متجر للاستيراد والتصدير، وكان عليه أن يحمل مساطر (عينات) البضاعة إلى الزبائن، وفجأة غصت الأسواق بها، وجاءت نهاية الحرب الكورينا ضربة قاصمة، فلم تعد في المدينة القدرة على الاستهلاك، وتوقف عمل جوزيف، رزح تحت الدين بينما زوجته تطالب بحياة مرفهة، استهلاكية، تشبهاً بأخيه المليونير وأخته المودرن.

كان يعمل في محل للمفروشات فتركه، لأن الشريكين اختصما حول مخطط المشروع وهو يكتب يوميات يسأل فيها هناء - زوجته - ماذا تريدان اليوم يا مدام؟ ثلاجة، ثم ماذا؟ غسالة. وغيره؟ سيارة؟ ويعلن قائلًا: في القرية، وقبل الزواج كنت أسألها: ماذا تريدان يا هناء؟ حبك. ثم ماذا؟ الزواج. وبعده؟ كوخاً نجعله عشاً لغرامنا!

ويتهي جوزيف إلى هذا الحكم: المدينة مفسدة، ويأتي أكثر فساداً. ويقول: رغبة مجنونة تملك الجميع في الإثراء، دون أي اهتمام بالوسيلة، ورغبة مماثلة تملك الناس في نسيان منشئهم. ميكافيلية صريحة، الكنائس تمتلئ بالمصلين دائماً، وأحسب أن الجميع، في ختام صلواتهم يطلبون غسالات وثلجات وسيارات،

يخيل إلي أنهم يعملون بقول المسيح: "اطلب تعظ" ولكي يكون طلبهم أوقع وأسرع يرفعونه في بيوت الله. وربما كانوا يفكرون بهذا مباشرة، لكن عقولهم الباطنية تعمل كآلات حاسبة دقيقة، ثم يضيف: الأمكنة الأخرى مزدحمة أيضاً، فالناس في بيروت، يصلون كثيراً، ويكفرون كثيراً وبنفس السهولة التي يذهبون بها إلى بيوت الله، يذهبون إلى بيوت الشيطان.

ويختتم هذه اليومية بالكلمات التالية: "لا شيء حرام ولا شيء ممنوع. تستطيع أن تزني وتسرق وتقامر وتهرب المخدرات، كما تستطيع أن تتاجر وتغش وتثري وتفلس وتنتحر على الروشة. والعجيب أن الناس يحاولون الظهور بمظهر المحترمين وأكثرهم ينجح في هذا الكاموفلاج - وقد كتب الكلمة الأخيرة بالفرنسية، ووضع إلى جانبها الرقم واحد، ولم يأت على شرحها في الهامش وربما نسيها أو لم يفتح القاموس بشأنها.

فعبّر يومياته هذه تتكشف لنا صورة المجتمع بجوانبه العديدة، كيف بدأ يخترقه الفساد والرياء والانحطاط باختراق الحياة الاستهلاكية له، ففي إحدى يومياته عن عمله في إحدى الصحف، يتحدث عن المحررين الذين يلتزمون بالخطة السياسية العامة التي وضعها صاحب الدار، وهي الموالية باعتدال، للعهد السياسي، ومماشاة دولة كبيرة دون التظاهر، وإطراء مشايخ الخليج، وجميع ملوك ورؤساء وأمراء البلاد العربية، وعدم التعرض لحكام البلدان المجاورة، وعدم التشهير باليسار. وباليمين

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

أيضاً، ومجارة بعض الأحزاب، ونقد الرأسمالية نقداً خفيفاً ونقد الاشتراكية نقداً خفيفاً أيضاً.

وهو يعزو في إحدى يومياته إخفاقه بين معاشه وتطلعاته الثقافية، إلى أنه لا يمتلك أي قدر من "البندقة" والبندقة - كما تعلمون - تعني المهارة بعد أن كانت تعني ابن الحرام الذي أنجبته أمه سفاحاً، فلكي ينجح المرء عليه أن يملك النباهة مع "البندقة" والعلم مع النباهة و"البندقة" والجرأة مع العلم مع النباهة مع "البندقة". فالبندقة ملح النجاح، وكذلك هو الحظ، وقد تكون لعبته الكبرى والحاسمة أن يهبك ربك قدراً لا بأس به من "البندقة". تلك هي القيم والأساليب الاجتماعية والأخلاقية التي يقترحها مجتمع الاستهلاك من أجل النجاح.

عبد الرزاق عيد:

هل تواصل أستاذ حنا الحديث، لنصل إلى روايتك "مأساة ديمتريو" التي تتخذ من زمننا المعاش إطاراً لأحداثها، سيما وأنها ترصد الشخصية الروائية في ظروف التدمير الأخلاقي والروحي التي يشيعها أسلوب الحياة الاستهلاكية، بالإضافة إلى أن شخصية "واصل المدلجي" في هذه الرواية تحتل حيزاً روائياً أكثر كثافة من شخصية "جوزيف" وربما يعود ذلك إلى كثافة الغزو الاستهلاكي الذي راح يجتاح حياتنا الاجتماعية بشكل أعنف عما كان عليه في زمن رواية "الثلج يأتي من النافذة" وهو فترة الخمسينيات.

أفضل تأجيل الحديث عن ذلك إلى حين الانتقال لمناقشة الاستهلاك وانعكاسه على حياتنا الاجتماعية والثقافية المعاشة.

خضرتكريا:

اسمحوا لي أن أقول إن الأستاذ حنا مينه أثار في ذهننا صورة حية ورائعة لما يحدث دائماً في ظروف الحياة الاجتماعية المشابهة، وهي ما يبدو عنه اليوم بقول الرجل "تريدين حبي أم السيارة" ومسألة الانتقال في القيم، واحتقار المثل، يحضرني الآن مثال، لقد تعرضت في إحدى المحاضرات إلى مسألة كيفية تحول المرأة من عملية الإنتاج إلى عملية الاستهلاك، وقد أثار وقتها لغطاً خاصة بين النساء. لقد ذكرت أن وضع المرأة يتحول من عامل مساعد للرجل في العمل إلى أداة ضغط عليه. حيث إن المواطن ذا الدخل المحدود، كثيراً ما يتعرض إلى متطلبات زوجته الخاصة "الغسالة الأوتوماتيك" أو "الجلالية" لأن جاريتها زوجة العائد من الخليج، أو التاجر، لديها مثل هذه الأدوات وجارتها ليست أحسن منها. إلخ. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الجلالية أو الغسالة الأوتوماتيك، إنما وجدتا في ظروف مجتمع، النساء فيه يعملن، وهذه الأدوات توفر الوقت الذي كانت تعمله المرأة في البيت.

ما يحدث عندنا العكس تماماً، فالمرأة التي كانت تعمل (التركبو، الحقل، الخياطة) تركت هذا العمل لأسباب كثيرة،

حيث أصبح لديها وقت للعمل، وأتت هذه الأدوات لتزيد فراغ المرأة فراغاً، ولكن المرأة لا تعمل! لماذا؟ لأن فرص العمل غير متوفرة، ولماذا فرص العمل غير متوفرة؟ بسبب عدم وجو رساميل كافية لتوظيفها في إنشاء المصانع والمزارع، ولماذا لا تتوفر هذه الرساميل الكافية؟ لأن الأموال تذهب لخزائن الشركات الاحتكارية التي تصنع الغسالة والجلابية.. إلخ. وهكذا ندخل في حلقة مفرغة.

وهذا أيضاً مظهر من مظاهر المجتمع الاستهلاكي، ولذا فأنا أتح على النساء أن يعملن ويناضلن من أجل إنقاذ أنفسهن من الاتجاه الاستهلاكي، وبمقدار ما يستسلمن لهذا الوضع بمقدار ما سيبعد اليوم الذي يتحررن فيه، لأن تحرر المرأة سيأتي في اليوم الذي تعمل فيه.

عبدالله حنا:

أريد أن أؤكد على ضرورة النظرة إلى مسألة الاستهلاك بجانبها الخارجي - الداخلي معاً، فالخارجي يتمثل بتصدير الرأسمالية العالمية لبضاعتها وسلعها، والجانب الداخلي هو علاقة الطبقات داخل المجتمعات العربية وموقفها من موضوع الاستهلاك، فالبرجوازية الصناعية الناشئة في شتى البلدان العربية قبل الستينيات وما لازمها من تحول في بعض البلدان كالتأميمات والإصلاح الزراعي كان يمكن الحديث عنها بأنها ليست برجوازية

استهلاكية، بطبيعة الحال كانت تستهلك، لكنها كانت تحاول تحقيق تراكم نقدي، بينها بعض المصانع والمعامل في حدود إمكانية رأسمالها وفي ظروف ارتباطها وخضوعها للرأسمال العالمي.

أي أن هنالك تنمية، حيث البرجوازي الصناعي الكلاسيكي يتمتع بحد معين من القيم وأخلاق احترام العمل، واحترام الإنسان والجهود. غير أن هذه القيم والأخلاق راحت تتغير بعد التأميمات والإصلاح الزراعي في الستينيات، حيث هربت أموالها. والبرجوازية الصغيرة في فترة الخمسينيات كانت مفعمة بالمشاعر الوطنية والقومية، ولعبت دوراً كبيراً في حركة النضال الجماهيري الوطني، غير أنها عندما أصبح في يدها القرار السياسي، أخذت أقسام كبيرة منها تغير مواقفها ليس الاقتصادية والسياسية، بل والفكرية، وممارستها الوطنية والقومية. وبعد انتشار نمط الاستهلاك وسيرها في طريقه، نلاحظ أن قطاعات واسعة قد فرزت منها وغدت (طفيلية وبيروقراطية) لم يبق لديها أية مشاعر وطنية قومية، وانتقلت مواقعها الفكرية تجاه القضية الوطنية والقومية إلى نوع من "الكوزموبوليتية". إذن، يمكن القول إن مرحلة التأميمات تشكل مفصلاً في التغير الذي لحق بتكوين الطبقات في مواقعها وخياراتها. أريد أن أتناول ثلاث ظواهر تتصل بهذه المتغيرات.

ظاهرة التهريب، فلو أخذنا قرية حدودية، قبل انتشار عمليات التهريب، قبل عام ١٩٦٠، نجد أن الحياة الاقتصادية كانت تقوم على الزراعة والري، وما ينتج مجتمع من هذا القبيل

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

من علاقات أخلاقية، أقول نجد أن هذه العلاقات الأخلاقية وأعمالها السلوك تتداعى دفعة واحدة نتيجة تحول هؤلاء الناس من منتجين زراعياً ورعياً إلى مهريين ومهربات، وهذا مجال لدراسات غنية يمكن أن يقوم بها الباحثون الاجتماعيون، حيث تتمازج في هذه المرحلة الانتقالية قيم متنوعة، أخلاقية الفلاح والراعي وأخلاقية المهرب الطفيلي (البلطجي).

والموظف الذي يتمتع بنفوذ ما يساعده على التهريب، سرعان ما تندهور أخلاقه، التي تطال العائلة بمجموعها، حيث تشكل بؤرة فساد، تتكافل على الاستمرارية في خط الفساد، حيث تبدأ زوجته في حظه على ذلك الأمر الذي يؤدي إلى عدوى الفساد بالأسرة المجاورة وهكذا حتى تتحول الظاهرة إلى سلوك اجتماعي.

ظاهرة الهجرة إلى الخليج: من الذي يهاجر؟ لقد بدأت الهجرة بالحرفي وعامل البناء ثم تبعه الفلاح والراعي ثم أقسام من البرجوازية الصغيرة المثقفة، هذه الفئات عانت من تناقض حاد، بين انتمائها القومي والديني الذي يخلق لديها الشعور بأنها في بلد عربي مسلم، فتجد نفسها تعامل معاملة الأرقاء، بينما الأمريكي غير العربي والمسلم يعامل معاملة "أنا ربكم الأعلى". فيضطر أن يتطلع حالة الذل هذه في سبيل جمع الثروة. والمال أن يعود هؤلاء بأموالهم لا لتوظف في مشاريع إنتاجية، بل لشراء سيارات شاحنة لعمليات التهريب وشراء المساكن ثم استخدام هذه الأموال في شؤون تافهة، كالدعارة وشراء الأسلحة والفيديوهات.. إلخ.

من خلال تجربتي في المجتمع الريفي، لاحظت عياناً العديد من المظاهر الاجتماعية الهجينة الشاذة التي راحت تخترق العالم الاجتماعي للريفيين.

فعلى سبيل المثال، من المعروف ما لحرمة الموت من مهابة، فالقرية التي يعرف سكانها جميعهم بعضهم بعضاً يتكافلون في هذه المناسبات ويتضامنون مادياً ومعنوياً. إلا أن ما يحدث الآن، أن يأتي الشاب من الخليج بسيارة فارهة وفيديو، في فترة الصيف ليتزوج، فنلاحظ بالعين المجردة كيف أن تقاليد الأعراس قد تبدلت، حيث البذخ المجاني التافه والجاهل، وشرب الخمر بطريقة عصائية - شاذة ومبتذلة، تحطم فيها زجاجات المشروب على طريقة الأفلام الأمريكية، ويطلق الرصاص، وتسجل الفيديوهات وقائع هذه الأعراس الهجينة التي هجرت التقاليد الفولكلورية الوطنية للأعراس.

والعلاقات الاجتماعية التي تفككت، تؤدي إلى فقدان حرمة الموت التي تحدثت عنها، حيث أنه من قبل إذا مات امرؤ في القرية، تؤجل مناسبات الفرح لفترة معينة، أما الآن فيختلط الحابل بالنابل، حيث يموتون ويتزوجون في ليلة واحدة.

الكثير من هؤلاء الشباب الذين لم ينالوا قسطاً من الثقافة والتعليم يعودون إلى قراهم في سياراتهم الفارهة (الإدخال المؤقت)، حيث السرعة الجنونية، و"التشحيط" مثلهم مثل أبناء

"الذين أنعم الله عليهم". وإذا ما استهجن سلوكهم هذا رافة بحياة الناس، يقولون: "إن دية القتل في طبونة السيارة".

تلك هي عقلية هؤلاء البؤساء ضحايا الاضطهاد في الخليج وفرسان المال والجاه في قراهم، تلك هي عقلية وأخلاق وثقافة الاستهلاك. إن هذه المآسي قادت أبناء القرى إلى إقامة حواجز ومطبات في طرق القرية، ردعاً لطيش هؤلاء الفرسان البؤساء.

وهذه الظاهرة قادت أيضاً إلى ارتفاع هائل للمهور، فعوضاً من أن تزول هذه الظاهرة المتخلفة، راحت تتفاقم، ويلاحظ المرء عياناً في بعض قرى الفرات، أن القرى التي عرفت الهجرة وصلت فيها المهور إلى ١٠٠ ألف ليرة، بينما القرى الأخرى التي لم تحدث فيها هجرات ظلت محافظة على تقاليدها السابقة. بل بلغ الأمر أن المهاجر راح يتزوج العديد من النساء ما دام الزواج بالنقود، والأموال متوفرة، مما أدى إلى تفاقم هذه الظاهرة أيضاً.

ظاهرة الرشوة: بدأت تلعب دوراً تخريبياً للعلاقات الاجتماعية والأخلاقية، حيث أن المتمتع بنفوذ وظيفي يؤهله للرشوة والمنحدر من أصول ريفية أو بدوية، سرعان ما تستوعبه القيم الاستهلاكية، فتمتص كل الجوانب الطيبة والخيرة لأخلاق القرية أو البادية، القائمة على الشجاعة، والكرم والنخوة والإباء، التي تتلاشى وتنهض القيم المتخلفة المتمثلة بالثأر والميل إلى العنف وشراء الأسلحة، لتتضامن هذه القيم مع القيم الجديدة الاستهلاكية

في فرديتها وتنافسها، أي أنه يُضيع الجيد في سلوكه ويكسب السيء. بالإضافة إلى ما تلعبه التأثيرات الغربية الأمريكية بخاصة عن طريق السينما والتلفزيون والفيديو.

عبدالرزاق عيد:

في الواقع أن مسألة تناول الاستهلاكية من وجهة نظر علم الأخلاق مسألة في منتهى الأهمية، نظراً لما تمارسه النزعة الاستهلاكية عندما تعمم كطراز للحياة من أثر تدميري على وعي الناس وقواعد سلوكهم، فهي تؤدي إلى تقويض الأنا الأخلاقية، حيث تشيع اللامبالاة والاستهتار بالواجبات والحقوق التي يستدعيها مفهوم المواطنة، ومن ثم الإخلال بالسافر، والمتستر، بالقواعد الأخلاقية.

والإيديولوجية الاستهلاكية التي صاغها المنظرون الأمريكيون لا تمارس تخريبها للوعي الاجتماعي الوطني لإنساننا العربي فحسب، بل نجد أن الغربيين ذاتهم يشكون من "الإمبريالية الثقافية والإعلامية" التي تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية.

فالمخرج الفرنسي بلان يتحدث عن ذلك قائلاً: "أينما التفت، وجدت آثار التدمير الذي تتركه أمريكا على أعراف بلادنا وشعبنا، بحيث قد تتحول الثقافة الفرنسية في ظروف الغزو الأمريكي إلى مجرد صورة باهتة، والسينما تمثل الأداة الخطيرة لبث السموم في روح شعبنا وتحاول استنزاف ثقافته وفرض معاييرها عليه".

فتعميم النموذج الاستهلاكي في بلادنا، يلعب دوراً خطيراً في تهديم العالم الروحي والأخلاقي والثقافي والوطني أيضاً لإنساننا. ومن هنا فإن البرجوازية الطفيلية لا تنشأ في وسط معافى من الناحية الاجتماعية، ولهذا فهي تنمو على أنقاض القيم والمثل وعدم احترام التقاليد الأخلاقية والمدونات القانونية والمعايير الدستورية. هذا الأمر يقودنا مباشرة للحديث عن دور الأدب والفن ودور الثقافة عموماً في مقاومة الاستهلاكية وآثارها التشويهية على الناس، ما دام مجال الثقافة هو الذي يحتل فضاء العالم الروحي والأخلاقي للبشر.

فالاستهلاكية عدوها اللدود: الثقافة. وهي أول ما تناصب العداء للأدب والفن والذي يوجد بين علم الاجتماع والأخلاق، وتسعى الاستهلاكية إلى إخضاع الثقافة لتبعية مزاج السوق الذي يتعامل مع الأدب والفن والعلم وحتى الدين، كما قال الدكتور زرق الله، كمواد استهلاكية خاضعة لاعتبارات اقتصادية بحتة وليس للمنطق الداخلي الناظم لمضمونهم. إذن، ما دور الثقافة والمثقفين، الأدب والأدباء، الفن والفنانين، في مقاومة عبادة الأشياء وتأليهها، التي تسعى إلى تشييء ليس الأدب والفن فحسب، بل والإنسان، عبر تفريغه من محتواه الاجتماعي والإنساني وتحويله إلى شيء.

أرى أن نتوجه للأستاذ حنا مينه وسعد الله ونوس، لو يتفضل الأستاذ حنا ليكمل حديثه الذي بدأه عن صورة الاستهلاك في أدبه

في الخمسينيات، ليحدثنا عن هذه الصورة في السبعينيات من خلال روايته "مأساة ديمتريو".

خاتمة:

أريد أن أشير إلى نتيجة يمكن استخلاصها من حديث الزملاء، وهي أن المجتمع الاستهلاكي يشمل أكثر المجتمعات العربية، فهناك العديد من المواد المصنعة في الغرب تنتج خصيصاً لمجتمعاتنا كالفديو والقداحات الذهبية. إلخ. فإذا كانت البرجوازية الوطنية في الخمسينيات قد حافظت وطورت - إلى حد معين - الإنتاج، فإن البرجوازية الطفيلية الآن ليست أكثر من سمسار أو وكيل للشركات الأجنبية.

روايتي الجديدة هي "مأساة ديمتريو". وديمتريو يوناني الأصل، موسيقي وعاشق للموسيقى يحب امرأة متزوجة من تاجر طفيلي يدعى "واصل الدلجي"، ابن لصاحب مدبغة قديمة، فأصبح فيما بعد تاجر غزل ونسيج. لن أحدثكم عن الرواية كلها، لكنني سأتوقف عند الشكل الذي تبرز من خلاله أيديولوجية "واصل"، هذا، وذلك عبر دفاعه عن نفسه تجاه الاتهامات التي توجهها له زوجته:

يقول واصل الدلجي أمام اتهامات زوجته: جاء المليون الأول من حيث لا يجب أن يسأل أحد. أما الملايين الأخرى فقد كسبتها بجهد. إن ما يحسن التجارة هو الكتمان، لا لأن ثمة ما أوأخذ

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

عليه، بل لأن روح العمل، مقتضياته، تتطلب من التاجر أن يبقي دفاتره بعيدة عن الأنظار.

وبعد أن يقص سيرة حياة والده، وكيف كان صاحب مدبغة حرفية، وكيف أصبح صاحب معمل للنسيج، يعترف أن دور الفن، هذه الأيام لم يكن معروفاً قبلها، وخاصة الفن في السنوات الأخيرة، أي في السبعينيات. يقول: "إن هذه السنوات الدائمة إن شاء الله، هي سنوات ذهبية، اغتنى فيها كثيرون، كانوا نكرة فصاروا من المعروفين، كانوا لا يملكون شيئاً فصارت أملاكهم أوسع من أن تحد.

ثم يقول: إذا كان لا بد من مساءلة عن الأثرياء، فهم أحق بها مني، ولكن بأي حق نقول للإنسان من أين لك هذا؟ إن لم تزن يده، زنت عينه أو لسانه أو سريره، ومن لم يغش في التجارة غش في الوظيفة أو في المهنة، أو في العاطفة، وكله غش. وربما كان غش التاجر أهونها لأنه يتناول المادة لا الروح.

كل هذه الأفكار يجب أن تقال، أن تعرف، أن يكتبها حملة الأقلام في كتبهم، لكن هؤلاء لا يرون إلا التجار. لا يرون إلا الرأسماليين، كأنما الرأسمال جريمة، مع أنه الأساس في اقتصاد العالم، يعطى الدوير الأول والفضل الأول، وتعرف قيمته، ويكرم أصحابه، وبلغ الأمر في الاهتمام الذي أثاره، أن ماركس وهو من كبار المفكرين، كتب له كتاباً في مجلدات، كتاباً سمعت عنه ولم

أقرؤه، وليس لدي وقت لقراءته، وبودي أن أفعل ذلك يوماً، ولو استطعت لنقدته، فهو كما بلغني ينغص على الرأسمالي ماله، وهذه ضغينة، وصاحبها ناشر ضغائن، مشير فتن، وينبغي أن يحاكم، لأنه يهز القناعات المترسخة في عقول الناس، ويعكر صفو الانسجام القائم بين الطبقات، ويحل محل هذا الوئام الإنساني، صراعاً لا إنسانياً، عنيفاً، دامياً، بلغ من شأنه أن ألقى شعوباً برمتها في برك من الدماء.

وبعد جلسة مع عمه، والد زوجته، فهيم المتبحر، ومع صديقه ربيع، تناقشوا فيها حول الرسم، يقول: يريدون الفن محارباً على جبهتهم، ونريده محارباً على جبهتنا، لكن الفنانين جميعاً وكذلك الأدباء والموسيقين، يستهويهم الرفض، بينما يستهويننا القبول. نريد أن نعيش بسلام، في وقت يريدون، هم، أن نعيش في حرب، لهذا يرفضون الإخاء بين الواقع والمواطن، بين رب العمل والعامل، ويشوهون واحداً من أجمل مبادئ الثورة الفرنسية.

يقول في مكان آخر: الزوجة التي أنعم الله على زوجها، ينبغي أن ترفل بالنعيم، أن تتمتع به وتقوم بواجب الاحترام تجاهه، أو تصمت على الأقل. لكنها تريد أن تعرف، مع ورود المال، كيف ورد، من أين مصدره وبأية طريقة. نحن، في التجارة، في الجمارك، مع المصارف، نتعامل بسندات الاعتماد، والشيكات، والبوالص، والبيانات والتصاريف، وهذه شهادات لا علاقة لها

بحسن السلوك. سلوكها الحسن يتوقف على صحتها، على دقتها، على القدرة في تصريفها، تمريرها، وبعد ذلك يأتي الناتج، وهو المهم، وبه تقاس موهبة الصناعات والتاجر لا بشيء سواه.

المصارف في سورية مؤمنة، أنا لا أحتج على تأميمها. كنت أتمنى - تسهياً للعمل - لو لم يكن، إلا أنه كان، فما العمل؟ نقف مكتوفي الأيدي؟ في كل تدبير قانوني، مصرفي، وفي كل لائحة تجارية ثغرة، ومنها يمرق الذين يستطيعون حيال القانون أو اللائحة شيئاً. أنا - بكل ما يتيح لي العرف وشرع السوق، وحق المهنة - دخلت هذه الثغرة.

لا أستطيع أن أقرأ كل ما يتصل بالمعمار الذهني والأيدولوجي لهذا البرجوازي الطفيلي، لأن دفاعه عن مصالحه الطبقة حقه "المقدس" في اللصوصية والسمرسة والتلاعب والغش والخداع، يستمر على مدى أربعين صفحة في الرواية يقدمها بمثابة أسانيد نظرية لطبقته، وهذه الأسانيد ليست نتاج فهمه وفهم طبقته، بل هي تعتمد على مراجع أيديولوجية غريبة بالتأكيد.

إن تناول هذه الطبقة يحتاج إلى ندوة خاصة، لأنها تشكل الخطر الأكبر الذي يواجه التحول الاجتماعي والثقافي في بلداننا العربية.

خضركريا:

يبدو أن التسوية الديني لم يعد كافياً للدفاع الأيدولوجي عن مصالحهم الطبقة.

صادق جلال العظم:

أستاذ حنا. لماذا سميت روايتك باسم "مأساة ديمتريو"؟

حنامينه:

لأن عازف الموسيقى من أصل يوناني، والرواية مسماة باسمه.

عبدالرزاق عيد:

اسمحوا لي قبل أن يتفضل الأستاذ سعد الله ونوس وبمداخلته، أن أشير إلى أن المنظرين لمجتمع الاستهلاك الذين حاولوا أن يعلنوا "نهاية الإيديولوجيا" كما أشار الدكتور صادق، وذلك برمي هذا المفهوم بكل أنواع الازدراء باسم العقلانية التكنولوجية، إنما كانوا يهدفون إلى رفض كل النظريات الكلية والنقدية التي تطرح الإنسان كغاية، وعلى استبدالها بإعلاء التكنولوجيا كغاية، ونظام أيديولوجي. وذلك عبر أساس هذه الأيديولوجيا، يصبح التناقض في عصرنا بين التكنولوجيا ونقيضها، بين الحضارة ونقيضها، بين سادة المدينة (المركز) ومنبوذي أرياف العالم (الأطراف). وبذلك فإن هذه الأيديولوجيا، توحد بين العمال وأرباب العمل في إطار المجتمع التقني الحداثي، مجتمع الرفاه الاستهلاكي للجميع. ومن صلب هذه الأيديولوجيا، تفرعت أيديولوجيات تأخذ شكل الأطروحة المضادة، لكن في إطار الأيديولوجيا ذاتها.

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

في هذا الإطار نفهم صرعة "ماركوز" الذي أنتجته أيديولوجيا الاستهلاك الذي يعلن نهاية التاريخ عند المجتمع الاستهلاكي وذلك بهدف امتصاص الرفض الثوري والتغييري لقوى الشغيلة، وسادت من يومها لدى العديد من منظري الرفض العدمي موضوعة أبدية التسلط والاستبداد من خلال منظور وضعاني يؤسس لعقلانية شكلاية متطرفة تموه حقيقة لا عقلانية المجتمع الاستهلاكي التقني، بعد أن تمكن من استيعاب القوى العمالية وامتصاصه لممكنات فعلها التغييري في الواقع .

سعد الله ونوس:

لقد لاحظنا حتى الآن، أن الاستهلاك كمنط اقتصادي له انعكاساته على مختلف مستويات البنية الاجتماعية والثقافية، إنما نشأ في الغرب - المركز - ثم تفشى في بلادنا - الأطراف - وفق سياسة منطقية ومدروسة أنتجتها السلطات العربية الحاكمة التي تشكل شرائح البرجوازية التقليدية والطفيلية الجديدة قوامها الطبقي .

وفي نهاية الستينيات، تقوضت آخر أوهام هذه البرجوازية في تحقيق توازن ما داخل المجتمع . أي أن تحافظ على علاقاتها بالغرب، وهي علاقات تحكمها طبيعتها الكومبرادورية، وأن تنجز في الوقت نفسه بعض الاستقلال السياسي، وشكلاً من التنمية الوطنية المستقلة . ولذلك تخلت منذ ذلك التاريخ عن مشروعها

الهش بالاستقلال، وانتهت إلى الارتباط عضوياً بالغرب. وما تفشي النمط الاستهلاكي في مجتمعنا، إلا تعبير صريح عن هذه التبعية، وتعميق متواصل لها.

وقد أشار الزملاء إلى بعض نتائج سيادة النمط الاستهلاكي على المجتمع، وبينوا كيف أدى إلى نوع من الخراب الوطني على المستويين الاقتصادي والقيمي - من القيم. وهذا ما يطرح دور الأدب والفن وفعالتهما في مثل هذا الواقع. لكن قبل الحديث عن هذا الدور، أرى ضرورياً أن نتعرف على الآلية التي أنتجتها السلطة كي تحول المجتمع إلى مجتمع استهلاكي.

إن النقطة الأساسية في هذه الآلية هي تطوير أجهزة القمع وتغيب الديمقراطية كلياً. وهذا طبيعي، فهي تريد أن تعلن وتمارس تبعيتها الكاملة للغرب، وأن تتجنب في الوقت ذاته ردود فعل الطبقات المسحوقة إزاء النتيجة الكارثية التي تؤدي إليها تلك التبعية. وفي العقدين الأخيرين، أحرزت الأنظمة العربية (هذه الأنظمة ليست واحدة، ولكن الفروق بين بنياتها ليست جوهرية وهذا ما يتيح لنا بعض التعميم) نجاحاً بارزاً في واحد من المجالات الحيوية بالنسبة لبقائها، هذا المجال هو تحديث جهازي القمع والإعلام، ودمجهما بحيث يتساقان ويتكاملان لإنجاز مهمة واحدة هي حماية السلطة وتدعيمها. إن الإعلام في هذه الثنائية هو الجهاز الأمني الأيديولوجي للسلطة. وقد تبينت هذه الأنظمة أن من الضروري كي تضمن لبرنامجها الإعلامي قدراً من التكامل

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

والنجاح، وأن تدمج به كل نشاط معرفي، من الثقافة وحتى البحث العلمي مروراً بمناهج التعليم. ولهذا فقد تولت "رعاية الثقافة!" شادت لها المؤسسات والصروح، ولم تبخل في الإنفاق على سديتها. لكنها أثناء ذلك، أو مقابل ذلك، كانت تسوقها لتندرج في برنامجها الإعلامي تزوقه وتحقق متطلباته. ومع نجاح هذه العملية، تحولت الثقافة، رغم الازدهار الرسمي وزيادة الإنتاج الكمي، إلى نشاط هامشي من حيث الفاعلية لأنها حوصرت في أحد خيارين. . إما أن تدجن وتتحول بوقاً في الجوق الإعلامي وإما أن تقمع، والتخوم بين الخيارين رخوة وملغومة بالأخطار.

والسلطة لا تستر على موقفها من الثقافة كملحق إعلامي، فتعهد مباشرة إلى وزارة الإعلام بتنظيم وتوجيه كل شؤون الثقافة. وحتى حين توهب الثقافة وزارة مستقلة، لها مديرياتها وروتينها، فإن هذا الفصل لا تمليه كما تدل النتائج إلا دواع تنظيمية وربما تمويلية. إنه المؤشر ذو دلالة ما حدث في مصر أواخر السبعينيات، وفي غمرة كامب ديفيد، إذ ألغيت وزارة الثقافة بعد سنوات من اضطراب وعدم استقرار العلاقة بينها وبين وزارة الإعلام، ففي لحظة الاختيار لم تترد السلطة. همشت الثقافة ودعمت الإعلام.

ومما له أيضاً دلالة عميقة المغزى على موقف السلطة من الثقافة، هو المفارقة شبه المأساوية التي عاشها بعض المثقفين الذين نظروا، وبشروا بل وحتى ناضلوا لقيام أنظمة تحقق دعاواهم وأفكارهم. وما إن قامت هذه الأنظمة واستتبت لها السلطة، حتى

تنكرت لمثقفيتها. ثم عمدت خوفاً من مشاغباتهم أو تعذر تدجينهم، إلى نفيهم جسدياً أو ثقافياً. بعضهم ارتحل، وبعضهم ابتلع لسانه متورماً باليأس والمرارة. والبعض الثالث يذوي ويتلاشى في رطوبة الزنازين. إن الركيزة الأساسية في السلطة القائمة، إضافة إلى جهاز الأمن، وبالتنسيق معه، هو البرنامج الإعلامي، والمثقف إما أن يكون موظفاً يغرد في هذا السرب وإما أن ينفى.

وفي هذا المنظور تمت تقوية أجهزة الإعلام (التلفزيون، الإذاعة، الصحافة)، وزودت بأحداث المبتكرات الغربية لا على مستوى التجهيزات الآلية فقط، وإنما على مستوى الإعداد، والخطط، والمضمون والبرامج: إننا نستورد أجهزة التلفزيون، ومعها كفيات قولبة الرأي العام، والتأثير عليه، وتوجيهه الجهة التي نتوخاها. كذلك نستورد أجهزة الفيديو ومعها أفلامها، أي نمط الاستهلاك الفني المطلوب لتدجين الناس وإلهائهم. إن أجهزة الإعلام تمارس اليوم أحدث التقنيات لترويج سياسة النظام، وتزييف صورة الحاكم.

وكما دفعت دول أموال النفط - المنطقة، وخلافاً لأوهي مشاعر الوطنية، إلى المزيد من التبعية للغرب وأسواقه، فإنها أسهمت وعلى المستوى النوعي، إسهاماً كبيراً في توفير الأساس المادي لتطوير الإعلام وتقويته، مولت القسم الأكبر من الإنتاج التلفزيوني الرث - وبذلك فرضت قيمها ومفاهيمها وذوقها - وأغرقت الوطن العربي بالمنابر الإعلامية المقيمة والمهاجرة. وقد

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

أدت كثرة هذه المنابر وفوضاها إلى تقويم الثقافة والمثقف، وتحويل كل منهم إلى سلعة في سوق يغص بالسلع. لم يعد المثقف ذلك الطليعي صاحب المشروع التاريخي، وإنما صار قوة عمل تؤجر. وبهذا فقد ريادته وفقد جذريته، ولم يعد يؤججه الوعي بمسؤوليته، وبأنه عنصر فعال في عملية التغيير التاريخية في مجتمعه. لقد صار جزءاً هامشياً من آلة ضخمة تنتج الضوضاء، والخلط، والكلام الملتبس، وفي مثل هذا الوضع، كان طبيعياً أن تختفي من حياتنا المدارس والتيارات كما عرفناها في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات. فلم تعد هناك مدارس تتحاور، ولا اتجاهات تتجادب معمقة حركة الفكر ومثرية مناخ الثقافة، بل تفتت المثقفون إلى أصوات مفردة تكاد تخلو من النبرة الشخصية وسط الضوضاء والترويض المستمر. ومع زيادة المنابر كان هناك خلط متعمد للقيم والمفاهيم في الثقافة بخاصة وفي السياسة بعامة. وأنه للافت للنظر أن يقل وعي المواطنين بواقعهم وما يجري حولهم من أحداث بشكل مضطرب مع الزيادة الهائلة في عدد الدوريات، والمنابر الإعلامية!

وإذا نحن تفحصنا البرنامج الإعلامي الذي أحكمت السيطرة عليه، وقلّت فيه، إلى أدنى حد، الهوامش التي ييسرها وضع اجتماعي مخلخل كوُصعنا، فإننا نجد أنه يرتكز إيديولوجياً على نقطتين جوهريتين:

- الأولى، هي بعث ونشر القيم السلفية تحت ستار الأصالة والإيهام بالاستقلال.

- الثانية، هي نشر وتسويق كل منتجات الغرب الثقافية والاقتصادية، وبالتالي السياسية.

ومن نافل القول إن هاتين المهمتين متكاملتان، وإن إحداهما تدعم الأخرى، لتكريس التبعية، وحماية الأنظمة التابعة من انتفاضة جماهيرنا المنهوبة والمستلبة. ولهذا فإننا نرى الإعلام يحيي من التراث كل ما هو سلفي ومتخلف وغير عقلاني بغية تخدير المواطن، ودغدغته بوهم الاستقلال (وهناك دول عربية عديدة اعتقدت أنها أنجزت استقلالها، وحققت خصوصيتها وأصالتها في المضمار الحضاري بمجرد ارتداء الدشداشة، والحطاطة، والشاروخ. ولا يهم أن هذه الثياب قماشها مستورد، وخياطها مستورد، وأن كل ما يستخدمه هذا المستقل الأصيل الداخل بدشداشته، إنما هو مستورد من مخازن الغرب). إن ما هو سلفي، وأحياناً فولكلوري يصبح في هذا المضمار، النقاب التمويهي الذي تتم خلفه عمليات التبعية. هذا إضافة إلى أنه ستار يحجب عنا تاريخنا وتراثنا، بحيث لا نتصل بما هو عميق وثوري في هذا التاريخ وفي هذا التراث. ويمكن هنا أن نقدم مثلاً فاقع الدلالة على الكيفية التي تطبق فيها هذه الأيديولوجيا المنحطة في البرامج الإعلامية، ففي فترة من الفترات، كان يذاع في التلفزيون مسلسلان، أحدهما محلي والثاني أجنبي. وكان المسلسل المحلي بدوي يطرح مشاكل

واقع متخلفة وبائدة. أما المسلسل الأجنبي فإنه "دالاس" الذي يُسوّق صورة أمريكا، وغط الحياة لدى الشريحة المتنفذة فيها، ويقدم عرضاً جذاباً للقوة الفردية، والجمال النسوي والسيارات، وآخر مبتكرات المدنية، إنه فقاعة مخملية من الترف والرفاه واللذة. ويتحلب ريق المواطن، ويغويه النموذج ويتهاً نفسياً لقبول أمريكا سلعاً وسياسة. هذا هو جوهر البرنامج الإعلامي. إنه يخدر ويسوق. ومن المفيد هنا ملاحظة أننا نستورد البضائع ومعها دعايتها - أي القوالب الفكرية التي تخلق الحاجة إلى هذه البضائع واستهلاكها، أي أننا نُسوّق البضائع والأيدولوجيا التي تحوّل المجتمع إلى مستهلك بضائع، أي إلى تابع منهوب ومستلب.

وهكذا فإن المخزونين الأساسيين للمادة التي تغذي وسائل الإعلام هما: المخزون السلفي، والمخزون الغربي. ومن الغريب أننا، إذا استثنينا الأخبار السياسية المباشرة، في الصحف والإذاعة والتلفزيون، فإننا نجد بعد ذلك تشابهاً بل تطابقاً في كل البلدان العربية. ويتاح لي أن أتابع البرامج التلفزيونية في بلدين متناقضين في الاتجاه السياسي، فأعجب إذ أجد تطابقاً في المادة والبرامج وترتيب البرامج وحتى في مكان وضع الأغنية - وهي الأغاني ذاتها - والمشهد الترفيهي - وهي المشاهد ذاتها.

وترتبط طبعاً بالأساس الأيدولوجي للبرنامج الإعلامي أهداف التخدير، والتدخين، وتخريب الذائقة. فالمشكلات الأساسية التي عانى منها المجتمع، تطرح بشكل مُبستر وسطحي،

وتُقدم لها حلول أخلاقية أو غيبية. إن عدداً كبيراً من المسلسلات التي يبثها التلفزيون العربي إنما تدور حول الخراب الاجتماعي الذي ساقط إليه الأنشطة الطفيلية والبيروقراطية، وسيادة النمط الاستهلاكي، لكنها لا تضع أبداً النظام السياسي - المسؤول جوهرياً عن هذا الوضع - محل شبهة أو تساؤل، بل إنها تفرغ المشكلة، وتحولها إلى قضية انحراف خلقي، أو نقص معلومات عند السلطة، أو أخطاء عابرة في المسيرة المظفرة. وهي غالباً ما تقترح حلولاً دينية (يهتدي في نهاية المسلسل، ويفتح قرآنه، أو يعاقبه الذي يجهل ولا يهمل)، أو خلقية، أو تمنى على السلطة ألا تغفل عن هذه الظواهر. وينتهي كل شيء بالرضى والمسرة.

وإضافة إلى ذلك فإن هناك ميلاً متزايداً إلى السطحية والتفاهة. وأحياناً يُخيل إلي أن هناك قراراً من الجامعة العربية بإلزام الدول الأعضاء بتعميم نماذج كوميدية مُسفة مثل "مدرسة المشايخين" و"العيال كبرت" و"المتزوجون". فهذه الكوميديا لم تُدع فقط وإلى حد الاستهلاك، بل أصبح بعض مقاطعها مواداً يومية تُذاع كالشارة لترسيخها وضمان تعميمها كأمثلة نموذجية على الكوميديا المطلوبة (!) والواقع أن هذا هو المطلوب. مطلوب تعميم التفاهة. مطلوب تعميم الجهل. مطلوب تخريب الذائقة. مطلوب تدني مستوى المواطن الثقافي. مطلوب ألاّ تبلور قيم ثقافية جادة في هذا المجتمع، وأن يكون الطموح لبناء مثل هذه القيم متعذراً إن لم أقل مستحيلاً.

بهذه الآلية المتشابكة والمنظمة يعمل الجهاز الإعلامي في هذه الأنظمة التي استكملت - وبكفاءة تاريخية تبعث على التقدير - تبعيتها للغرب الإمبريالي الرأسمالي.

إذن ما الذي يستطيع أن يفعله الفن والأدب إزاء هذا الواقع؟

ربما كان ما يستطيعه الأدب والفن قليلاً، لكنه عظيم الأهمية في هذه المرحلة. ليس في نيتي أن أضع برنامجاً لعمل الأديب والفنان، لكن يمكنني القول بأن المهمة الأساسية لكل أدب وفن جيدين هي مواجهة البرنامج الإعلامي. ولكي يواجهه ينبغي عليه أن يتأى بنفسه عنه. ينبغي أن يدير ظهره له، أن يحتقره، ويحاول فضحه. لا مجال بعد للحديث عن أدب أو فن ينمو داخل هوامش هذا البرنامج الإعلامي. بل لا بد من إعلان القطيعة، ومن خوض مغامرة إبداع جديدة على المستويين الفكري والجمالي. لا يمكن أن نواجه عمليات التخدير والتسطيح والتستر وراء بعض الأفكار السلفية، بنصوص توفيقية، أو خطابية. إننا بحاجة إلى نصوص جذرية. جذرية في عمقها، جذرية في تعريتها للسلطة وكشف الآلية التي تمارس بها قمعها وتبعيتها، جذرية في جملتها، وإني أرح هنا على جذرية الجمالية، وجدتها. لأن الجهود المتضافرة التي تبذل لتخريب الذائقة، لا تترك لنا فرصة للترق والإصلاح، أو الإبداع داخل القيم الجمالية السائدة. علينا أن نبكر جماليات جديدة يمكنها أن تقلقل الذوق السائد، وأن تدهشه.

ولكي يتم هذا، أرى أن نتخلّى عن الفكرة التي أغوتنا فترة طويلة، والتي تقول إن الأدب والفن فعالية راهنة في هذا المجتمع الراهن. إن الأدب والفن الجيدين، ينبغي أن يكونا فعالية بطيئة وبعيدة المدى، وألاً يرتبكا بالتغيير المباشر. إننا نعمل في ظرف معقد وصعب. ولقد حاصرتنا التغيرات المتلاحقة، وأربكتنا. كانت السنوات الأخيرة مأزقاً، وجد المثقف نفسه يتوه، يهشم، ولهذا فإما أن يكون جذرياً إلى أبعد الحدود، وإما أن لا يكون. ربما غدت الصورة التي قدمتها قائمة، لكنني الآن - وأكثر من أي وقت مضى - أعتقد أننا مهيوون لإبداعات هامة ستكون شاهداً على التفسخ الذي نعيشه، وتجاوزاً في الوقت نفسه.

عبد الرزاق عيد:

أليست اللوحة التي رسمها الأستاذ سعد الله لواقع الثقافة العربية فيها الكثير من القمامة؟ أليس فيها بعضاً من الحيف نحو الكثير من الأعمال الأدبية والفنية التي كانت بمستوى تحديات المرحلة؟ أعتقد أن هناك اختراقات كثيرة لهذه المركزية الثقافية والإعلامية الشديدة للسلطة العربية التي تحدث عنها.

لم نعد نعرف بالشكل الكافي ما تنتجه مصر، لكن المرء لا يمكن أن ينسى على سبيل المثال "ذكر ما جرى" لجمال الغيطاني، حيث يصور القوى الطفيلية الجديدة التي حولت كل مصر إلى شيء قابل للبيع، فحتى مياه النيل غدت قابلة للتفاوض، للبيع والشراء من قبل الشركات الأجنبية.

رواية "اللجنة" لصنع الله إبراهيم، التي توغل في الكشف عن قاع هذه القوى التي وصلت حد المساومة على الأهرامات، رمز لمصرية مصر، والتي تريد الصهيونية إثبات أن خوفو باني الهرم كان يهودياً!!

وهناك العديد من الأفلام والمسلسلات التي شاهدناها على الأقل "سائق الأوتوبيس" و"مقهى الماوردي" و"ليلة القبض على فاطمة" المسلسل الذي خلف صدى واسعاً في الأوساط الشعبية. تواجه قيم وأخلاق وثقافة الاستهلاك بقيم وثقافة الشعب المصري، والتشديد على الهوية الوطنية لهذه القيم.

حنا مينه قدم لنا مثلاً ساطعاً على نهوض الأدب لمهمة مكافحة التخريب الروحي للاستهلاك، الطاهر وطّار رصد أيضاً مظاهر الفساد التي يفرضها مجتمع الاستهلاك. هذه مجرد أمثلة أسوقها لأقول إن الأدب والثقافة العربية لم تدعن أمام هذا الهجوم الذي يتيح هذا التعميم للصورة القائمة.

سعد الله ونوس:

أنا ما أردت برسم هذه الصورة أن أنفي هذه النماذج. لكن حجم هذه النماذج بالنسبة للوضع القائم لا يكفي، بل علينا أن نبحث عنها بالأفق، وليس في الوضع الحالي. وما شجعتني على التعميم أن تأخذ على سبيل المثال برامج لتلفزيونين عربيين، فلن نجد فارقاً، ينتهي المسلسل في هذا التلفزيون فينتقل إلى الآخر.

بل لقد شاهدت شاشات التلفزيون لمعظم البلدان العربية فوجدتها متشابهة. يمكننا القول إن هناك وحدة عربية إعلامية، بل ووحدة عربية حول النموذج الاستهلاكي.

عبدالله حنا:

هناك وحدة عربية تجمع البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية العربية على حساب مصالح الشعوب العربية.

سعدالله ونوس:

بطبيعة الحال، فالنموذج الاستهلاكي لا يغزو حياتنا اعتباطاً أو عفواً، بل عبر الأنظمة العربية القائمة بشكل منظم.

حنا مينه:

لديّ ملاحظة حول موضوعة الإعلام ودوره في تميمع الوضع الثقافي وإبهاظه. لكن لا بد من مراعاة أمر واحد، فالفكر العربي بمجمله فكر تقدمسي يساري، فهذا الفكر تمتد جذوره إلى خمسين أو ستين سنة، فإذا تنبعت البلدان العربية النفطية منذ فترة قريبة إلى إمكانية استخدام جزء من ثرواتها في الإعلام وإصدار المجلات لتبرير الاستهلاك واللاوطنية واللامسؤولية وتبرير التحلل، مع ذلك فإن الفكر العربي يبقى فكراً تقدماً ويسارياً وسيزداد تعمقاً، ففي كل بلد عربي، الحكام في جهة والفكر أو معظم اتجاهاته في الجهة المقابلة.

أقول ذلك لكي أبرز أن التيارات المعارضة للاتجاه الاستهلاكي وما يفرضه على الحياة الثقافية من سطحية وتفاهة، لديها القدرة على المجابهة الرادعة. وهي ليست منعزلة، بل أكاد أقول إن الغلبة ستكون - حتى على المستوى القريب - للفكر اليساري.

صادق جلال العظم:

يجب أن نتبّه كي لا ننزلق في تحليلاتنا باتجاه إضفاء الطابع الأخلاقي على أحكامنا، خاصة ما يتعلق بما تقدم به الدكتور عبد الله حنا. نحن نعرف مقولة ماركس حول أنه ليس هناك تشكيلة اقتصادية ما قبل الرأسمالية يمكن أن تصمد أمام التشكيلة الرأسمالية. ولقد شاهدنا مثال ذلك في روسيا القيصرية، ونرى أمثلة كثيرة الآن على ذلك، عندنا، وفي أفريقيا. . إلخ.

فالبنية الرعوية والفلاحية، التي هي مزيج من الإقطاع والشعبوية الفلاحية، ستنهار بالضرورة أمام الانطلاقة الرأسمالية. فمهما تحدثنا عن القيم، فإن القيم تنتج عبر ممارسة كسب العيش. فالفلاح الذي يصبح مهرباً ستتغير قيمه بطبيعة الحال.

فأمام عملية الانهيار التي نراها، ماذا نفعل كمثقفين تقدميين أو قوى أو أحزاب. . إلخ حتى نؤثر في هذه العملية، أقول نؤثر بها ولا نوجهها، لأن الأمر لا يتعلق بإرادتنا، بل هناك ظروف موضوعية، فالمسألة لا تتعلق بقرارنا فقط. نؤثر بها في الاتجاه الذي يعيد بناء قيم وطنية من طراز جديد، قيم تتناسب مـ

المعطيات الجديدة لبناء الإنسان والحضارة، التي هي مطلبنا ضمناً أو صراحة.

لينين كان يستفيد من الانهيارات التي يحدثها تطور الرأسمالية في روسيا في المجتمع الفلاحي التقليدي، من أجل بناء مستقبل حقيقي.

عبدالله حنا:

عندما تحدثت عن المجتمع الرعوي والفلاحي والحرفي، فأنا لست من أنصار هذه المجتمعات، بل أنا مع المجتمعات التقدمية والاشتراكية بطبيعة الحال، لكن المسألة تتجلى في انهيار القيم الإيجابية، وحلول القيم السلبية مكانها، المتمثلة بقيم وأفكار البرجوازية الطفيلية والتي هي قيم وأفكار المجتمع الاستهلاكي. فما يحدث مع الأسف، أن القديم لا يزول ليحل محله جديد ثوري، بل يحل محله جديد متخلف رجعي يقالب تقدمي معرقل لعملية التقدم.

فأنا كاشتراكي حتى العظم، لست ضد الفكر البرجوازي الثوري النهضوي عندما يهدم بُنى الفكر الإقطاعي المتخلف، لكن ما يحدث هو العكس، إن الفكر الذي يحل محل القديم هو فكر متخلف يقالب عصري جديد.

والناحية الثانية التي أريد التوقف عندها، هي ما قاله الأستاذ حنا مينه عن الفكر العربي بأنه فكر تقدمي يساري، فأنا أقول إن

■ المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية النامية ■

هناك فكر تقدمي وفكر عربي رجعي، فالفكر يعبر عن مصالح طبقة معينة، كانت البرجوازية تلعب دوراً تقديمياً في عصر النهضة والتنوير. أما عندما تحولت البرجوازية إلى طبقة رجعية، فإن فكرها غدا رجعياً، فلا بد أن يكون موقفنا من الفكر موقفاً طبقياً. الفكر يتأثر بالعلاقات الخارجية، فهو يتأثر بالعلاقات الخارجية مع البلدان الاشتراكية، ومع البلدان الرأسمالية، وهناك تأثيرات خارجية لفئات بين الرأسمالية والاشتراكية.

ففكرنا إذن يتأثر بالأفكار الخارجية كما يتأثر بالعلاقات الإنتاجية الداخلية، بالإضافة إلى التراث. فنوعية العلاقات الخارجية، والعلاقات الإنتاجية والموقف من الثقافة القومية (التراث) يحدد نوعية الفكر الذي نتبناه.

إن العلاقات الخارجية مع البلدان الاشتراكية، وقيام علاقات إنتاجية ذات توجه تقدمي، واختيار الجوانب التقدمية من التراث، يؤدي إلى قيام ثقافة تقدمية. فما حدث في البلدان العربية أنه جرى إصلاح زراعي، لكنه تحول إلى رأسمالية زراعية، مما أدى إلى فقدان الروح التعاونية عند الفلاحين، وهيمنة الكولاك بسلفيته ورجعيته، ثم جرت تأميمات لكنها أجهضت، وشنت حملة على الاشتراكية باسم هذه التأميمات، ظهرت فئات ووجهت ضربة إلى القطاع العام وحولته إلى جثة هامدة. وهذه الفئات هي التي تنتج فكراً رجعياً استهلاكياً متزمتاً، تحتمي بالتراث وتفتتح في الآن ذاته على الفكر الإمبريالي. وأنا أميل للاتفاق مع الأستاذ سعد الله

ونوس في الصورة القاتمة التي قدمها، لكنني أقول إنه في قلب التشاؤم هذا وفي قلب المجتمعات الاستهلاكية وفي قلب البنية الاجتماعية التي تهيمن عليها البرجوازية الطفيلية وما تصرف به من انحلال وخداع و(سلطة وبلطجية) تبرز فئات لا تستطيع الرشوة والنهب، فهناك أجيال ناشئة ليست فقط لا تستطيع الحصول على السيارات ووسائل الترف، بل وحتى على السكن والعمل. فهذه الكتل والفئات ستكون بالضرورة ثورية، وستتج بالضرورة فكرها المناهض للفكر الرجعي والاستهلاكي.

صديق جلال العظم:

أريد أن ألفت الانتباه إلى مسألة هامة، وهي أننا نتحدث في بعض الأحيان عن الإصلاح الزراعي وكأنه إجراء اشتراكي، عندما كنا شباباً كان لدينا هذا الوهم، لكن علينا الآن أن نتحرر من هكذا وهم. فكل الإصلاحات الزراعية التي تمت في هذا الإطار، لم تتجاوز حدود الرأسمالية الزراعية، حتى القيصر نيقولا الثاني الذي ألغى القنانة قام بإصلاحات زراعية، لكنها فتحت الباب للعلاقات الرأسمالية في الريف.

رزق الله هيلان:

في فترة السبعينيات لم يعد هناك برجوازية وطنية ليس في موريا فحسب بل وفي العالم الثالث، ولا في أوروبا ذاتها، بل ناك رأسمالية عالمية مركزية مرتبطة ببعضها بهدف سياسي واحد

هو محاربة الاشتراكية. ولذلك فإن الحديث عن الأخلاق، يدخل في إطار الحديث عن البنية الفوقية، التي تتغير بالضرورة نتيجة التغييرات الطارئة على البنية المادية والمعاشية. لقد دخلنا نحن في مرحلة التحديث والعصرنة - التي مؤداها في الأخير شكل من أشكال مجتمع الاستهلاك، ولذلك فإنساننا أمام هذا الغزو المحموم للاستهلاك ليس أمامه سوى الاشتراكية كخيار فكري وسياسي ليدافع به عن نفسه أمام هذا الغزو.

فمسألة التفاؤل والتشاؤم تجاه الآفاق ليست هي الأساسية على اعتبار أن المسألة ليست مسألة فكرية، بل هي عملية تحليل للواقع. فالمسائل التي تحدث عنها الأستاذ سعد الله ونوس ليست نتاجاً عفويّاً، بل ترتبط بوضع اقتصادي محدد.

فالتضخم على سبيل المثال ليس قضية اقتصادية، بل هو قضية ثقافية من الدرجة الأولى، فالمرء الذي يعرف أن ما وفره خلال سنوات، سيمتصه التضخم، وسيتحول بالضرورة إلى الاستهلاك المباشر للدخل، وكل هذه المسائل مترابطة.

إن تحول الإمبريالية للهيمنة على السوق الرأسمالية العالمية منذ سنة ١٩٦٨، أدى إلى تناقضات جديدة في المعسكر الإمبريالي، وهذه الأزمة قائمة وستستمر، وأمريكا لن تستطيع أن تتحكم بقراب البشر كما تريد. فالتحليل الاقتصادي والاجتماعي يتبدى عن عوامل تساعد على التفاؤل، إذ أحسنّا الاستفادة من هذه العوامل.

خاتمة:

لدي ملاحظتان: الأولى منهما هي أن الفكر لا يمكن الحديث عنه دائماً على أنه نتاج الطبقة الحاكمة، صحيح أن الطبقة المهيمنة اقتصادياً وبالتالي سياسياً هي المهيمنة فكرياً واجتماعياً. إلخ، لكن الأفكار الاشتراكية غدت، في عصرنا هذا، ذات تأثير خاص لا سيما في ظروف التحرر الوطني والنضال في سبيل التقدم الاجتماعي، فصادق جلال العظم، الصديق العزيز، ليس صدفة وهو "ابن آل العظم" أن يكون بيننا في هذه الندوة. لذا عندما قلت إن الفكر العربي هو فكر تقديمي، إنما كنت أشير إلى أن هذا الفكر في كل البلدان العربية له الفعالية والنفوذ الأكبر، حتى في البلدان الرجعية. ولا أقول ذلك من باب إطلاق التفاؤل بل من باب ضرورة مضافة الجهود وتنظيم جبهة ثقافية واسعة، فسنكون عندها أكثر قوة وفعالية وتأثيراً، هذه هي الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية فهي تتعلق بما أوردتموه خلال الحديث عن الوحدة الإعلامية في البلدان العربية، أو وحدة السلطات، ووحدة القوى البرجوازية الطفيلية. أريد أن أؤكد من جانب آخر إلى أن الوحدة الأكبر والأقوى والأبقى هي وحدة الثقافة العربية، على الرغم من كل هذا المنع والتجزئة والمصادرة، فما يكتبه نجيب محفوظ لا يجد صداه في مصر فحسب، بل في كل البلدان العربية قاطبة. والأمر نفسه على كل مبدعي الثقافة العربية بحق.

إذن فهناك تبادل ثقافي، رغم كل الحواجز والجمارك الثقافية التي تضعها وتقيمها الأنظمة، حيث إن هذا التأثير المتبادل بين الثقافة العربية يشكل الوحدة الأكثر قوة وبقاء من كل أشكال الوحدات والاتفاقات الفوقية التي تصنعها الأنظمة.

تلك هما الملاحظتان، أما التأثير الاستهلاكي على الثقافة العربية فيتجلى بانعكاس العقلية الاستهلاكية على هذه الثقافة بإشاعة حمى اللهاث، وراء الكماليات ووقوع الفرد تحت تأثير العقلية الأمريكية الأوروبية بالحصول على هذه الكماليات عن طريق التقسيط، والدفع كل شهر، أو الوقوع تحت الحجوزات المصرفية.

إن الفرد العربي تفرض عليه العقلية الاستهلاكية أن يجد ثلاجته، وغسالته، وسيارته، وكل ما يتبع ذلك من كماليات باستمرار، وهذه أصلاً كماليات مستوردة من الغرب، تجعل هذا الفرد تحت وطأة العيش لها، والوفاء بالتزامها، وهذا يؤدي إلى أمرين: لا وقت للثقافة، ولا مال للثقافة. وأمام موجة الأفلام السينمائية والتلفزيونية، وأفلام الفيديو وصور الخيال العلمي، أو مشاريع البطولات الزائفة، والإذاعات المرئية والمسموعة، يصبح العقل العربي خاضعاً كلياً للثقافة الخارجية، الأمريكية الغربية غالباً، ورازحاً تحت وطأة الإعلام الصادر عن كل هذه الأدوات.

وتحاول الثقافة العربية، تحت تأثير الضغط، ورغبة في المنافسة، أن تقلد الثقافة الغازية. فهي تتج في السينما أفلام العنف والجريمة، والكارائيه، وأفلام التحلل الأخلاقي، واللامسؤولية واللاوطنية. كما تحاول - بغية اكتساب سوق لها - أن ترضي هيئات الإذاعة والتلفزيون في الخليج وغيره، إنتاجاً وتصديراً، وقد رأينا موجة المسلسلات البدوية والمسلسلات الدينية، ومسلسلات الأطفال التي تقبع وراءها مؤسسات مالية أمريكية، والأغاني المائعة، والحلول الاجتماعية المغلوطة.

وهكذا فإن العقلية الاستهلاكية تنعكس على الثقافة العربية في مجالات كثيرة، منها المسرح، والفكر، والنقد، والقصة والرواية والإنتاج السينمائي والتلفزيوني، وموضة الأزياء والأغاني، وهي تحاول بطرق ملتوية، خبيثة، غير مباشرة، أن تُروِّج لكل ما هو ضد الواقع، والاشتراكية وروح الجماعة وتطلعات الوحدة، والنضال الوطني، والنضال للتقدم الاجتماعي، وأبرز مثل على ما تشنه هذه الهجمة على المسرح باسم مسرح العبث واللامعقول، وباسم البنيوية، ورفض الحقائق، ورفض أسس الفكر العلمي، ورفض الواقعية التي يزعمون أنها تؤدي إلى ضمور الأدب وموته.

صاوق جلال العظم:

أريد أن ألفت الانتباه إلى مسألة من الضروري لفت الانتباه لها، وهي أن حديثنا عن الغرب وأمريكا بهذا الشكل الهجائي

المذموم، لا يعني غياب الوجه الآخر للغرب عن لنا، المتمثل بتاريخ النضالات الطبقيّة والديموقراطية، فهناك طبقة عاملة ذات ميراث نضالي عريق، وحركات طلابية وجماهيرية ديموقراطية. فما يُصدر لنا ما هو إلا نتاج أنظمة معينة وقوى طبقيّة محددة، فليس الغربيون بمجموعهم قادرين - على سبيل المثال - أن يستفيدوا من منتوجاتهم الاستهلاكية، وهم ليسوا متساوين قطعاً في إشباع الحاجات، بل ويمكن القول إن شروط الحاجات عند فئات اجتماعية واسعة في البلاد العربية ومتطلباتها قد تفوق شروط الغربيين ذاتهم، سيما ما يتعلق بالملبس والمسكن. فالمواطن الغربي الذي يملك مسكناً من ثلاث غرف أو أربع، يعتبر من أصحاب الدخول المرموقة.

خضرة زكريا:

هذا صحيح، فعلى سبيل المثال، نرى أن متوسط مساحة المسكن في اليابان ٥٠ متراً مربعاً، بينما هو في سورية ١٠٠ متر مربع.

عبد الرزاق عيد:

إن ملاحظة الدكتور صادق صائبة فعلاً، لكي لا يفهم من حديثنا على أننا لا نرى من الغرب سوى وجهه الاستعماري الإمبريالي، وأننا نهمل البعد الكوني للثقافة!

بعد أن تحدث الأستاذ حنا عن الاستهلاكية وانعكاساتها على الثقافة العربية، سيتناول الهجمة الثقافية الاستهلاكية.

حنامينه:

مقابل كل سلعة استهلاكية تدخل الوطن العربي، تدخل سلعة استهلاكية ثقافية تتمثل في الصحف والمجلات والكتب والأفلام وأفلام التلفزيون، وبرامج الإذاعة التي تبث من خارج سوريا، وخارج الوطن العربي، مثل إذاعتي لندن ومونت كارلو، على نطاق واسع، وإذاعة صوت أمريكا، على نطاق أقل اتساعاً، وغيرها من الإذاعات.

ماذا تقول كل هذه الوسائل الثقافية السلعية: تروج للاستهلاك، تزينه، تجمله وتبشر بالنسبة للثقافة بعالمية الثقافة، أي تجاوز خصوصية الثقافات، وبقي بالنسبة إلينا إلغاء خصوصية الثقافة العربية. إن الثقافة العربية ثقافة متفتحة، تأخذ وتعطي، تفعل وتتفاعل، لكنها تظل، في نطاق الوطن العربي، تخدم القضية المركزية لهذا الوطن، وهي التحرر من كل أشكال الاستعمار، ومن تبعيته الاقتصادية والثقافية، ومن سيطرة الفكر الغربي، أو تأثيرات الفكر الغربي، على المثقف العربي، وتحرير الأراضي العربية المحتلة، واستعادة الحقوق الوطنية المغتصبة، ورد الهجمة الاستعمارية الأمريكية عن المنطقة العربية، ورفض كل أشكال التعاون الاستراتيجي مع أمريكا ودول حلف الأطلسي،

التي غايتها سلب استقلالات الأقطار العربية، وجعل هذه الأقطار قواعداً ومحطات عسكرية لطائرات وجيوش أمريكا وحلف الأطلسي وإسرائيل، واتخاذ البلاد العربية محميات وجعلها حزاماً أمنياً شمالياً ضد الاتحاد السوفيتي.

إلغاء خصوصية الثقافة العربية يعني إلغاء وحدتها، هذه التي تظل، في ظروف التجزئة السائدة في الوطن العربي، عنصراً أساسياً، يتساوى مع العنصر الاقتصادي في تحديد مقومات الأمة العربية. ونرى أشكال إلغاء هذه الوحدة الثقافية، القائمة الآن على التبادل والتأثير الثقافيين تبدو للعلن تارة وتختفي تارة أخرى، فعلى النطاق العربي، نرى شكلين لضرب هذه الوحدة، أولهما: الترويج لبعث الفرعونية المصرية، باسم التمسك بالحضارة المصرية، وثانيهما: التعددية الثقافية في لبنان، التي ترفض وحدة الثقافة العربية، وما يشكل ذلك من تمهيد لفصل لبنان عن الوطن العربي، وما دعوات الكتائب للأخذ بالحروف اللاتينية والعودة إلى اللغة المحكية وغير ذلك، سوى مظاهر هذا النشاط الثقافي الذي يهدد الانتماء والهوية والأسرة العربية تهديداً متواصلاً.

كذلك فإن إلغاء خصوصية الثقافة العربية يعني إلغاء طابعها التاريخي والتراثي، وإدماجها بالثقافة العالمية الكوزموبوليتية التي تريد هدم الكيانات والحدود بين الدول كي تستطيع الدول الاستعمارية الكبرى أن تنشب أنيابها بالدول الصغرى وكي يتيسر للقوميات المسيطرة أن تغزو القوميات المغلوبة على أمرها بفعل هذه السيطرة.

عنصر آخر من عناصر إلغاء خصوصية الثقافة العربية هو الدعوة للقطع مع التراث، وما فيه من نزعات مادية تقدمية وعناصر أصيلة وتقاليد كفاحية، والإقبال باسم الليبرالية، على ما يدعى بالحدائث، التي هي، كما يروج لها الآن، التنكر لكل الثقافة العربية والوقوع تحت نفوذ الثقافة الغربية، وخاصة البرجوازية في مرحلة انحلالها وتفسخها. إن الحدائث وما يُسمَّى بالمعاصرة لا تعني، أو يجب ألا تعني الارتقاء في أحضان البرجوازية الغربية واستقبال كل ما هو غريب وضار بحجة أنه "على المؤضة" لأن مثل هذه المحاولات قد اصطدمت بها، ولا تزال، ثقافات دول اشتراكية في فجر هذا القرن، وقد تنبه لينين لخطر الركض وراء المؤضة باسم الحدائث، وراء التقليد باسم المعاصرة، وشجبه ونبه إلى خطره.

القسم

الخامس

5

ندوة فكرية:

انهيار نموذج.. أم انهيار خيار؟

لقاء حوارى حول أزمة الاشتراكية

وانهيار نموذجها العالمى

أين تكمن الأزمة؟

أدارها : الدكتور عبد الرزاق عيد

المشاركون :

الدكتور / حامد خليل / الدكتور / خضر زكريا / الدكتور / أحمد برقوى

الدكتور عبد الرزاق عيد: لقد كانت مجلة، (الحرية)(*)، سباقة في التجاوب مع المتغيرات والتحويلات الكبرى التي شهدها الاتحاد السوفييتي، وما آلت إليه هذه التحويلات من نتائج راهنة، تسعى المجلة لرصدها وقراءتها وتحليلها بهدف استخلاص الدروس، من خلال إقامتها لحوارات مع عدد من المثقفين والمفكرين العرب، ولقاؤنا هذا يصب في هذا المنحى.

من الواضح تماماً أنه من الصعب المسارعة في إبداء الآراء والتقويمات في لحظة تاريخية رجراجة، سريعة، حاسمة ومقلبة.

إنه زمن متحلل، تبدو فيه كل فكرة قابلة للتحلل والتلاشي، زمن أثيري كل شيء قابل فيه للتبخر، ففي زمن التحلل يكثر الهرب من الواقع والزهد فيه، على حد تعبير ماركس.

(*) مجلة الحرية - محور الحرية "الفكري" - (انهيار نموذج أم انهيار خيار)، نشر على ثلاث حلقات، في ثلاثة أعداد بالتالي: ١٩٩٢/٨/٣٠، ١٩٩٢/٩/٦، ١٩٩٢/٩/١٣.

موضوع حوارنا سوف يستند إلى الممكن التاريخي الكامن لدى شعوبنا التي تبدو عزلاء من قواها المنظمة ومفكرها وصفوتها الطبيعية القادرة على إضفاء التناغم على مشروع تطلعها التاريخي نحو السيادة القومية والوطنية وحقوقها في الحرية والعدالة والكرامة والعيش الآمن من التهديدات الخارجية والداخلية.

ونقطة البدء سنحددها من خلال توصيف عملية التحلل العالمية الراهنة للنظام الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي . هل هي عملية انهيار للخيار الاشتراكية والتقدم والعدالة الاجتماعية، أم انهيار نموذج أراد أن يحقق هذه الخيارات فأخفق، أم أزمة خيار هي ثمرة انهيار نموذج؟ وقد أراد الإعلام الغربي أن يعمم انهيار النموذج على الخيار، ليحكم بإخفاق حلم الإنسان بالعدالة، فانسقنا وراء استخدام المصطلح الذي يحمل وظيفة سجالية من خلالها سيعلن الغرب انتصاره وهزيمتنا، لقد شاع الرأي الغربي عن "الانهيار" بكل ما يرافق هذا المصطلح من دلالات مأساوية تشيع مناخات من السوداوية والإحباط والقنوط والشعور الداخلي العميق بالهزيمة.

وبذلك، فنحن نستخدم لغة وخطاب وإشارات ورموز الغرب الذي أذاع مصطلح الانهيار تحت عنوان انتصاره، بدءاً من بريجنسكي الذي هلل لهذا الانتصار بنشيد "الانهيار الكبير" وصولاً لفوكوياما الذي يُقدّم بوصفه المترجم لكلمة التاريخ الأخيرة في حكمها على معنى التاريخ، الذي أغلقتة الليبرالية لتنتقل لما بعد التاريخ الذي ترك لنا مستنقعاً وأحواله.

نقول هل هي عملية انهيار حلم الإنسانية في التقدم والعدالة والحرية والانتصار على كل ما يحول دون تحقيق معناها؟ وفي هذا السياق، لن نجد للنزعة الإنسانية معنى سوى أنها مذهب طوباوي انطوى مع القرن الثالث عشر، في حين أن ما توجه هذا القرن من تطلعات وإجازات روحية وأخلاقية، يغدو اليوم الحديث عنها وكأنه حديث في الأخلاقيات والوجدانيات ومجال عالم المشاعر الإنسانية التي غدت موضوعاً للشعر والفن، والذي غدا بدوره نوعاً من النوستالجيا المتعطشة للمعنى في عالم يتلاشى معناه في (براكسيس) عملياتي ذرائعي مضاد في كل خطوة يخطوها لبراكسيس ماركس الذي لا يكتفي بالتفسير بل يطرح التغيير المترع بقيم عصر النهضة ومن ثم التنوير فالثورة، ليغدو عنوانه (براكسيس) بلا ضمير تحت قناع من العلموية الحسائية الرقمية الاقتصادية المتبدلة يُرسم الرأسمالية بوصفها نهاية التاريخ .

هل انهار المعنى أمام هذا الزحف المريع لعالم الأشياء، أم أن ثمة أطروحة تقوضت بعد أن أظهرت عجزها عن تبرير نفسها في واقع راح يطور أطروحته المضادة دون أن تتمكن الأطروحة الأولى من التفتح عن تركيب نوعي جديد؟ هكذا يريد الغرب أن يقول لنا عبر الجدل الهيكلية الذي يوظفه فوكوياما إذ يفترض أن هناك أطروحتين: الليبرالية المنتصرة والاشتراكية المنهارة، وعلى هذا فهو يغلق التاريخ أمام خيارات أخرى، انطلاقاً من معطيات الوضع الراهن بوصفه وضعاً أنطولوجياً يكتف بخبرة البشرية التي لم

تتمكن من إبداع خيار آخر خارج الليبرالية، وعلى هذا فإن الرأسمالية كانت تملك الخيارات التي تتجاوز بها أزماتها، بينما الاشتراكية يُحكم عليها من خلال نموذجها التطبيقي الأول بعجزها عن إنتاج أطروحة مضادة تنبثق من نسقها ذاته المعبر عن سيرورتها الداخلية والقادر على إنتاج تركيب نوعي جديد هو ثمرة الجدل الداخلي للاشتراكية ذاتها على طريق النفي المتجاوز للراكذ المأزوم بها. وفي هذا السياق، ينهض سؤال، إذا كنا سنتفق على أن الانهيار هو نموذج ممارسة خاصة للاشتراكية بينما الخيار الاشتراكي لا يمكن أن ينهار. بل هو يعيش في أزمة المأزق الذي خلفه انهيار النموذج.

فإن السؤال يطرح على النموذج ذاته الذي انهيار من خلال تقابله مع النموذج المضاد للمطروح اليوم، هل ما حدث ويحدث كافٍ للحكم على استنفاد النموذج السابق لكل الممكنات القادرة على بعث قوى قادرة على تخطيه عن طريق تجاوزه وصياغة وعي جديد نقدي للتجربة السابقة دون الانقلاب اليميني عليها كما يظهر اليوم على السطح؟ هل قال الشعب السوفييتي كلمته الأخيرة وهو يبدو كمراقب متفرج لم ينخرط حتى هذه اللحظة في الفعل السياسي، الذي يعاني من غياب عشرات السنين كانت فيها السياسة فعلاً جهازياً دولتياً؟

لا بد من الوقفة التأملة القادرة على فصل نفسها عن حالة الذعر والهلع التي تثيرها الطبول الإعلامية للغرب المهلل

لانتصاراته تحت عناوين انتصار الليبرالية وانتصار العالم الحر، انتصار قوة الرأسمالية المتجددة التي ستنتهي الصراع الاجتماعي باسم صراع الحضارات وسقوط الأيديولوجيات باسم انتصار النزعة العلمية الوضعانية .

إن التهليل لسقوط الأيديولوجيات يقودنا إلى سؤال أساسي ومركزي: هل ما سقط مثلاً هو الأيديولوجيات أم أن أيديولوجية واحدة تنتصر اليوم، وهي أيديولوجية القوى الاحتكارية التي تعولم العالم معبرة عن نفسها اليوم بأشد أشكال الطموح الأيديولوجي شراهة وإصراراً على ابتلاع العالم؟ حيث يبدو حلم الاسكندر الأكبر أو يوليوس قيصر وكل العقائد الأيديولوجية القديمة التي طمحت لتوحيد العالم عبر إخضاعه ليست إلا طرفاً فانتازية من طرف العالم القديم أمام الفظاظة البربرية التحديثية لما تقترحه الولايات المتحدة على العالم من نظام عالمي جديد؟

إن القول بسقوط الأيديولوجيات والحماس الثقافي المنبهر بهذا القول في المشهد الثقافي والسياسي العربي، عبّر في أحيان كثيرة عن توق دفين لدى الكثيرين من السياسيين والمثقفين لاهتبال الفرصة في إعلان التوبة والبراءة تحت عنوان المراجعة وإعادة النظر .

فكثّر الحديث (العقلاني) بمعناه اليميني الذي يرى أن العقلانية ليست إلا معقولة الواقع فيما هو عليه، ومن ثم الإذعان لهذا الواقع الذي تصنعه أنظمة تابعة حتى العظم . وراحت التنظيرات

تتري متحدثة عن ضرورة إشباع المراحل . فالمرحلة الرأسمالية عربياً لم تشبع ، وعلى هذا فلا حل لمشكلة التبعية سوى تحسين شروطها . لأن التبعية ضرورة تفرضها قسمة العمل الدولية ، حيث لا مناص من الاندراج في قانونياتها الموضوعية . وكل خيار خارج ذلك يعتبر أحلاماً أيديولوجية ونزعات أخلاقية .

وهذه القراءة الوضعية العلموية (الواقعية) ترى أن علينا أن ننتظر دورنا في سلم أولويات الاهتمام الرأسمالي الدولي وشركاته الاحتكارية ليتفضل علينا فرصة إيلاجنا في مشاريعه الاستثمارية لتحقيق عملية التنمية ، بعد أن ظهرت كل الأنظمة -المسماة وطنية القائمة بعد الاستقلال- بوصفها أنظمة فاشلة .

وعلى هذا ، فإن المثقف الوطني التنويري الديموقراطي غدت مهمته اليوم ، وفي ظل النظام العالمي الجديد ، أن يندرج في مشروع الحدائة والتحديث الأميركي . والحدائة الأميركية تترجم عربياً اليوم في صياغة معادلة جديدة عنوانها ترسيم النظام العربي التابع ضد الأصولية التي تبدو اليوم العزاء الجماهيري الوحيد لمرارات التاريخ والحاضر . وذلك بعد أن كانت هذه الأصولية الحربة الغربية في محاربة الشيوعية ، وأي نزوع للتحرر والتقدم والسيادة الوطنية والقومية ، بينما تتبدى اليوم بوصفها القوة الوحيدة المناهضة للنظام العربي التابع . وعلى هذا فلا بد من استقطاب المثقفين ، يساريين كانوا أم يمينيين ، في جبهة النظام العربي المستبد والتابع ما دام المثقف اليساري لم يعد يمتلك عمقاً استراتيجياً بعد عملية انهيار

النموذج الاشتراكي الدولتاني السوفييتي ، وعلى هذا فليس ثمة
مناص عبر خيار ثالث !

حديثنا سيبدأ في تناول عوامل الأزمة ومظاهرها وأشكالها،
والعناصر المنهارة في منظومة الخيار الاشتراكي، والتي أدت إلى
انهيار النموذج التطبيقي أو النظري ، ثم ماذا بقي من هذا الخيار
ليكون قادراً على تجاوز الأزمة. هل أزمة الخيار الاشتراكي اليوم،
التي أدت إلى انهيار النموذج، تعود إلى نموذج الدولة الستالينية أم
أنها تعود إلى ثورة أكتوبر ذاتها؟ أي هل تمثل الستالينية انقلاباً على
أسس ثورة أكتوبر والنهج اللينيني، أم أنها استمرار لهذه الأسس
والنهج؟ .

وهل الأزمة، أزمة النظرية ذاتها، أم في إنتاجها وإعادة
إنتاجها في الوعي الروسي الخاص، بالنظرية مطبقة في الواقع ،
أي بتعبير ياسين الحافظ، النموذج الاشتراكي "المسفيت" ؟

فإذا كانت الأزمة تطال النظرية والتطبيق معاً، فلا شك أننا
تجاه عملية انهيار كبير تستدعي فتح التساؤلات إلى ما بعد التطبيق
والنظرية معاً! وإذا كانت الأزمة تتجلى في شكل وعي النظرية
وتملكها معرفياً ، الأمر الذي من شأنه أن أدى - بالضرورة - إلى
انهيار النموذج التطبيقي، عند ذلك، فإن الحوار والمراجعة
سيتحركان في إطار النظرية ذاتها، ولأن الأمر يبدو كذلك حتى
الآن، فحوارنا سيبدأ.

ما بقي صحيحاً من النظرية وما يستوجب المراجعة

د. خضر زكريا: أرى بأن نبدأ الحديث عن ما الذي انهار، هل انهارت الماركسية كفكر، كعقيدة، كفلسفة، كنظرية في المجتمع والسياسة. . إلخ أم أن الذي انهار هو نموذج تطبيقي له؟

دعني أضع فرضية للمناقشة، أو موضوعاً للمناقشة، إذا عدنا للتقسيم الكلاسيكي للماركسية بأنها فلسفة تتضمن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية واقتصاداً سياسياً، وما يُسمى بالشيوعية العلمية؛ فأنا أعتقد بأن الذي انهار ربما هو الجزء الثالث والأخير، أي علم السياسة الماركسي. أما الفلسفة المادية الديالكتيكية، وقوانين الجدل والتناقض كدعم قوانين للطبيعة والمجتمع والفكر، الديالكتيك كمنهج، كطريقة في التفكير، فأعتقد أنه لم يتأثر إطلاقاً، فهو ما زال يحافظ على زخمه العلمي وحقيقته.

المادية التاريخية كنظرية في فهم التاريخ، تتمثل في فهم العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي، القول بأن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد في نهاية المطاف الوعي الاجتماعي، العلاقة بين ما يُسمى بالقاعدة الاقتصادية والبناء الفوقي للمجتمع، مسألة التناقض والملاءمة بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وحركة المجتمع نتيجة لذلك، نظرية الطبقات والصراع الطبقي، هذا كله، إذا تحدثنا عن الماركسية في الأساس،

كيف فهم ماركس هذه المسائل، أعتقد أنها لا تزال هي النظرية العلمية في المجتمع، والذي جرى لم يؤثر على هذا الجانب. الاقتصاد السياسي الماركسي، أي نظرية القيمة وفضل القيمة، تحليل ماركس للرأسمالية كنظام اقتصادي قائم على الاستغلال وتحديد مصادر هذا الاستغلال، ثم تحليل الإمبريالية حسب مراحل الرأسمالية وما جرته الإمبريالية على العالم، ومسألة التبعية ونظام التبعية الذي نشأ، والعلاقة بين النظام المهيمن والمهيمن عليه (التابع)، هذا يؤكد التاريخ كل يوم، وطبيعة الرأسمالية كما حددها ماركس تتضح أكثر فأكثر في الجزء الثالث الذي هو عبارة عن الاستنتاجات، بما فيها استنتاجات أنجلز وماركس، واستنتاجات لينين وتطبيقاته (هذا الجزء الذي سمي بالشيوعية العلمية أو الاشتراكية العلمية)، أي نظرية الثورة الاشتراكية والدولة الاشتراكية. مسألة ديكتاتورية البروليتاريا، باختصار شكل التنظيم السياسي للمجتمع الاشتراكي، أعتقد أن هذا هو الذي تبين أنه لم يكن صحيحاً، ليس فقط في التطبيق بل حتى في النظرية بالأساس، وهذا ما أدعو إلى مناقشته بشكل خاص. ما هي الثورة الاشتراكية؟ شكل الدولة؟ نظام ديكتاتورية البروليتاريا وما يُسمى بنظام الحزب الواحد، والعلاقة بين نظام الحزب الواحد والتعددية، ثم ما جاء في ما بعد من تحديد التناقض الأساسي في العصر وسمة العصر وما شابه، أعتقد أن هذا كله بحاجة لإعادة نظر جذرية. وهذا ما أرى بأن يكون موضع نقاشنا التالي.

الفهم الاقتصادي للماركسية

د. حامد خليل: خاضت الرأسمالية حربين عالميتين، ثم جددت نفسها، واستمرت إلى اليوم. أما الاشتراكية، فهذه أول مرة تواجه أزمة، ولذا فإن القول بأنها انهارت لا يخلو من المبالغة وقلة التدقيق. الاشتراكية تمر بمحنة، ولذا لا بد من التساؤل عن الأسباب. وفي تقديري، فإن السبب الأول إنما هو فهم معين للماركسية يمكن تحديده بالقول إنه فهم اقتصادي.

السبب الثاني للأزمة هو التطبيق على أساس هذا الفهم وطبعاً فإن هذا التطبيق أدى إلى الابتعاد عن روح الماركسية.

السبب الثالث له علاقة بالنظرية. إن أهمية الماركسية التي جاءت لتغيير العالم تكمن في ربطها للفكرة بشروط تحققها. فالفلسفات السابقة، تتحدث عن الفكرة بإطلاق، لكنها لم تقرن الفكرة بشروط تحققها، تتحدث عن العدالة، وحين مورست هذه الأفكار ونقلت إلى حيز التطبيق على يد البرجوازية، فهمها كل منهم حسب هواه. فمثلاً قضية الحرية تحولت في النهاية، حين الممارسة، إلى حرية أن تبيع وتشتري ما تشاء.

تفوقت الماركسية على الفلسفات الأخرى بأنها حين وضعت الفكرة وربطتها بشروط تحققها المادية والاجتماعية.

هذه النقطة لم تُراع بدقة كافية على الصعيد النظري، وبشكل خاص في قضية التنظيم الثوري. فقضية التنظيم الثوري الذي

أرسى قواعده لينين، لم يراع شروط تحقق الفكرة المادية الاجتماعية. أعني أن الصيغة التي قدمها لينين في التنظيم الثوري والتي تقوم في الأساس على المركزية الديمقراطية لم يضع لها القواعد النظرية أو الشروط المادية والاجتماعية التي تحول دون تحول المركزية الديمقراطية إلى ديكتاتورية القيادة؛ وبالتالي، فحين طبقت الفكرة أو حين انتقلت إلى حيز الوجود، بسبب هذا النقص النظري، كانت المحصلة أن حصل ما حصل وأن المركزية الديمقراطية تحولت إلى ديكتاتورية القيادة. وأدى هذا إلى حد كبير إلى المحنة التي تمر بها الاشتراكية. فالأزمة لا تطل جانب علم السياسة الماركسي، كما يرى الدكتور خضر، بل هي تطل فهم الماركسية ذاتها الذي على أساسه حدث ما حدث.

د. عبد الرزاق عيد: إذن فالأزمة أزمة وعي بالنظرية، حسب

رأيك؟

د. حامد خليل: نعم، هي أزمة وعي بالنظرية، ثم أزمة في التطبيق، ثم أزمة في فكرة التنظيم الثوري التي كانت تتخللها ثغرات نظرية.

ملاحح وسمات العصر

د. أحمد برقايوي: اسمحوا لي أن أبدأ من نقطة بعيدة بعض الشيء عن أزمة الماركسية، إن صح التعبير. لقد بذل عدد كبير من المفكرين جهداً لتحديد ملاحح عصرنا وهو عصر القرن العشرين. وبرزت عدة نظريات لفهم هذا العالم.

طبعاً، المفكرون في الدول الاشتراكية انطلقوا من أطروحة يقينية. فمن وجهة نظرهم أن عالمنا هو عالم الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وبالتالي فإن سمة العصر هي هذه العملية (عملية الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية). وهذا، بالحقيقة، نقع عليه في كل كتاب صدر في الاتحاد السوفيتي أو أي دولة اشتراكية أو لأي مفكر ماركسي. بل وحتى في كل الأدبيات الماركسية، حيث تتفق حول فكرة أن سمة العصر تكمن في الانتقال للاشتراكية. وقد ظهرت في الغرب نظريات أخرى منها نظرية العالم الفرنسي السوسيولوجي "ريمون آرون" التي هي نظرية المجتمع الصناعي، حيث إن المجتمع الاشتراكي والمجتمع الرأسمالي كلاهما يسير جنباً إلى جنب في تطورهما الصناعي. وبالتالي سيصلان في مرحلة من المراحل إلى نوع من التشابه، وستكون التقنية هي العامل الأهم في تحديد ملامح هذين النظامين، وبالتالي يزول التناقض بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، واستمراراً لهذه الفكرة طرح بريجنسكي نظرية المجتمع الصناعي أيضاً، ولكنه كان يميز بين مستويات المجتمع الصناعي، واعتبر أن الثورة الآن هي الثورة الألكترونية التي تحدد ملامح العصر، ولم يخطر على بال ريمون آرون، ولا على بال بريجنسكي في كتابه "أمريكا بين عصرين"، إنه سيجري ما جرى في الاتحاد السوفيتي، كلاهما كان ينطلق من أن هذا النظام قائم وسيستمر مع الرأسمالية في تقدم التكنولوجيا.

وأخيراً، طبعاً، جاءت النظرية حول نهاية التاريخ، وهي طروحات فوكوياما المستمدة من هيجل الذي يعتقد أن الديمقراطية هي نهاية التاريخ، وأن المجتمعات الأوروبية، بشكل عام، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية، قد وصلت إلى نهاية مرحلة التاريخ. وأما المجتمعات الغربية فهي على أعتاب دخول مرحلة ما بعد التاريخ إذا ما تحققت فيها الديمقراطية. أما العالم الثالث، فعلى الولايات المتحدة الأمريكية أن تنقذه من أوحال التاريخ الذي هو في معنى من المعاني، غارق فيها بالنسبة لفوكوياما، على اعتبار أن التاريخ هو مجال التناقضات الطبقيّة والعرقية والاجتماعية. . إلخ. وبالتالي على الولايات المتحدة أن تقود العالم نحو (الديموقراطية). أمام هذه الأشكال المختلفة من تحديد ملامح العصور، نساءل فعلاً في أي عصر نحن نعيش؟ وفي هذه المرحلة بالذات نشهد انهيار الكتلة الاشتراكية، نعم انهيار وليست أزمة في عالم الاشتراكية. . لماذا؟

لأن الحركات التي ظهرت في الدول الاشتراكية، لم تنطلق من أنها تعيش أزمة، وبالتالي تريد أن تخرج من هذه الأزمة وفق الطريق الاشتراكي، بل هي تطرح أن الاشتراكية كنظام ليست مطابقة للحياة، أو ليست قادرة على تطويرها وبالتالي هناك طرح لاقتصاد السوق الرأسمالي والعودة إلى الرأسمالية، وهذا ما يطرح في الاتحاد السوفييتي (سابقاً). وما يطرح في الدول الاشتراكية (السابقة) إلى أي حد هم قادرون على تحقيق انتقال هذه الدول

التي قطعت شوطاً كبيراً في بناء التجربة الاشتراكية إلى الرأسمالية؟ هذا موضوع آخر، لكن البيروسترويكا السوفيتية وضعت العالم على عتبة جديدة من التطور فعلاً، حيث انهيار هذا النظام الاشتراكي أدى إلى بروز الرأسمالية تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ زمن والولايات المتحدة الأمريكية قائدة للرأسمالية، وليست قيادة جديدة بالمناسبة.

هنا تغير الوضع بالنسبة للعالم الثالث أيضاً الذي كان مجال صراع قبل البيروسترويكا ما بين الرأسمالية والاشتراكية، حين غاب الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية، غاب النموذج الاشتراكي وبالتالي أصبح العالم الثالث كله نهباً للرأسمالية العالمية أو الإمبريالية؛ وبالتالي، نستطيع أن نقول إننا نعيش عصر ذروة انتصار الإمبريالية على الرغم من الأزمات التي تحدث هنا وهناك، ولكن السؤال يا ترى هل يمكن التسليم بأن هذا الانتصار هو انتصار نهائي وبالتالي إغلاق التاريخ أمام أي نزوعات بشرية في العالم الثالث أو حتى داخل الدول الرأسمالية، لتغيير هذا النظام؟ إذا أريد من كلمة انهيار إعطاء معنى إغلاق التاريخ على الرأسمالية فهذا أيضاً ليس مبنياً على التحليل التاريخي، لأن التناقضات داخل المجتمعات الرأسمالية والتناقضات بين الرأسمالية العالمية وبين مجتمعات العالم الثالث نفسه ستظل قائمة، وسيفكر العالم في النهاية في التخلص من الكثير من المشكلات التي يعاني منها. بالنسبة للدول الرأسمالية أيضاً، فهي أيضاً تعاني مشكلات العالم الثالث، حيث يجب أن

يفكر في مصيره في إطار هذه الهيمنة الرأسمالية على العالم، على أي نحو يفكر . . لا أدري، هو الآن يعيش أزمة خانقة، لكنني لا أستطيع أن أتصور أن عالماً كبيراً يعد بالمليارات لا يستطيع في النهاية أن يفكر بمصيره. أمام هذه الهيمنة، وهذا الاستغلال الشنيع الذي تقوم به الرأسمالية وعلى رأسها الولايات المتحدة، يطرح السؤال على الماركسية، هل انهارت الماركسية أم أنها لم تنهار، الحقيقة، أنا أميز بين ماركس وبين الماركسية.

الماركسية، في النهاية، أيديولوجيا، شئنا ذلك أم أبينا، وهذه ليست نقطة مطعن، فالبشر تحركهم الأيديولوجيات بما فيهم من ينكر الأيديولوجيا ويقول إن عصرها قد ولى، فهو غير قادر على منع البشر من التفكير بمصالحهم وبمشاريعهم، لكن الماركسية أيديولوجيا تطورت بعد ماركس.

نتحدث عن لينين، نتحدث عن ستالين، نتحدث عن جرامشي، نتحدث عن ماوتسي تونج. إذن هناك أشكال كثيرة في تطور فكر ماركس هذا ما أطلق عليه اسم الماركسية هل انهارت الماركسية أم لم تنهار؟ سؤال قد لا يكون دقيقاً لماذا؟ لأن الأفكار التي طرحها ماركس في النهاية، بنت عصرها، ولا يمكن أن تكون أفكار ماركس لكل العصور وإلا صادرتنا علمية الماركسية. إن كل مفكر عظيم يقدم تصوّره لجملة من المشكلات التي تؤرق البشرية، ماركس هو أحد هؤلاء المفكرين العظام، أشار د. خضر زكريا إلى قضية مهمة وهي ماركس كمنهج في التفكير لتحديد الملامح القانونية للعصر.

هذا الشيء مهم جداً، فيا ترى هل نتعامل نحن الآن مع أشكال الماركسيات المختلفة تعاملنا كما في الماضي، وذلك بعد انهيار التجربة الاشتراكية؟

فعلاً، نحن بحاجة إلى وقفة خاصة أمام هذه الماركسية، روسيا هذه التي طبقت الاشتراكية عاشت مراحل تاريخية خاصة، ليست متشابهة مع حالات أخرى، وبالتالي، كان لا بد أن تطبع أفكار ماركس عن طريق لينين وتروتسكي وبوخارين وستالين وبريجينيف في النهاية . . وآخرين. أن تنطبع بهذا الطابع التاريخي لتطور روسيا والاتحاد السوفييتي. قامت الدولة البرجوازية عام ١٩١٧ واستمرت شهوراً، ومن ثم ومباشرة انتقلت إلى الاشتراكية، ورثت هذه الثورة الاشتراكية كل مشكلات المجتمع الإقطاعي الذي ولدت فيه الرأسمالية في عصر القيصر، وكان عليها أن تنجز بأن واحد ما أنجزته الثورة البرجوازية في الغرب، وأن تطبق وتنجز ثورة اشتراكية، ولهذا أخذت الدولة مهمة تطوير المجتمع خارج عمليات التطور الطبيعي للرأسمالية في المجتمعات الغربية، فنحن لا نستطيع أن نقارن بين الإنجازات التي حققتها الرأسمالية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، والإنجازات التي تحققت في روسيا حتى بعد ثورة أكتوبر، فإن أمامنا جملة من المشكلات الكبيرة، وهذا ما خلق غمط الحكم الذي - برأيي أنا - هو استمرار لهيمنة الدولة القيصرية وليس غريباً أن سمي أحدهم الاتحاد السوفييتي "بالإمبراطورية السوفييتية الحمراء"، كنوع من

التواصل مع الإمبراطورية الروسية التي كانت تضم تلك المستعمرات. حتى في الاتحاد السوفييتي تبقى مستعمرات جرى ضمها إلى هذه الدولة وهذه المستعمرات كانت في مرحلة وطيئة من التقدم، وبالتالي كم من جهد ووقت وأموال . . إلخ، بذلت لتطوير هذا العالم المترامي والذي اسمه الإمبراطورية الروسية، وبالتالي أيضاً هناك فكرة أخرى، يجب أن نميز بين الأفكار وبين تحقيقها الواقعي. من بداية وعي الإنسان لعالمه ولمصلحه، طرح أفكاراً كثيرة، فمن أجل أن تتحقق الرأسمالية البرجوازية ذاتها كان لا بد لها من تحديد ماهية أفكارها؟ الإخاء، المحبة، المساواة، الحرية، العدالة. تلك هي أفكار الثورة البرجوازية الفرنسية، لكن ما هو مصير هذه الشعارات في النهاية، إنه مزيد من الاستغلال، مزيد من البؤس، مزيد من العذاب الذي مرت به الرأسمالية، هل ننسى المقاصل والمجازر والتشريد، ونسى العمل من ١٢ إلى ١٤ ساعة. ونحن ننظر الآن إلى الرأسمالية في نهاية القرن العشرين بعد أن مرت بتاريخ تطور طويل. مع الأسف، بمجرد أن وجدت أزمة في الاتحاد السوفييتي؛ أقيمت الدنيا ولم تقعد، يبدو أن هذا له خصوصية لا أستطيع أن أفسرها فوراً. الروس كشعب يطرح مشكلاته على نحو صارخ جداً، وكأنه أظهر أمام الآخر أن الاشتراكية ليست سوى مظهر من مظاهر اليوتوبيا التي لا يمكن أن تتحقق في الواقع، لكن الاشتراكية كنزوع عند البشر من أجل تحقيق العدالة طالما هناك غياب للعدالة لا يمكن أن يلغى، إن كانت الماركسية أو لم تكن الماركسية.

د. عبد الرزاق عيد: من المفيد عدم الإطالة، لتتيح للأفكار أن تتواصل فتتقاطع فتتصادم، ولا بأس من القيام بمقاطع مباشرة لإغناء الحوار واكتسابه حيوية وحرارة.

مشكلة الدولة المركزية

د. خضر زكريا: هل من الممكن أن أعقب: أعتقد أن هناك أشياء قمنا بالقفز فوقها سواء الدكتور أحمد والدكتور حامد، وربما أنا، عندنا الآن مشكلة يجب أن نتجنبها، وهي أنه بناءً على الفكر الماركسي، أقيمت دول، وهذه الدول نظمت نفسها بطريقة مختلفة ونشأت أحزاب شيوعية وأحزاب ماركسية من جنسيات مختلفة. وكلها دعت إلى إنشاء نظام سياسي مشابه. جوهر القضية يكمن في فكرة المركزية الديمقراطية التي أشار إليها د. حامد والتنظيم الثوري والحزب الذي يقود الجماهير، كل ذلك أدى إلى إنشاء دولة شديدة المركزية وتحولت إلى ديكتاتورية في الواقع، ديكتاتورية الحزب ثم ديكتاتورية الأمين العام في كثير من الأحيان، وهذا لم يحصل في روسيا وحدها، حتى نفسها كما فسرنا د. أحمد برقواوي بأن روسيا بالأساس مستعمرة. لا فهذا حصل في كل مكان، مثلاً في الصين، وفي كوبا، في كوريا الشمالية وفي كل بلد تبنى الماركسية، أو الذي قال ببناء المجتمع الاشتراكي وسيسير في اتجاه المجتمع السوفيتي.

د. عبد الرزاق عيد: يمكن القول في كل الأحوال إن مجموع

هذه التجارب قد حاكت النموذج السوفييتي، فهي بمجموعها تعتمد على حامل اجتماعي متشابه، من حيث منسوب مستوى التطور الاجتماعي والبنية المادية الاقتصادية والتقنية ومن ثم درجة التطور التاريخي للشعوب التي احتذت النموذج السوفييتي الذي لم يكن مختلفاً نوعياً عن مستوى المجتمع الروسي ومستوى التجارب الأخرى إن لم نشر إلى الخواص الشرقية وعمقها التاريخي في التأكيد على التقارب بين نموذجين للتفكير والممارسة (روسيا والصين) مثلاً.

د. خضر زكريا: اسمحوا لي أن أقول إن هذه النقطة هي التي أراها مركزية في حوارنا الآن، وبناء على طلب د. حامد، أركز على بعض النقاط.

الصين مثلاً. أتذكر كتاب ماوتسي تونج "الديكتاتورية الديمقراطية الشعبية". ماوتسي تونج أراد أن يطرح نموذجاً مختلفاً عن النموذج السوفييتي لشيء أسماه ليس ديكتاتورية البروليتاريا، بل ديكتاتورية ديمقراطية شعبية. لكن بالنتيجة وصل إلى بناء الشخصية الفردية المشخصة، تماماً مثل ستالين وبريجينيف. ويبدو لي أن المشكلة في نظرية الدولة نفسها، في فكرة أن هناك طبقة (والطبقة يمثلها حزب) يجب أن تمارس ديكتاتوريتها، وبالتالي الحزب يجب أن يمارس ديكتاتوريته.

مرة قلت إن قضية ديكتاتورية البروليتاريا فهمت خطأ، وأن ديكتاتورية البروليتاريا لا تعني بالضرورة حكم الحزب الواحد، لأن

وعى البروليتاريا لمصالحها متفاوت في مراحل مختلفة وفي أماكن مختلفة، وبالتالي يمكن أن يعبر عن مصلحة البروليتاريا أكثر من حزب. ولذلك، يمكن أن تكون هناك تعددية في إطار ديكتاتورية البروليتاريا. ولكن يبدو أن هذا لم يكن ممكناً في الواقع التاريخي، بدليل أن التجارب كلها وصلت إلى النتيجة نفسها.

د. عبد الرزاق عبيد: اسمح لي بوقفه عند هذه النقطة بالذات. فهذه الموضوعية يتم تداولها على نطاق واسع في الحوارات الراهنة.

فهناك القول بأن اللينينية تمثل المعادل الصحيح لفهم جوهر الماركسية، بينما لحظة الانكسار بدأت مع الستالينية، والقمع المعمم الذي أشاعته على مستوى الحزب والمجتمع. حيث يشار في هذا السياق إلى أن اللينينية لم ترَ في ديكتاتورية البروليتاريا إلا أداة ليس لتحطيم الطبقات الأخرى من أجل تكريس طبقتها، بل هي أداة لتقويض المجتمع الطبقي ذاته، ولهذا فقد أُنيط بها دور إنجاز مرحلة الانتقال إلى المجتمع اللاتبقي ومجتمع اللادولة. حيث كان يؤكد لينين على أن البروليتاريا تمارس ديكتاتوريتها الديمقراطية في سبيل التقويض التدريجي لجهاز الدولة وبنائها البيروقراطية في سبيل زوالها النهائي في مرحلة المجتمع الشيوعي. ولهذا كان يرفق استخدامه لمصطلح ديكتاتورية البروليتاريا بصفة الديمقراطية. ومن هنا رفض لينين القاطع أي حديث عن ثقافة بروليتارية وأدب وفن بروليتاري. لأن البروليتاريا لا تهدف، إلى صياغة منظومة وعي

ثقافي طبقية، بل هي حامل تاريخي لتحرير المجتمع من طبقته. وعلى هذا، فهي حامل الثقافة اللاتطبيقية، أي الثقافة الإنسانية. وفي هذا السياق، يُشار إلى أن الستالينية مثلت فهماً هيجلياً لمعنى الطبقة، الدولة بوصفها ذروة التاريخ، عندما حل الحزب محل البروليتاريا وقيادة الحزب محل الحزب، وأمانته العامة محل القيادة المركزية، حيث تشكلت وثنية سلطوية شاملة، قل نظيرها، في شكل إطباق الدولة على المجتمع.

لكن مع تقدم الأزمة، وأنا أميل لاعتبارها أزمة وليست انهياراً حتى الآن، ذهبت الأطروحات موعلة في شعورها المتأثم، لتعتبر أن الستالينية ليست إلا امتداداً موضوعياً وعضوياً للينينية، ولا شك أن هذا الشعور يستند إلى الرضوض النفسية الموضوعية أكثر مما يستند إلى موضوعية التاريخ في ظرف عالمي لا يفتأ الإعلام الغربي الرأسمالي فيه عن قرع طبول الانتصار النهائي.

بين ديكتاتورية البروليتاريا والتعددية

د. خضر زكريا: أود أن نبقي في المشكلة التي حاولنا أن نحددها بمشكلة الدولة الاشتراكية، التنظيم السياسي للمجتمع الاشتراكي. بدون شك، سواء كان ماركس أو لينين، فإن الاثنين نظرا إلى قضية ديكتاتورية البروليتاريا على أنها مرحلة وأنها شكل من أشكال الديمقراطية التي تتيح للجماهير أن تعبر عن نفسها، وبالتالي يتم إلغاؤها بالنتيجة. لكن كون هذا لم يتحقق في الواقع

في أي مكان في الدنيا، حاول أن يقيم نظاماً اشتراكياً، يدعونا للتساؤل عن أصل الفكرة، وأنا أَلح على أننا، نحن المفكرين الماركسيين مطالبون بالتركيز على هذه النقطة. هل شكل التنظيم السياسي للمجتمع القائم على ديكتاتورية البروليتاريا ما زال مطروحاً، وما زال ممكناً؟ أو لنطرح السؤال بشكل آخر: هل يمكن إقامة نظام اشتراكي أو نظام يلغي، أو يخفف كثيراً من التفاوتات الطبقيّة. . إلخ. تمهيداً للوصول إلى مجتمع يحقق عدالة اجتماعية حقيقية، كما أرادها ماركس وكما أرادها الاشتراكيون؟ هل يمكن تحقيق هذا المجتمع عن طريق تعدد الأحزاب، عن طريق الليبرالية السياسية؟ هذا هو السؤال ونحن يجب أن نقر أن المجتمع الاشتراكي أو النموذج الذي طبق الماركسية فشل في تحقيق ديموقراطية للشعب عن طريق ما سُمى ديكتاتورية البروليتاريا.

د. عبد الرزاق عيّد: يمكنني القول إن مفهوم الهيمنة الذي حكى عنه ماركس تحول إلى مفهوم السيطرة، لأن مفهوم الهيمنة يعني أن طبقة اجتماعية تعبر عن مصالح مجتمع بأكليته، فتمارس هيمنة تاريخية موضوعية ومشروعة، في حين أن مفهوم السيطرة يحيل إلى طبقة تتحكم بالمجتمع عبر اختزال هذه الطبقة في صورة حزب واحد يرتكز إلى جهاز بيروقراطي غامض، يتحكم في مفاصل الدولة ليختزلها إلى سلطة الطغم.

د. أحمد برقايوي: هذا ما قاده إلى أن يكون حكماً بوليسياً، بالمناسبة، قبل ثورة أكتوبر؛ جرى نقاش بين لينين وروزا

لوكسمبورج حول هذه القضية، وقالت روزا لوكسمبورج للينين: إنك في هذا الحزب والتنظيم الصارم والبطيحي الذي تحكمه نخبة لا يمكن إلا أن تنشئ حزباً بوليسياً. وبالمناسبة أيضاً ما جرى بعد لينين ليس نكوصاً عن اللينينية، هو استمرار للينين. لينين بعد ثورة أكتوبر أحس أنه لا بد من الانتخابات في روسيا بعد الثورة، فرسب الحزب اللينيني في هذه الانتخابات، وقد أخذ ١٧ مقعداً والأحزاب الأخرى أخذت ١٨ مقعداً. عندها ألغى الانتخابات، وقال لا يجوز الآن وفي هذه المرحلة من تاريخ روسيا أن تجري انتخابات.

د. عبد الرزاق عيد: أتساءل عن صحة هذه الواقعة.

د. برقايوي: هذه حادثة مشهورة بعد الثورة مباشرة، وبعدها مباشرة، بدأت اللينينية، بمعنى من المعاني، واستمرت الستالينية كاستمرار للينينية وليس كنقيض لها.

لينين وستالين

د. عبد الرزاق عيد: ما معنى إذن، حجب الرسائل الأخيرة؟ ما معنى الهيمنة التي مارسها ستالين على الحزب خلال فترة مرض لينين؟

د. أحمد برقايوي: هناك نظرية الدولة في الماركسية. بالمناسبة، ماركس وأنجلز لم يتحدثا كثيراً عن نظرية الدولة، وكان ماركس قبل أن يموت قد قرر أن يكتب كتاباً حول نظرية الدولة،

ومات قبل أن يكتب هذا الكتاب . وهناك طبعاً كتاب أنجلز " أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة " . لينين عندما كتب كتاب " الدولة والثورة " لخص فيه أهم مقولات ماركس حول هذه القضية وأضاف من عنده ما يُسمَّى بكيفية تطور المجتمع الاشتراكي من دولة البيروليتاريا إلى اضمحلال الدولة ، على أساس أن الاشتراكية في النهاية تسود بزوال الطبقات وزوال الدولة ، السيرورة الثانية دلت على أنه بدلاً من أن تضعف مركزية الدولة شيئاً فشيئاً لقاء أشكال مختلفة من المؤسسات التي تقود نفسها بنفسها ، بالعكس تصلبت الدولة . لماذا؟ هل هذا ناتج عن صلب نظرية الدولة في الماركسية أو من صلب التجربة الروسية في الدولة؟

د. عبد الرزاق عيد: هذه الموضوعة مرتبطة بسياق التجربة واضطرار لينين إلى الانكفاء والتكور على الذات في حدود التجربة الروسية وذلك بعد إخفاق الثورة الألمانية . أريد أن نتحاور حول التساؤلات المثارة بشأن التراجع عن موضوعة الثورة العالمية ، وبداية تأكيده على إمكانية بناء الاشتراكية في بلد واحد .

د. أحمد برقراوي: د. خضر . . أنت عندما تقول إن كل البلدان الاشتراكية شهدت النتيجة نفسها ، فذلك لأن كل البلدان الاشتراكية جرى فيها ما جرى في النموذج الأول؛ أي تطبيق النموذج السوفيتي للدولة ، والصين هي دولة متخلفة أيضاً ، وعمم بها النموذج السوفيتي ، والبلدان التي احتلها الجيش الأحمر أقام فيها هذا الدول .

د. خضر زكريا: هل يعني ذلك أنه في الدول المتخلفة، تستحيل التعددية الديمقراطية وتعتبر غير مناسبة، ولا يمكن بناء اشتراكية على أساس التعددية؟

د. حامد خليل: الكلام موجه إلى الدكتور أحمد براقوي. فهتمت من كلامك أن الأمر متروك للشروط الموضوعية، وأية محاولة للوقوف بوجهها إنما هي الوقوف بوجه التيار. وبالتالي ستقود إلى فشل، سأعود إلى الموضوع الذي بدأنا به لأنني مهتم بمسألة الوقفة عند التعددية والتحليل لموضوعة الانهيار والأزمة، كما بدأها الدكتور عبد الرزاق، وأنا ممن يقولون بأن ما يحدث إنما يعبر عن أزمة وليس انهياراً. النقطة الأولى، تعود أسباب الأزمة إلى عدة نقاط تتعلق في فهم معين للماركسية، نقد ماركس للرأسمالية محكوم بنزعة إنسانية مسبقة يتمثل جوهرها في أن كل المراحل السابقة لم تحقق للإنسان إنسانيته؛ إذ أن كل التجارب السابقة غمت الروح الأنانية الفردية، مع أن شروط النمو الإنساني الحقيقي هو أن تتكون لدى الإنسان الروح الجمعية. من مساوئ التجارب السابقة بأنها لم تحقق للإنسان ديمقراطية حقيقية. . صحيح أنها تحدثت عن ذلك، ولكنها لم تصنع الشروط الكفيلة بتحقيقها على نحو إنساني حين يتعلق الأمر بوضعها موضع التطبيق، من أحد جوانب نقد ماركس للرأسمالية هو أنها قدمت صورة مشوهة للديمقراطية، وبالتالي فإن القضية الأساسية عند ماركس هي أن الاشتراكية ليست غاية بحد ذاتها، وإنما هي مجرد

وسيلة لتحقيق حياة ديموقراطية حقيقية تفتح الآفاق الرحبة لنمو الطاقات البشرية ومواصلة الارتقاء بهذه الطاقات والدخول إلى ميدان العالم الإنساني الحقيقي وليس عالم الغابة وعالم الذئاب، وعالم المزاحمة.

أقصد بالفهم المعين للماركسية الذي أشرت إليه هو أن الاشتراكية فهمت وكأنها غاية في ذاتها، وليست هي بمثابة إنجاز ضروري للشروط المادية والاجتماعية لتحقيق المطلب الأرقى، وهو الارتقاء بالإنسان، لذلك سميته أنا فهماً اقتصادياً.

في الأدبيات الماركسية السوفيتية، وبدءاً من نجاح أول تجربة اشتراكية، يتبين أن الروح الاقتصادية هي الطاغية. مسألة مثل مسألة القضاء على التمايز الطبقي فهمت على أنها غاية بذاتها وتمثل بالقضاء على الملكية الخاصة وكفى.

د. عبد الرزاق عيّد: هناك الشرط الثقافي والاجتماعي والروحي والمستوى المتطور للوعي الاجتماعي والإنساني.

د. حامد خليل: الارتقاء بالجانب الإنساني أهمل، وتعاملوا مع هذا الموضوع وكأنه غاية في ذاته يتحقق على أساس القضاء على التمايز الاقتصادي.

النقطة الثانية تتعلق بإغفال روح المنهج الماركسي، المنهج الماركسي يكشف عن عملية الصيرورة الدائمة والتجاوز المستمر. هذا المنهج مفروض أنه سيتناقض مع نزعة الجمود الفكري التي

كانت سائدة والتي بموجبها فهمت الماركسية على أنها نظام من العقائد مغلق متحجر. نقطة أساسية أخرى. وهي أن النظام الرأسمالي دفع الإنسان إلى الحركة وهذا أمر مفهوم وواضح. اعمل فالربح أمامك، وبالتالي فالمحرك إلى العمل واضح تماماً. . هذه المعادلة واضحة ومفهومة وليست بحاجة للفلسفة ولا للتفسير. في النظام الاشتراكي، الربح ليس هو الأساس وليس هو المحرك إلى العمل، فما هو المحرك للعمل، للتعاون، للنهوض بالمجتمع. مقابل هذا الربح، هناك الارتقاء الروحي بالإنسان، هذه النقطة لم تفهم حقاً، وهي نقطة جوهرية. .

د. عبد الرزاق عيد: تأكيداً لكلامك، أذكر في هذا السياق الحدس الخاص الذي عبر عنه دوستوفسكي وتشخوف، حيث كان باستمرار هاجسهما في كل ما كتبه أنه ليست المأساة في النظام السياسي وإنما في تجديد إنسانية الإنسان، طبعاً، أصبح مثل هذا الكلام الآن يبدو وكأنه حديث في مجال الأخلاقيات والمشاعر، في الوقت الذي نجد أن رسالة تجديد إنسانية الإنسان مسألة مركزية في أية عملية بناء مستقبلي للعالم، وفي سياق تجربة الانهيار، غدت موضوعة الأخلاق، مقدمة على موضوعة الاقتصاد، ولولا الانهيار الروحي والأخلاقي عند البشر لما كان هذا الانهيار.

شروط تحقق الفكرة

د. حامد خليل: الشيء الذي يميز الماركسية دائماً كما أسلفت، هو أنها ربطت الفكرة بشروط تحققها المادية والاجتماعية

والإنسانية . ولذا فإن هذه النقطة ليست مجرد كلام رومانسي، إذ أن الإنسان يجب أن يتطور روحياً حتى يحل هذا الدافع محل دافع الريح الرأسمالي . وبالتالي، فالاشتراكية من الصعب جداً أن تنطبق في المجتمع الجاهل، حيث لا يحل الارتقاء الثقافي والروحي محل الريح . ففي مجال التنمية، لا بد من أن يدرك الفرد أن له دوراً في صنع القرار على كل صعيد وفي أي مؤسسة يعمل فيها، وما لم يشعر الفرد بأن له هذا الدور فلن يعمل . يصبح مجرد آلة وموظف يقبض راتبه وحسب .

أيضاً هذه المسألة لم تدرك . وكانت المحصلة فتور الدافع الإنساني للعمل، وهذا يعني أن العامل الأساسي في تنمية الطاقة الروحية لدى الفرد بحيث تصبح هي دافعه المحرض للعمل، قُضى عليه . إذن، قضي على شروط هذا التطور الروحي . . فماذا سيكون دافع الإنسان إلى العمل في ظل النظام الاشتراكي؟ أو كيف يمكن أن يرتقي النظام .؟

وهذا يدور حول النقطة التي ذكرتها، الفهم المعين للماركسية، الفهم غير الدقيق، والذي اعتبره أحد الأسباب التي أدت إلى هذا الخلل .

د. خضر زكريا: أعتقد أن د. حامد وضع اليد على نقطة جوهرية جداً، هي بحاجة فعلاً إلى تعميق، وعلينا أن نشتغل للإجابة على هذا السؤال . بالفعل، بالنسبة لماركس ولكل المفكرين الماركسيين، الذي سيحل محل حافز الريح لتشجيع المرء على

العمل هو أن يتحول العمل إلى متعة وإلى حاجة للإنسان، وبالتالي، الارتقاء بأخلاق البشر، والعالم الروحي للإنسان، وطبعاً هذا يترافق مع تحولات موضوعية تجعل العمل نفسه ممتعاً وسهلاً. . إلخ. لكن المشكلة في المرحلة الانتقالية هذه، إلى أن يصبح ممكناً تحول العمل إلى حاجة وإلى متعة فذاك يتطلب رقياً إنتاجياً كبيراً ويتطلب زيادة الحاجات، زيادة الإنتاج، بحيث يلبي معظم الحاجات الأساسية الأخرى، بحيث أنك تستطيع أن تختار العمل، أن تكون ساعات العمل محدودة. لكن حتى يتم ذلك، كيف تحل المشكلة؟

في النظم الاشتراكية، حلّوا المشكلة عن طريق هيمنة الدولة، وبدلاً من الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، أصبحت الملكية ملكية الدولة في الدرجة الأولى، وحتى في الكولخوزات يفترض أن تكون الملكية للفلاحين جماعية، نجد أن إدارة الدولة هي الأساس، وهذا ما أدى إلى تكريس وتعميق وترجمة الديكتاتورية السياسية إلى ديكتاتورية في الاقتصاد.

الاغتراب والمجتمع الاشتراكي

د. عبد الرزاق عيد: هذه الموضوعة تحيلنا إلى موضوعة الاغتراب عند ماركس، وهي المشكلة الأساسية التي حاول أن يتقصاها ماركس ويحللها، فالاغتراب (الاستلاب) هو اغتراب الإنسان عن عمله، يتولد عن الاغتراب التشيؤ كتعبير عن وثنية السلعة في المجتمع الرأسمالي، وثنية السلعة تحولت إلى وثنية

السلطة من خلال الجهاز البيروقراطي والإداري ووثنية الدولة في نموذج الدولة التي سميت اشتراكية. حينما كان العامل ينفصل عن إنتاجه ويتغرب، ومن ثم يعيش في حالة الاستلاب تجاه العمل بحكم الانفصال بين العامل وإنتاجه، نتيجة الوسيط المالك في النظام الرأسمالي. بينما في الاشتراكية حل وسيط آخر هو الدولة، وذلك من خلال الملكية العامة لوسائل الإنتاج في النموذج الاشتراكي الدولي، فإذا كان قد تغير شكل الاغتراب. ولكن جوهره، وهو فصل العامل عن إنتاجه، بقي هو نفسه، لأن المساواة في ظل اشتراكية الدولة لن تكون سوى مساواة في العبودية حسب تعبير ماركس.

د. خضر زكريا: السؤال هو هل كان ممكناً غير ذلك. هل هناك آلية (ميكانيزم)، آخر غير هيمنة الدولة وغير الربح يدفع ليعطي أقصى ما عنده؟

د. حامد خليل: لم أقصد بالارتقاء أن يتحول العمل إلى متعة فقط حتى نصل إلى هذه المرحلة، لا بد من عبور طريق كان مطلوباً عبوره، وهو أن يهيمن المجتمع وليس الدولة، وهذا لم يحدث في كل التجارب الاشتراكية، لم يهيمن المجتمع، وإنما الدولة، وتحديداً طبقة بيروقراطية منفصلة عن جماهيرها ولا تعبر عن مصالحه، فالمطلوب هيمنة المجتمع، بمعنى أن يكون كل فرد مالكاً أو مشاركاً في ملكية المجتمع العامة.

المشاركة ليست شكلية أن يشعر الفرد بأنه صاحب القرار، أن يشعر العامل في المعمل أنه صاحب قرار. أن له دوراً. أن يشعر بمشاركته بملكية المجتمع العامة. . وهذا مطلب أساسي للارتقاء الروحي، تمهيداً للوصول للنقطة الأخيرة من المسألة وهذا لم يحدث إطلاقاً في كل التجارب الاشتراكية.

د. عبد الرزاق عيد: حتى دور الآداب والثقافة والفن، وهي الأداة للارتقاء الروحي، في النهاية خضعت للمؤسسة البيروقراطية، وبالتالي، كل هذا التراث الأدبي والثقافي والغني في المجتمع الروسي، نجده في مرحلة لاحقة قد جمد ولحقه نوع من الياس والتخشب.

مصادفات التاريخ

د. أحمد برقاوي: هذه المسألة عولجت قبل قرن من الزمن، وهي مشكلة ليست حديثة. قبل أن تتحقق التجربة الاشتراكية على نحو من الأنحاء في الاتحاد السوفيتي، طرحت الحركة الماركسية في روسيا إمكانية تحقق الاشتراكية في المجتمع الروسي. وكان الصراع بين البلاشفة والمناشفة على هذا الأساس. وحتى بعد قيام ثورة أكتوبر، طرح المناشفة أنه لا يمكن للبلاشفة أن يحتفظوا بالسلطة في روسيا لأنهم يلوون عنق التاريخ. وفعلاً اتهم لينين بأنه إرادوي بمعنى من المعاني، أصدر لينين في كتابه "هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة". قال لهم سنحتفظ بالسلطة. إذن، كان هناك شك بإمكانية احتفاظ البلاشفة بالسلطة، هذا أولاً:

ثانياً: أنا لا أتورط بأن هناك واقعاً ويجب أن نخضع لهذا الواقع. لكن هناك واقع يجب أن نعرف كيف أن نتحرك ضمنه. نحن لا نستطيع أن نصنع التاريخ على هوانا، وماركس في كتابه "الثامن عشر من برومير" أكد هذه الموضوعة. وبالتالي، هناك دائماً في التاريخ مصادفات ليست مبررة تاريخياً، بمعنى ليست هناك حتمية مطلقة لسير الأمور على هذا النحو. وثورة أكتوبر كان يمكن أن تحدث أو لا تحدث، وهناك احتمال لنجاحها أو عدم نجاحها، وبالتالي لا بد من الانطلاق من مبدأ الاحتمالات التاريخية.

ثالثاً: هناك الأفكار وعلاقتها بالتاريخ. فنحن كأنا ندين التاريخ على أنه المسؤول عن الفشل، حيث يبدو وكأن لدينا أفكاراً مطلقة الصحة، وتاريخاً كسولاً وعاجزاً عن تحقيق هذه الأفكار، فإذا التاريخ دلل على يوتوبية فكرة من الأفكار فهذا يعني أن الفكرة يوتوبية وليست واقعية في النهاية.

فالأفكار التي تحرك البشر في لحظة من لحظات التاريخ لا يمكن أن تحركهم في لحظة أخرى. والتجربة السوفيتية تدلنا على ذلك. فالثورة الاشتراكية البلشفية، وقفت في وجه دول أوروبية كثيرة وانتصرت عليها. وكانت القدرة الكفاحية لدى الشيوعيين الروس عالية، وهذه الروح ظلت مستمرة حتى في زمن ستالين، فتمكنوا من بناء قاعدة صناعية اقتصادية قوية. لكن هذه الروح الكفاحية لا تبقى مستمرة بذات الوتيرة مع الأيام. فالدولة

الاشتراكية لم تتمكن من الحفاظ على جذوة النضال الذي بدأت فيه. وهذا أمر منطقي. فلا بد من مراقبة نتائج العمل ولا بد للناس الذين ناضلوا أن يقطفوا ثمار عملهم.

فبعد الاضطهاد الستاليني منذ سنة ١٩٣٧، وتفاقم اضطهاد الدولة وهيمنتها، حيث تكرس الاغتراب في الدولة والمجتمع، ليس فقط اغتراب العامل عن نتاج عمله بين الدولة والمجتمع، بل إن الدولة أعادت إنتاج العلاقات الرأسمالية بصورة مختلفة، فأصبحت الدولة هي المالك، بالإضافة إلى تضخم المؤسسات البيروقراطية والجهاز البوليسي والمخابراتي، الذي بلغ حد التحكم المطلق، فأصبحت طموحات الناس وتطلعاتهم وهمومهم مختلفة كلية عن هموم الدولة. هذه الدولة كان لا بد لها أن تتراخى مع الأيام، فقد تشكلت قطاعات داخل الدولة مترهلة جداً عاجزة عن الاستجابة لطموحات الناس ومطالبهم، فجاءت لحظة من اللحظات، راح الحزب الشيوعي السوفييتي يعتقد أن حل المشكلة مناط بالديموقراطية، وإذا بالديموقراطية التي اعتقد أنها المخرج تصبح سلاحاً لتدمير التجربة. وإلا لماذا لم يدافع البشر عن تجربتهم التي استمرت سبعين سنة، هذا السؤال يطرح واقع عجز النظام عن الاستجابة لمطالب الناس. وقد لعبت عوامل كثيرة في الدفع باتجاه سؤال الأزمة هذا، منها الغرب الرأسمالي الذي ازدهر بسبب استغلال العالم وتجديد الرأسمالية لنفسها، حتى الطبقة العاملة الأوروبية تعيش وضعاً أفضل مما تعيشه الطبقة العاملة في

البلدان المفترض أنها حاكمة فيها أو محكوم باسمها .

إذن، لا بد من القول بأن هناك يوتوبيا في الماركسية، ماركس كان يعتقد أنه بمجرد زوال الصراع الطبقي وزوال عامل الريح يصبح الإنسان طيباً، وفكرة ماركس هذه عن الإنسان هي استمرار للأفكار الإنسانية التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر، والتي كانت تلح على الجوهر الطيب للإنسان، في حين أن الظروف الاجتماعية والعوامل الخارجية هي التي تحول دون تعبيره عن طبيته .

لكن الأمر يبدو ليس كذلك، فما يواجه البشر أشياء كثيرة نحن غير قادرين على الإمساك بها .

لكن السؤال الملح ينهض فراضاً نفسه . أين هي العلة، في النظرية أم في التاريخ؟ فإذا بدأنا بالنظرية يصبح التاريخ هو المتهم، فالعلة الحقيقية تكمن في مجال السيرورة القائمة بين النظرية والتاريخ فلا يمكن العزل بينهما .

د. خضر زكريا: أنا أخشى أنك تستخدم كلمة التاريخ بشكل غير دقيق . فهل يمكن اعتبار فترة عشر سنوات على سبيل المثال بأنها تاريخ، فإذا فرضنا أن حاكماً ديكتاتورياً دام حكمه عشرين أو ثلاثين سنة مثل فرانكو وغيره من الحكام الذين يغتصبون الحكم بطريقة معاكسة لإرادة التاريخ، فهل نعتبر نجاحه في الحكم نجاحاً للتاريخ .

د. أحمد برقواوي: أنا أتحدث عن الحركة الواقعية للبشر في التاريخ.

د. خضر زكريا: لا المثال هنا يُعبّر عن حركة تذبذب في التاريخ.

العقلانية والواقعي

د. عبد الرزاق عيد: هذه المسألة تحيلنا إلى العلاقة بين الواقعي والعقلانية في التاريخ، حيث لا يمكن اعتبار كل ما هو تاريخي معقول، فمقولة هيجل الشهيرة تقول كل ما هو واقعي عقلاني وكل ما هو عقلاني واقعي.

د. أحمد برقواوي: هذه الموضوعة كان ماركس ضدها.

د. عبد الرزاق عيد: لا بل كان ماركس مع التاريخ الذي يمثل عقلنة الواقع؛ أي الارتقاء بالواقع إلى مستوى العقل، أي أنه كان يمثل الاتجاه اليساري بين تلامذة هيجل الذي انقسموا حول القراءة التأويلية المعرفية لهذه الموضوعة، فالقراءة اليمينية تنطلق من معقولة كل ما هو واقعي، أي معقولة الأمر الواقع، بينما يسارية ماركس وراديكاليته برزتا في انطلاقه من أن كل ما هو عقلاني واقعي أيضاً. وهذه الأطروحة تمثل جوهر باركسيس ماركس، الذي انتقل بالفلسفة من مرحلة التأمل والتفسير إلى مرحلة الممارسة والتغيير، وعلى هذا، فجدل التاريخ، وفق ماركس، هو جدل معقولته في علاقته بواقعيته، وليس جدل الواقع مستقلاً عن

فعل البشر وإرادتهم، صحيح أن الواقع له قانونياته المستقلة، ولكن البشر ليسوا انعكاسات بسيطة صماء للواقع، بل هم الذين يصنعون مصائرهم في المآل، والتاريخ ليس سوى سيرورة صنع البشر لهذه المصائر. ومن هنا، ميز ماركس بين مراحل الانحطاط الاقتصادي والسياسي بأنها لا تشترط بالضرورة انحطاطاً عقلياً وثقافياً، وعبيراً منه بضرورة الارتقاء بالواقع والتاريخ إلى مستوى العقل. على كل حال لن نطيل في تناولنا لهذه المسألة نظرياً، وإن كانت مهمة، بل أترك الحديث للدكتور خضر.

تجربة قصيرة المدى ولم تكتمل

د. خضر زكريا: أنا أرى أنه لا يجوز التعاطي مع هذه التجربة التي عمرها سبعون سنة على أساس أنها برهنت كتاريخ على خطأ النظرية، لأن التاريخ أوسع وأعمق وأكثر تعقيداً. وأنت لا تستطيع أن تقدر كيف سيكون التاريخ بعد مئة سنة، فلا يمكن لنا أن نعتبر مرحلة تاريخية ما على أنها تمثل حركة قانونية للتاريخ.

د. أحمد برقاوي: على هذا الأساس، يحق للتفكير الديني أن يقول لك إن التاريخ لم يدل على أزمته النظرية.

د. عبد الرزاق عيد: الأمر يختلف هنا، لأننا في سياق تقويم دور الديانات، نجد أنفسنا تجاه ظواهر فكرية مكتملة، أي قال التاريخ كلمته بها من خلال مساراته المتنوعة في مجال زمني

واسع، فعند الحديث عن الإسلام إنما يتم الحديث عن ظاهرة فكرية واجتماعية وسياسية عمرها أكثر من ١٤٠٠ سنة. بينما نحن تجاه أزمة تجربة لا تزال تعيش راهنتها ولا تزال نتائجها مفتوحة، سيما عندما نتحدث عن التاريخ بوصفه فعل البشر كمجموع، وحتى الآن على سبيل المثال، لم تقل الكتلة الشعبية السوفيتية قولها، لأن ما أطلقتها البرويسترويكا لا يزال استمراراً لتقاليد الفعل السياسي الذي يتقرر في المكاتب والهيئات وأوساط النخب المهيمنة. و(يلتسين) لم يصل إلى السلطة على أكتاف الجموع المنادية باقتصاد السوق، ونحن نعرف انقلابه المضاد لم يتجاوب معه سوى بضعة آلاف باعتراف الإعلام الغربي ذاته، بينما الأغلبية الشعبية لا زالت تراقب، ولم ترتق آليات المجتمع المدني السوفيتي بالشكل الذي يمكّن من معرفة التيارات الكبرى، ولا تزال القوى المنادية بسقوط الاشتراكية عاجزة عن تنظيم نفسها في حزب جماهيري كبير. وعلى هذا، فأزمة الحزب الشيوعي السوفيتي ليست تعبيراً عن نضج قوى مضادة، وبالتالي متميزة الملامح والخصائص. والتجربة حتى الآن تثبت أن خيار الاتجاه المضاد للاشتراكية يعيش أزمة أشد عمقاً ومأساوية؛ فلا يمكن، إذن، الحكم على هذه المرحلة سوى أنها جديدة، وتحمل كل الممكنات التي ستفتح آفاقاً جديدة لعصرنا الراهن، الأمر الذي يصعب فيه القطع بالانهيار أم بالأزمة. فنحن الآن تجاه ما يسميه ماركس مرحلة التحلل. وفي هذه المرحلة، تكثر الخيبات والمرارات والانكفاء والتساؤلات والزهد بالعمل.

نديين التطبيق ، ولا ندين التاريخ

د. حامد خليل: من الواضح حتى الآن، أنني عبرت قبلاً وسأعبر ثانية عن اختلافي مع ما يقوله الدكتور أحمد برقأوي، وبهذا الصدد هو يقول، إننا ندين التاريخ لأن الأفكار لم تتحقق، مع أن الذي يجب أن نقوله هو العكس نحن ندين التطبيق، نحن لا ندين التاريخ، الفكرة لم يتم وعيها جيداً، مما أدى هنا إلى خطأ في تطبيقها، وبالتالي ندين الناس ولا ندين التاريخ.

د. أحمد برقأوي: ما هو الفرق، بين الرأسمالية والاشتراكية كنظام؟ الرأسمالية جاءت كثمرة طبيعية للتطور في قلب التشكيلة الاجتماعية. لم تكن هدفاً من أهداف البشر. التاريخ الواقعي للبشرية أوصلهم إلى مرحلة الرأسمالية، لكن هذه الرأسمالية، ما كانت لتتصر وتصبح على ما صارت عليه إلا بعد أن تحولت، وبعد أن فرخت فئات وطبقات اجتماعية عبرت أيديولوجياً عن نزوعها الرأسمالي بأفكار كثيرة، ضد اللاهوت، ضد الكنيسة، مع الديمقراطية.. إلخ.

لكن كانت هناك حركة واقعية تنمو شيئاً فشيئاً لانتصار الرأسمالية. ماركس عندما طرح الاشتراكية كنظام مناهض للرأسمالية - اعتبر أن هذه الرأسمالية نظام غير إنساني.

د. حامد خليل: ماركس في بداياته، أي في شبابه، كان ضد الرأسمالية لأنها شيء مناهض للإنسان، في مرحلة لاحقة أبرز التناقضات داخل الرأسمالية، وأن الرأسمالية ذاتها كمرحلة من

مراحل التاريخ ستولد نقيضها، الذي هو الاشتراكية، فاعتبر أن الاشتراكية نتيجة منطقية للرأسمالية، يعني هذا أن الاشتراكية كأسلوب إنتاج سينمو في أحشاء الرأسمالية، فأعطاها طابعها القانوني، ما الذي حصل.؟

تحولت الاشتراكية إلى هدف لشعوب كثيرة من العالم خارج عملية التطور الرأسمالية التي تكلم عنه ماركس، وبالتالي أصبحتنا نتعلم كيف يمكن الانتقال إلى الاشتراكية من دون المرور بالرأسمالية.

ومن مصادفات التاريخ أن الاشتراكية (انتصرت في روسيا، ولم تنتصر في ألمانيا ولم تنتصر في فرنسا ولم تنتصر في إنكلترا) التي توقع ماركس أن تنتصر الاشتراكية فيها على أساس أن هذه الدولة تنمو فيها علاقات إنتاج وتناقضات طبقية متبلورة . . إلخ .

ومن هنا، الاشتراكية هدف من أهداف البشر أرادوا أن يحققوه في الواقع وفي دول ومجتمعات مختلفة كلياً، هنا تأتي يوتوبيا الماركسية.

د. عبد الرزاق عبيد: أو بالأصح، دعنا نقول إن الماركسية تحولت إلى يوتوبيا، نتيجة لممارسات على درجة من السوء والبشاعة دفعت بها من مجال الممكن الواقعي الأرضي إلى مستوى الحلم اليوتوبي. وذلك عندما جعلت البيروقراطية من فكر ماركس النقدي فكراً مؤسساتياً ونصاً وثوقياً يُختصر إلى مجموعة من الشعارات والمقولات الشعارية والشعائرية.

د. أحمد برقواوي: إن الاشتراكية تحولت إلى يوتوبيا. دوجما، تحولت إلى شعارات هي أيديولوجيا مليئة بالغموض والرموز. لكن هذه النزعة الطوباوية قد سمت الماركسية وظلت مواكبة لها من أيام ماركس حتى الآن. وما زالت ترافقنا وما زلنا نحن متورطون في النزعة الطوباوية. ما هو الجانب الذي انهزم..؟ الجانب الإنساني.. لماذا؟ وهذه هي الوقائع، وهذه الوقائع أليست هي التاريخ؟ أنتم لا تستطيعون أن تلغوا هذا من التاريخ وتبقوا هذا من التاريخ و(يلتسين) تاريخ.

د. عبد الرزاق عيد: اسمح لي أن نتوقف عند هذه النقطة. فأنت لا تزال تنظر إلى التاريخ بوصفه تاريخ سلطة، تاريخ دولة، وكأن التاريخ هو سيرورة حركتها وليس حركة الصراع الاجتماعي والتيارات الكبرى/ فالتاريخ هو تاريخ المجتمعات بكل كثافة العناصر المكونة لها.

نعم يلتسين تاريخ، بوصفه ثمرة موضوعية لتاريخية التجربة ذاتها، ولكن يلتسين - كما قلت - لا يمثل إلا لحظة انعدام وزن في التاريخ، ما دام لا يمثل إلا استمرارية لآليات البيروقراطية التي أنتجها نظام الحكم السابق، فالكتلة الشعبية بتنوع شرائحها وتياراتها لا زالت تعيش صدمة أزمة التحلل، ولم تنخرط حتى الآن في صناعة الآفاق الجديدة المترتبة على الأزمة. فيلتسين كان استمرارية للشكل القديم الذي يعبر عن حالة الصراع على السلطة من فوق، لكن المجتمع السوفييتي لا يزال بحاجة للوقت لاستعادة

التوازن الداخلي الطبيعي المعبر عن القانونية الفعلية المتعينة والملموسة في بطن المجتمع ذاته .

هل هو عصر انهيار الأيديولوجيات؟

د. أحمد براقوي: أنت متفائل!

د. عبد الرزاق عيّد: لا، المسألة ليست مسألة تافؤ أو تشاؤم، بل لا بد من الوقفة المتأملّة والهادئة التي لا تعصف بها الأهواء - والأهواء المضادة. فبرأيي، من الصعب الحكم على التجربة من خلال صراع أجنحة السلطة القائمة ذاتها، فحتى الآن نجد أن ما يحدث لا يُعبّر عن حركة اجتماعية شعبية منخرطة في الفعل السياسي.

والآن، اسمحوا لي أن نتقل إلى موضوعه تتفرع عن موضوع حديثنا، وهي موضوعه انهيار الأيديولوجيات.

هل نحن فعلاً نعيش عصر انهيار الأيديولوجيات؟ أم أن الصراع الأيديولوجي راح يأخذ أشكالاً جديدة؟ سيما وأن الغرب يُعبّر اليوم عن شكل من أشكال الأيديولوجيا من خلال التنويه الظفروي بالأنا الليبرالية بوصفها خاتمة التاريخ، و أن هذه الأيديولوجيا ليست إلا قناعاً للمصالح في أشد أشكالها عولمة واكتساحاً وتمدداً على الكوكب، لم يسبق لها أن جعلت العالم صغير الحجم بهذا الشكل الذي راح - معها - يُسمّى بالقرية الكونية.

هل هو عصر انهيار الأيديولوجيات فعلاً، أم انهيار أيديولوجية واحدة لصالح أيديولوجيات عدوانية تظهر اليوم بوصفها الأيديولوجيا المنتصرة. وما دامت هي المنتصرة فهي المعبرة عن إرادة التاريخ، كما يريدون أن يقولوا، وكما نتصور نحن تحت وطأة الشعور بالهزيمة؟

د. خضر زكريا: لا أعتقد أن هناك أي شكل من أشكال التفكير بدون أيديولوجيا، وأطروحة نهاية الأيديولوجيا طرحت في ميلانو سنة ١٩٥٥، عندما اجتمع عدد من علماء الاجتماع وقرروا نهاية الأيديولوجيا، لأن الرأسمالية بدأت تتقارب مع الاشتراكية، والثورة العلمية التقنية هي التي ستحل المشكلة الأيديولوجية. قبل ذلك أوجست كونت قال إنه سينشأ علم ليس له علاقة بالأيديولوجيا، وعلمياً قال إنه سينشئ هذا العلم لإنهاء الفوضى، أي لتحقيق استقرار النظام الرأسمالي.

وليس هنا أحد من الذين قالوا أو كتبوا شيئاً حول نهاية الأيديولوجيا، إلا وكان خلف ذلك أيديولوجيا. الغرب، اليوم، حينما يطبل لنهاية الأيديولوجيا، عملياً يطبل لانتصار أيديولوجيته. والآن الأيديولوجيا التي يريدون أن تسود هي التي تقول إن هناك نظاماً وحيداً سائداً في هذا العالم وبرهن على قوته وعظمته وديمومته وانتصاره من خلال الرأسمالية، ونموذجه الولايات المتحدة الأمريكية والدول الرأسمالية الأخرى.

نحن في العالم الثالث، وفي البلاد العربية بشكل خاص، لنا

أيديولوجيا أخرى، ما يسمونه نهاية الأيديولوجيا، بمعنى هيمتتهم الأيديولوجية، ما الذي أدت إليه في بلادنا؟ هذه التبعية المتعددة الجوانب في كل الميادين، من لقمة الخبز إلى الطائرة والصاروخ، إلى الثقافة، ليس سوى المزيد من التخلف. تزايد الهوة بين الفقراء والأغنياء، وصولاً إلى الحضور العسكري المباشر، وإلى أننا استعمرنا مؤخراً ودفعنا تكاليف هذا الاستعمار.

وهذا كان ثمرة ما يسمونه نهاية الأيديولوجيا. وأعتقد أن العالم الثالث، أو ما كان يُسمى بالعالم الثالث على الأقل وعالمنا العربي بشكل خاص، مطالب بصوغ أهداف اجتماعية سياسية للمستقبل، تتناسب مع الأوضاع القائمة، بوضع آليات عمل، استراتيجيات، لكي نتخلص من هذا الواقع، هذه هي الأيديولوجيا، بالنتيجة، التي نفكر بها.

د. حامد خليل: الأيديولوجيا لا بد منها، وأنا أتفق مع الدكتور خضر. عالم الطبيعية، عندما يتعامل مع موضوعاته فهو حيادي تجاهها. أما حين يتعامل الإنسان مع قضاياها فإنه ليس حيادياً تجاه موضوع بحثه. فالبحث في نظامه الحياتي لا يمكن أن يكون حيادياً تجاه طموحه وأمانه ورغباته ومشاعره. إذن هو الذات والموضوع في آن واحد، هو الباحث وهو موضوع البحث، ولا أعتقد أن أحداً يتناول الموضوع ذاته، ويكون حيادياً تجاهه.

مستحيل! وبالتالي فإن إلغاء الأيديولوجيا يعني إلغاء الإنسان بوصفه كائناً مفكراً، طالما أن موضوع بحثه هو الموضوع الذي

يبحثه في نظام حياته الذي سيعيشه، تطلعاته، رغباته، وأمانيه، علاقته بالدولة، علاقته بالمجتمع، كل هذه الأمور تحاكي جوهر الأيديولوجيا، أما إلغاء الإنسان وتحوله إلى إنسان آلي، يمكن أن نقول إن الأيديولوجيا تلغى حين ترضى بأن يصبح الإنسان آلة.

الأيديولوجيا والسلوك

د. أحمد برقاوي: أود أن أميز بين نقطتين في الأيديولوجيا: أيديولوجيا كوعي زائف، وهذا ما تحدث عنه ماركس سابقاً. والأيديولوجيا كوسيلة للتعبير عن أهداف البشر. المشكلة التي نواجهه هي إلى أي حد تخشى أيديولوجيا من الأيديولوجيات أهدافها أو مصالحها، بمعنى آخر التناقض بين الخطاب الأيديولوجي وبين الممارسة كمحرك للأيديولوجيا، كوعي زائف يجب التخلص منه، يجب دائماً أن نكتشف وراء الأوهام، وراء الأفكار هذه، ما الذي يحرك البشر في حقيقتهم. وحتى عندما يطرح أحدهم أن الأيديولوجيا انتهت، ما المقصود بذلك؟

العالم، وخاصة بالنسبة للوطن العربي، لا يمكن إلا أن تكون عنده أهداف مشروعة، لكن المشكلة التي نقع فيها أنه غالباً ما تطرح أهداف خارج الممارسة العملية أو حقيقة السلوك الذي يقف وراء هذه الأهداف، لا نستطيع أن ندافع عن أي أيديولوجيا بشكل مطلق، يجب أن نمتحن دائماً هذه الأيديولوجيا لنكتشف ما هو البخار الأيديولوجي الذي يتصاعد من وراء سلوك الناس.

نقطة ثانية: ربما يكون عصرنا ليس عصر الأيديولوجيا الشاملة. الآن، وفي أواخر القرن العشرين، لم يعد هناك أحد يطرح أهدافاً كبرى، بل يجب أن تتجدد أهداف الناس وفق معطيات الواقع وإمكانياتهم لصنع التاريخ، فالناس لا يستطيعون أن يصنعوا التاريخ وفق الصورة التي يرونها، ومن هنا يصدر تساؤل ما الأهداف الحقيقية للبشر؟ العالم الثالث يريد فك التبعية، هل هو هدف أيديولوجي زائف أم هدف حقيقي؟ هذا الهدف بمجرد أن يصاغ في أهداف سيأخذ طابعاً محرّكاً لسلوك الناس، وبهذا سيكون له طابع أيديولوجي. ومن هنا استطعت أن أميز بين هذه الأيديولوجيا المعبرة حقيقة عن أهداف البشر وبين الأيديولوجيا كوعي زائف. وحتى الآن، نحن على ما اعتقد ما زلنا أسرى الأيديولوجيات الزائفة والواهمة وبالتالي أرى أننا يجب أن نفكر من هذا الواقع وليس تجاوزاً له.

تقنية الإعلام والتضليل

د. عبد الرزاق عيد: إننا متفقون حول تحديد الدلالة الوظيفية (معرفةً وتاريخياً واجتماعياً) لموضوعة الأيديولوجيا. ولهذا أرى أن ننتقل إلى مستوى آخر، وهو مستوى التوظيف الإجرائي للأيديولوجيا، وبمعنى آخر شكل إدارة الصراع الأيديولوجي الذي يبدو لي أن الغرب نجح في إدارته، وفن الإدارة هذا يشير هنا إلى التقنية، أي تقنية القناع الذي يخفي المصالح، أو بصيغة الدكتور

أحمد تمويه بخار الأيديولوجيا المنبعث من المصالح، وهذه المعادلة (الإدارة، الفن، الثقافة) هي إحدى العناصر الأساسية التي تمكنت من خلالها الرأسمالية أن تجدد نفسها.

فالإنتاجات التقنية على مستوى تجديد وسائل الإنتاج وأدواته واكبتها تقنية أخرى على مستوى الثورة المعلوماتية، حيث كان معادل هذه الثقافة أيديولوجياً سيطرة وسائل الإعلام وتقنياتها العالية. والإعلام لا يُعنى بالكليات النظرية وإنما يُعنى بالواقع، بالتفاصيل، بالمجريات، باللموس. فالإعلام لا يجرد، لا يضع قوانين، إنه يمارس اغتصاباً تدريجياً للعقل عبر المراتب والمسموعات أي عبر تشغيل جهاز الإدراك الحسي وليس جهاز العقل التحليلي. وبذلك تمكنت الأيديولوجيا الرأسمالية من تظليل ذاتها فكان قناعها لا يشف عن مصالحها مباشرة، وإنما عبر وسائل تبدو ملموسة وواقعية ومحددة. من هنا فإن عملية التظليل غير الشفاف هذا، ارتفعت إلى مستوى من التظليل قل نظيره في التاريخ. حيث تمكن الغرب من إبراز الآخر بصورة العقائدي الشيطاني الذي يريد الهيمنة الفكرية المتعسفة على العالم، فنجح في تقنيته الإعلامية القادرة على التقاط الوقائع والأخبار في شن هجومه على النظرية ذاتها بوصفها وعياً مطابقاً للنموذج القائم. فبدا لنا الانهيار اليوم وكأنه انهيار خيار فكري وإنساني، وليس انهيار نموذج. لتأخذ على سبيل المثال كيف تمارس السطوة الإعلامية دورها في ملء الدنيا ضجيجاً حول ما حدث في ساحة

ثيان أن مين في الصين، بينما أحداث لوس أنجلوس صورت على أنها حركات شغب واختزلت إلى حدود مشكلة قانونية وقضائية .

د. خضر زكريا: الولايات المتحدة الأمريكية ادعت حين أحضرت كل قواتها إلى الخليج، أنها أتت لتدافع عن الديمقراطية . . لتحرير الكويت وسيادتها! يكفيننا أن نرجع إلى ما تكتبه الصحف الأميركية والغربية عن السعودية وعن الخليج فيما يتعلق بالديموقراطية، وأن ليس هناك أي شكل من أشكال الديمقراطية، ولا شيء من حقوق الإنسان ولا مفهوم النقابة، ولا مفهوم الحزب ولا اتحاد نسائي ولا اتحاد طلابي أو عمالي ولا أي مؤسسة. والأميركان، مع ذلك يزعمون أنهم جاءوا ليدافعوا عن حقوق الإنسان والديموقراطية. وهذه مكشوفة لكل الناس. ورغم ما تفعله إسرائيل من جرائم قتل وضرب وتشريد، يتحدثون عن إسرائيل الديمقراطية. وقصة ليبيا والإرهاب هذه مكشوفة للناس، حتى بسطاء الناس .

د. حامد خليل: ملاحظة صغيرة حول هيمنة هذه الفكرة وطغيانها . . أعتقد أن التجارب التي حصلت أعطت الفرصة للشعب، بمفهومه السياسي. حققت بعض النجاح، حيث إن التجارب الاشتراكية في البلدان الاشتراكية، أو حتى في العالم الثالث ومشكلة الاشتراكية والثقافة الاشتراكية قدمت نفسها للناس كونها وصفة جاهزة تستطيع أن تعطيهما لأي كان. وهذا هو الخطأ التاريخي، وهو الذي أعطاهما فرصة النجاح، بقيت الأيديولوجيا

فوق الوعي، تخلق في السماء. وهذا ما أدى إلى دفع الثمن. الأيديولوجيا بدت وكأنها ليست من الواقع. وهذا ساعد كثيراً الرأسمالية لتشيع هذا المفهوم ضد الاشتراكية، الأيديولوجيا لا يمكن فصلها عن الواقع، وهي بالمحصلة صياغة نظرية عن الواقع.

د. خضر: يبدو لي أن السبب كامن أيضاً في أن الماركسية أعلنت عن نفسها أنها أيديولوجيا الطبقة العاملة، أنها تسعى لتحقيق مصالح طبقة معينة، بينما الرأسمالية بدت وكأنها تتحدث عن المجتمع بأجمعه.

د. عبد الرزاق عيد: هذه الموضوعية يطول نقاشها لأنها تحيلنا إلى موضوعية الهيمنة الطبقة والسيطرة الطبقة. فمفهوم الهيمنة عند ماركس يعني أن طبقة من الطبقات تبلغ مرحلة من النضج الاجتماعي والتاريخي تغدو فيه مصالحها معبرة عن مصالح المجتمع برمته. وهذا ما تمكنت منه البورجوازية في ثوراتها ضد الإقطاع، عندما تمكنت من تكوين نوياتها في بنية المجتمع الإقطاعي ذاته، بينما بدت الطبقة العاملة في ثورتها وكأنها تمثل نزوعاً لسيطرة جزء المجتمع على الكل، لأن عناصر الهيمنة لم تتكون تاريخياً، وبدت بذلك إرادوية. ربما بسبب ذلك كان من الممكن أن يحل الحزب الذي يتحدث باسمها محلها، ومن ثم يتحول إلى جهاز للسيطرة باسمها عبر تغريبها وتغريب المجتمع بكامله، عبر وثنية جديدة هي وثنية المركزية البيروقراطية أو الدولة الشمولية.

د. أحمد برقواوي: هناك قضية ثانية، أنهم يتحدثون عن منظومات فكرية كبرى في العالم، وهذه المنظومات (كليات) زالت، وبالتالي أصبح الإنسان الواقعي يتصرف وفق حاجاته ووفق السياسة الواقعية. . إلخ.

في الحقيقة، لا يمكن الحديث عن الكذب الأمريكي أو الأوروبي على أنه أيديولوجيا، هو أدنى بكثير من أن يطلق عليه كلمة أيديولوجيا، لأن الأيديولوجيا دائماً هي المحرك العام للفعل الإنساني والحضاري، وتعلن عن نفسها بأنماط من الكفاح والنضال.

د. عبد الرزاق عيد: حتى ولو كان هناك انفصال بين الواقع والإنسان؟

د. برقواوي: بالتأكيد. لكن هذا أخط بكثير، إنه نوع من الكذب والدجل المكشوف.

د. عبد الرزاق عيد: اسمحووا لي هنا، في هذا السياق، أن أقول إنه في الوقت الذي يحكى فيه عن سقوط الماركسية، فإننا نجد أن الرأسمالية، بعد كل ما حققته من إنجازات على المستوى العلمي وتطورها وتجديد نفسها، فإن ما تقدم كبناء نظري في الرد على الماركسية أو سقوط الاشتراكية، كما يقال، يعمد إلى توظيف فكر من القرن التاسع عشر، مثال فوكوياما وترجمته ونشره على المستوى العالمي، بمثابته الرد الحاسم بعد قرن ونصف القرن من

التطور التقني والتطور العلمي. حيث نرى في أطروحته هذه شكلاً من أشكال نرى العودة إلى الهيجلية للرد على الماركسية من خلال فوكوياما، هذا يجعلنا نساءل: ما هو البناء النظري والفلسفي الذي كان من المفترض أن تقدمه الرأسمالية بعد مراحل تقدمها؟ إنها لا تجد سوى العودة إلى صوت هيجل لتتقدم من خلاله الماركسية، فالغرب يتقدم بهذا المنظور الهيجلي، في الوقت الذي من المفترض أنها بنت منظومات كثرة لتقدمها التقني والعلمي، أي أنها بنت منظوماتها الفكرية والفلسفية على ضوء المكتسبات أو المكتشفات العلمية الجديدة كما هو مفترض جديلاً وهيجلياً أيضاً. فالرأسمالية تنافح بصوت الماضي فلسفياً، فهي لا تجد رداً على ماركس إلا من خلال بعث هيجل عبر فوكوياما الذي أذيعت أطروحته على النطاق العالمي.

بعد أن تحدثنا عن العوامل والظروف التي كانت وراء انهيار النموذج الدولي للاشراكية، وإن تناقشنا واختلفنا حول الموضوع، يمكننا أن نناقش الآن الآفاق المتعلقة بالتجربة، ومن ثم الآفاق المتصلة بصورة تشكل النظام العالمي الجديد وأثره على الوطن العربي.

د. أحمد برقايوي: يعني أين نحن الآن مما يجري في العالم؟ هل هناك آفاق أم لا؟

د. عبد الرزاق عيّد: لا نريد أن نناقش بشكل فلسفي بعيداً عن استقرار الحدث، بعيداً عن استنهاض العضلة العقلية التي

تؤطر الأسئلة وتوجهها بعيداً عن تطلعننا القائم على صياغة مفهومية للمسائل، انطلاقاً من شعور بالمسؤولية الأخلاقية في ضرورة التفاؤل في زمن تجدد الأمة نفسها على المستوى النفسي والمستوى الذهني في حالة فاجعة ناتجة عن الشعور بأنه ليس هناك أفق منظور لقوى التقدم لتكون قادرة على أن تفعل أي شيء ملموس وحقيقي.

إذن، نحن بعيداً عما تستدعيه مسؤولية المثقف، أي المسؤولية التي تستدعي أن نستنهض شيئاً ما بداخلنا، نكونه للقول إن هناك آفاقاً ما، وذلك انطلاقاً من موضوعة المستقبل في أنه لا يمكن للبشر أن يتوقفوا عن حلمهم بالعدالة، حتى غدت مقولة الحتمية التاريخية أشبه بقدر ميتافيزيقي قادر بذاته أن يصفى حسابه مع تاريخ قهر الإنسان. هذه التفاولية الساذجة بالحتمية التاريخية أعفتنا من ضرورة المسائلة والمراجعة وامتلاك النظرية كأداة لاختراق الواقع وإنتاج وعي مطابق، قادر على معرفة الخاص المستعصي في ضروراته، ومن ثم القدرة على الارتقاء إلى مستوى أتوات التاريخ الباهظة. وها نحن ندفع أكبر الأتوات على الإطلاق.

د. أحمد برقايوي: مفهوم! يعني أنه انطلقنا مباشرة من هذا التفاؤل التاريخي، وهذا ما جعل من الماركسية يوتوبيا.

د. عبد الرزاق عيد: نعم، أو بصيغة أخرى أشمل أن وعينا بالنظرية حوّلها إلى يوتوبيا. بل وإن المرجعية التاريخية بحمولاتها

الميثولوجية والميتافيزيقية الشرقية وما قبل الرأسمالية ساهمت أيضاً بصياغة وعي إيماني بالماركسية النظرية المفترض أنها الأكثر راديكالية واحتجاجاً على إذعان العقل للواقع والطبيعة والمجتمع. تحولت في وعينا إلى نص وثوقي يكفر ويؤثم ويهدد ويوعد، كالخطاب الديني ذاته؛ أي أن بنية العقل الديني حول الماركسية إلى دين.

د. خضر زكريا: إذا كانت القضية أننا نقول ليس هناك أفق منظور للاشتراكية، للنظام الذي يلغي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، يلغي استغلال الإنسان للإنسان، الآن أو (بالأفق المنظور) فهذا أصبح بعيداً.

مواجهة الهيمنة الأميركية

د. عيد: لنصف أيضاً عنصراً آخر، ليس فقط حلم الإنسان بالعدالة الاجتماعية التي هي إلغاء الملكية الخاصة وإلغاء استغلال الإنسان للإنسان والأطروحات الماركسية المتعلقة بالشكل المعروف سابقاً أو بالشكل الذي نطمح له. الآن السؤال، ما هي إمكانيات مقاومة الهيمنة الشاملة للولايات المتحدة الأمريكية، وما يسمى بالنظام العالمي الجديد في زمن زهوها بالانتصار والتحول إلى قطب أوحده في العالم؟

د. أحمد برقواوي: برأيي، أن نقف عند مسألة مهمة: من أي مشاكل نحن نعاني؟ ما معنى التقدم بالنسبة لنا؟ ولنتطلق من تحديد الواقع الراهن للوطن العربي، وتشخيصنا لهذا الواقع سترك

بالتالي أشكال اقتراحات للحلول، هذه الحلول تفترض نظرة واقعية لإمكانية تحققها في الواقع أو عدم تحققها.

د. خضرم: من الملاحظ أننا نشاهد فقط الجانب الكارثي مما حصل. إنه مجرد كارثة أو انهيار، والواقع أنه حصلت تغيرات كبيرة في العالم كله بما فيه الرأسمالية. وحتى في بلادنا حصلت تغيرات وتغيرات مهمة جداً ليست بسبب البيروسترويكاً أو نتيجتها، بل كمحصلة لعبت دوراً في الضغط باتجاه تغيرات أكبر داخل الرأسمالية ذاتها، وأظن أنه يجب أن ننطلق من هنا لمعالجة قضايانا ومشاكلنا.

ما المقصود من ذلك تحديداً؟ الآن، البلدان الرأسمالية والولايات المتحدة الأمريكية لم تعد فقط ذلك الوحش الإمبريالي الذي يريد أن يهيمن على كل شيء، ويفرض نموذج سيطرته. الخ. هناك جوانب أخرى تظهر في العالم، مثل حركات أنصار السلم والسلام، ونزع السلاح، أصبحت أعداداً متزايدة جداً من البشر في كل أوروبا وحتى في بعض أجزاء من أميركا.

د. عبد الرزاق عيد: عفواً، إذاً كان من الممكن التوقف عند هذه النقطة. لقد بدا لنا خلال الفترة الأخيرة أن الحركة المناهضة للحرب الآن قد فترت بسبب انسحاب الاتحاد السوفييتي، في حين كانت قبل ذلك ذات دور ملموس بشكل أكبر، حيث يغدو الشارع الغربي أقل شعوراً بالخطر، وبالتالي فإنهم يعيشون حالة انتصار، حيث لم يعد الرعب النووي السوفييتي يشكل حالة محفزة

للحركات السلمية والجماهيرية فيما يبدو. وأعتقد أن المراهنة على هذا العامل لم تثبت فعلياً جدبتها، ولم تثمر عن النتائج المتوخاة بل يبدو لي أن الحركات المناهضة للحرب كانت أقوى قبل ذلك.

قوى تتنامى في مواجهة المركب الصناعي الحربي

د. خضر زكريا: القضية ليست قضية رعب فقط. ومن المستحسن أن أروي الحادثة التالية: كنت في برلين في اليوم الذي طرح فيه جورباتشوف اقتراحه الأخير لعدم بدء الحرب البرية ضد العراق. ووقتها اعتبر الناس هناك أن المسألة انتهت لأن شروط الولايات المتحدة قد نفذت. وبعد ساعات قال بوش خلافاً لما كان قد صرح فيه إنه ليس هذا المطلوب، والمطلوب شيء آخر وكان معناه أن أميركا مصرة على الحرب، وخلال ساعة فقط امتلأت شوارع وساحات برلين بالناس ينادون بوقف الحرب و ضد الولايات المتحدة الأميركية، فالقضية ليست نووية، بل هي قضية إحساس الناس بأن الحرب لم تعد إنسانية، يجب أن تتوقف، لم تعد هي الوسيلة لحل مشاكل الشعوب.

وهذا شعور طاغ ومتنام عند الناس، والحكومات تأخذ بعين الاعتبار هذه القضية أكثر فأكثر.

الشيء الثاني: أنه تنمو قوى في وجه المركب الصناعي الحربي الذي لمصلحته تأجيج الصراعات، وهذه القوى تصبح أكثر فأكثر أهمية في كل مكان، حتى في الولايات المتحدة. ونحن نتساءل

عن قضايا التسلح والحد من التسلح. لمن يتساءلون: هل الولايات المتحدة جادة في طرح الحد من التسلح؟ وإلى أي مدى؟ كيف سنوفق بين هذا الطرح وبين مصلحة المركب الصناعي الحربي؟ دائماً الجواب هو. الولايات المتحدة ليست هي المركب الصناعي الحربي فقط، وإنما هناك قوى أخرى يتزايد حجمها وفعاليتها باستمرار، وتتناقض مصالحها مع مصالح المركب الصناعي الحربي. وهناك السؤال: هل هذه القوى وصلت إلى درجة من القوة بحيث أنها ترفض سياستها ومصالحها على المركب الصناعي الحربي، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في أوروبا أو حتى في اليابان وألمانيا التي لا ترغب في الحروب؟ نقول إنه، مثلاً، لم يعد المركب الصناعي الحربي، هو القوة الوحيدة المهيمنة. وفعلاً أصبحت هناك قوى أخرى تنمو بسرعة. وكان للاتحاد السوفيتي الدور الكبير عامي ٨٧ و ٨٨ في تنمية القوى هذه. النقطة الأخرى، ما يُسمّى بالبيئة والحفاظ على البيئة، وهذا يترافق مع المعاداة للحرب، الرقابة على إنتاج الشركات الصناعية. هناك رقابة متزايدة من قبل الناس على الإنتاج الصناعي الغذائي الدوائي. . إلخ.

وبرأيي، هذا يؤدي إلى تغيرات كثيرة في العالم الرأسمالي، وفي علاقة الرأسمالية بالعالم الثالث والبلدان الأخرى. وبذلك نحن يجب أن لا نحس بالكارثة فقط وبالتالي بأن كل شيء ممكن عمله قد انتهى. هناك أشياء يمكن عملها على مستوى هذه القوى

المتغيرة، سواء في الرأسمالية أو في الاشتراكية.

د. براقوي: الانهيار الحاصل ليس وليد التسعينيات، إنه وليد الثمانينيات أو حتى الستينيات. ما الذي انهار. في الوطن العربي؟

قبل انهيار التجربة الاشتراكية، بدأنا بعملية تراجع هامة على مستوى الوطن العربي. فحركات التحرر في الستينيات بدأت في السبعينيات تتراجع وتنحدر بشدة، وأصبحت كجزء من النظام العربي التقليدي السائد. وزالت مرحلة الصراعات والانقسامات ذات الطابع الاجتماعي والسياسي. . إلخ. زالت في مرحلة السبعينيات. وأصبح هناك تشابه في الجسم العربي و؟ الثمانينيات لم تعد هناك فروقات في الأنظمة العربية. وبالتالي، سنجد نحن ما هي أهم المشكلات التي نعاني منها في الوطن العربي. صحيح أننا نطلق من التغيرات الحاصلة في أنحاء العالم، الموجات الشعبية ضد الحرب، لكن هذا ليس له علاقة مباشرة بما نعاني في الوطن العربي في الوقت الذي فيه الناس ضد التسليح، نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية تسلح المنطقة. صفقات الأسلحة للخليج بمليارات الدولارات وجزء من مساعداتها لمصر حتى الآن هي سلاح. إذن، نحن في الوطن العربي، في أي مرحلة نعيش وما هي المشكلة الأساسية؟ نحن نعاني من مشكلة الدولة. السلطة السياسية أولاً. السلطة السياسية كبنية مرتبطة ببنية عامة هي مشكلة التبعية، التي هي أيضاً مرتبطة بعنصر في داخلها وهي مشكلة المديونية، مشكلة

الفقر طبعاً، غياب الديمقراطية . إلخ، هذه المشكلات المترابطة الآن هي عضية على حل نظري متصور متخيل، ليس بمقدور الفرد، الآن، بعد هذا الانهيار الشديد أن يفتش عن أفق. وبالتالي هل الأهداف التي وضعتها حركة التحرر في يوم من الأيام هي نفسها صالحة لهذه المرحلة من التطور العربي؟ أو أن على العرب أن يفكروا في أهداف جديدة أكثر واقعية وهم قادرون على تحقيقها؟ ثم ما هي القوة القادرة على تحقيقها في هذا الشرط؟

د. حامد خليل: أؤكد ما قاله د. أحمد بأن حركة التحرر العربية انهارت قبل أن ينهار النظام الاشتراكي. بدأت عملية الانهيار من هزيمة الـ ٦٧، وإذن من هنا تبدأ المشكلة.

فبرأيي، أن نقف وقفة نقدية من حركة التحرر.. لماذا حدث هذا الانهيار؟ لماذا تراجعت حركة التحرر..؟ لماذا تقزمت. ما الذي أدى إلى هذا الانهيار. قبل أن يحدث الانهيار في المعسكر الاشتراكي..؟

مسألة نظرية أم عملية، أم هي مسألة نظرية وعملية في آنٍ معاً، المطلوب أن ندرس هذه المشكلة، أن نقف منها وقفة نقدية.. هل يمكن لنا أن نتحرك ضمن هذا النظام العالمي الجديد؟ هل هناك إمكانية للتحرك، أو أن علينا الاستسلام؟

إذن ما هي مشكلة حركة التحرر.. وما هو سبب انهيارها.؟

شعار الوحدة. هل ما زال واقعياً؟

د. برقاوي: إذا اتفقنا على هذا الأساس، ننتقل مما هو راهن الآن من أجل أن نحلله، جزء من الراهن الذي نحلله هو انهيار حركة التحرر العربية. الأهداف التي وضعتها حركة التحرر العربية ما مصيرها؟ ما الأهداف الممكنة في ظل هذا الواقع العربي والتي يمكن أن نحققها ونناضل من أجلها؟ وما الدور الذي يمكن أن يلعبه المثقف فعلاً في هذه المرحلة من التطور العربي؟ فهل شعار الوحدة العربية الشاملة ما زال واقعياً أولاً؟ وما البديل إذا لم يكن واقعياً؟

الاشتراكية.. لم يعد أحد يتحدث عن الاشتراكية.. تحرير فلسطين.. ملايين الجياع.. الديمقراطية.

د. عيد: إذا أردنا الحديث عن حركة التحرر العربية، فلا بد أن نبدأ من المنطلقات الأولى. لقد تشكلت عقب النتائج التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية، وبالتالي كانت موازية لما تحقق على المستوى العالمي من نتائج، ومن ثم تحقيق الاستقلال الوطني وقيام القوى المشكلة لحركة التحرر العربية التي لم تكن إلا استمراراً لذات المنظومة الفكرية، التي كانت سائدة قبل مرحلة الاستقلال السياسي. وكان شعار الوحدة العربية، وشعار العدالة الاجتماعية متضافرين. إن حركة التحرر العربية تبدو وكأنها قد استنفدت مضامينها ومحتواها وقدرتها في وقت مبكر، وقبل أن تبدو منهارة في هذا الوقت، أي أن الانهيار بدأ منذ دخول الرأسمالية مرحلة الاستعمار الجديد، وبالتالي تكون آليات ومنظومات جديدة في

شكل إحكام قبضة التبعية على العالم والانتقال من شكل الاستعمار القديم الاستيطاني إلى شكل استعمار رساميل الشركات متعددة الجنسيات. . إلخ، وفلسفة حركة التحرر العربي كانت إلى حد كبير جزءاً من فلسفة حركة التحرر الوطني العالمية. وبالتالي فالسؤال مطروح عملياً على المستوى النظري والفكري والأيدولوجي على حركة التحرر العالمية، والتي كانت حركة التحرر العربية جزءاً منها، والتي هي بمجموعها مرتبطة بالمشروع الثوري العالمي، الطبقة العاملة الأوروبية المرتبط بدورها بالمنظومة الاشتراكية، وهي الثلاثية المعروفة. وهذه الثلاثية (حركة التحرر العالمي، الطبقة العاملة الأوروبية والمنظومة الاشتراكية) تبدو أنها كانت تعيش أزمتهما.

كيف يمكن أن نحدد جوهر الأزمة. . ؟

أرى بأن حركة التحرر تكونت في أفق الاستقلال الوطني، وتحديداً ما يمكن أن نسميه قيام الدولة الوطنية المستقلة. لكن المحتوى الاجتماعي. . المحتوى الديمقراطي، المحتوى السياسي لعملية فك التبعية كان مأزوماً، ومن ثم تأكيد شكل السيادة الوطنية بشكل جديد ومحتوى جديد، كل هذا تبدى مأزوماً أمام إعادة الرأسمالية لأشكال هيمنتها وسيطرتها، وبالتالي تشكيل أدوات هيمنتها الشاملة على العالم.

فحركة التحرر الوطني العالمية والعربية لم تتمكن من إنتاج نقلة نوعية موازية لما حدث على مستوى تجديد الرأسمالية لذاتها

وأدواتها الاستعمارية الجديدة، المتمثلة بتحطيم الحدود اقتصادياً، عبر الرساميل والمديونية، ومن ثم إحكام وثاق التبعية حول مركزها الذي غدا أشد استقطاباً من أي يوم كانت عليه الرأسمالية منذ بداية توحيدها للعالم عبر السوق.

وعلى هذا، فإن شعار العداء للإمبريالية لم يتجاوز التصورات القديمة عن الإمبريالية التي تأتي على أساطيلها ودباباتها من أجل احتلال الأراضي. بل من أشد دواعي المفارقات أنها عندما أتت وفق تصوراتهم بالفعل، في شكل جيوش ذهبت بعض الفصائل في حركة التحرر لترى في العدوان الأميركي على العراق تنفيذاً للشرعية الدولية.

باختصار، إن حركة التحرر الوطني العربية لم تتمكن من إعطاء مضامين جديدة تتناسب مع المستجدات على المستوى العالمي والمتغيرات التي طرأت على أدوات وأساليب المركز الإمبريالي. أي أنها لم تنطو على مضمون اجتماعي ديموقراطي قادر على استنهاض الحركة الشعبية، التي أبعدت نهائياً عن ساحة الفعل السياسي في ظل الدولة القومية الشعبوية الأمنية، التي قوضت النويات الأولى لمكونات نظام سياسي مدني دستوري حقوقي قانوني، أي الأبجديات الأولى لمفهوم المجتمع المدني الحديث والدولة الوطنية الحديثة.

المزيد من الإنتاج الذاتي لضرب التبعية

د. خضر: بعد هذا التحديد للموضوع، أعتقد أنه، بعد هذه التجربة الطويلة لحركة التحرر الوطني، والتي فيها إخفاقات أكثر من النجاحات، يبدو لي الآن ضرورياً تحديد المسائل الأساسية التي على هذه الحركة طرحها، وهي مسألتان: هما مسألة النظام السياسي، التنظيم السياسي للمجتمع، علاقة الدولة بالمجتمع المدني أو ما يسمى بمسألة الديمقراطية. ومسألة التبعية وكيف تكون العلاقة مع هذا النظام العالمي المهيمن.

عندي شعور أنه هناك اتجاهاً نحو إنضاج هاتين المسألتين بين المثقفين العرب وبين القوى السياسية، بغض النظر عن موقعها أو عقائدها (ماركسية. إسلامية. قومية)، تطرح هذه القضايا وتفكر فيها، أو على الأقل مطلوب منها أن تطرح هاتين المسألتين وتفكر فيهما بالذات. ما شكل التنظيم السياسي المطلوب؟ هل فعلاً بلادنا يمكن لها أن تقيم نظاماً ديمقراطياً ليبرالياً تعددياً؟

ويبدو أن الإجابة تتجه نحو هذا الاتجاه، نحو التعددية وتكون شكل من أشكال المجتمع المدني، والإلحاح على وجود مؤسسات غير مهيمن عليها من قبل الدولة. وأنا مع هذا الاتجاه.

القضية الثانية هي قضية التبعية أو المدخل لمناقشة هذه القضية يكمن في ثنائية الاستهلاك والإنتاج. حيث توجد عندنا الهيمنة - التبعية والاستهلاك - الإنتاج: التخفيف من الاستهلاك والاتجاه

نحو الإنتاج، وأن نستهلك ما نتج، لا أن نركز حياتنا على الاستيراد والمنتجات الأجنبية. وإذا تم التركيز على الإنتاج في الدرجة الأولى والحد من الاستهلاك المستورد، نبدأ بالتححر تدريجياً من التبعية.

د. حامد خليل: يبدو لي أن الحديث عن المخرج والحلول مطروح ضمن إطار السلطة القائمة الاتجاه للبحث عن المخرج، يمضي من خلال هذه السلطة، وما تحدث به د. خضرم حول التعددية والديموقراطية، طريقة التخلص من التبعية، كل هذه المسائل التي دار الحديث حولها الآن مطروح تحقيقها عن طريق هذه الأنظمة. . وأنا أعتقد أن هذا طريق مسدود، وبالتالي يجب أن نفكر بطريقة أخرى خارج إطار هذه الأنظمة الاجتماعية السياسية القائمة. كل حديث عن التبعية لا يجدي شيئاً طالما أن هذه الأنظمة قائمة. وحديثنا عن الديموقراطية والتعددية لا يمكن أن يتحقق في ظل هذه الأنظمة. فالبحث عن مخرج يجب أن يتجه وجهة أخرى، وأعني بذلك أن يتم التركيز نحو بناء حركة تحرر أو إعادة بناء حركة التحرر، أو حركة تقديمية جديدة أول شروط بنائها القيام بدراسة نقدية، حتى نعرف كيف يمكن أن تبنى هذه الحركة، وكيف يمكن أن تحقق يوماً ما دوراً مؤثراً مستقبلياً، سواء أكان مع هذه الأنظمة أم مع غيرها، أما أن نأخذ الديموقراطية، كما تطرحها أميركا الآن، على أنها سمة العصر، فهذا سيوصلنا إلى طريق مسدود.

من وجهة نظري، تركيزنا يجب أن يأخذ وجهة أخرى، التي

هي شروط بناء حركة تقدمية دون أن يعني ذلك حزباً واحداً على المستوى الوطني. مطلوب بناء جديد للقوة التي ستكون يوماً ما فاعلة ومؤثرة وقادرة على التغيير، لأن المطلوب هو التغيير.

الاجتمعات العربية والمهام المتباينة

د. أحمد براقوي: انطلق من أن الوطن العربي مجتمعات مختلفة وليست متشابهة، وبالتالي هناك خصوصيات تحكم المشكلات التي يعانيتها كل مجتمع من المجتمعات، ثم المهام التي يمكن لكل مجتمع أن يطرحها على نفسه لإنجازها، لا يمكن أن نعتبر أن المهمة بالنسبة لمجتمع كالسعودية شبيهة بمهمة المجتمع المصري، هذا إذا قلنا إن الديمقراطية شعار للإنسان العربي. في مصر، هناك تاريخ ومجتمع وحركات سياسية ونواد وأحزاب. المجتمع المصري قادر في إطار سياسي نقابي أن ينجز شيئاً على هذا المستوى. لكن هل للمجتمع السعودي وفق هذا الشرط الذي يعيشه أن ينجز شيئاً على مستوى الحياة الديمقراطية في السعودية، في مجتمع القبيلة الذي يحكمه المذهب الوهابي ويحكمه المطوع، وتخلف ثقافي وأهمية السلطة المطلقة. وبالتالي من الصعب أن تكون الديمقراطية شعار المجتمع السعودي، لذلك هذا التمييز ضروري جداً، هذا يعني أن الحديث عن إعادة بناء حركة تحرر عربية على مستوى الوطن العربي، فيه نوع من الطوباوية. وهذا لا ينفي أن تكون هناك علاقات بين حركات المعارضة.. التمرد..

الحركات المطالبة، لكن من الصعب تشكل حركة تحرر وطني واحدة قادرة أن تطرح شعارات شمولية، مرة أخرى، في الوطن العربي. هذا أولاً.

وإذا كانت مشكلة المديونية مشكلة ذات طبيعة اقتصادية، لكنها أيضاً ذات طبيعة سياسية ومرتبطة بعدد من الأوضاع غير موجودة في دول أخرى.

مسألة التبعية أيضاً يجب أن تعالج أيضاً في إطار: ما معنى تبعية هذه الأقطار للمركز الإمبريالي، في الوقت الذي توجد بلدان تصدر الرساميل إلى الغرب وهي تابعة، وهناك بلدان تستورد الرساميل وهي أيضاً تابعة.

وثانياً، التفكير بأن حركة التحرر العربية في صيغتها القديمة، قادرة على إعادة تفكيك نفسها من جديد، تجاوز لكل التطورات التي حصلت في المنطقة.

حركة التحرر نشأت قبل الاستقلال وحملت في أحشائها بذور فسادها. ومن المهم أيضاً أن نشير أن كل حركات التحرر، حتى في طابعها الأصولي الإسلامي كانت حركات إرادية لينينية بالمعنى الدقيق للكلمة، المضمون اللينيني الأساسي الاجتماعي الاشتراكي. بمعنى أنه هناك تاريخ يجب أن يحقق ثلاث ثورات مجتمعة أو ثورتين مجتمعيتين.

وثالثاً، في إطار انهزام حركة التحرر في صيغتها الاشتراكية

القومية .. تبرز الآن الحركة الإسلامية الأصولية . وهي حركة ذات مضمون اجتماعي يجب أن نتوقف عنده كثيراً، لأنها تطرح نفسها كبديل للمرحلة السابقة، وتعتبر أن فشل حركة التحرر يعطيها المبرر لوجودها ويعطيها إمكانية تجاوز أخطاء الآخرين . مع أن الحركة الأصولية هي ثمرة هذه الأزمة وليست عملية تجاوز .

في إطار الحركة الأصولية، يجب أن نميز أيضاً بين تيارات كثيرة . التيارات المتواجدة داخل الوطن العربي تطرح مشكلات الوطن العربي وهي غير متفقة على ماذا تريد، ما هي المشكلات التي يعاني منه، وفعلاً ما زالت تنطلق من مقدمات حركة التحرر القديمة ولم تتجاوز المنطق القديم، ولا تبدأ بمنطق جديد .

ورابعاً، هل يمكن إقامة حوار معاصر بين كل التيارات التي تتحرك في الوطن العربي؟ إذا كان ممكناً، وعلى الأقل داخل المجتمع الواحد، كيف يمكن أن يتم هذا الحوار؟ وما هي القواسم المشتركة التي يمكن أن تنفق عليها الحركات السياسية داخل المجتمع الواحد لتشكل قوة ضاغطة أمام سلطة الدولة، لا بالانقلاب العسكري ولا على غرار الثورة الروسية ولا على غرار الثورة الفرنسية البرجوازية، إذن فإن عصر الانقلابات والثورات قد زال . فما هي طريقة التغيير؟ طريقة التغيير هي تشكيل قوى اجتماعية ضاغطة تطرح أهدافها وتحققها شيئاً فشيئاً، رويداً رويداً، دون أن تدفع ثمناً مجانياً لنضالاتها، ذلك يعني أن نفكر بشكل عقلائي إلى أبعد الحدود .

من الوحدة.. إلى التفويت!

د. عبد الرزاق عيد: لقد حاولنا رغم تمايز آرائنا، تشخيص وتوصيف الحالة الراهنة إن كانت انهيار نموذج أم أزمة خيار تتجاوز حدود النموذج المنهار لتمس الأسس النظرية والفلسفية التي بنى عليها النموذج ذاته، أي الماركسية أو الفكر الاشتراكي عموماً.

لكن، لا بد من تحديد الإشكالية المركزية التي تتمحور حولها إمكانات الخروج من المأزق الذي يواجهنا كشعوب نامية، وعربية بشكل خاص.

من الواضح أن عناصر جديدة راحت تشغل الحيز الأكبر في الخطاب السياسي العربي الراهن، بتعدد تياراته ومشاربه الفكرية والأيديولوجية، بما يشبه الصحوة من سكرات الأحلام بالوحدة والسيادة القومية والعدالة الاجتماعية والاشتراكية، التي تبدو اليوم ياباً، أمام أنظمة عربية لا تستند في شرعيتها إلى أية شرعية دستورية مدنية قانونية حقوقية، ولا تستند إلا إلى شرعية العنف وشرعية القبيلة والطائفة. وشعارها: "من اشتدت سطوته وجبت طاعته"، حتى بتنا نتلمس أطراف أوطاننا الصغيرة من أن تتفتت وتتلاشى في فوضى تركيبها الفسيفسائي الطائفي والإثني والأقوامي. كنا نحلم بالوطن العربي الكبير، واليوم نخشى أن يتحول القطر الواحد إلى أقطار.

هذه العناصر، التي تنبثق بقوة وإلحاح، تشكل العناصر

المشتركة للخطاب العربي الوطني المعاصر، تتبدى على شكل عودة للأبجديات الأولى لمفهوم الدولة والمجتمع الحديث، دولة القانون والمؤسسات والحريات السياسية والشخصية واحترام حقوق الإنسان وإقرار التعددية وسيادة العقلانية كعنوان أساسي تنتظم حوله مجمل التيارات الفكرية والسياسية العربية.

السؤال الرئيسي: كيف يمكن النضال في سبيل قيم ومثل المجتمع المدني المشار إليها في ظل النظام العربي القائم، كما أشار الدكتور حامد، والواقع أن كل مفردة من المفردات التي ينطوي عليها مفهوم المجتمع المدني هي تشكيك بشرعية السلطة العربية، هي أسئلة في وجه مشروعية النظام العربي.

لكن السؤال الأهم: كيف نتقل من مرحلة التشكيك بمشروعية هذه الأنظمة من المستوى المفهومي إلى المستوى الواقعي لتتحول هذه المفاهيم إلى قوة مادية فاعلة ومؤثرة من خلال امتلاك الناس لها، والناس مبعدون عن ساحة السياسة؟ نحن في مجتمعات منزوعة التسييس، وعلى هذا، فإن كل ما نقوله سيبقى إغناء للوحة الثقافية والفكرية، دون أن يتمكن من التحول إلى وعي اجتماعي عام. فما دام الشعب بعيداً عن ممارسة الفعل السياسي، فإن كل طروحاتنا ونقاشاتنا وندواتنا وكتاباتنا ليست إلا إعادة إنتاج لوعي مأزوم، لحركة ذهنية تتوالد في ذاتها منذ عصر النهضة حتى الآن.

نحو حركة تحرر عربية موحدة

د. خضر زكريا: كان عندي تعقيب بسيط حول ما قاله د. أحمد برقاي حول حركة التحرر العربية وخصوصية كل قطر. رغم اعترافنا جميعاً أن التاريخ برهن على الخصوصية، وأن لكل قطر عربي وضعاً خاصاً ومستويات مختلفة في التطور ومستويات مختلفة لدرجة نضج الحركة السياسية. إلخ، ورغم أن القطرية تتجذر أكثر فأكثر، وأن السلطات السياسية في كل قطر تتمسك بمكانها وتحاول تأكيد القطرية، لكن يبدو لي، أولاً، أن حركة التحرر العربية الواحدة أمر -كأنما هو- محتم. . بمعنى أن القضايا العربية متشابكة ومتداخلة إلى درجة يصعب فكها عن بعضها البعض. مثلاً، الآن هناك قضية الصراع العربي - الإسرائيلي هي قضية الجميع، شاءوا أم أبوا. وليس هناك أحد قادر أمام جماهيره، أمام الرأي العام على تجاهل هذه القضية، وهو داخل فيها ومؤثرة عليه بشكل مباشر، وحرب الخليج أيضاً دلت على هذا الكلام وليس هناك أحد بمنأى عن ذلك الصراع.

وثانياً: قضية تركيز الثروة في أمكنة، والبشر في أمكنة أخرى. كيف تحلّ هذه المسألة؟. . الفقر. . المديونية. . إلخ، قضايا صعب جداً حلها إذا لم يؤخذ بعين الاعتبار بأننا نملك ثروات، وحتى البلدان العربية الغنية نفسها أثناء أزمة الخليج، وبعد ذلك بدأت تطرح القضية على هذا النحو، إننا، نحن الأغنياء العرب لا نكون بمأمن من خطر التحولات حولنا، ما لم نساهم

مساهمة أساسية في حل المشكلات الاقتصادية للبلدان الأخرى. وموضوع صنّاديق الدعم لم تطرح إلا من هذا المنطلق. وحتى صحف خليجية ومفكرون خليجيون كتبوا حول هذا الموضوع قضية الفقر والغنى في البلاد العربية أيضاً حلها قائم في التماسك والتضامن والتكامل بين الأقطار العربية.

ثالثاً: العصر هو الآن عصر التكتلات الكبرى، ومحكوم على أي حركة قطرية صغيرة بالفشل. وليست هناك أقطار تعمل وحدها وبشكل صغير إلا وتخلق فيها مشكلات، فالمستقبل للتكتلات السياسية الكبرى.

أخيراً، الحركات السياسية العربية، لا تزال تطرح قضايا، فيها الكثير مما هو مشترك. وهنا تأتي أهمية الحوار الذي تحدث عنه د. أحمد برقاوي. فالحوار هو المدخل لقيام الحركة التي يريدونها د. حامد خليل. وقد نتمكن من تشكيل حزب سياسي لكل العرب، لكن هناك حركة تحرر عربية لها خطها ومنهجها الأساسي والجوهري.

د. أحمد برقاوي: أنا لست ضد أن تكون هناك أحزاب مشتركة للعرب، لكن لا يمكن إلا أن تكون هناك دوافع عربية مختلفة، ثقافية وسياسية واجتماعية. إلخ. عندنا في بلاد الشام والعراق، بلدان متقدمة، على المستوى السياسي والاقتصادي متقدمة رغم كل ما يجري فيها، وكذلك في مصر والمغرب.

إذا كان هناك من أمل لبروز حركة جديدة وتفكير جديد وفعل جديد، فمن هذه البلدان فقط. أما تلك البلدان، دول الخليج العربي، فهي بالأساس دول خارج التاريخ. وهذه مستعمرات بكل ما للكلمة من معنى: أمية، جهل، تخلف، أخطأ أشكال السلطة السياسية، وبالتالي لا يمكن إلا أن تكون لها حماية خارجية، أما الدول التي لها تاريخ من النضال السياسي والثقافي (مصر، بلاد الشام، حتى المغرب العربي) فهي تختلف في مستوى تطورها، الأمر الذي يفترض تميزات واضحة على مستوى تحديد الأهداف العربية، والمشكلات المطروحة هنا وهناك.

د. عيد: أنا متفق مع الدكتور حامد في مدى صعوبة تحديد عمق الأزمة الفاصلة بين حركة الفكر وحركة الواقع، ومن الواضح أنه ليس من السهل تحديد أهداف موحدة ومشتركة على المستوى العربي، فالعام يصطدم بكل خطوة يخطوها بالخاص، وما أشار إليه الدكتور أحمد يصب في جوهر تحديد المشكلة المركزية، التي أعتقد أنها يجب أن تكون من الثابت لنا، في زمن أصبح كل ما فيه رجراجاً وقابلاً للمراجعة والتأويل والقراءة. وهذا الثابت يشكل ناظماً موحداً لكل الشعوب العربية في بلدانها المتنوعة والمختلفة في درجة تطورها وتقدمها. وهذا الثابت يتمثل في أن الولايات المتحدة الأميركية لن تحمل لبلادنا وشعوبنا وللعالم الجديد، سوى الاستعباد، وأن النظام العالمي الجديد إنما بدأ تأسيسه لعالميته هذه من خلال امتحان قوة أنيابه في الجسد العربي أولاً.

وأخيراً، من المؤكد أن تشخيص علاقة الفكر العربي بواقعه ومدى قدرته على إنتاج وعي مطابق به على درجة كبيرة من التعقيد، وهو يحتاج إلى وقفات خاصة ودراسات وأبحاث. وأظن أن هذا الموضوع يشكل أهمية مركزية في اللحظة الراهنة، ربما تحتاج إلى حوار أوسع وأشمل بين مختلف التيارات التي شكلت حركة هذا الفكر.

أتمنى أن نكون من خلال حوارنا هذا، قد تمكنا من إثارة أسئلة جديدة وحقيقية لدى القارئ، لأننا منذ البداية كنا متفقين على أننا نريد الحوار وإثارة التساؤلات لدى القارئ ليشاركنا الحوار، فنحن لا نزعم امتلاك الإجابة، فدعونا تتساءل جميعاً ونتحاور ونتشارك في طرح الأسئلة.

بين الحوارات الفكرية والفعل

د. حامد: إذا فهم من كلامي قيام حزب سياسي، فهذا ليس هو المطلوب. والذي أريد أن أؤكد عليه هو أن أي تحرك قطري إذا لم يكن محكوماً بأفق عربي مصيره الفشل، كما دلت على ذلك التجارب، وبالتالي الأفق القومي. أفق العمل القومي.. هو المطلوب.. هذا واضح تماماً.. وهذا لا يعني أن هناك شكلاً واحداً يجب أن يطبق عليه العمل. تنظيم واحد يطبق عليه.

ومن هنا، تنبع أهمية الأفق القومي الذي تتحرك فيه كل قوى

التقدم في الأقطار العربية كافةً، لكن هل تلتقي هذه القوى؟
فالحوار هنا أساسي في عملية توحيد وجهة نظرها حول تحليل
الواقع الراهن على الصعيدين النظري والعملي.

لكن حديث د. عبد الرزاق عيد وكأنه وضعنا في مرحلة
انسداد آفاق، موضوع هذه الوقفة مع الماضي انتهى. إلا أننا في
وادي الواقع في وادي آخر، الناس يتكلمون والفعل السياسي ينتمي
إلى منطقة أخرى. هذه هي الأزمة الأساسية منذ مئة سنة على
الأقل. وتصبح وكأن الحركة السياسية الحقيقية مجرد مناقشات
نظرية لفئات نخبوية محددة.

د. عيد: في الحقيقة، ما أود تأكيده في هذا السياق، هو أن
الفكر العربي منذ النهضة، والتي اصطلاحنا على تحديدها في لحظة
التقاطع التاريخية بين المحلي والقومي، والعالمي الغربي، لم يتمكن
هذا الفكر من الانتقال من مستواه المفهومي في تحديد الإشكالات
إلى مستواه الواقعي المشخص في مواجهتها، مواجهتها عملياً، من
خلال الفعل السياسي للمثقف الطليعي الوطني. الديمقراطية
القادر على جعل الفكر فعلاً ممارساً في الواقع، وذلك بسبب
التهميش التدريجي لدور المثقف، وبسبب الطرد المتعسف والقاهر
للشعب من دائرة الحياة السياسية. فنحن لدينا أنظمة، سلطات
وأجهزة سياسية وليست لدينا حياة سياسية، فلا حياة سياسية دون
مجتمع مدني، تستند فيه الأحزاب إلى قوة نفوذها في المجتمع
الأهلي. ومن هنا فإن فكرنا العربي لم يكن قاصراً على تحديد

الإشكالات التي نواجهها، بل كان فكراً غنياً في جدل تطوره الذاتي كنسق فكري، لكن هذا النسق ظل مغلقاً على ذاته.

د. حامد خليل: مع إضافة ملاحظة أنه حتى هذا الحوار الثقافي الصرف الذي تشير له، ليس نتيجة لقراءة دقيقة لهذا الواقع. أقول: حتى الحوار الفكري الذي تحدث عنه د. عبد الرزاق ليس حواراً أو ليس فكراً في بعض الأحيان - أصيلاً، بمعنى أنه لم يكن نتيجة لقراءة دقيقة لهذا الواقع، وبالتالي لا بد أن يترتب على ذلك أن نرى مدى كبر واتساع هذه الأزمة.

د. عبد الرزاق عيد: اتفق مع الدكتور حامد، أشكركم جميعاً على ما بذلتموه من جهد ووقت أخذ منا ومنكم لقاءات متعددة، لكنها كانت مثمرة وثرية ليس للعقل فحسب، بل للروح والوجدان.

■ الفهرس ■

الصفحة	الموضوع
7	* هذا الكتاب / هذا الحوار.....

القسم الأول

	* عبد الرزاق عيد
	وليمة لأعشاب البحر، بين الفقه الإسلامي، والفقه العلماني
16
51	* رد حيدر حيدر - فقهاء النقد المتعالي
	* رد عبد الرزاق عيد
69	ثقافة الفتنة واستمراء النجومية

الصفحة

الموضوع

القسم الثاني

* عبد الرزاق عيد

سلمان رشدي في المنظور العربي

84 مناقشة لصادق جلال العظم حول ذهنية التحريم

127 * رد صادق جلال العظم - نقد النقد

القسم الثالث

ياسين الحافظ بين الماركسية بجلد نهضوي

والماركسية كوعي نقدي مطابق

1 - عبد الرزاق عيد

لماذا ياسين الحافظ اليوم: مقدمة كتاب

252 ياسين الحافظ : نقد حدائثة التأخر

■ الفهرس ■

- 2 - جورج طرايشي
ياسين الحافظ: ماركسي بجلد تنويري 270
- 3 - رد عبد الرزاق عيد
ياسين الحافظ: الماركسية كوعي نقدي مطابق 287
- 4 - عبد الرزاق عيد
ملحق : إلياس مرقص وحوار العمر 313
- 5 - صادق جلال العظم - ما هي العمولة ؟ 321
- 6 - رد . عبد الرزاق عيد - ما هو جديد العمولة ؟ .. 359
- 7 - رد. صادق جلال العظم - ما هي العمولة ؟ 382

القسم الرابع

- 389 ندوة فكرية
- 1 - الانعكاسات الاجتماعية والفكرية والثقافية 390
- 2 - المجتمع الاستهلاكي
والبلدان العربية النامية 396

القسم الخامس

- 471 انهيار نموذج.. أم انهيار خيار
* حوار حول أزمة الاشتراكية
وانهيار نموذجها العالمي 472

■ صدر للمؤلف ■

- * معرفة العالم تعني إذابة صلابته (دراسة سوسيو - دلالية في مدن الملح)، دار الأهالي - دمشق - ٢٠٠١
- * ذهنية التحريم أم ثقافة الفتنة (حوارات في التعدد والتغاير والاختلاف)، دار الحوار - اللاذقية - طبعة أولى - ٢٠٠١
- * سدنة هياكل الوهم / نقد العقل الفقهي : (البوطي نموذجاً)، دار الطليعة - بيروت ٢٠٠٣ .
- * يسألونك عن المجتمع المدني (ربيع دمشق المؤؤد) دار التنوير (بيروت)، دار الإنماء الحضاري (القاهرة) ٢٠٠٣
- * سدنة هياكل الوهم / نقد العقل الفقهي : يوسف القرضاوي بين التسامح والإرهاب - رابطة العقلايين العرب، دار الطليعة - بيروت - ٢٠٠٥ .
- * محمد عبده : ولادة المثقف الحديث (التأسيس للشرعية الدستورية)، مركز البحوث الاستراتيجية، بيروت - ٢٠٠٦

تحت الطبع :

- * الرواية كممارسة نهضوية .
- * الرواية كفعل تنويري .

هذا الكتاب

● تكمن الأهمية الراهنية لهذا الكتاب، في بيئته الحوارية، بعد ردح من الزمن افتقدت فيه الثقافة العربية روح الحوار المتبادل، ليحل محله روح الإقصاء المتبادل، وذلك من القرار الجماعي للنخبة الثقافية العربية، بالتنازل الطوعي عن قيم التعدد المؤسسة على الشرعية الدستورية للمجتمع المدني، باتجاه وجدية الرأي المؤسسة على الشرعية الثورية القائلة بوحدة الهدف على طريق بناء الوحدة القومية والعدالة الاشتراكية!

● وإذا كانت شخصيات **وليمة لأعشاب البحر** تتخذ لنفسها مسافةً ما من الكاتب باستخداماتها البديئة للكلام، فإنها - وفي أغلب الأحيان - تنطوي على حس ثقافي في الشتيمة ذاتها!. وقلماً تكون لغتها ممتلئة بمواصفات المتحدث بها، بل هي أقرب إلى مواصفات السارد، أو هي تتلاشى في جوف الكتلة اللفظية الهائلة.

● إن عصر الإعلام ، هو الذي أعاد إنتاج **الآيات الشيطانية** وفق منظور إنتاج ثقافة الفتنة، لقد كان الإعلام هو المداخل الأكبر على النص، ليصوغ قارئاً للنص وفق سطوته.

● لا يمكن أن نواجه عمليات التخدير والتسطيح والتستر وراء بعض الأفكار السلفية، بنصوص توفيقية، أو خطابية إننا بحاجة إلى نصوص جذرية. جذرية في عمقها، جذرية في تعريتها للسلطة وكشف الآلية التي تمارس بها قمعها وتبعيتها، جذرية في جماليتها وإنني ألح هنا على جذرية الجمالية، وجدتها الآن.